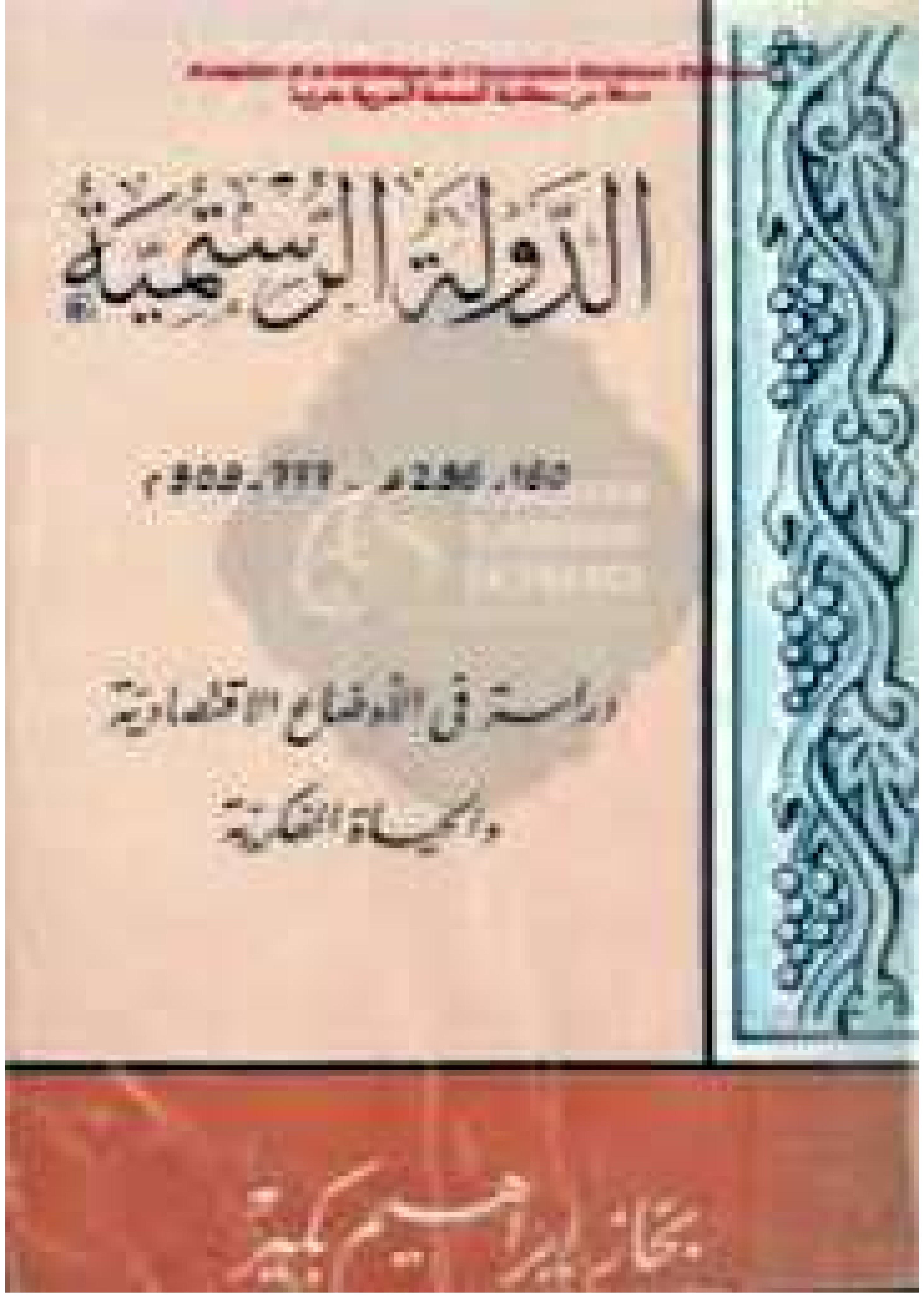
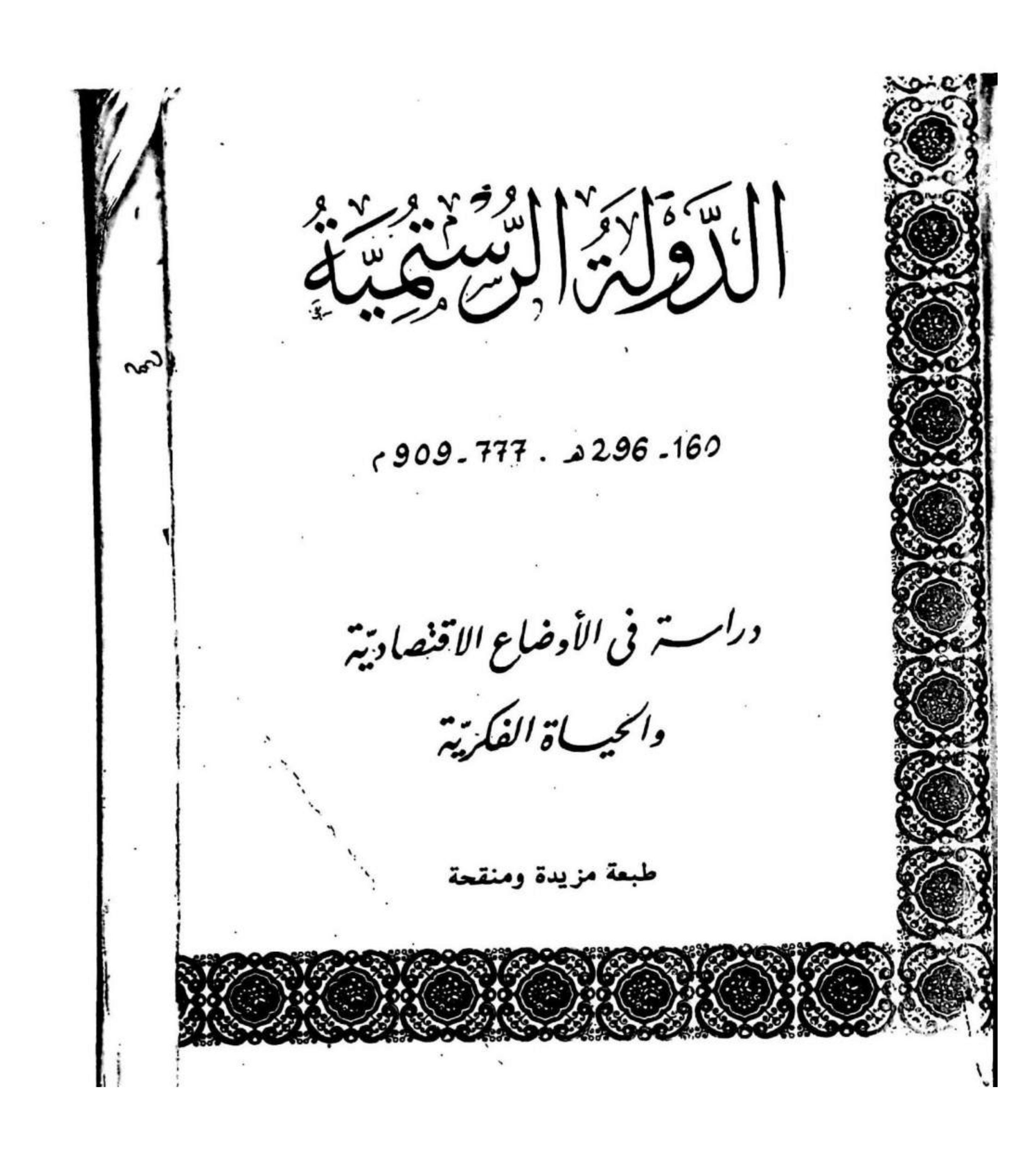
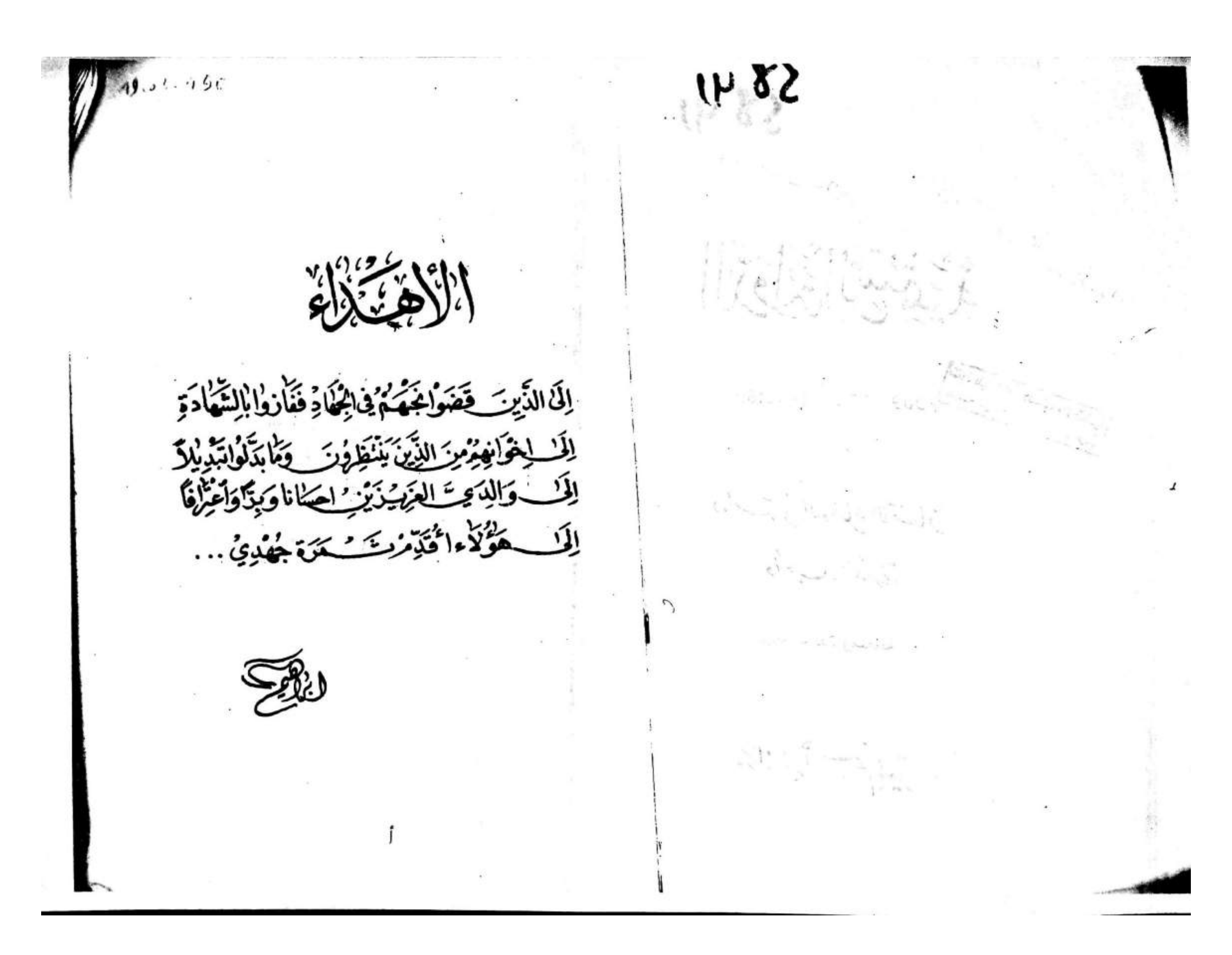

الدولة الرستمية
١٦٠ - ٢٩٦هـ - ٧٧٧ - ٩٠٩م
دراسة في الأوضاع الاقتصادية
والحياة الفكرية
بحاز إبراهيم بكير


الدولة الرستمية
160 - 296 هـ . 777 - 909 م
دراسة في الأوضاع الاقتصادية
والحياة الفكرية
طبعة مزيدة ومنقحة

- الطبعة الأولى 1406 هـ / 1985 م
- الطبعة الثانية 1414 هـ / 1993 م

نشر جمعية التراث - القرارة -



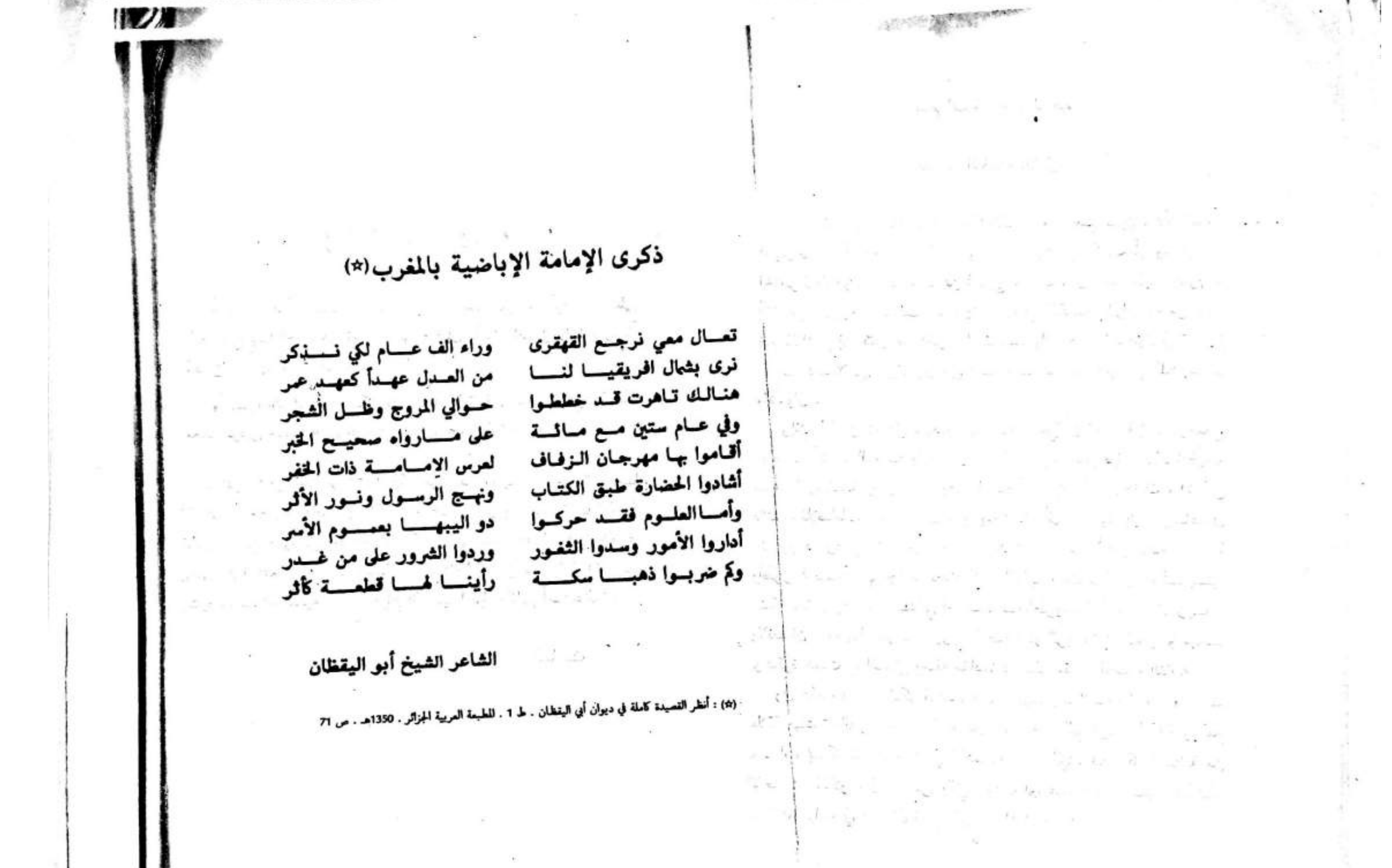
الإهداء

إلى الذين قضوا نحبهم في الجهاد ففازوا بالشهادة

إلى إخوانهم من الذين ينتظرون وما بدلوا تبديلاً

إلى والدي العزيزين إحساناً وبراً واعترافاً

إلى هؤلاء أقدم ثمرة جهدي ...



ذكرى الإمامة الإباضية بالمغرب(☆)

تعــال معي نرجــع القهقرى — وراء الف عـــام لكي نـــذكر
نرى بشمال افريقيـــا لنـــا — من العــدل عهــداً كعهــد عمر
هنـالـك تـاهرت قــد خططـوا — حــوالي المروج وظــل الشجر
وفي عــام ستين مــع مـائــة — على مـــارواه صحيــح الخبر
أقـاموا بهـا مهرجـان الـزفـاف — لعرس الإمـــامـــة ذات الخفر
أشادوا الحضارة طبق الكتـاب — ونهــج الرســول ونــور الأثر
وأمـــاالعلــوم فقــد حركــوا — دو اليبهـــا بعمـــوم الأمر
أداروا الأمور وسـدوا الثغـور — وردوا الشرور على من غــدر
وكم ضربــوا ذهبـــا سكـــة — رأينـــا لهـــا قطعـــة كأثر

الشاعر الشيخ أبو اليقظان

(☆) : أنظر القصيدة كاملة في ديوان أبي اليقظان . ط 1 . المطبعة العربية الجزائر . 1350هـ . ص 71

﴿ شكر وتقدير ﴾

أخيراً وبعد أن استقامت هذه الوريقات بحثا مقروءاً ، أرى لزاماً علي التصريح بما أجده في نفسي ، من عرفان لأهل الفضل والكرم وفاءً لحسن صنيعهم ، وعرفاناً بجميل فضلهم .

وأحسب أن كلمات الشكر والتبجيل لا توفي حق مشرفي الأستاذ محمد توفيق حسين الذي أفدت من غزير علمه واستهديت بسديد رأيه .

ووافر الشكر وخالص الثناء لكل من قدم لي يد المساعدة ، وما أكثرهم ، وأخص بالذكر منهم الدكتور محمد ناصر وجمعية التراث لولاية غرداية الذين عملوا على إخراج هذا الكتاب في طبعته الأولى والأخ الكريم يونس بن ابراهيم إمناسن مع جمعية التراث دائما الذين ساهموا في إخراجه ونشره في طبعته الثانية هذه ، جزاهم الله خير الجزاء وأثابهم أجرا عظما .

الباحث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

كنت قد هممت بإعادة طبع هذا الكتاب منذ بضع سنين ، لأن الطبعة الأولى نفذت أو كادت ، ثم لأنها وزعت ونشرت في ولاية أو ولايتين من الجزائر فقط دون أن نتحدث عن الخارج ، فرأيت أن إعادة طبعه اليوم هو أكثر من ضرورية فالطلب عليه يزداد وفراغ المكتبة الجزائرية من مثله يحتم ذلك ثم إن كثيرًا من إخواني الأساتذة والباحثين المختصّين في تاريخ المغرب الاسلامي حرضوني على إعادة طبعه وتوفيره في المكتبات والأسواق .

وإنني لما عزمت على طبعه رأيت لزاما عليّ أن أعيد قراءته وأصحح أخطاءه وأضيف إليه ما ينبغي أن يضاف ، وبالفعل فإن هذه الطبعة مصححة ومنقحة ومزيدة وسوف يلاحظ القارئ الكريم ذلك ، إلا أنني بالنسبة للإضافات إخترت منهجًا جديدًا أعتقد أنني لم أسبق إليه وساعدني على وجوده رغبتي الملحة في الاحتفاظ بالكتاب كما هو لأنه رسالة أكاديمية وأطروحة تقدمت بها لجامعة بغداد كلية الآداب ونلت بها درجة الماجستير سنة 1984م وهكذا وجدتني أحتفظ بالأطروحة كما هي بلا زيادة ولانقصان . وحيثما شعرت بضرورة الإضافة أو الزيادة في فصل أو مبحث أو فكرة كتبت في الهامش إحالة مفادها : «أنظر مقدمة الطبعة الثانية .»

وفي هذه المقدمة سأذكر الكتب التي صدرت بعد الطبعة الأولى والتي لها علاقة مباشرة بالدولة الرستمية أو غير مباشرة أو التي توضح أفكارًا وتقدم تفسيرات لإشكاليات طرحت في الكتاب وبالتالي ، فإن كل إحالة من الإحالات المذكورة في الهامش والتي تعيدك إلى هذه المقدمة ستجد ضالتك كتابًا أو دراسة في صميم الموضوع والمبحث المحال منه :

من الكتب والدراسات الحديثة التي اهتمت بالرستميين أو الاباضية أوما يحوم حولها نذكر خاصة :

1 – إبن الصغير (حي في القرن 3 هـ) : أخبار الأئمة الرستميين . تحقيق الدكتور محمد ناصر والأستاذ ابراهيم بحاز . المطبوعات الجميلة . الجزائر 1986 أو طبعة دار الغرب الإسلامي : بيروت 1986 م .

مع العلم أننا بعد أن نشرنا هذا التحقيق عثرنا على مخطوطة الكتاب في مكتبة من مكتبات ميزاب ولعلنا نقوم بإعادة تحقيق هذا المصدر المهم تحقيقا علميا مضبوطًا إعتمادًا على المخطوط المكتشف .

2 – الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم : مسائل نفوسة . ترتيب وتحقيق الأستاذ ابراهيم طلاي . المطبعة العربية الجزائر 1991 م .

هذا الكتاب أعتقد أنه هو الآخر من الكتب التي تحتاج الى إعادة تحقيق وهو من المصادر المهمة والمباشرة عن الدولة الرستمية ولا شك فإن مؤلفه إمام من أئمة الرستميين وقد ذكره ابن الصغير في أخباره بل اطلّع عليه وقرأه ، كما اطلعنا نحن على مخطوطة هذا الكتاب بالاضافة إلى مخطوط آخر معه وهو جوابات الإمام أفلح بن عبد الوهاب وكلاهما موجود في مكتبة الإصلاح بغرداية فضلا عن المكتبتين اللتين ذكرهما الأستاذ المحقق الشيخ ابراهيم طلاي حفظه الله وكان له دائما فضل السبق في نشر مثل هذا التراث المهم .

3 – لواب بن سلام بن عمرو (ق 3 هـ) : الاسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية ، تحقيق ر . ق . شفارتز والشيخ سالم بن يعقوب . دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة . بيروت 1405 هـ / 1985م . وقد أعيد نشر هذا الكتاب للمحقّقيْن بعنوان آخر لمشكلةٍ وقعت لهما .

4 – هود بن محكّم الهوّاري : (حي في القرن 3 هـ) : تفسير كتاب الله العزيز تحقيق الأستاذ بلحاج بن سعيد عدون شريفي . (أربعة أجزاء) دار الغرب الإسلامي . ط1 . بيروت 1990 .

وقد حظي هذا التفسير بتحقيق ممتاز مع فهارس غنية وثرية وطباعة رائعة ولا شك أن الأستاذ الشيخ بلحاج شريفي قد بذل كل ما في جهده لإخراج هذا الكتاب على الصورة المذكورة

5 – جناو بن فتى وعبد القهار بن خلف (من علماء القرن 3 هـ) : أجوبة علماء فزان . المجموعة الأولى . تحقيق وتقديم د . عمرو خليفة النامي . تكلة التحقيق : أ . ابراهيم طلاي . دار البعْث قسنطينة . 1987م .

بالاضافة إلى هذه الكتب المصادر التي ألّفت في زمن الرستميين ، هناك مجموعة من الدراسات الحديثة التي تناولت الرستميين والاباضية ، نخص بالذكر منها :

6 – إبراهيم بحاز : ثورات الخوارج بالمغرب الإسلامي (إبتداءً من 122 هـ / 739 – 740م) في المصادر العربية قديمًا ودراسات المدرسة الغربية حديثا . مجلة الدراسات التاريخية . الجزائر عدد 5 – 1988م

7 – ابراهيم بحاز : عبد الرحمن بن رستم مؤسس أول دولة إسلامية مستقلة بالجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . 1990م .

8 – جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1984م .

9 – جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9 – 10م) ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1992م .

هذان الكتابان الأخيران ، هما عبارة عن دراستين أكاديميتين تقدم بها الباحث ، جودت ، لنيل شهادة الدراسات المعمقة ثم شهادة الماجستير ، وقد بذل الباحث فيهما جهودًا مضنية وتوصل إلى نتائج كثيرة مهمة ، إلا أن بعض تحليلاته ونتائجه ، خاصة في كتابه الأول تحتاج إلى إعادة نظر وتقويم ، وكأني به في بعضها كان متحاملاً... .

10 - د . محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ، حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160 - 296 هـ) دار القلم . الكويت . ط1 : 1979 ، ط3 : 1987 . ولم نهتد إلى معرفة تاريخ الطبعة الثانية ، فالمؤلف لم يشر إليها .

11 - د . عبد الحميد مقصود باشا : الرستميون صفحة رائعة من التاريخ الجزائري . ط1 . بلا مكان الطبع . 1979م .

12 - ناصر المرشد البريك : الإباضية في الفكر السياسي الإسلامي وأثرها في قيام الدول . مقال مطول من ص : 103 إلى ص : 148 . مجلة الاجتهاد العدد : 13 . السنة الرابعة . دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر بيروت . 1991

13 - د . صابر طعيمة : الاباضية عقيدة ومذهبًا . دار الجيل . بيروت 1986م / 1406 هـ .

14 - عدون جهلان : الفكر السياسي عند الاباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش . نشر جمعية التراث . القرارة . الجزائر 1989 - 1990م .

15 - الشيخ أحمد بن حمد الخليلي : الحق الدامغ ، بلا مكان الطبع . 1989 .

16 - عمر بن الحاج محمد صالح با (عمر با) : دراسة في الفكر الاباضي . بلا مكان الطبع . ويشير المؤلف السنغالي في تصديره لدراسته هذه إلى : نيودلهي 19 / 6 / 1981م .

17 - فرحات الجعبيري : البعد الحضاري للعقيدة عند الاباضية (جزءان) رسالة أكاديمية . نشر جمعية التراث . المطبعة العربية ، غرداية . 1991 .

18 - Von Werner Schwartz : Die Anfange Der Ibaditen in Nordafrika . der Beitrag eimer islamischen Minderheit Zur Ausbreitung des Islams . Wiesbaden . 1983 .

هذه أهم الدراسات وبعض الكتب التي رأيت ضرورة ذكرها في هذه المقدمة لهذه الطبعة الثانية ولا شك أنها توضح أفكارا وتحل إشكاليات كنت قد طرحتها في كتابي «الدولة الرستمية» فضلاً عن أنها امتداد لقائمة المصادر والمراجع التي لا يستغني عنها باحث يريد الدراسة أو الكتابة عن الدولة الرستمية أو عن المذهب الإباضي .

ولابد أن أشير إلى أنني قد ذكرت في صفحة 100 الهامش 9 . بأنني ربما أتناول أئمة الدولة المدرارية بدراسة مستقلة ، والحقيقة أن مجموعة من الباحثين سبقتني إلى هذا العمل أذكر منهم خاصة دراسة الأستاذ شنايت العيفة : دولة بني مدرار بسجلماسة ودور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري بين القرنين الثاني والرابع الهجريين . رسالة ماجستير . جامعة الجزائر 1991 وأطروحة بوخالفة نور الهدى : دولة بني واسول في سجلماسة علاقاتها ودورها الحضاري في المغرب الوسيط . جامعة وهران . الجزائر . 1976

وأخيرًا أود أن أنبّه إلى أنني بصدد كتابة دراسة عن الإدارة الرستمية ، جمعت أغلب مادتها الخبرية إلا أن كثرة الأعمال واستحواذ أطروحة الدكتوراه على جل الوقت جعل هذا المشروع يؤجل لعدة مرات... أرجو من الله التوفيق والسداد والله من وراء القصد .

أ / ابراهيم بكير بحاز .

قسنطينة في ربيع الأول 1414 هـ / سبتمبر 1993م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ المقدمة ﴾ (*)

مقدمة الطبعة الأولى (*)

لما كان المغرب العربي في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، مسرحا للعديد من الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية، تعرض الى تحولات وتغييرات عميقة في شخصيته.

فمع طوالع الفتح الاسلامي لبلاد المغرب، وهو فتح لم يكن سهلا بالنسبة للفاتحين، اذ كلف الخلافة الاسلامية كثيرا من النفقات والرجال والوقت وبعد جهود وبلاء حسن قام به العرب المسلمون في هذه البلاد، تم تحرير المغرب وفتحه، ودخل المغاربة في الدين الاسلامي، وحسن اسلامهم بتركهم دياناتهم النصرانية واليهودية وغيرهما. وهذا أول تحول عميق يمس الشخصية المغربية ويؤثر فيها.

ولما كان الخوارج [1] في المشرق العربي يتلقون الضربة تلو الأخرى على أيدي ولاة بني أمية خاصة بالعراق أولى وأهم مراكزهم، فكروا في اللجوء

(*) هذا البحث تقدم به الطالب الى جامعة بغداد لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي ونوقش بتاريخ 5 ديسمبر 1983م.

(1) عن ابتداء أمر الخوارج أنظر خاصة: الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، م5، ط2 دار المعارف، مصر 1971، ص64 وما بعدها، ابن الاثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، م3، دار صادر، بيروت 1385هـ/1965م، ص326 وما بعدها وانظر كذلك وخاصة: الشماخي أحمد بن سعيد، كتاب السير، طبعة حجرية، القاهرة، 1301هـ، ص48 وما بعدها.

علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الاولى: نشأة المذهب الاباضي، مكتبة وهبة، دار الكتاب العربي، مصر 1384هـ/1964م، ص19-35، عوض خليفات: نشأة الحركة الاباضية، عمان، الاردن، 1977، ص44 وما بعدها.

طه حسين: الفتنة الكبرى، جزءان 1-2، دار المعارف، مصر القاهرة 1956م. وانظر مقدمة الطبعة الثانية

الى أطراف الدولة العربية الاسلامية الشاسعة ، بعيدا عن السلطة ، فتشتتوا في البلاد شرقا وغربا . وفي هذه الاثناء ، ومع نهاية القرن الأول الهجري وبداية الثاني ، قدم رجلان الى المغرب يتعاقبان جملا واحدا ، لها في تغيير أوضاع المغرب ، وتحريك عجلته أكبر الأثر وأدومه . والرجلان هما سلمة ابن سعد (أو سعيد) الذي جاء ليدعو الى الاباضية ، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس الذي قدم بمذهب الصفرية .

منذ هذا التاريخ تقريبا ، بدأت حركة الخوارج في المغرب العربي تنمو ، وعرفت اقبالا عليها من طرف المغاربة منقطع النظير ، بحيث دخلوا ، مرة ثانية ، في الاسلام أفواجا على مذهب الاباضية والصفرية ، فاعتنقوا المذهبين وأخلصوا لهما . وكأنهم بحماسهم لها ، كما سوف نرى ، يريدون الرجوع بالاسلام الى بساطته ووضوح مبادئه . وذلك تحول آخر مس الشخصية المغربية مسا قويا وعميقا . وهكذا منذ العقد الثاني من القرن الثاني الهجري الى نهاية القرن الثالث منه ، يمكن اعتبار هذه الفترة ، فترة الهيمنة الاباضية والصفرية في المغرب العربي . رسموا سياسته ، وأرسوا معالم اقتصاده ، كما ركزوا مبادئ الاسلام في النفوس المغربية ، وعمقوا الصلة بالمشرق ، ومهدوا لانتشار اللغة العربية التي أخلص لها الخوارج بقدر ما أخلصوا للاسلام ، اذ تلك تعبر عن هذا .

وفي هذه الفترة انفصل المغرب عن المشرق ، أو كاد ، انفصالا سياسيا ، فاستقل بسياسة شؤونه عن الخلافة الاسلامية في المشرق .

وفي هذه الفترة انقسم المغرب الى مقاطعات ، ان صح التعبير ، أو الى دول مستقلة منفصلة عن بعضها البعض ، فظهر الى الوجود ما يعرف بالمغرب الأدنى ، وهو ليبيا وتونس حاليا ، والمغرب الاوسط ، وهو الجزائر اليوم ، والمغرب الأقصى أو المملكة المغربية .

إن هذه الفترة التي شهد المغرب فيها مثل هذه التحولات ، لجديرة بالاهتمام من طرف الباحثين ، وان كان سبر أغوارها صعبا ، والتزام النزاهة العلمية في طرح مواضيعها وأحداثها عسيرا ، ذلك لقلة المصادر والمراجع من جهة ، ومن جهة أخرى تناقض المعلومات وتداخلها ، في كثير من الأحيان في المصادر المتوفرة ، ولهذا السبب ، على ما يبدو ، أطلق الاستاذ الفرنسي جوتييه (Gautier) ، على هذه الفترة تسمية « العصور المظلمة » لأنها من جهة ثالثة فترة غير معروفة جيدا كما أن الوصول الى معرفتها صعب[2] .

وفي هذه الفترة الغنية بالاحداث ، العميقة التحولات في بلاد المغرب امتدت الدولة الرستمية كإحدى نتائج تلك التحولات ، جنبا الى جنب مع جارتها الشرقية المتمثلة في دولة الاغالبة[3] ، وجارتها الغربية المتمثلة في دولة الادارسة[4] ، أو دولة بني مدرار[5] في الجنوب الغربي منها .

إن الدولة الرستمية التي جاء اسمها من اسم مؤسسها عبد الرحمن بن رستم[6] ، « قد نالها » كما يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني ، « في التاريخ ظلم فاحش ، وغمط حقها بصفة جائرة ، اذ تعمد أغلب المؤرخين تناسيها أو الدس عليها... »[7] .

ونفس هذا الشعور نجده لدى الاستاذ الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم

---

(2) Gautier E.F: Considérations sur l'histoire du maghreb – Revue Africaine (R.A.) 1er et 2ème trimestre, Alger, 1927.

(3) الدولة الأغلبية نسبة الى مؤسسها ابراهيم بن الاغلب الذي استقل بولاية افريقية (تونس حاليا) عن الخلافة العباسية سنة 184هـ/800م . وعاصمتها «القيروان» . انظر الخريطة ص 106

(4) الدولة الادريسية نسبة الى ادريس الاول ابن عبد الله بن الحسن السبط بن الحسين بن أبي طالب (ض) مؤسس هذه الدولة سنة 172هـ/788م . عاصمتها «فاس» انظر الخريطة ص 106 .

(5) دولة بني مدرار الصفرية أسسها أبو القاسم سمكو بن واسول المد ' ي سنة 140هـ/757م عاصمتها «سجلماسة» تافيلالت . أنظر الخريطة ص 106 .

(6) عن عبد الرحمن بن رستم . انظر الفصل الثاني من الباب الاول . وانظر مقدمة الطبعة الثانية

(7) المدني أحمد توفيق : مدخل لدراسة الدولة الرستمية واسهامها في التطور الفكري والحضاري ، محاضرة القيت في الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي المنعقد بوارجلان ، الجمهورية الجزائرية ، سنة 1397هـ/1977م ، ص1 .

وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية (سابقا) اذ جاء في كلمته الافتتاحية للملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي ، المنعقد بوارجلان ، العاصمة الثانية للدولة الرستمية ، في المغرب الأوسط ، هذا العنوان : « منسيين لستم يابني رستم »[8] . وهو عنوان يكفي وحده دلالة على مدى النسيان الذي أصاب تاريخ الرستميين ، وهو جزء هام من تاريخ الجزائر[9] خاصة ، وتاريخ العرب والمسلمين عامة ، لهذا نجد الوزير المذكور ، من موقع المسؤولية ، يعلن صراحة ذلك الاهمال الذي انتاب تاريخ الدولة الرستمية ، ويخصص النقطة الأولى من نقاط الملتقى المذكور ، لتاريخها ويضع لها عنوان « مساهمة الرستميين في حضارة الاسلام وفكره » .

ان ما ذكرناه آنفا من تحولات وتغييرات شهدتها بلاد المغرب ، وما ترتب من جراء ذلك من نتائج ، كظهور الدولة الرستمية خاصة وما لحق هذه الدولة من نسيان أو اهمال ، اضافة الى شغف الباحث في معرفة المذاهب والأديان ، كل ذلك يشكل أهم الدوافع التي حفزتني على اختيار موضوع في صميم الفترة المذكورة ، وكان عنوانه المختار : « الدولة الرستمية 160هـ - 296هـ/777م - 909م دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية » في المغربين الأوسط والأدنى ، وبهذا أكون قد لبيت دافعا ذاتيا أجده في نفسي قويا ، ثم لا أشك أنني ، ان حالفني التوفيق ، أكون قد لبيت تعطش الكثير من الباحثين والقراء الذين يشعرون بفقدان حلقة هامة من حلقات التاريخ الاسلامي الذهبية .

ولقد تعمدت اختيار عنوان « الدولة الرستمية » ليجد مكانه في المكتبة الجزائرية أولا ، ثم المغربية والعربية الاسلامية ثانيا . واخترت أهم جانبين

---

(8) كلمة السيد وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية مولود قاسم في افتتاحه للملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي - وارجلان ، الجمهورية الجزائرية مجلة الأصالة ، عدد 43/42 ، مطبعة البعث ، 1397هـ/1977م ص3-12 .

(9) الميثاق الوطني ، الجمهورية الجزائرية لسنة 1976م ، مصلحة الطباعة للمعهد التربوي الوطني ص24 .

برزت فيها الدولة الرستمية : الجانب الاقتصادي ، والجانب الفكري ، وهما في الحقيقة جانبان عرفا انطلاقة متينة ، في الفترة المذكورة ، تعبر عن نضج وأصالة كما عرفا بعد الانطلاقة ازدهارا واسعا ، شمل جميع البلاد العربية الاسلامية في المشرق والمغرب ، فسايرت الدولة الرستمية هذه الانطلاقة وهذا الازدهار وكانت لذلك جديرة بالدراسة .

لقد قسمت دراستي هذه الى تمهيد أو مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة بعد مبحث عرضت فيه أهم المصادر والمراجع التي تناولت الدولة الرستمية ، مع تحليل لها ، وتقييم لمعلوماتها .

أما المدخل فقد أردت أن أمهد به للموضوع وادخل بواسطته الى صلب الدراسة ، فتناولت فيه تطورات الاحداث في المشرق والمغرب العربيين وبينت أن ثورات الخوارج كانت أهم ما تميز به هذه الفترة التي تمهد لموضوع دراستنا ، وتحدثت عن سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ ، وقد كان لثورات الخوارج وفتنهم دور في تفتيت قوتها ، كما تحدثت عن نشأة الدولة العباسية في نفس السنة ، وكانت من الاسباب التي دعت الخوارج الى اللجوء الى أطراف البلاد العربية الاسلامية . ومن هنا وجد الاباضية طريقهم نحو المغرب العربي ، فقاموا بنشر مذهبهم ، وخاضوا عدة ثورات أهلتهم في الاخير ، الى تأسيس دولتهم الرستمية سنة 160هـ/777م .

ولم أتطرق الى تفاصيل هذا التأسيس الا في الفصل الثاني من الباب الأول ، اذ خصصت الفصل الأول من نفس هذا الباب للحديث عن المذهب الاباضي ونشأته وبعض عقائده ، لتكون لنا فكرة واضحة عن المذهب السائد في الفترة التي نحن بصدد دراستها ، تساعدنا على تتبع مراحل وأحداث الدولة الرستمية : السياسية والاقتصادية والثقافية .

وفي الفصل الثاني استعرضت تفاصيل بناء العاصمة تيهرت ونشأة الدولة الرستمية ، فحاولت أن أقدم تاريخا لتأسيس هذه المدينة بالمغرب الأوسط كما

بينت أهم الاسباب التي دعت الى اختيـار موضعهـا ، والظروف التي تم فيهـا بناؤها . وانتقلت بعد ذلك الى شخصيـة عبـد الرحمن بن رستم مؤسس هـذه الدولة ، فناقشت أهم الآراء التي جـاءت حول نسبـة الفـارسي ، وبينت أنـه ولد في العراق ، ورحل صبيا الى القيروان ، فنشأ فيهـا وتربى ، ثم عـاد الى العراق وقـد استـوى رجلا ، فتعلم في البصرة سنـوات ، ثم عـاد الى المغرب ليستقر فيـه . فجعلت من هـذه العوامل الثـلاثـة دليـلا على أنـه كان عربي المنشأ والمربى والتفكير .

أما الفصل الثالث ، الذي وضعته لحدود الدولة الرستمية ، فقـد خضت فيه غمار الآراء المختلفة حول هذه الحدود ، ووجدتها حـدودا متموجـة ، تمتـد أحيانا ، وتجزر أخرى اذ فكرة الحدود في تلك الحقب التاريخيـة مـازالت لم تتبلور ، بل لم تعرف بعد ، لذلك رأيت أن السلطة الروحية هي مـا يمكن اعتماده لتحديد الحدود أولا ، ثم السـلطة العسكرية أن وجدت . وبهـذا تبين لي أن سلطـة الرستميين تمتـد من حـدود تلمسـان ، في غرب الجزائر اليـوم ، غربا الى سرت ، في ليبيا شرقا ، وهي منـاطق آهلـة بـالاباضيـة تعتبر من رعايـا الرستميين ، اذ تمثل هـذه الفترة - القرنين الثـاني والثـالث الهجريين - فترة الهيمنة الاباضية والصفرية على بلاد المغرب العربي .

أما الفصل الرابع ، وهو الأخير في هـذا البـاب السيـاسي ، فقـد تتبعت فيه الاوضاع السياسية العامة للدولـة الرستميـة ، إمـامـاً بعـد آخر وتحـدثت عن الفتن والثـورات التي أثيرت ، والفرق التي ظهرت ، وتتبعت مراحـل القوة والضعف في الـدولـة حتى وصلت الى سقوطهـا على يـد أبي عبـد اللـه الشيعي داعية العبيديين[10] وقـائـد جيشهم سنـة 296هـ/909م . وحـاولت

(10) العبيديون : هم أتباع عبيد الله المهدي ، أختلف القدامى والمحدثون في نسبـه ، فمنهم من يرده الى فـاطمـة الزهراء بنت الرسول ﷺ فيسمى أتباعه فاطميين . وأنا في هذه الرسالـة وفي أعتقـادي أن تسميتهم بـالعبيـديين في الفترة التي حكموهـا ببلاد المغرب أضبـط ، كما أن تسميتهم بـالفـاطميين لمـا حكموا مصر أوثق وأوكـد ، وهنا بغض النظر عن نسبهم . عن عبيد الله المهدي والعبيد بين عامة أو الفـاطميين أنظر : المقريزي أحمد بن علي : اتعاظ

أن أضبط لكل امام رستمي مدة حكمه ، لذلك فان هذا الفصل يقـدم صورة وافية عن الأوضاع السياسية لهذه الدولة منذ نشأتها حتى سقوطها ، تسـاعـد على الدخول في الباب الثاني ، الاقتصادي ، والباب الثالث ، الفكري .

في الباب الثاني ، الذي خصص للأوضاع الاقتصادية . سبعة فصول بعد تمهيـد ، تنـاولت فيـه الحـديث عن جغرافيـة الـدولـة الرستميـة وأثرهـا في الاقتصاد ومهـدت بـه للـدخول في الفصل الأول الـذي تنـاول الحـديث عن الـزراعة والرعي وقـد رجعت الى اكبر عـدد ممكن من الكتب الجغرافيـة ، أستقضيهـا ، وانتهيت الى أن الـزراعـة والرعي عرفـا ازدهـارا كبيرا يسـاير الازدهار والرخاء الشاملين لجميع البلاد العربية الاسلامية في هذه الفترة .

أما الفصل الثاني الذي يدور موضوعه حول الصناعة والمهن المختلفة فقـد حاولت جهدي أن أتتبع معالم الصناعة في المغرب في عهد الرستميين فوجدت أن معلوماتنا حول هذه النقطة ضئيلة جدا ، ولكنها على ضآلتها تسـاعـدنـا على أن نستنتج أن الصناعة في الدولة الرستمية كانت تساير الزراعـة وتعتمـد عليها في أغلب الأحيان .

أمـا التجـارة التي خصصت لهـا فصـولا ثـلاثـة ، فكانت النشـاط الـدائم والمستمر الذي كان يقوم بـه السكان في المغربين الأوسـط والأدنى من رعـايـا الدولة الرستمية ، لهذا جعلت الفصل الثالث للتجارة الداخلية ، تحدثت فيـه عن أهم الأسواق والمراكز التجاريـة في الـدولـة ، وتطرقت الى البضـائع التي كانت تتداول بين تلك الاسواق ، كما بينت مدى اهتمام الناس بالتجـارة ، ثم انتقلت بعـد ذلـك الى التعريف بـالمكاييـل والمـوازين ، قـدر المستطـاع ، فـوجـدت أن ذلـك متنـوع يخضـع للعرف أكثر ممـا يخضـع لأي شيء أخر ، لذلك اختلفت المكاييل والموازين بـاختلاف المنـاطق ، فضلا عن البلـدان .

= الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي 1367هـ/1948م ، ص25 وما بعدها . حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ، ط2 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1958 ، ص57 وما بعدها .

الا أن السمة العامة التي تتصف بها أسواق الدولة الرستمية ، أنها كانت رخيصة البضائع بشكل ملحوظ يشير الى ذلك أغلب الجغرافيين .

وفي هذا المضار تساءلت عن وجود عملة رستمية أو عدم وجودها فجمعت الآراء المختلفة حول هذه النقطة ، وبينت استنادا على نصوص ووثائق احتمال وجود عملة نقدية للرستميين ، وان لم يعثر عليها لحد الآن .

أما الفصل الرابع الذي خصص للتجارة الخارجية مع المغرب والمشرق أي مع البلاد العربية الاسلامية فتناولت الحديث فيه عن المسالك التي تربط تيهرت خاصة بعواصم العالم العربي آنذاك ، فحددت مسافاتها ، وبينت أهمية موقع تيهرت التجاري في المغرب العربي ، اذ يتوسط المسالك ، كما بينت مرافيء المغرب الأوسط حيث منافذ تيهرت الى الاندلس ، التي تربطها بالدولة الرستمية أمتن العلاقات السياسية والاقتصادية وحتى العسكرية . ثم تحدثت عن البضائع المتداولة بين أسواق هذه الدول . وحاولت أن أفرز صادرات الدولة الرستمية عن وارداتها مع هذه الدول ، فوجدت أن أصدق صفة يمكن أن توصف بها التجارة في العالم العربي الاسلامي آنذاك ، هي صفة التجارة التكاملية .

وفي الفصل الخامس ، فصلت الحديث عن التجارة الرستمية السودانية تلك التجارة التي هيمنت عليها الاباضية والصفرية بشكل ملحوظ ، حتى أطلق عليها بعض الباحثين تسمية التجارة الخوارجية ، اذ كانوا المسيطرين على مسالكها ونهايات تلك المسالك ، بل لقد كان لبعض الائمة الرستميين علاقات سياسية مع ملوك السودان الغربي ، توطيدا للعلاقات الاقتصادية ومحافظة على استمرارها .

وتأتي أهمية التجارة مع السودان الغربي من أهمية البضائع المستوردة من هناك ، والمتمثلة خاصة في الذهب والرقيق الأسود .

وتناولت مباحث هذا الفصل ، التعريف بممالك السودان والمسالك المؤدية اليه ، وتحديد مسافاتها ، ان امكن ، وذكر المصاعب والمخاطر التي يواجهها التاجر العابر للصحراء الكبرى ، وصولا الى السودان الغربي .

وفي المبحث الأخير من هذا الفصل تعرضت الى مظاهر هذه التجارة ومدى مساهمة التجار من رعايا الدولة الرستمية فيها ، ومساهمتها في حد ذاتها في رفع مستوى المعيشة بالدولة ، وبعث الحيوية والنشاط في أسواقها اذ تشكل أكبر كمية من الذهب والرقيق المستوردين تجارة عبور « ترانزيت » على أسواق المغرب الأوسط ، فكانت منها توزع شرقا وشمالا . وبذلك يكون للدولة الرستمية دورها البارز في مساهمتها بهاتين البضاعتين في الاقتصاد العربي الاسلامي انذاك .

أما الفصل السادس ، الذي وضعت له عنوان « المؤسسة الاقتصادية » بيوت الأموال ودار الزكاة ، فقد رأيت لزاما علي أن أتحدث عن هاتين الدارين أو البيتين ، رغم قلة المعلومات حولها ، وكان الاعتاد الأول على نص صريح لابن الصغير ، مؤرخ الدولة الرستمية ، ومعاصر أحداثها ، وأحد سكان عاصمتها . وقد تبين ، حسبما يشير الى ذلك العنوان ، أن لأموال الزكاة دارا خاصة بها ، ولغيرها من الأموال بيوتا موزعة في مدن وأقاليم الدولة .

وفي الفصل السابع والأخير ، أقرنت بين الحسبة ومستوى المعيشة في الدولة ، اذ يعبر أحدهما عن الآخر ، فتحدثت عن الحسبة وتعريفها وأول من نظمها في الدولة الرستمية ، وتطرقت الى بعض مهام المحتسب فيها .

أما عن مستوى المعيشة ، الذي لا شك أنه مرتفع ، والمعيشة مزدهرة ازدهار الحياة الاقتصادية كلها ، فالقصد من التطرق اليه اعطاء خلاصة مستوفية عن الأوضاع الاقتصادية ونتائجها في الدولة الرستمية ، فتتبعت مراحل الرخاء والازدهار مرحلة بعد أخرى ، وانتهيت الى أن المغرب

الاوسط والادنى في عهد الرستميين بلغ درجة راقية في الاقتصاد ، بحيث كثرت الاموال في أيدي الناس ، حتى استغلت في القضاء على حكم الرستميين والاباضيين عموما ، وتلك نتيجة سلبية تردت اليها الأوضاع الاقتصادية ، فأودت بالدولة الرستمية وحكامها من الاباضية .

أما الباب الثالث ، فيبحث في الحياة الفكرية في الدولة الرستمية ولما كانت هذه الحياة غنية ومتنوعة ، رأيت تقسيمها الى فصول خمسة بعد تمهيد تناولت فيه الحديث عن دخول البربر افواجا في الاسلام على مذهب الاباضية ، وكان هذا قبيل تأسيس الدولة الرستمية واثناءها ، ومهدت بهذا للباب الفكري الذي يطغى عليه الطابع الديني ، بحيث كان الاهتمام بمسائل الفرق والاختلاف فيما بينها ، أبرز مظاهر الحياة الثقافية بالدولة الرستمية .

وفي الفصل الأول ، الذي جعلته لدور الحكام في الحياة الفكرية تتبعت جهود الرستميين في نشر الثقافة وشغفهم بالعلوم ، اذ المشهور عن بيتهم أنه بيت علم ، وقد وجدتهم فعلا كذلك ، شجعوا المعرفة ، وسهلوا تناولها ، وانتصبوا لنشرها في المساجد ، ولم يكونوا مقلين في التأليف بل ألف بعضهم العديد من الرسائل والكتب تناولت مختلف القضايا المطروحة وقتئذ أغلبها لم تصل إلينا .

وفي الفصل الثاني الذي وضعته للمؤسسات التعليمية والدراسات المتداولة بها ، افترضت أن الكُتّاب هو أهم مؤسسة تعليمية للصغار اذ تعتبر اللبنة الأولى لدور التعليم في المغرب العربي . وتحدثت عن حلقات العلم في المسجد ، ولم انس المكتبات وأهم المراحل التعليمية التي يطويها طالب العلم وأهم الدراسات التي يتناولها من الشيوخ أو المؤرخين ، على الرغم من أن مصادرنا كانت بخيلة في تزويدنا بمعلومات في هذا الشأن .

وأما الفصل الثالث ، فقد بحثت فيه اصناف العلوم وذكرت أهم العلماء وقسمته الى ثلاثة مباحث ، تناولت في المبحث الأول العلوم النقلية من

تفسير وحديث وفقه ، فشرحت مساهمة العلماء في الدولة الرستمية في تلك العلوم وذكرت تراجم لبعضهم ، ولم أجد اشارة واضحة الى اهتمام الاباضية في المغرب العربي بالحديث بقدر ما اهتموا بالفقه والفتوى في الحلال والحرام . ويبدو أن هذه الفكرة لم تتبلور عندهم في ذلك الوقت لذلك لم يصرحوا بها .

أما المبحث الثاني الذي خصص للعلوم العقلية ، فتحدثت فيه عن المناظرات الكلامية والفقهية ، التي راجت سوقها بتوافد مختلف الفرق الاسلامية الى تيهرت فتمنت كل فرقة أن تناظر الاخرى ، وتغلبها ، فبرز في هذا المجال عدد من العلماء المناظرين وقدمت امثلة حية عن تلك المناظرات التي طبعت الحياة الفكرية في الدولة الرستمية بطابعها .

وفي هذا المبحث ، تحدثت عن العربية والبربرية وكيف شجع الأئمة الرستميون لغة الاسلام بأن جعلوها لغة بلاطهم ، وكيف اهتم المغاربة باكتساب هذه اللغة ، وكل هذا كان جنبا إلى جنب مع البربرية التي نظم بها الشعر وألفت بها الكتب ، اذ تعتبر هذه الفترة بداية تحول المغاربة الى اللغة العربية ، ولا أدل على ذلك من كتابة البربرية بحروف عربية ، فتلك خطوة عملاقة نحو التعريب الاكمل الذي سوف يكون على يد القبائل العربية الوافدة على المغرب في القرن الخامس الهجري .

وفي هذا المبحث كذلك تطرقت الى اللغة العربية نحوها وآدابها فكشفت عن عدد من المغمورين في علم النحو وترجمت لهم وأثبت كونهم من رعايا الدولة الرستمية ، أما الآداب فقد برز فيها الائمة الرستميون خاصة برسائلهم فأثبت نصوصا للامام أفلح ، والاعتقاد السائد أن الرستميين لم يكونوا من مشجعي الآداب ، أو على الاقل لم تصلنا أخبار الأدباء وتراجمهم لأن أصحاب الطبقات والسير الاباضية لم يكونوا يهتمون الا بالمشائخ والفقهاء ، فكانوا بعيدين من أن يذكروا شاعرا أو أديبا . ورغم ذلك وجدنا

شاعرا مفلقا وهو بكر بن حماد التيهرتي المتوفى سنة 296هـ ، أثبت بعض أشعاره ، وهو في حد ذاته يدل على وجود شعراء غيره ، على الأقل ، أقل منه جودة في الشعر لم نعثر عليهم .

وتحدثت ضمن العلوم النقلية عن التاريخ ، وأشهر المؤرخين واهتمام الامام أبي بكر بن أفلح بأخبار الماضين .

أما المبحث الثالث في الفصل الثالث فقد جعلته للعلوم الدنيوية وأقصد بها الطب والفلك والحساب ، وكانت علوما برز فيها الائمة الرستميون دون غيرهم ، وأما الطب فقد افترضنا وجوده افتراضا ، لأن النصوص لا تشير اليه ، ولكن ضرورة المجتمع تقتضيه ، والقياس على الحال في مختلف أقطار الاسلام يستوجبه ، ولم تساهم الدولة الرستمية في هذه العلوم الا مساهمة ضئيلة .

أما الفصل الرابع ، فقد خصصته للحديث عن المرأة ودورها في الحياة الفكرية ، اذ وجدت من بينهن العالمات ، والحاضرات حلقات العلم والشاعرات بالبربرية ، فكانت لها بذلك مساهمتها في هذه الحياة .

أما الفصل الخامس والأخير ، والذي وضع للعلاقات الثقافية بين الدولة الرستمية وغيرها من دول المغرب والمشرق العربيين ، وبينها وبين السودان الغربي ، يمكن اعتباره حصيلة الحياة الفكرية في الدولة الرستمية اذ تعتبر العلاقات الثقافية أهم عوامل التأثير و التأثر التي أبرز ما تكون في الدول العربية الاسلامية مشرقها ومغربها ، لذلك وجدت علماء عديدين مشارقة ومغاربة وأندلسيين طاب لهم المقام في تيهرت ، كما وجدت علماء اباضية أو غيرهم خرجوا لطلب العلم أو الاستفتاء خاصة من علماء البصرة . كما يعتبر الحج من أهم مظاهر العلاقات المشرقية الرستمية ، وكان الاباضية من أهل جبل نفوسة من أكثر الناس حجا .

وكانت للعلاقات الرستمية السودانية أكبر الاثر وأدومه ، اذ بواسطتها تم نشر الإسلام في جزء من السودان الغربي، ويقال ان للاباضية وجودا الى يومنا هذا في بعض قرى تلك المناطق . وكان للتجارة الواسعة التي ربطت المغرب بالسودان آثار واضحة في تكوين لغة خليط من العربية والبربرية والسودانية ، تعارف عليها التجار العابرون للصحراء لاقتناء الذهب .

وفي الخاتمة رسمت معالم حضارة هذه الدولة الاقتصادية والثقافية وقدمت خلاصة ما سبق ذكره في الابواب الثلاثة ، وانتهيت الى أن الدولة الرستمية ، ساهمت بشكل ملحوظ في تطور الحضارة العربية الاسلامية واثرائها .

وليس بالأمر الغريب أن أذكر أن عدة مشاكل وصعوبات اعترضتني كما تعترض أي باحث مبتدئ مثلي ، كان أهمها تشتت مصادر البحث ومراجعه في مختلف المكتبات بمختلف الدول والمدن ، لذلك وجدتني أكثر الترحال للتثبت من معلومة ، أو بحثا عن أخرى ، فزرت في هذا الخصوص اضافة الى الجزائر ، فرنسا وتونس ، وكانت استفادتي منها ضئيلة جدا ، ربما لجدة التجربة ، وكنت دائما أشعر بهذا ، وكلما أقدمت على حكم ، أو تقرير حقيقة أو نفي ما ثبت عندي نفيه ، الا وشعرت بمسؤولية الكلمة وثقلها ، وجدة تجربتي وابتدائي لطريق لم اكن قد اقتحمت اغواره . وسرعان ما ينجلي هذا الشعور لما أشرك استاذي المشرف محمد توفيق حسين ، اذ لم يتم هذا البحث الا تحت رعايته الابوية ، وتوجيهاته الصميمة الهادفة ، فكنت محظوظا باشرافه ومتشرفا بأستاذيته ، أطال الله عمره .

ولا يفوتني أن أشكر جامعة بغداد وكلية الآداب ، هذه الجامعة الخالدة التي شرفتني بالتخرج فيها ، وقد وجدت في احضانها كل رعاية ومساعدة ، وتسهيل للصعاب .

وفي الختام ، أود أن أشير الى أن هذا البحث ، الذي أشغل بالي وفكري

مدة طويلة ، حاولت فيه أن اقترب من الحقيقة ، قدر استطاعتي فاجتهدت في موضع الاجتهاد ، وقلدت في موضع التقليد ، ولا أبالغ اذا قلت ان هذه الدراسة جديدة في موضوعها ، وطرحها ، وخطتها ، لذلك ان وفقت ، فمن الله ، وهو مقصدي ، وان كان غير ذلك ، فحسبي أنني ما أبقيت من جهدي شيئا ، وشفيعي النص الذي قاله العماد الاصفهاني ، ونقله عنه ياقوت الحموي ، بحيث جعله فاتحة كل جزء من الاجزاء الاثنين والعشرين من معجمه ارشاد الأريب ، وأنا بدوري أقتبسه منه لأجعله خاتمة مقدمتي هذه فأقول :

« انى رأيت أنه لا يكتب انسان كتابا في يومه الا قال في غده ، لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

- ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا . والله ولي التوفيق -

بغداد في محرم عام 1404هـ / نوفمبر عام 1983م

﴿ المصادر والمراجع ﴾

عرض وتحليل

لا شك أن دراسة المصادر المعتمدة في هذا البحث ، تقدم صورة واضحة للمعلومات الواردة فيها ، وتظهر قيمتها ، وتبين درجة دقتها .

لهذا ارتأينا ابتداء ، أن نصنفها الى مصادر اباضية أولية ، ومصادر غير اباضية . ومراجع حديثة اباضية وغير اباضية وفرنسية . وهذا التصنيف في حد ذاته ، يقرب الفكرة ، ويسهل تناولها .

1 - المصادر الاباضية :

يتفق الدكتوران محمود اسماعيل وعوض خليفات[1] ، على أن الاباضية ، بخلاف الفرق الخارجية المتطرفة ، قد خلفت تراثا ضخما في التاريخ والسير والعقائد لا يزال الجزء الاكبر منه مخطوطا في حوزة الاباضية بمناطق وجودهم بميزاب الجزائر، أو جزيرة جربة بتونس، أو جبل نفوسة بليبيا أو سلطنة عمان ، اضافة الى بعض المكتبات العامة كدار الكتب المصرية[2] .

ولعل ما ضاع منها بسبب الفتن[3] ، أو التلف نتيجة اخفائها[4] عن

(1) محمود اسماعيل : الخوارج في المغرب الاسلامي - ليبيا تونس - الجزائر - المغرب - موريتانيا ، دار العودة - بيروت ، 1976 ، ص15 - عوض خليفات ، نشأة الحركة الاباضية ، جامعة عمان ، عمان 1978 ، ص14 .

(2) حاولت الذهاب الى مصر في الشهر السادس من عام 1981م الا انني طردت منها بعد وصولي الى مطار القاهرة . ولم اتمكن بعد ذلك من الذهاب مرة أخرى ، وقد حصلت على أهم المصادر الاباضية من مكتبات الاباضية الخاصة بالجزائر على الخصوص .

(3) ان احراق مكتبة المعصومة من طرف أبي عبد الله الشيعي ، وكانت تضم عشرات المجلدات ، قد ضيع علينا تراثا ضخما كان من الممكن أن يساعدنا في تتبع حضارة هذه الدولة وتاريخ المغرب العربي في تلك الفترة . انظر : أبا زكرياء يحي بن أبي بكر : كتاب سير الأئمة واخبارهم ، تحقيق اسماعيل العربي . اصدارات المكتبة الوطنية ، الجزائر 1399 هجري - 1979م ، ص113 ، الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد : طبقات المشائخ بالمغرب ج1 ، تحقيق ابراهيم طلاي ، مطبعة البعث ، قسنطينة 1394 هجري ، 1975م ، ص94 .

(4) النديم أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق : كتاب الفهرست تحقيق رضا تجدد ، بلا مكان الطبع 1391هـ ، 1971م ، ص233 .

الاعين وبـالتـالي عـدم تـداولهـا اكثر ممـا تبقى ، ومـا هو اليوم مخطـوط ولم يطبع سيبقى في خطر ، لأنه معرض الى عدة عوامل من التلف والضياع...

يعتبر كتـاب « شرائـع الـدين » للـواب بن سـلام بن عمر اللـواتي ، من الكتب الاباضيـة التي الفت في زمـان الرستميين ، وهـو كما يقـول لـويسكي (Lewicki) أقدم كتب السير في شمال افريقيا[5] .

ولا نعرف شيئا كثيرا عن لواب بن سلام مصنف هذا الكتاب . الا أننا نعرف عنـه أنـه كان يسكن تـوزر بـالجنـوب التـونـسي قبـل سنـة 240هـ بقليـل[6] ويـذكر الشماخي أن لـوابـا كان ممن أوتي الحكمـة وهـو صغير[7] . وتناول كتاب لواب عدة مواضيع[8] ، كانت افادتنا منها خـاصـة في البـاب السياسي اذ تحدث عن توراث الابـاضيـة ابتـداء من سنـة 140هـ ، كما أننـا اعتمـدنـا في البـاب الفكري اذ ذكر اسماء العـديـد من العلمـاء الـذين كانوا بالقيروان ، كما حفظ رسالة للامام عبد الوهاب وجهها الى أهل طرابلس .

وكثيرا ما يذكر لواب مصادره ، وأغلبها شفوية ، ويتحدث عن نفـاث بن نصر النفـوسي[9] ،أحـد معـاصري الامـام أفلـح بن عبـد الـوهـاب (208هـ ـ 258هـ) والمنشقين عنه ، كما اعتمد على مصادر لم يذكر عناوينها ولا مصنفيها يفهم هذا من الغرض الذي دفعـه الى وضع كتـابـه ذاك حيث يقول « وانما دعانـا الى وضعنـا كتـابنـا هـذا ، جمعنـا فيـه من دواوين العلم والاثار ، تسمية قاداتنا وفقهـائنـا »[10] ، ويبـدو لنـا من هـذا النص أن مـا

(5) Lewicki Tadeusz : Kitab as-sijar d'Abul-Abbas Ahmed as-sammahi, extrait de la revue des études islamiques, cahier N° : I, imp. Arrault, Paris, 1934, p. 37. وانظر مقدمة الطبعة الثانية لا يزال هذا الكتاب مخطوطا رغم صغر حجمه ، استنسخه الشيخ ناصر المرموري احد مشائخ مدينة القرارة بمنطقة ميزاب بالجزائر ، من النسخة الفريدة الموجودة بجزيرة جربة وعلى نسخة القرارة اعتمدنا في هذا البحث .

(6) لواب بن سلام : شرائع الدين ، (مخطوط) ورقة 44 .

(7) الشماخي أحمد بن سعيد : كتاب السير ، طبعة حجرية ، القاهرة 1301هـ ، ص244 ـ 245 .

(8) لمزيد من المعلومات أنظر الباب الثالث ، الفصل الثالث . مبحث «التاريخ» من هذا البحث .

(9) لواب : شرائع (مخطوط) ورقة 36 .

(10) المصدر نفسه ، ورقة 48 .

وصلنـا من كتـاب لـواب أقـل بكثير من أصلـه ، لان جمع مـا في دواوين العلم ، والاثار (التـاريخ) يحتمـل أن يكـون مجلـدا ضخما ، وليس كتـابـا في حوالي خمسين صفحة . ورغم ذلك فالكتاب مهم كما سيظهر من الهوامش التي أشرنا فيها اليه .

أمـا الكتـاب « سير الأئمـة وأخبـارهم » لأبي زكريـاء يحي بن أبي بكر الوارجلاني[11] المتوفى سنة 471هـ ، فيعتبر أهم كتاب إباضي جمع سير الأئمة الرستميين وأحداث دولتهم ، ويمكن أن نقول ، دون مبالغة ، أن أبا زكرياء وضع كتابه أساسا لذلك الغرض ، فأطنب في الحديث عن الاباضيـة ابتـداء من انتشارها في بلاد المغرب ، فثوراتهم ضد بني العباس ، ثم تأسيس الدولـة الرستمية سنـة 160هـ . وتحدث عن الفتن أو مـا يسميـه الافتراق في صفوف الاباضيـة وذكر ثلاثـة افتراقـات منهـا حـدثت زمـان الرستميين : النكاريـة والخلفية والنفاثية[12] .

واستمد أبو زكرياء معلوماته من شيوخ الاباضية الـذين التقى بهم وسمع منهم ، لذلك فان مصادره شفوية ، ولا غرو ان لمسكنـه بوارجلان ، حيث آخر معاقل الرستميين بعـد سقوط دولتهم ، الأثر الكبير في تـأليف كتـابـه ، والتركيز على تاريخ الدولـة الرستميـة بـالـذات . ويـذكر أبو زكريـاء عـدة مرات أبا الربيع سليمان بن يخلف ، وهو أحـد معـاصريـه وينتمي الى قبيلـة مزاتة ، يذكره أبو زكرياء كأحد رواته العديدين . ونحن نعلم أن أبا الربيع

(11) طبع هذا الكتاب المهم لاول مرة مترجما الى الفرنسية سنة 1878م من طرف الاستاذ المستشرق ماسكراي (Masqueray) ، وبقي مخطوطا الى سنة 1979 عندما اخرجه الى النور مطبوعا الاستاذ اسماعيل العربي وزوده بهوامش عديدة مهمة تساعد على فهم الكتاب ، رغم وجود بعض الاخطاء وكان بامكانه ان يتحرى اكثر . عن الترجمة الفرنسية أنظر : Masqueray Emile: chronique d'Abu Zakaria 1er edition, imp. association ouvrière. Alger 1878 .

(12) عن هذه الفرق التي زالت كلها اليوم . انظر عوض خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتمان شركة المطابع النموذجية ، عمان الاردن ، 1982 ، ص103 ، 114 ، 115 ، وأنظر كذلك الباب الاول الفصل الرابع ، الباب الثالث ، الفصل الثالث المناظرات وعلم الكلام .

هذا هو مصنف كتاب في السير أيضا ، توفي في نفس السنة التي مات فيها أبو زكرياء ، أي سنة 471هـ ، من هنا يتضح لنا أن أبا الربيع كان من المعاصرين لأبي زكرياء . واذا كان كتاب سير أبي زكرياء من الأهمية التي ذكرناها ، فان سير أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي[13] ، لا ترق الى تلك الاهمية فيما يخص تاريخ الدولة الرستمية اذ لم يضعها كأبي زكرياء لذلك الغرض ، ويغلب عليها الطابع العقائدي لهذا فان اعتمادنا على سير أبي الربيع ضئيل جدا ، بعكس اعتمادنا على سير أبي زكرياء التي لا تخلو صفحة من هذا البحث من الاشارة اليها . وقد كان كتاب سير أبي زكرياء أهم معتمد لدى كتاب السير والطبقات الاباضيين المتأخرين مثل الوسياني والدرجيني والشماخي ، اذ نجد هذين الاخيرين خاصة ينقلان عن أبي زكرياء نصوصا وربما صفحات باكملها دون تغيير فيها الا نادرا .

ولا شك أن سبق أبي زكرياء غيره من الاباضية في تدوين تاريخهم هو الذي جعله مرجع من جاء بعده . والى هذا يشير الوسياني عندما يقول « له فضل السبق في هذا (أي تدوين تاريخ الاباضية) لم يأل خيرا برأفته وهمته وفراسته »[14] .

والوسياني هو أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان ، صاحب كتاب السير الذي يعرف باسمه . فيقال « سير الوسياني » ، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطا . وتوجد عدة نسخ منه متفرقة[15] . أما عن مصنفه

(13) المزاتي : أبو الربيع سليمان بن يخلف : كتاب السير ، طبعة حجرية تونس 1341هـ ، وهو ضمن مجموعة من الكتب مثل الرد على الانجليزي للشيخ أطفيش . وجواب الشيخ أبي مهدي عيسى بن اسماعيل ، ويبدو ان نسخ هذا الكتاب ضئيلة جدا ، لا توجد إلا عند الإباضية .

(14) الوسياني أبو الربيع سليمان بن عبد السلام : سير ، (مخطوط) ورقة 2 .

(15) اعتمد الباحث على النسخة الموجودة في حوزة الشيخ باباتو ببلدة بني يسجن بالجزائر . واشكر هنا الاستاذ ابراهيم طلاي على تسهيله لي الحصول والاطلاع عليها . وتوجد نسخة منها في دار الكتب المصرية واخرى في بولندا بمعهد العلوم الاسلامية في جامعة لوو (Lwow) تحت رقم 277 . أنظر Lewicki. t: l'état nord Africain de Tahert. (C.E.A.) p.521. Lewicki. T: études Ibadites nord Africaine. p.11 (سيأتي التعريف بها) وانظر مقدمة الطبعة الثانية

الوسياني فلا نعرف عنه أكثر من أنه من بلاد الجريد ، قضى فترة من الزمن بوارجلان ، أهم معاقل الاباضية بعد انقراض الدولة الرستمية ، ويقول الدكتور محمود اسماعيل بأنه توفي سنة 418هـ[16] ، الا أن هذا على ما يبدو وهم ، اذ أن الدرجيني يضعه في الطبقة الثانية عشر (550 ـ 600هـ) ويقول عنه هو « الحافظ للسير والأثار ، المروي عنه التواريخ والأخبار ، لم تفته سيرة لأهل الدعوة في كل الأعصار »[17] . ونرجح ما قاله الدرجيني لقدمه ، فضلا عن أن الدكتور محمود اسماعيل لم يشر الى مصدره الذي استقصى منه تاريخ وفاة الوسياني

وقد ذكر الوسياني سبب تأليفه للكتاب عندما قال : « اني نظرت الى الآثار قد امتحت ، والى أخبار أهل دعوتنا قد انطمست ، فأحببت أن أؤلف لكم منها كتابا مما بلغني وصح عندي ولما تخالجني فيه الشكوك »[18] ، وفي مكان آخر من سيره يقول « وما رأيت من أهل زماننا من قلة المبالاة وكثرة المارات على الحق والمداراة على القول بالصدق وركنوا الى الجهل... ومالوا الى الدنيا وتسارعوا الى السفلا (كذا) »[19] .

وهكذا يتضح لنا من خلال هذين النصين مدى جدية الوسياني ونظرته البعيدة الى التاريخ ، تاريخ مذهبه ورجاله بالخصوص ، ويظهر من النص أيضا مدى احتراز الوسياني من الروايات فهو ، كما يقول ، لم يثبت في كتابه الا الروايات التي صحت عنده ولم تخالجه فيها الشكوك .

ويشير الوسياني ، من جهة أخرى ، الى مشائخه الذين روى عنهم سيره كالشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد العاصمي ثم اللواتي والشيخ أبي محمد ماكسن

(16) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص18 .

(17) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص513 . وأنظر : Lewicki. T: ibid, p.11

(18) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 2 .

(19) نفسه : ورقة 111 .

ابن الخير الجرامي ثم الوسياني والشيخ معبد بن أفلح وغيرهم من أخيار الاباضية كما يقول[20] .

واتبع الوسياني في كتابه طريقة تختلف عن طريقة أبي زكرياء ، في بعض الوجوه اذ لم يكرر ماذكره أبو زكرياء ، قبله ، مثلما فعل الدرجيني أو الشماخي كما سنرى ، وانما خصص لكل شيخ من شيوخ الاباضية ترجمة يذكر فيها الروايات التي نسبت للشيخ المترجم له . ثم سلك مسلكا آخر عندما خصص لكل منطقة اباضية عنوانا يذكر تحته الروايات التي تنسب الى تلك المنطقة ، فذكر روايات أهل جبل نفوسة ثم روايات جربة وروايات تيهرت وهكذا... وكان هدفه من وراء ذلك ذكر المسائل الفقهية التي اختلف حولها ، أو عرضت على المشائخ ، ولا يخفى ما لهذه الروايات من فائدة ، أغنت البحث ، وزوّدته بأسماء عدة مشائخ لهم في الفقه الاباضي أكبر الاثر وأدومه ، اضافة الى بعض النصوص التاريخية والاقتصادية وهي قليلة جدا .

ويعتبر كتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني أهم كتاب أعتمد عليه الباحث جنبا الى جنب مع كتاب أبي زكرياء ، وربما يفضله في نواح[21] ، ستتبين لنا بعد أن نذكر ترجمة المؤلف

الدرجيني هو أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف ، عاش بمنطقة درجين ببلاد الجريد واليها ينسب في القرن السابع الهجري ، اذ توفي حوالي سنة 670هـ . وكان لعائلته دور فعال في الفكر والاقتصاد ،

---

(20) نفسه ، ص 2 .

(21) رغم أهمية هذا الكتاب ، فانه لم ير النور الا في سنة 1974 ـ حققه الاستاذ ابراهيم طلاي وقام بطبعه ، ووضع فهارس له أغلبها مضطرب وأكتفى بقليل من الهوامش والتحقيقات . وهو يشعر بهذا النقص يقول الاستاذ الفاضل ، ويودي لو أخرج الكتاب وعلّه دراسة علمية وتحقيقات تاريخية لتكون فائدته أكمل وأشمل ، ولكن اعتقد ان هذا العمل سيكون خطوة ثانية بعد تحقيقه وطبعه ، وعسى أن يجد من أبنائنا الطلبة والرجال المتفرغين للبحث من ينتدب لذلك . وحسبي أن أكون قد قمت بأول خطوة في الموضوع ، أنظر مقدمة المحقق : لطبقات الدرجيني ج1

اذ كان أجداده من الفقهاء البارزين ، وجده علي هو الذي أدخل الاسلام الى مالي سنة 575هـ ، عندما هدى ملكها الى الاسلام ، وكان جده علي هذا من كبار التجار مع بلاد السودان[22]

ويذكر البرادي في القرن الثامن الهجري سبب تأليف أبي العباس الدرجيني للطبقات ، فيذكر أن أحد مشائخ المغرب زار بلاد عمان ـ فطلب منه مشائخها قبيل عودته الى المغرب ، تزويدهم بكتاب جامع لسير مشائخ المغرب « فنظروا في كتاب الشيخ أبي زكرياء يحي بن أبي بكر فوجدوه مخلا ببعض التفصيل ، قاصرا دون أمد التحصيل ، مع أن لسان البربرية أورد ألفاظه وارد التكليف ، وقلة تحفظه على قوانين العربية أدخل ببعض معانيه مجاهل التعسف فاهتموا بتصنيف كتاب يشتمل على سير الدولة الرستمية ومناقب الاسلاف كما طلب ذلك اليهم . فلم يروا أهلا لهذا التصنيف غير أبي العباس »[23] .

وهكذا يتبين لنا من خلال هذا النص أهمية كتاب الدرجيني ، بحيث ألفه للمشارقة أصحاب اللغة العربية . والحقيقة أن أسلوب الدرجيني قوى جدا بحيث أعاد صياغة كتاب سير أبي زكرياء وسبكه ، وخصص الجزء الاول من طبقاته لهذا الغرض ، فلم يضف فيه الا قليلا ، وانما نقل معلومات أبي زكرياء وضمنها كتابه .

أما الجزء الثاني من الطبقات ، فقد أبدع فيه الدرجيني ، ويعتبر انتاجا أصيلا له ، اعتمد فيه على سير الوسياني خاصة اذ يقول عن ذلك « ومتى وجدت في هذا الكتاب أو غيره رواية قديمة عن أبي الربيع فهو راويها عن شيوخه الأخيار »[24] .

---

(22) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص513 ـ 522 وأنظر كذلك باجية صالح : الاباضية بالجريد في العصور الاسلامية الأولى ، دار بوسلامة للطباعة والنشر ، تونس 1396هـ/1976م ، ص206 ـ 212 .

(23) البرادي أبو القاسم محمد بن ابراهيم : الجواهر المنتقاة في اتمام ما أخل به كتاب الطبقات ، طبعة حجرية ، قسنطينة ، 1302 .

(24) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص513 .

ومما أبدع فيه الدرجيني فعلا هو تقسيمه الكتاب الثاني الى طبقات كل طبقة تضم جيلا فجعله اثنتي عشرة طبقة ، كل طبقة خمسون سنة . فترك السنوات الخمسين الاولى من الهجرة عن قصد اذ يقول عنها « هم أصحاب رسول الله ﷺ ... فضيلتهم أشهر ، ومزاياهم وأسماؤهم أظهر من أن تحتاج الى تسميتهم.... ما أغنى عن تكلف تصنيف ، وانتحال تأليف....»[25] ، ولم يذكر من هذه الطبقة الا عبد الله بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير السعدي وانطلق بعد سنة خمسين من الهجرة ، يذكر الطبقات الواحدة تلو الاخرى وأهم الاعلام والمشائخ ، كل في طبقته .

وظاهر ، ما لهذا المنهج من فائدة ، اذ غالبا ما أهملت كتب الاباضية ذكر السنوات اطلاقا وسنين وفاة المشائخ خاصة ، فملأ الدرجيني هذا الفراغ عندما صنف المشائخ الى طبقات ، وحدد تواريخ وفاتهم بذلك . وكان لنا مرجعا هاما في هذا الخصوص بالذات ، فضلا عن المعلومات التاريخية القيمة التي تضمنها الجزءان من كتاب الطبقات ، وهي معلومات استمدها من مؤلفات مشرقية ككتاب أبي سفيان محبوب بن الرحيل فيما يخص مشائخ الاباضية بالمشرق ، وكثيرا ما ذكر الدرجيني هذا الشخص وغيره من مصادره ورواته .

ورغم أهمية كتاب الدرجيني ، خاصة فيما يخص تاريخ الدولة الرستمية وعلمائها ، نجد أحد المتأخرين عنه ، وهو البرادي أبو القاسم محمد بن ابراهيم المتوفى في القرن الثامن الهجري[26] ، ينتقده ، ويضع كتابه الذي يجعل له هذا العنوان « الجواهر المنتقات في اتمام ما أخل به كتاب الطبقات »[27] أي طبقات الدرجيني .

(25) نفسه ، ج2 ، ص201 .

(26) أنظر ترجمة البرادي الذي عاش في جزيرة جربة ، علي يحيى معمر : الاباضية في موكب التاريخ ، الحلقة الثالثة ، الاباضية في تونس دار الثقافة ، بيروت ، 1385هـ/1966م ، ص151 وكذلك الشماخي سير ص574 .

(27) طبع الكتاب لاول مرة سنة 1302هـ بقسنطينة (الجزائر) طبعة حجرية وتوجد نسخة منه مخطوطة بمكتبة الدراسات العليا ، كلية الأداب ، جامعة بغداد ، تحت رقم 2022 ، وهي ناقصة .

والحقيقة أن ما ذكره البرادي من نقص في طبقات الدرجيني لا يهم البحث كثيرا لانه انتقده على تركه الطبقة الاولى (1هـ - 50هـ) حيث لم يذكرها بتفصيل ، كما فعل مع الطبقات التالية ، وفي هذا يقول البرادي « ... إني رأيت كتاب الطبقات ضالة عزنا شدوها ومنشدوها ومنهلا عذبا قد أعوز واردوها وموردوها.... وقد كنت كلفت به منذ تراءى لي علمه ونهى إلي علمه (كذا)... فتصفحت عند ذلك صفحاته وتنشقت نفحاته فوجدته كما تصفه الالسن.... الا أنه أغفل عن ذكر الصدر الاول وأخل بذكر ما عليه المعول... وزعم أن شهرته مغنية عن الدلالة عليه ، فرأيت ذلك وصمة أزرت بكماله وسماجة قصرت عن مدى أمثاله »[28] .

وفي فقرة أخرى يقول البرادي « والسبب الذي كتبت به هذا الكتاب أني نظرت الى كتاب الطبقات في ترتيب بيانه وحسن نظامه وتبيينه معالم المذهب واعلامه فرأيته في خلوه عن ذكر الأئمة من الصحابة وبيان الفتنة وأحكامها وكيف نجا من نجا وهوى من هوى عاريا من بعض المقصود تاركا لبعض المعهود »[29] .

وهكذا يتضح لنا أن ما أتم به البرادي كتاب الدرجيني انما هو مقتصر في ذكر الصحابة ، رضي الله عنهم ، والفتنة الكبرى التي ابتدأت في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (ض) (ت 35هـ) والكتاب مهم من هذه الناحية اذ يوضح وجهة نظر الاباضية في أحداث السنين الأولى من الهجرة .

ويكاد يقتصر اعتمادنا على هذا الكتاب على قائمة كتب الاباضية التي ذكرها للمشارقة والمغاربة ، حيث وضع البرادي تقييدا لكتب أهل الدعوة الاباضية في جواهره ، ويبدو أنه كررها في رسالة له نشرها الدكتور عمار

(28) البرادي : الجواهر ، ص3 .

(29) نفسه ، ص54 .

طالبي كملحق[30] لأطروحته التي تناولت تحقيق كتاب أبي عمار عبد الكافي الاباضي (ت قبل سنة 570هـ) الموسوم بالموجز ، وهو في عقائد الاباضية الكلامية .

وفي القرن العاشر الهجري أو قبل ذلك بقليل ، ألف الشماخي سيره التي تعرف به والشماخي هو أبو العباس بدر الدين أحمد بن أبي عثمان سعد بن عبد الواحد ، المتوفى سنة 928هـ . وهو من أهل جبل نفوسة ينحدر من أسرة مشهورة بالعلم[31] .

وسير الشماخي تعتبر آخر مرحلة استقام فيها التأليف لدى الاباضية في هذا الفن ، أي فن السير والطبقات ، اذ استطاع الشماخي بما أوتي من ذكاء وحفظ ، أن يجمع سير أبي زكرياء الوارجلاني والمزاتي وسير الوسياني وطبقات الدرجيني وجواهر البرادي فيؤلف كتابا جامعا شاملا ، يبدؤه من البعثة النبوية الشريفة الى أيامه . ولم يقتصر الشماخي على تلك الكتب والنقل منها وانما اعتمد كتبا لغير الاباضية كالرقيق القيرواني ، وابن الصغير والمبرد والمسعودي... فضلا عن كتب اباضية مشرقية ومغربية وروايات شفوية .

وقد أتبع الشماخي طريقة مغايرة للدرجيني اذ جعل طبقاته فيما يخص علماء وأحداث الدولة الرستمية عبارة عن دولة كل امام فيذكر طبقة الامام عبد الرحمن بن رستم ، فطبقة الامام عبد الوهاب ، ثم طبقة ابنه أفلح وهكذا والواقع أن فعل الدرجيني أدق واضبط من الشماخي وإن كان الاسلوبان يتكاملان في عدة مناسبات .

(30) أبو عمار عبد الكافي : الموجز - ج2 - تحقيق عمار طالبي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1398هـ/1978م ، ص281 وما بعدها ،

(31) أنظر ترجمة الشماخي : في : علي يحي معمر : الاباضية في موكب التاريخ ، الحلقة الثانية ، القسم الثاني ، مكتبة وهبة ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، مصر ، 1384هـ/1964م ، ص125 . وأنظر خاصة Lewicki. T: Une chronique Ibadite, opcit, p.65 .

وقد اعتمدت على كتاب الشماخي ، الى جانب اعتمادي على كتاب أبي زكرياء الوارجلاني والدرجيني ، اذ يعيد ماقالاه ، وكثيرا ما وجدته يصحح أخطاء سالفيه ، أو يوضح الفكرة والنص المبهمين ، وكانت سير الشماخي أول معتمد الباحثين والكتاب قبل طبع سير أبي زكرياء وطبقات الدرجيني ، لهذا فان الباحث تحول عن هذه القاعدة ، ورجع الى الأصل دون اهمال الفرع في غالب الاحيان ، وبقدر الامكان .

الى جانب هذه التصانيف التي تشكل العمود الفقري بالنسبة الى هذا البحث ، هناك عدة كتب اعتمد عليها الباحث لمؤلفين اباضية ككتاب العدل والانصاف في أصول الفقه والاختلاف[32] وكتاب الدليل لأهل العقول وكلاهما للشيخ أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني المتوفى سنة 570هـ[33] وهما في عقائد الاباضية وأصول الفقه ، اضافة الى كتاب الكشف والبيان للقلهاتي أبي عبد الله محمد بن سعيد الازدي المتوفى في أوائل القرن الرابع الهجري[34] . وكتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة لمؤلفه سرحان بن سعيد الازكوي الذي عاش في القرن الثاني عشر الهجري[35] . وهو اباضي عماني ذكر في كتابه المطول تاريخ الدولة الرستمية اقتبسه حرفيا من سير أبي زكرياء وقد أهملنا ذكره في الهوامش لتأخره زمانا ولكونه لم يأت بجديد ، اللهم الا في الاعتقادات الاباضية وغيرها ، وقد فصلها ، وهو يطعن في المذاهب التي لا ينتمي اليها[36] والكتاب على العموم مهم في

(32) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا وتوجد نسخة منه في حوزة السيد الحاج سعيد محمد بن أيوب بمدينة غرداية بالجزائر أطلعني عليها مشكورا .

(33) أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني : الدليل لأهل العقول ثلاثة أجزاء في مجلد واحد - طبع بالمطبعة البارونية - طالون مصر طبعة حجرية ، 1306هـ .

(34) اعتمدت على المخطوط في البداية ثم عثرت على الكتاب مطبوعا سنة 1980 في عمان فتحولت اليه . القلهاتي : أبو عبد الله محمد بن سعيد : الكشف والبيان ، تحقيق د. سيدة اسماعيل كاشف ، مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان 1400هـ/1980م ص7 .

(35) هذا الكتاب لا يزال مخطوطا اعتمد الباحث على النسخة الموجودة بالمكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم 346 تاريخ ، وتوجد نسخة أخرى مبتورة في مكتبة الدراسات العليا ، كلية الآداب جامعة بغداد تحت رقم 2005 .

(36) الأزكوي : كشف الغمة (مخطوط) ابتداء من ورقة 318 وما بعدها .

تاريخ عمان والمذاهب الاسلامية وهناك كتب أخرى اباضية مثبتة في الهوامش لاداعي الى ذكرها في هذا البحث .

ويجمل القول ، ان المصادر الاباضية من الاهمية بحيث لا يمكن لأي باحث يريد الكتابة عن الاباضية كمذهب أو كتاريخ للدولة الرستمية ، الاستغناء عنها ، فهي التي تمدنا بالمعلومات والنصوص التاريخية الأولية التي سكتت عنها أغلب المصادر غير الاباضية كما سنرى .

ومما يدل على القيمة التاريخية لتلك المصادر ، وابتعاد مؤلفيها عن الوضع والكذب[37] أن نصوصا منها عديدة نجدها في المصادر السنية أو غيرها كتطابق بعض الاحداث التاريخية المروية من طرف المصادر الاباضية مع رواية ابن الصغير المالكي وهو المعاصر للدولة الرستمية وأئمتها ، وان كانت المصادر الاباضية غالبا ما تسكت عندما يكون في المسألة مس بشخصية أحد أئمتها أو علمائها الامر الذي نجد تفاصيله عند ابن الصغير ، ومثال ذلك فتنة ابن عرفة وتورط الامام أبي بكر بن أفلح فيها .

وكثيرا ما نجد كرامات أو خوارق للعادة منسوبة لهذا الامام أو ذاك الشيخ وهي بطبيعة الحال ، تعبر عن العقلية السائدة في زمان كتابة تلك المصادر وهي من جهة أخرى لا تخلو منها كتب التاريخ والطبقات غير الاباضية في العصور الوسطى ، وبهذا فان ذلك لا يقلل من اهميتها التاريخية وقيمتها الملموسة

(37) يذكر ابن تيمية أن «... الخوارج مع أنهم مارقون... ليسوا من يتعمد الكذب بل هم معروفون بالصدق حتى يقال ان حديثهم من أصح الحديث » أنظر ابن تيمية أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، ج1 مطبعة المدني مكتبة دار العروبة ، القاهرة 1382هـ/1962م ، ص43 . ولهذا السبب وللقيمة التاريخية التي تحويها هذه المصادر ، كان اعتمادنا عليها كبيرا ، ولا يمكن الاستغناء عنها مطلقا بل ان المستشرق الفرنسي باسيه (Basset) يرى لزاما على الباحث العودة الى الكتابات الاباضية .
أنظر Basset. R: Les sanctuaires du Djebel Nefousa, p.423-424.
وانظر كذلك Moutylinski A de C: L'Aquida des Abadhites, p.506.
وسيأتي التعريف بالكتابين ضمن هذا البحث .

2 ـ المصادر غير الاباضية :

لم تتناول المصادر غير الاباضية الحديث عن الدولة الرستمية بالتفصيل كما فعلته مع الدولة الاغلبية مثلا ، بل ان تلك المصادر قليلا ما تناولت الدول التي جاءت غرب منطقة الزاب ، وهنا يمكن أن أوافق الاستاذ عبد الله العروي[38] (Laroui Abdallah) الذي لاحظ أن المؤرخين كانوا يتحركون مع جيوش الخليفة ، فلما كان من غير الممكن لتلك الجيوش عبور الزاب في عهد العباسيين كما يذكر ذلك اليعقوبي في بلدانه[39] ، فان المؤرخين رأوا أنه من غير المجدي تدوين أحداث تلك المناطق ، فكأنهم كانوا يكتبون للخلفاء أو ارضاء لهم :

لهذا فان كتب التاريخ العربي الاسلامي الحولية العامة كتاريخ اليعقوبي (ت 284هـ) أو الطبري (ت 310هـ) أو ابن الاثير (ت 630هـ) وغيرهم أظهرت اهتماما خاصا بالاقاليم المركزية ، دون الاكتراث كثيرا بمجريات الاحداث السياسية والتقلبات الاجتماعية في الاطراف البعيدة عن الدولة العربية ولا يتحدث المؤرخ العربي عن عمان ، كما يقول الدكتور فاروق عمر فوزي[40] ، أو الدولة الرستمية مثلا ، الا بالقدر الذي تؤثر به على السلطة المركزية ، وهنا أيضا لا يتعدى هذا الحديث الا أسطرا أو فقرات مقتضبة ، لهذا فان اعتمادنا على كتب الحوليات العامة محدود جدا ، لم يكن الا من بعيد ، ان صح التعبير . خاصة منها الحوليات المشرقية ، أما كتب الحوليات المغربية ، فان الباحث اعتمد كثيرا على تاريخ الرقيق القيرواني وابن عذاري وابن خلدون .

(38) Laroui Abdallah: l'Histoire du maghreb, un essai de synthèse, imp. corbière, petite collection N° 134, Paris, 1975, p.102-103.

(39) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح : البلدان ، ط3 ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ، 1377هـ/1957م ، ص103 .

(40) فاروق عمر فوزي : بيلوجرافيا في تاريخ عمان ـ مجلة المورد ، م3 ، العدد الرابع ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1394هـ/1974م ، ص275 .

ولا بأس من تسبيق الحديث عن هؤلاء ، على مؤرخ الدولة الرستمية ابن الصغير الذي يأتي من حيث الفترة الزمنية أسبق الجميع ، اذ من عادة الباحث في هذه الرسالة كلها تأخير الأهم والتمهيد له بما هو أقل أهمية هكذا بالتدريج .

أما الرقيق القيرواني أبو اسحاق عمر بن القاسم ، فلا نعرف عنه الشيء الكثير ، الا كونه قد تولى رئاسة ديوان الرسائل في بلاط بني زيري الصنهاجيين في أوائل القرن الخامس الهجري[41] ، ولا شك أن هذه الوظيفة قد اتاحت له الاطلاع على العديد من الوثائق والكتب ، التي بها ، كتب تاريخه المعروف بتاريخ افريقيا والمغرب[42] .

وعلى الرقيق ، اعتمد ابن عذاري المراكشي في القرن السابع الهجري في كتابة تاريخه المعروف بالبيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب[43] . ويعتبر كتاب ابن عذاري من أكمل المصادر المغربية واشملها وأدقها في تاريخ المغرب أعتمدناه بكثرة خاصة في الباب الأول ، جنبا الى جنب مع تاريخ الرقيق ، فكان الواحد منها يكمل الاخر رغم اعتاد ابن عذاري على الرقيق . وقد فصل ابن عذاري ثورات الخوارج ، فجاء بتاريخ مضبوط ودقيق ، وان كان يخطيء في بعض التسميات والتواريخ ، وهو أمر لا يقلل من أهمية الكتاب ، كرجع أساسي لاي باحث يريد الكتابة حول تاريخ المغرب والاندلس .

أما ابن خلدون عبد الرحمن المتوفى سنة 808هـ صاحب كتاب « العبر

(41) محمود اسماعيل ، الخوارج ، ص807 ، عوض خليفات ، نشأة ص7 ـ 8 .

(42) هذا الكتاب كان في حكم المفقودات وعثر عليه فنشر لاول مرة سنة 1968 من طرف الاستاذ المنجي الكعبي أنظر مقدمة المحقق في هذا الكتاب : الرقيق القيرواني : تاريخ افريقيا والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، مطبعة الوسط ، تونس 1387هـ/1967م .

(43) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب تحقيق ج ، س ، كولان وا ـ ليفي ـ بروفنصال ، دار الثقافة ، بيروت 1948 .

وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر[44] » ، فاننا نجد في كتابه الضخم هذا اشتاتا تتعلق بالدولة الرستمية ، فهو لم يضع لها عنوانا في كتابه القيم ذاك ، كما فعل مع أغلب دول المغرب العربي ، صغيراتها وكبيراتها . لهذا السبب نجد عدة مؤرخين معاصرين انتقدوه على ذلك واعتبروا ذلك في كتابه عورة . ومن أولئك المؤرخين سليمان الباروني صاحب الازهار الرياضية[45] والدكتور فخار ابراهيم الذي يقول إن «.... ابن خلدون الذي عدد أخطاء المؤرخين وحدد الأوهام والمغالط ... لم يسلم هو الاخر من هذا الزلل التاريخي وهو يتكلم عن الرستميين ومؤلفات علمائهم التي ضربت بسهم في اجادة التأليف والترتيب ولكنه في كل مرة يعرض فيها للرستميين ، يعقب كلامه بالضلالة والخروج عن جادة الصواب مع أنه عندما عرض لتاريخ وأصل الادارسة في المغرب الأقصى بوأهم فرع « الدوحة المحمدية النبوية »[46] ، ونفس هذا النقد نجده لدى الاستاذ أحمد توفيق المدني الذي بعد أن يذكر أهمية تاريخ ابن خلدون ، ومقدمته الغنية ، وعنايته بتاريخ الدول المغربية كلها ، يقول « لكننا مقابل ذلك لا نراه يعنى بدولة الرستميين الاباضية الا قليلا ، وفي صفحات متباعدة يسيرة ويدعو مذهبها « بدعة » وهي أول دولة .... منظمة في الاسلام ، انتشرت فوق أديم الأرض الجزائرية ... فهل كان يجهل تفاصيل وجودها ، ونظام حكمها ؟ أو كان ....؟ كلا ان ذلك الفكر العبقري .... لا يمكن أن ينسى دولة قامت على أرض المغرب الأوسط .... فما كان منه ذلك الاهمال ، وذلك التحقير الذي يوجب علينا اتهامه بسرقة

(44) ابن خلدون عبد الرحمن : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، 1959 .

(45) الباروني سليمان بن عبد الله النفوسي : الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ، مطبعة الأزهار البارونية ، مصر ، بلا تاريخ الطبع ص 20 هامش رقم 1 .

(46) فخار ابراهيم : دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب ، مجلة الاصالة ، عدد 43/42 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر 1977م ، ص36 ـ 37 .

دولة مغربية زاهرة الا لتعصب مذهبي وارضاء لخصوم ذلك المذهب ، من الملوك والامراء[47] .

ان هذا النقد الحاد الذي وجه لابن خلدون ، اذا كان أصحابه مصيبين في أكثر الوجوه ، فاننا نجد لابن خلدون عذرا ، أشار اليه بنفسه عندما تعرض لقبيلة لماية التي يعتبرها مادة الدولة الرستمية ، على كاهلها قامت اذ كانت على حلف قديم مع عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية لما كان هذا في المغرب الأدنى قبل أن يلتجيء الى موضع تيهرت بالمغرب الأوسط حيث مواطن لماية ، ويبني عاصمته تيهرت بمساعدة تلك القبيلة[48] . ثم يذكر ابن خلدون أن هذه القبيلة قد انقرضت وهلكت بهلاك مصرها ، أي تيهرت[49] فلعل هلاك هذه القبيلة وانقراضها ، كما يقول ، هما الداعيان الى اهمال تاريخ الرستميين مادامو مرتبطين بقبيلة لماية المنقرضة وهذه مرتبطة بهم . ولا يستبعد هذا ، لأن ابن خلدون في عبره ، كان يؤرخ للقبائل الواحدة تلو الأخرى ، ويذكر ما كان لها من سلطان ، وهذا لا يمنع من جهة أخرى اتهامه بما ذكره كل من الباروني والدكتور فخار والاستاذ المدني ، اذ كان بامكان المؤرخ العبقري ابن خلدون ، وهو الذي اشتغل بالسياسة وتقلب في خدمة الدول ، الامر الذي يساعده على الوصول الى مالا يستطيعه غيره ، أن يخصص لهذه الدولة عنوانا على الاقل في مصنفه .

ومع هذا ، فكما أشرنا في بداية الحديث عن ابن خلدون ، فان الباحث ، خاصة في الباب الاول : السياسي ، اعتمد عبر ابن خلدون كما اعتمد مقدمته المشهورة في تعريف بعض العلوم في الباب الثالث أي الثقافي

(47) المدني أحمد توفيق : مدخل لدراسة الدولة الرستمية وأسهامها في التطور الفكري والحضاري ، محاضرة القيت في الملتقى الفكر الاسلامي وطبعت ضمن مطبوعات ذلك الملتقى المنعقد بوارجلان (الجزائر) ربيع عام 1977م .

(48) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص246 ـ 249 وسيأتي تفصيل الحديث عن تلك الاحداث كلها .

(49) نفسه ، ج6 ، ص 249

وكتاب ابن خلدون أعلى من أن يهمله دارس لتاريخ المغرب العربي ، رغم موقفه العدائي من الرستميين .

ونأتي بعد هذا الى ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ، كما تسميه الدكتورة وداد القاضي[50] . ولا نريد تفصيل الحديث عنه ، الا بقدر ما يهم هذا البحث ، لاننا سنتعرض اليه في الباب الثقافي عند حديثنا عن « التاريخ » .

عاصر ابن الصغير أواخر أيام الرستميين ، وذكر أنه رأى الامام أبا اليقظان بن أفلح (261 ـ 281هـ) وحضر مجلسه[51] . كما أنه كان على اتصال بشخص يدعى أحمد بن بشير ، يبدو أن أباه بشيراً من خاصة الامام أبي اليقظان[52] . وكان ابن الصغير كثيرا ما اعتمد عليه في الرواية الشفوية التي تطغى على كتابه ، كما اعتمد على غيره من الاباضية الذين يثق بهم كما يذكر هذا مرارا .

وتاريخ ابن الصغير ، كتاب قيم ، فيه اشارات ، رغم اختصارها ، تدل على أمور عديدة لمن يريد استنطاقها ، الامر الذي حاولنا تطبيقه قدر المستطاع وكانت افادتنا من هذا الكتاب مطلقة ، تكاد لا تخلو صفحة من هذا البحث دون الاشارة الى ابن الصغير ، اذ تناول الفتن التي تعاقبت على تيهرت واختصر الحديث عن كل امام ، واشار الى جوانب ثقافية هامة كذكر اسماء بعض العلماء الذين اهملتهم كتب السير والطبقات الاباضية .

(50) وداد القاضي : ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ، مجلة الاصالة عدد 45 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1395هـ/1975م .

(51) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ـ نشر موتيلنسكي ضمن : Actes du 14ème Congrés international des orientalistes a Alger 1905. imp. Orientale Paris 1908 ص 44 وانظر مقدمة الطبعة الثانية نشر موتيلنسكي كتاب ابن الصغير باللغتين العربية والفرنسية اذ ترجمه هو بنفسه . واعتمد في نشره على المخطوط الذي وجده في احدى مكتبات منطقة ميزاب الاباضية بالجنوب الجزائري ـ أنظر مقدمة المترجم ص 3 .

(52) ابن الصغير ، تاريخ ، ص 45 ، 48 .

وكان من الممكن أن يقتصر البحث على معلومات اليعقوبي الجغرافية في الباب الاقتصادي خاصة ، متعذرا بكون اليعقوبي هو الجغرافي الوحيد الذي زار المنطقة في أيام الرستميين ، الا أن الباحث رأى في ذلك تقصيرا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الصورة التي ينتهي اليها بالاعتماد على مصدر واحد ، لا تكون واضحة ولا تفي بالمقصود ، لهذا تجاوزنا حدود الزمن فاعتمدنا على ابن حوقل[57] المتوفى سنة 368هـ ، وعلى المقدسي شمس الدين محمد بن أحمد[58] المتوفى سنة 388هـ وعلى البكري أبي عبيد[59] المتوفى سنة 487هـ ، هذا بالاضافة الى ابن خرداذبة[60] المتوفى حوالي سنة 300هـ والادريسي[61] المتوفى سنة 548هـ ، وهو مغربي كصاحب[62] الاستبصار في عجائب الأمصار الذي عاش في القرن السادس الهجري . وياقوت الحموي[63] المتوفى سنة 626هـ . ولكن هؤلاء الاخيرين أستأنسنا بنصوص من كتاباتهم أكثر مما اعتبرناها حقائق لا تقبل التغيير ، بفعل تأخرهم زمانا عن الفترة المحدودة للبحث وهي القرن الثالث الهجري .

ـ ولا داعي الى تفصيل الحديث عن ابن حوقل والمقدسي ، وكلاهما مشرقيان زارا المغرب العربي ، خلافا لغيرهما الذين كتبوا عن أوضاع المغرب عن طريق النقل أو السماع . وأما البكري فهو اندلسي ، اعتمد أساسا في كتابة تأليفه الجغرافي على محمد بن يوسف أبي عبد الله التاريخي الوراق

(57) ابن حوقل : أبو القاسم النصيبي : صورة الارض ، ط2 ، مطبعة بريل ليدن . 1938 .

(58) المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط2 ، مطبعة بريل ، ليدن 1906م .

(59) البكري أبو عبيد الله : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، مطبعة الحكومة ، الجزائر ، 1857 ، أعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد بالاوفست .

(60) ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله عبد الله : المسالك والممالك ـ بريل ، ليدن ، 1889م .

(61) الادريسي : الشريف : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، تحقيق هنري بيريس الجزائر ، 1957 .

(62) مجهول : الاستبصار في عجائب الامصار ، تعليق سعد زغلول عبد الحميد ـ مطبعة جامعة الاسكندرية ، 1958م .

(63) ياقوت الحموى شهاب الدين ابو عبد الله بن عبد الله : معجم البلدان دار صادر ، بيروت 1397هـ/1977م .

الاندلسي المتوفى سنة 363هـ . وكتاب الوراق لم يصلنا ، ولحسن الحظ احتفظ البكري بجزء كبير منه . وكانت المعلومات التي زودنا بها فريده من نوعها ، لم يسبقه اليها أحد ، ونقلها عنه كل من صاحب الاستبصار وياقوت الحموي . والوراق كما يذكر الضبي[64] ألف ديوانا ضخما في مسالك افريقية وممالكها وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كما ألف في أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة وغيرها تواليف حسانا ، ولا شك أن نشأته بالقيروان ساعدته في ذلك .

وبديهي أن نقول إن معظم المصادر الجغرافية تتفق على ازدهار المغرب العربي زراعيا وعمرانيا ، وكل الجغرافيين معجبون بثروة المغرب وطقسه ومزروعاته الأمر الذي لا تنفرد به بلاد المغرب وحدها ، وانما كان عاماً يشمل جميع البلاد العربية الاسلامية في هذه الفترة ، التي تعتبر فترة الازدهار والرخاء الاقتصادي ، فعلا .

اضافة الى ما تقدم من المصادر الاولية المهمة ، فقد اعتمدت كتبا في العقائد كملل ونحل ابن حزم (ت 456هـ) أو الشهرستاني (ت 548هـ) وكتبا في الاعلام والطبقات كطبقات أبي العرب القيرواني (ت 333هـ) وجذوة الحميدي (ت 488هـ) وبغية الضبي (ت 599هـ) وحلة ابن الأبار (ت 658هـ) اضافة الى عيون الانباء لابن أبي أصيبعة (ت 668هـ) وطبقات النحويين للزبيدي (ت 379هـ) وغيرهم .

3 ـ المراجع الحديثة :

اعتمد الباحث على مراجع حديثة متنوعة ، كلها تتناول الدولة الرستمية من قريب وبعيد ، ولا أبالغ اذا قلت إنها كلها لا تمس الجانب الاقتصادي

(64) الضبي أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبع روخس ـ مجريط ، 1884م ، ص131 وأنظر كذلك المقري أحمد بن محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ، 1388هـ/1968م ـ أنظر الجزء3 ، ص117 .

هذا بالاضافة الى اشارات عميقة تمس الجانب الاقتصادي مسا مباشرا لا يمكن الاستغناء عنها .

وقد اطلقنا كامل الثقة على ما كتبه ابن الصغير ، وقدّمْناه على غيره في كثير من الاحيان ، لاسباب : أهمها أنه عاصر الاحداث التي أرخ لها أو على الاقل كان قريبا منها زمانا ومكانا ، ثم لأنه في بداية كتابه أوضح منهجه التاريخي ، الذي استطاع انْ يطبقه بحذافيره فعلا ، ويبين مقصده ، فكان محل ثقة اذ يقول « وكانت له قصص حكوها لا يمكن ذكرها الا على وجه ، وأن أتم الصدق فيها ولا أحرفها على معانيها ولا أزيد فيها ولا أنقص منها اذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات ولا من ذوي الديانات . وان كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ولمذاهبهم مستقلين فنحن وان ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعدلهم فيما ولوه ، فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم لما نعلمه من براءتهم ممن والاه رسول الله ﷺ وقال من كنت مولاه فعلي مولاه[53] .

وهكذا فان هذا النص يبين لنا ان ابن الصغير كان مؤرخا فعلا موضوعيا نزيها يتحرى الصدق والحق ، ويبدي اعجابه وتقديره للأئمة العادلين من الرستميين رغم عدم قناعته بالمذهب الذي ينتمون اليه[54] .

هذه بعض المصادر التاريخية التي اعتمد الباحث عليها ، أما غيرها من المصادر ، فلا غرابة اذا كان الباب الاقتصادي تطغى عليه المصادر الجغرافية ، اذ في هذه الفترة المتقدمة من تاريخ العرب والمسلمين ، كان المؤرخون لا يهتمون عادة الا بالامور السياسية ، وكانوا بعيدين عن أحداث المجتمع وتطوراته وما يتعلق به من أوضاع اقتصادية ، لهذا فان الجغرافيين العرب والرحالة سدوا هذا الفراغ ، بما قدموه من ملاحظات ومشاهدات

(53) ابن الصغير ، تاريخ ، ص 10 .

(54) عوض خليفات : نشأة ، ص9 ، وداد القاضي : ابن الصغير ، مجلة الاصالة ، عدد 45 ، ص49 ـ 53 .

لمختلف البلدان والامصار ، والمسالك المؤدية اليها ، والأقوام الساكنة فيها وعاداتهم وتقاليدهم ، وانشطتهم الزراعية والصناعية والتجارية ، وكل هذا من خلال وصف المناطق ، وصفا دقيقا ، نال اعجاب الباحثين المستشرقين فضلا عن العرب .

وأول المصادر الجغرافية التي اعتمد الباحث عليها ، كتاب البلدان لليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المتوفى سنة 284هـ . واليعقوبي يتحدث عن أسفاره ورواته فيقول لقد : « .... اتصلت أسفارى ودام تغربي فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره.... وساكنيه من هم من عرب أو عجم.... وديانـاتهم ومقالاتهم.... ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه »[55] .

وكان اعتمادنا عليه كبيرا اذ زار منطقة المغرب العربي ، ولا يستبعد أن يكون قد دخل تيهرت عاصمة الرستميين التي يقول أنها تعرف « بعراق المغرب » لكثرة أخلاط الناس بها[56] ، على حد تعبير اليعقوبي . وقدم لنا معلومات دقيقة حول طبيعة البلاد الزراعية والعمرانية والسكانية واللغوية والمذهبية ، فوصف الانهار والأراضي ، والمزروعات ، والمدن ، والمسالك المؤدية اليها ، وحددها بالمراحل أي بالأيام ، اذ كل مرحلة تعتبر يوما واحدا .

وقد أفدنا منه خاصة ، لمعاصرته الدولة الرستمية ، في رسم حدود هذه الدولة ، وقد لقينا في هذا عنتا كبيرا ، اذ فكرة الحدود في تلك الأزمنة ، ما زالت لم تتبلور وربما لم تعرف أساسا ، نظرا لسرعة تغير أحوال الدول وانتقال السيادة من دولة الى دولة ، ومن قبيلة الى أخرى ، وهكذا .

(55) اليعقوبي : البلدان ، ص 2 .

(56) نفسه : ص 104 .

4

ولا الفكري الا مسا خفيفا ، وانما صبت جل عنايتها على الجانب السياسي حسب فكانت تلك الدراسات ، مع كثرتها ، عبارة عن تكرارات لا غير ، ولا بد أن أشير هنا الى المراجع الحديثة التي تناولت تاريخ الدولة الرستمية ، انما تناولته من خلال دراسة التاريخ العام للمغرب العربي ، أو التاريخ العام للجزائر واستثنى من هذه الملاحظة الدكتور محمود اسماعيل في كتابه القيم « الخوارج في المغرب الاسلامي »[65] والاستاذ الفرنسي الباحث جيرارد دانجيل في رسالته للماجستير والموسومة : « الامامة الاباضية بتاهرت 761 ـ 909م[66] . وسأعود الى هذين الكتابين بعد أن أتحدث بشيء من الايجاز عن المراجع المعتمدة الاخرى . أبدؤها بكتب الشيخ أطفيش امحمد بن يوسف[67] امام الاباضية في القرن الماضي ، وهي كثيرة جداً ، وغزيرة المادة غزارة علم الشيخ وحافظته القوية ، الا أنها في مجموعها يطغى عليها الطابع الديني ، وخلال السطور والفقرات يعثر الباحث على ما يفيد البحث من أفكار جديدة يجدها القارئ مفرقة في صفحات هذه الرسالة .

أما الشيخ سليمان بن عبد الله الباروني واضع كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية حيث خصص القسم الثاني منه[68] للحديث عن الدولة الرستمية ، ولا شك أن الباروني سليمان ، بعامل مركزه الاجتماعي ،

(65) رسالة دكتوراة طبعة سنة 1976 بدار العودة ببيروت .

(66) Dengel Gerard: l'Imamat ibadite de Tahert (761-909) thèse de doctorat 3ème cycle. Strasbourg – Université des sciences humaines 1977.

(67) من الكتب المعتمدة للشيخ أطفيش «قطب الائمة» كما يلقبه الاباضية كتاب ازهاق الباطل بالعلم الهاطل طبعة حجرية سنة 1317 ، وكتاب الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد ، طبعة حجرية بلا تاريخ الطبع . كتاب ازالة الاعتراض عن محقيء ال اباض ، طبعة حجرية سنة 1301 ـ رسالة ان لم تعرف الاباضية ياعقبي ياجزائري طبعة حجرية 1328 ـ رسالة موسعة في تاريخ وادي ميزاب ـ طبعة حجرية ، سنة 1251 .

(68) الكتاب في جزأين . أحرق الجزء الأول مع مسودته على ما يبدو لما أصاب حريق مطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة سنة 1904م . ولحسن الحظ بقي الجزء الثاني فقط وهو خاص بتاريخ الدولة الرستمية ،(بلا تاريخ الطبع) وألف أبو الربيع سليمان الباروني كتابا بعنوان « مختصر تاريخ الاباضية » طبع في تونس سنة 1938م طبعة ثانية وكان يعتقد أن صاحب هذا الكتاب هو صاحب كتاب الأزهار نفسه ولكن ثبت أنه غيره ، وكذلك ألف عبد الله الباروني والد صاحب الأزهار الرياضية كتابا بعنوان « سلم العامة والمبتدئين الى معرفة أئمة الدين » طبع في مصر سنة 1324هـ ، وكل هذه الكتب تمس الدولة الرستمية مسا بعيدا ومن جانبها السياسي خاصة .

اذ ينتمي الى عائلة اباضية عريقة في ليبيا ، وعين في مجلس المبعوثان سنة 1914 ـ 1919م ، لما كانت ليبيا تابعة للدولة العثمانية . ولا أدل على مركزه هذا من زيارته لبغداد عام 1348هـ/1928م واستقبال الملك فيصل له ، وعين الملك غازي ابنه ابراهيم بن سليمان موظفا له في دائرته الخاصة بالبلاط ، مع الاستمرار في نفس الوقت في دراسته كطالب في كلية الحقوق ببغداد[69] . إن هذه العوامل كلها مع تتلمذه على الشيخ أطفيش السالف الذكر بمنطقة ميزاب الجزائرية[70] ، لا شك أنها ساعدته في اخراج كتابه الذي لا يختلف كثيرا في طرحه عن المصادر القديمة[71] ، كما أنه غني بالمادة تناول الدولة الرستمية من بداية نشوئها الى سقوطها ، مع ذكر مفصل لعاصمتها تيهرت .وبعض المدن الاخرى ، وبعض أعلامها البارزين ، كما أشار الى جوانب اقتصادية ذات أهمية واضحة ، واعتمد كثيرا على الشماخي وابن الصغير ، بل ربط نهاية أزهاره بنهاية كتاب ابن الصغير ، واقتبس منه نصوصا طويلة بحرفها الا أنه عندما يستخلص من رواية ابن الصغير أو غيره أفكارا تكون ممزوجة بروايات متعددة ، يسبق كلامه بكلمة «ممزوج » .

والدافع الذي حض الباروني على تأليف كتابه « الأزهار » ، الذي لا يستغني عنه باحث يريد الكتابة عن الدولة الرستمية ، هو أنه سمع شخصا يقول « ان الاباضية شرذمة قليلة لا ذكر لهم ولا شأن.... فهم أحقر الفرق.... لم تقم لهم قائمة ولا نسب اليهم ملك ولا فخر.... وتعجب زائدا.... لما علم بزيارتي (زار الباروني مدينة تيهرت سنة 1316هـ/1898م) الى مكان تيهرت.... فكان ذلك من أكبر الاسباب

(69) أبو اليقظان ابراهيم : سليمان الباروني باشا في أطوار حياته ـ المطبعة العربية ، الجزائر ، 1376هـ/1956م ، ج1 ، ص88 ـ 109 .

(70) الباروني : الازهار ، ج2 ، ص65 .

(71) عوض خليفات : نشأة ، ص41 .

الداعية لي الى ابراز فضائل هذه المدينة والبحث في صفحات التواريخ عنها.... »[72] .

والواقع أن كتاب الباروني ، كان من الممكن ادراجه مع المصادر القديمة ، وذلك لأسلوب طرحه ، وأسلوب كتابته ، والمصادر التي اعتمد عليها خاصة منها الاباضية ، ولم يشر اليها ، وكانت في متناول يده .

وهناك مؤلفات أخرى لمؤلفين اباضية ، كمؤلفات الشيخ علي يحي معمر التي تندرج تحت عنوان « الاباضية في موكب التاريخ » فقسمه الى حلقات عديدة تناولت نشأة الاباضية[73] في جزء والاباضية في ليبيا[74] في جزأين والاباضية في تونس[75] جزء آخر ، والاباضية في الجزائر[76] آخر حلقات كتابه المذكور ، وظاهر من العنوان أن معمر يؤرخ للمذهب الاباضي فقسم ذلك الى مراكز وجودهم قديما وحديثا ، ورتب أعلام المذهب كل الى البلد الذي ينتمي اليه ، واعتمد كثيرا على الشماخي وغيره من الكتب الاباضية التي كانت قريبة لديه .

ولعل القارئ يعتقد أن كتابه « الاباضية في الجزائر » وضعه للحديث عن الدولة الرستمية ، الامر الذي لم يقصده الشيخ معمر لذلك نجده يقول « من أراد أن يقرأ أخبار الدولة الرستمية وتاريخها المفصل فعليه أن يرجع الى ما ألف عنها خصيصا في القديم والحديث.... أما في هذا الكتاب فلست

(72) الباروني : الازهار ، ج2 ، ص12 ، هامش رقم 1 .

(73) معمر علي يحي : الاباضية في موكب التاريخ الحلقة 1 ، نشأة المذهب الاباضي ، مطبعة دار الكتاب العربي ، مكتبة وهبة القاهرة ، 1384هـ/1964م .

(74) معمر علي يحي : الاباضية في موكب التاريخ الحلقة 2 ، الاباضية في ليبيا ، قسمان ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، مكتبة وهبة ، القاهرة 1384هـ/1964م .

(75) معمر علي يحي : الاباضية في موكب التاريخ الحلقة 3 ، الاباضية في تونس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1385هـ/1966م .

(76) معمر علي يحي : الاباضية في موكب التاريخ الحلقة 4 ، الاباضية في الجزائر ، مطبعة الدعوة الاسلامية ، مكتبة وهبة ، القاهرة 1399هـ/1979م .

أتناولها الا بمقدار ما تكتمل به الصورة التي أريد أن أعرضها على القارئ.... »[77] .

ولهذا فان كتابه لم يتعرض لتاريخ الرستميين بشكل مباشر ، اللهم الا في تحليله لحادثة ابن عرفة[78] الذي قتل واتهم الامام أبو بكر بن أفلح (258هـ - 261هـ) بقتله للتخلص من سلطانه الواسع ، وقد حاول الشيخ معمر ، بتوفيق في نظري ، رفع التهمة عن أبي بكر وتحديد القاتل .

وكانت افادتنا من كتب معمر محدودة ، لا تكاد تتجاوز بعض التراجم أو الافكار التي انتهى اليها خاصة في الباب السياسي والفكري من هذا البحث أما الجانب الاقتصادي فلم يتطرق اليه اطلاقا . وككتبه السابقة الذكر كتابه « الاباضية بين الفرق الاسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث »[79] كانت افادتنا منه تقتصر على معتقدات الاباضية ، والكتاب من هذه الناحية قيم جدا لا يستغنى عنه في بابه .

وألف الشيخ علي ديوز كتابه الضخم « تاريخ المغرب الكبير » وهو في ثلاثة أجزاء ، خصص الجزء الثالث[80] لثورات الاباضية في المغرب العربي في شطره الاول ، أما الشطر الثاني ، فجعله خالصا لتاريخ الدولة الرستمية منذ نشأتها الى سقوطها ، فتعرض فيه الى دولة كل امام على حدة والتطورات التي حدثت في عهد كل واحد منهم ، ومدى ما بلغته من ازدهار ثقافي واقتصادي ، كثيرا ما بالغ فيها ، لتغلب العاطفة والبيان عليه اذ اهتم بها أكثر من اهتمامه بالمادة التاريخية الاولية التي تعتبر

(77) معمر : الاباضية في الجزائر ، ص 25 .

(78) محمد بن عرفة ، أحد المقربين من الامام أبي بكر ، كان ذا ثروة وجاه وسلطان ، صهر للإمام أبي بكر بن أفلح وصهره هذا . وشعبيته على ما يبدو هي التي أدت الى مقتله بحيث كما يقول ابن الصغير كانت الامامة بالاسم لابي بكر وبالفعل لابن عرفة . أنظر تفاصيل هذه الفتنة في ابن الصغير : تاريخ ، ص231 وما بعدها ، ومعمر علي يحي : الاباضية بالجزائر ، ص45 وما بعدها وأنظر كذلك الفصل الرابع من الباب الاول من هذا البحث .

(79) مطبوع في مطابع سجل العرب ، نشر مكتبة وهبة ، ط1 ، 1396هـ/1976م .

(80) ديوز محمد علي : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، 1383هـ/1963م

الاساس ، فلا غرو أن انقياده وراء هذا التيار هو الذي جعله يصنف الدول الاسلامية في المشرق والمغرب الى دول ملوكية مستبدة واخرى اشتراكية جمهورية ، فكانت دولة الاغالبة والعباسيين من الصنف الاول ودولة الرستميين من الصنف الثاني ونفس هذا التيار جره الى استعمال الاساليب البيانية كتشبيه أيام الدولة الرستمية مثلا ، بمفاتن المرأة ، معللا ذلك بتعليلات واهية[81] ، ولهذا السبب ، على ما يبدو ، تجرأ الشيخ علي يحي معمر لا تهامه بأنه « كان يفتش عن المرأة.... كما هو شأنه في كثير من أحداث التاريخ »[82] .

ان هذا المنهج الذي اتبعه الشيخ محمد علي دبوز ـ رحمه الله ـ والذي لا يمت بصلة الى منهج القدماء ، ولا الى منهج المحدثين ، اضافة الى عدم ذكره لمصادره في كثير من الاحيان ، جعلنا لا نعتمد على كتابه الذي فصل فيه تاريخ الرستميين تفصيلا ، وكان لنا في أزهار البارونية غنية عنه في دقته وحسن عرضه وإيراده مصادره . ورغم هذا كله فالكتاب لا يخلو من فائدة ولا سبيل الى تركه كلية لكل من يريد البحث في تاريخ المغرب العربي عامة وتاريخ الدولة الرستمية خاصة .

والحقيقة أن كتاب الشيخ دبوز ، فيما عدا هذا ، لا يختلف عن مؤلفات الاستاذ عثمان الكعاك ومحمد مبارك الميلي وعبد الرحمن الجيلالي ، وكلهم كتبوا عن الدولة الرستمية من خلال تأليفهم في تاريخ الجزائر العام .

ويرجع الفضل في هذا المجال الى الاستاذ عثمان الكعاك الذي ألف كتابه « موجز التاريخ العام للجزائر » في الوقت الذي كانت فيه الجزائر ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي ، ألفه ليستنهض به الهمم ، ويكشف عن تاريخ الجزائر المشرق وحضارتها القديمة التي طالما عمل الاستعمار على تشويهها

(81) ان مثل هذه التشبيهات والتصنيفات موزعة بشكل مكثف على صفحات كتابه .

(82) معمر : الاباضية في الجزائر ، ص 86 ..

وتزويرها وتشويش وجودها في عقول الجزائريين بحيث يشككهم في ماضيهم المجيد حتى لا يطالبون به ، وكاد أن يبلغ مرماه ، كما يقول الكعاك ، وهذا أكبر دافع للكعاك على وضع كتابه[83] الذي أحسن ترتيبه ، بحيث تناول تاريخ الجزائر منذ عصورها القديمة ، عصرا فعصرًا ، ثم دولة فدولة .

وفي علمي ، يعتبر كتاب الكعاك أول مرجع حديث تناول تاريخ الجزائر عامة وتاريخ الدولة الرستمية ضمناً خاصة ، فتطرق فيه الى الناحية السياسية والادارية والثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والحدود ، كل ذلك بشكل موجز تماشيا مع العنوان . وقد افادنا الكتاب كثيرا في أغلب فصول هذا البحث ، وكان اعتمادنا عليه مستمرا مع الرسالة .

وعلى منوال الاستاذ الكعاك نسج محمد المبارك الميلي كتابه « تاريخ الجزائر في القديم والحديث »[84] وعبد الرحمن الجيلالي كتابه « تاريخ الجزائر العام »[85] ، ولا يختلفان عنه كثيرا ، كما لا يختلف عنهم جميعا الدكتور ابراهيم أحمد العدوي في كتابه « بلاد الجزائر ، تكوينها الاسلامي والعربي[86] » . والدكتور عبد العزيز سالم في كتابه « المغرب الكبير »[87] اذ هم جميعا اعتمدوا على الكعاك أو نقل المتأخر منهم من المتقدم ، دون اضافات جوهرية تذكر .

(83) الكعاك عثمان : موجز التاريخ العام للجزائر ، منذ العصر الحجري الى الاحتلال الفرنسي ، مطبعة العرب . تونس ، 1344هـ/1925م أنظر المقدمة .

(84) الميلي محمد مبارك : تاريخ الجزائر القديم والحديث ، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ، 1350هـ ـ الجزء الثاني خاصة .

(85) الجيلالي عبد الرحمن : تاريخ الجزائر العام ، مكتبة الشركة الجزائرية منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ، ط2 ، 1384هـ/1965 الجزء الاول خاصة .

(86) العدوي ابراهيم أحمد : بلاد الجزائر ـ تكوينها الاسلامي والعربي المطبعة الفنية الحديثة ـ مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1970م .

(87) سالم عبد العزيز السيد : المغرب الكبير ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1981م الجزء الثاني خاصة .

ويختلف عن هؤلاء ما كتبه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في كتابه « تاريخ المغرب العربي »[88] والاستاذ رابح بونار في كتابه « المغرب العربي تاريخه وثقافته »[89] اذ اتسمت كتابتها بالدقة العلمية ، خاصة الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، أما الاستاذ بونار فتركيزه على الجانب الثقافي ميز كتابه عن الكتب الاخرى ، لهذا كانت افادتنا منه في الجانب الفكري خاصة ، كما ساعدنا معجم اعلام الجزائر لعادل نويهض[90] وكتاب « تاريخ ليبيا » للدكتور احسان[91] عباس في هذا الجانب أيضا .

ولا يستغني باحث عن كتابي « نشأة الحركة الاباضية » للدكتور عوض خليفات[92] . و« الحركة الاباضية في المشرق العربي » للباحث مهدي هاشم طالب[93] فكلاهما توصل الى نفس النتائج تقريبا فيا يخص نشأة الحركة الاباضية ، وامامها جابر بن زيد الأزدي ، ومعتقداتها المعتدلة التي تختلف بها اختلافا كبيرا عن فرق الخوارج التي تنسب اليها ، ويرفض الاباضية هذه النسبة ، ويطلقون على أنفسهم أهل الحق والاستقامة ، وهي التسمية التي يفضلونها .

ويتميز كتاب عوض خليفات بتطرقه الى تاريخ المغرب السياسي ، بحيث بحث أسباب تسرب الإباضية الى هذه المنطقة ، وكيفية ذلك ، وتابع مراحل تأسيس الدولة الرستمية من طرف عبد الرحمن بن رستم ، وتوقف

(88) زغلول عبد الحميد سعد : تاريخ المغرب العربي - ليبيا -تونس ، الجزائر ، المغرب ، دار المعارف مصر 1384هـ/1964م .

(89) بونار رابح : المغرب العربي تاريخه وثقافته - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط2 ، الجزائر ، 1981م .

(90) نويهض عادل : معجم أعلام الجزائر : من صدر الاسلام حتى منتصف القرن العشرين - منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ط1 ، 1971م .

(91) احسان عباس : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري ، دار صادر ، دار ليبيا ، ط1 ، بيروت ، 1387هـ/1967م .

(92) سبق التعريف بمعلومات هذا الكتاب الذي طبع سنة 1978م .

(93) مهدي هاشم طالب : الحركة الاباضية في المشرق العربي ، نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، رسالة ما جستير في التاريخ الاسلامي - كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1397هـ/1977م .

عند تأسيسها وكان في هذا المجال خير مرجع أفدنا منه واعتمدنا عليه جنبا الى جنب مع كتاب الخوارج في المغرب الاسلامي لمحمود اسماعيل .

ولعل الدراسات القيمة التي وضعها الدكتور الحبيب الجنحاني في التاريخ الاقتصادي المغربي ، تعتبر من أهم الركائز التي قام عليها هذا البحث رغم قلتها وتكرارها بعناوين مختلفة في بعض الاحيان[94] ، اذ استطاع أن يرسم بدراساته تلك ، معالم الاقتصاد الرستمي ، فضلا عن دور تيهرت الذي ركز كل اهتماماته عليه من جميع الجوانب .

أما الدكتور محمود اسماعيل في كتابه الخوارج في المغرب الاسلامي وهو عبارة عن بحث للدكتوراه على ما يبدو ، فقد أجاد في طرحه لهذا الموضوع الى أبعد حد ، خاصة من الناحية السياسية التي شغلت معظم الكتاب . والجدير بالذكر أن« الخوارج في المغرب الاسلامي » لا يشمل الاباضية ودولتها وحدها ، وانما أيضا الصفرية والدولة المدرارية بسجلماسة ، وهذا ما يجعل الكتاب لا يخص التاريخ الرستمي وحده ، فاذا كان محمود اسماعيل قد تطرق الى تاريخ كل دولة من الدولتين ، كل واحدة على حدة ، فانه قد قام بهذا في الابواب السياسية لا غير ، وهي الأبواب التي تطغى على معظم الكتاب . أما الباب الخامس والاخير الذي خصصه لأثر الخوارج في المجتمع المغربي ، فإنه سلك فيه مسلكا آخر ، اذ تناول تلك الآثار ، التي يقول عنها « ونظرا لما أحدثه الخوارج من آثار اقتصادية واجتماعية وثقافية فضلا عن آثارهم السياسية في بلاد المغرب ، ولما كانت تلك الجوانب تحتاج لدراسة مستفيضة مستقلة فقد آثرنا أن نفرد لها الباب الخامس من

(94) الجنحاني الحبيب : المغرب الاسلامي ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية (3-4هـ/9-10م) الدار التونسية للنشر ، تونس ، جوان 1977 ، من ص97-142 .

الجنحاني الحبيب : دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي ، ط1 ، دار الطليعة بيروت ، 1980 وأنظر كذلك المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية : « تاهرت عاصمة الدولة الرستمية 161هـ - 296هـ/777م - 909م » ، عدد 40/43 ، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم ، أفريل 1975 .

الرسالة[95] » ، أقول تناولها بايجاز بعكس ما يمكن أن نتصوره من النص الذي ذكرناه ، والذي أورده في مقدمة كتابه ، من هنا فانه لم يخصص للحديث عن الحياة الاقتصادية والثقافية ، الا بضعة عشر صفحة مركزة تشترك فيها الدولتان المدرارية الصفرية والرستمية الاباضية ، وهو اختصار بطبيعة الحال مخل بالمقصود ، الا ان اعتناءه بالجانب السياسي هو أجود ما يطلب في هذا الكتاب ، لذلك تجد الباحث في هذا المضار ، قد اعتمده بكثرة .

أما ما يخص المجلات العربية التي تطرقت لتاريخ الرستميين ، فنذكر خاصة مقال الأستاذ محمد بن تاويت بعنوان « دولة الرستميين أصحاب تاهرت » الذي نشره بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد[96] ، وقد تناول فيه الحديث عن المراحل السياسية التي مرت بها الدولة الرستمية ، مثل الفتن والثورات التي شهدتها تيهرت خاصة ، ولم يتطرق للجانب الاقتصادي أو الثقافي .

وتعتبر مجلة « الاصالة » الجزائرية أهم مجلة نشرت فيها عدة دراسات ومقالات حول تاريخ الدولة الرستمية ، وأغلبها يدور حول الجانب السياسي لهذه الدولة ، وكانت أغلب تلك الدراسات والمقالات قبل نشرها في المجلة المذكورة قد القيت محاضرات في ملتقى الفكر الاسلامي[97] الحادي عشر المنعقد في مدينة وارجلان احدى حواضر الدولة الرستمية . وهذا سنة 1977م .

(95) محمود اسماعيل ، الخوارج ، ص 21 .

(96) محمد بن تاويت الطانجي : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، م5 ، عدد 1-2 ، مطبعة معهد الدراسات بمدريد ، 1377هـ/1957م .

(97) دأبت وزارة الشؤون الدينية بالجزائر ، التي تشرف على الملتقى المذكور على نشر جميع المحاضرات التي تدرج في الملتقى في كتاب واحد يحمل عنوان الملتقى وعدده ، فرغم أن الفترة الزمنية لملتقى وارجلان بعيدة ست سنوات تقريبا ، فان هذا الكتاب مازال لم ينشر ، ويبدو أنه نشرت محاضرات ملتقى بعده ، وترك هو . فما أحوجنا الى نشر جميع أعمال الملتقيات أولا بأول ، كما التزمت بذلك الوزارة فيما سبق .

من المحاضرات التي نشرت في مجلة الأصالة « لمحات من دور الدولة الرستمية في ميادين الحضارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين » للشيخ المهدي البوعبدلي[98] ، و« من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى مكتبة المعصومة بتاهرت » للدكتور لقبال موسى[99] و« الفن الرستمي بتاهرت وسدراته » للدكتور رشيد بورويبة[100] و« دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب » للدكتور مختار ابراهيم[101] و« ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري » للدكتور عمرو خليفة النامي[102] ، والمحاضرة القيمة للدكتورة وداد القاضي[103] التي تناولت فيها شخصية المؤرخ ابن الصغير وهي بعنوان « ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية » ومحاضرة الدكتور احسان عباس[104] « المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين » و« الرستميون قنطرة صلة بين الجزائر والاندلس من خلال الاباضية » للدكتور المستشرق سلفادور غومت نوغاليس[105] ، أما مجلة «سرتا» التي يصدرها معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة ، فقد نشرت مقالا للاستاذ فيلالي عبد العزيز[106] بعنوان « جوانب من العلاقات التجارية بين الرستميين والأمويين في الأندلس » .

لقد أفدت من هذه المحاضرات والمقالات وغيرها ، كما أفدت مما كتب باللغة الفرنسية من مقالات نوجز الحديث عنها فيما يلي :

التفت المستشرقون الفرنسيون خاصة ، الى الدراسات التي تتناول

(98) الأصالة ، عدد 41 عام 1397هـ/1977م .

(99) الأصالة ، عدد 41 سنة 1397هـ/1977م .

(100) الأصالة ، عدد 41 ، 1397هـ/1977م .

(101) الأصالة ، عدد 42 ـ 43 ، 1397هـ/1977م .

(102) الأصالة ، عدد 42 ـ 43 ، 1397هـ/1977م .

(103) الأصالة ، عدد 45 ، 1397هـ/1977م (وطبع على الغلاف خطأ سنة 1975م) .

(104) الأصالة ، عدد 45 ، 1397هـ/1977م .

(105) الأصالة ، عدد 46 ـ 47 ، 1397هـ/1977م .

(106) سرتا ، عدد 3 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، رجب 1400هـ/ماي 1980م .

الاباضية من مختلف نواحيها ، في نهاية القرن الماضي ، وبالضبط سنة 1878 لما نشر المستشرق ما سكراي أميل (Masqueray Emile)[107] ترجمة لكتاب سير الأئمة وأخبارهم للشيخ أبي زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني ، وأشار في مقدمته الى أهمية دراسة كتب الاباضية[108] . وهكذا تناولت الدراسات الاوروبية منذ ذلك التاريخ ، دراسة تاريخ المذهب الاباضي وما يتعلق به ، فطرق تاريخ الدولة الرستمية من هذه النافذة ، كما طرق مع الدراسات التي وضعت لتاريخ المغرب العربي .

وأشير هنا الى أن الباحث اعتمد على ما كتب باللغة الفرنسية حسب ، مع وجود دراسات عديدة وقيمة بمختلف اللغات الاوروبية ، تناولت دراسة المذهب الاباضي ومناطق وجودهم ، الا أن أغلبها لم يتطرق الى الدولة الرستمية .

وهكذا ظهرت بالفرنسية عقيدة التوحيد لعمرو بن جميع نشرها المستشرق موتيلنسكي (Moutylinski)[109] ، سنة 1905 ، كما نشر تاريخ ابن الصغير سنة 1909 من المخطوطة الفريدة التي وجدها في منطقة ميزاب نشرها بالعربية مع ترجمة فرنسية لها[110] ، وكلا العملين قدمها الأستاذ المذكور الى المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين الذي انعقد بالجزائر سنة 1905م .

كتب لويتسكي (Lewicki) عدة مقالات مهمة عن الاباضية نشرها في مختلف الدوريات الاجنبية ، كدراسته لكتاب سير الشماخي : قيمته وموارده ومؤلفه[111] . وفي سنة 1955 نشر مقالا بعنوان « تسمية شيوخ

---

(107) سبق التعريف بالكتاب Masqueray–E : opcit.

(108) Basset. R : Les sanctuaires du Djebel Nefousa, extrait du journal Asiatique (J.A.) 9ème serie, Tome XIII, imp. National, N° Mai-Juin-Juillet-Aout 1899, p. 6.

(109) Moutylinski A de C : l'Aquida des Abadhites, Recueil de mémoires et de textes publié en l'honneur du 14ème Congrès des orientalistes. imp. orientale Alger, 1905.

(110) Moutylinski A de C : Chronique d'Ibn Saghir, opcit.

(111 Lewicki T : Une Chronique Ibadite, opcit.

جبل نفوسة وقراهم »[112] اقتبس نصه من سير الشماخي . وتحدث في مقال آخر له عن البربرية والاباضية[113] ، الا أن أهم عمل له اعتمدناه فعلا هو « دولة تاهرت في شمال افريقيا وعلاقاتها بالسودان الغربي »[114] . اذ تناول فيها علاقة تيهرت التجارية بالسودان ، فتطرق الى ممالك السودان والمسالك المؤدية اليه ودور التجارة الاباضية في تلك المنطقة ، وذلك النشاط .

وهناك دراسة تناولت بقايا تيهرت ، وضعها الاستاذ مارسيه مع دوسوس لامار (Marçais–G. et Dessus–L) سنة 1941 ونشرها سنة 1946 في المجلة الافريقية[115] ، ولمارسيه عدة دراسات قيمة تطرق فيها الى جوانب من تاريخ الدولة الرستمية ، ككتابه الموسوم « تاريخ القرون الوسطى »[116] أو كتابه « بلاد البربر في العهد الاسلامي والمشرق في العصر الوسيط »[117] ومقاله « بلاد البربر في القرن التاسع الميلادي كما وصفه اليعقوبي[118] » .

وقد اعتمد الباحث كثيرا على ما كتبه الاستاذ المستشرق موريس لومبارد خاصة في الباب الاقتصادي ، اذ نشر سنة 1947 مقالا بعنوان « الدعائم النقدية ذات القوة الاقتصادية : الذهب الاسلامي من القرن

---

(112) Lewicki T : Etudes Ibadites Nord-Africaines, tasmya suyuh gabal Nafusa wa qurahum PI, Warazawa, 1955.

(113) Lewicki T : Mélanges berbères ibadites, extrait de la revue des études islamiques, cahier III, Imp. Aerault, Paris 1936.

(114) Lewicki T : l'Etat Nord Africain de Tahert et ses relations avec le soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle. Cahiers d'Etudes Africaines, Vol. II N° 8, Paris, 1962.

(115) Marçais G. et Dessus L. : Tihert-Tagdemt Revue Africaine, TXC, 91e année, Alger 1946.

(116) Marçais G. Charles Diehl : Histoire du moyen ag-, TIII, les presses universitaires de France, Paris 1936.

(117) Marçais G : La berberie musulmane et ı orient au moyen age, Alger, 1946.

(118) Marçais G : La berberie au IXe siècle d'après El ya'quoûbi Extrait de la revue Africaine, N° 386-387, société Historique Algérienne Alger, 1941.

الثامن حتى التاسع الميلادي »[119] . وكانت افادتنا من كتابه المترجم الى العربية بعنوان «الجغرافيا التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون الأربعة الاولى »[120] ، كبيرة خاصة في التجارة مع السودان .

وللاستاذ أندري نيفر (André Négre) مقال يمس الجانب السياسي ، خاصة ملابسات سقوط الدولة الرستمية ، كما يوضح العنوان[121] وأفدنا من كتاب عبد الله العروي الذي وضعه بالفرنسية ، وهو في تاريخ المغرب[122] وأهم فكرة لديه أن الدولة الرستمية هي عبارة عن دولة مدينة ، اذ هي في نظره لا تتعدى مدينة تيهرت ، وهو ما قمنا بالرد عليه معتمدين على النصوص القديمة والدراسات الحديثة .

وفي سنة 1957م نشر الاستاذ شيخ بكري بالفرنسية مقالا قيما عن « الخوارج في بلاد البربر » ركز فيه الحديث عن الدولة الرستمية[123] ، فتناول في البداية بعض معتقدات الاباضية ثم تطرق الى ادارة الدولة الرستمية فحدودها والحياة الفكرية ثم العلاقات الخارجية ، وكل هذا بشكل مختصر جدا ومركز يمكن أن نصفه برسم معالم الحضارة الرستمية التي تألقت بالعاصمة تيهرت على الخصوص .

ولا يستغني باحث عن المقال الجيد الذي نشره فاناكر (Vanacker Claudette) حول « الجغرافية الاقتصادية لشمال افريقيا كما وصفها المؤلفون

(119) Maurice lombard : Les bases monetaires d'une suprematie économique, l'or musulman du VII• au XI• siècle Annales Economies-Sociétés civilisations N° 2 Avril-Juin 1947.

(120) لومبارد ، موريس : الجغرافيا التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ، ترجمة عبد الرحمن حميدة . دار الفكر ، دمشق 1399هـ/1979م .

(121) André Négre : La fin de l'état Rustamide revue d'histoire et de civilisation du maghreb, Faculté de lettres d'Alger Alger, Juillet 1969.

(122) Laroui Abdallah : l'Histoire du maghreb, 1975 opcit.

(123) Bekri-chikh : Le kharijisme berbère, quelques aspects du royaume Rustamide. Annales de l'institut d'études orientales (A.I.E.O.) TXV, édition Alger, 1957.

العرب من القرن التاسع الى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي »[124] وخاصة الخرائط العديدة القيمة التي وشح بها الاستاذ دراسته وتناولت مختلف المزروعات والانهار والمسالك والمرافيء والمصانع التي ذكرها الجغرافيون وخصص لكل صنف من هذه الاصناف خريطة وأشار بجانبها الى الجغرافيين الذين اعتمد عليهم في رسم خريطته .

أما أهم دراسة وضعت للاباضية وتاريخ الدولة الرستمية بشكل عام هي ما قام به الاستاذ الباحث جيرارد دانجيل في أطروحته القيمة المستوفية « الامامة الاباضية بتاهرت » تناول فيها تاريخ الدولة الرستمية منذ نشأتها الى سقوطها ، أحداثها السياسية ، والحياة الاجتماعية ، والحدود ، والمؤسسة الادارية ، والحياة الاقتصادية ، والحياة الثقافية والفنية والعلاقات الخارجية ، فكانت أطروحته بهذا شاملة لجميع الأنشطة التي شهدتها الدولة الرستمية ؛ وقد أفدت منه خاصة في الباب الاقتصادي الذي أحسن ترتيبه ورجع فيه الى مراجع حديثة مهمة متوفرة بين يديه ساعدته على كتابة ذلك الباب أما الباب الفكري ، فبقدر ما أبدع في الاقتصاد فانه لم يأت بجديد في الفكر واختصر الحديث عنه ، واكتفى ببعض الاشارات الى دور الحكام ، وتسمية بعض الاعلام الاباضية دون غيرهم ، وتطرق الى تطورات التعريب وحدوده والكتابات البربرية اضافة الى الحياة الفنية .

والجدير بالذكر أن دانجيل اقتصر حديثه عن الاباضية فقط ، على أساس أن هذا المذهب هو السائد آنذاك وهو المذهب الحاكم ، فلم يتطرق الى المذاهب الاخرى الا بقدر تأثيرها في الاباضية أو تأثرها بها ، فلم يذكر علماء المالكية مثلا ، كما أن دراسته يغلب عليها الطابع السياسي ، فقد خصص للسياسة ستة أبواب من بين الأبواب الثمانية لرسالته ، وخصص

(124) Vanacker Claudette : Géographie économique de l'Afrique du nord selon les auteurs arabes du IX• au milieu du XII• siècle in annales économies, sociétés, civilisations (A.E.S.C.) 28•, année, N° 3 Mai-Juin, Paris, 1973.

فصلين لغير ذلك من الجوانب : وهما الاقتصادي المستوى الجيد ، والثقافي الناقص . والرسالة على العموم ممتازة استفدت منها كثيرا ، لخاصة في عرض أو طرح بعض القضايا المهمة في التاريخ الرستمي .

هذه هي أم المراجع التي اعتمدتها وراجعتها ، يضاف اليها بعض مواد دائرة المعارف الاسلامية التي كتبها مارسيه أو ليفسكي ، وأما غيرها من المراجع ذات الأهمية الثانوية وهي كثيرة كثرة المصادر الأولية أيضا ، فان الاشارات اليها في الهوامش تكفي لتبيان طبيعة استعمالها ، وأهميتها بالنسبة للبحث .

﴿ المدخل ﴾

الأوضاع السياسية العامة في المغرب العربي قبل سنة 160هـ/777م

إن التحدث عن الأوضاع السياسية العامة في المغرب العربي ، قبل سنة 160هـ ، تاريخ تأسيس الدولة الرستمية ، يفرض علينا الرجوع شيئا قليلا الى أوضاع المشرق العربي ، اذ أن المغرب كان في هذه الفترة مرتبطا ارتباطا مباشرا بالمشرق ، وهو في نفس الوقت على أبواب الانفصال عنه ، سياسيا ، واداريا شيئا فشيئا .

ان الملاحظ لأوضاع المشرق العربي ، قبل سنة 160هـ يجدها تتميز فيما تتميز به من خصائص ، بميزتين اثنتين هما :

1 - ثورات[*] الخوارج .

2 - انهيار الدولة الأموية ، لتحل محلها الدولة العباسية سنة 132هـ وما رافق كل ذلك من أحداث .

فالمتدبر في هاتين الميزتين ، والعلاقة بينهما ، يلاحظ جيدا مدى تأثير إحداهما على الاخرى ، اذ ان للخوارج الدور الاساسي في اسقاط الدولة الأموية ، حيث أنها استنزفت قواها ، وأرهقت خزينتها بتكاليف محاربتهم دون جدوى ، فكلما قضت على ثورة لهم اندلعت أخرى[1] .

(*) أعني بكلمة ثورة هنا ، وفي المواضع الأخرى التي ترد فيها من هذه الرسالة : كل قيام مسلح ضد السلطان ، أو الدولة القائمة ، سواء نجحت الثورة أو فشلت ، وسواء كانت نافعة النتيجة أم ضارة . ولم أرد أن أكثر من استعمال الكلمات المتعددة التي قد تصف الثورات بصفات قد تكون أكثر تدقيقا مثل الفتنة والعصيان والتمرد.... فالقصد هو التذكير بالقيام ضد الدولة ، لا تخصيص نوع هذا القيام وبيان طبيعته .

(1) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج1 ، ط6 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1961 ص 387 - 388 .

والحقيقة أن السلطة الأموية ، بدورها ، كانت قد أضعفت الخوارج ولاحقتهم في كل مكان ، وقتلت من زعمائهم عددا كبيرا ، مما دفعهم الى التفكير جديا في مصير حركتهم ، وبالتالي ايجاد طرق جديدة لاستمرارها[2] ، ومن هنا فكروا في التوجيه نحو الاماكن القصوى بعيدا عن مركز الخلافة ، فمنهم من توغل باتجاه المشرق ، ومنهم من قصد بلاد المغرب .

والواقع ، أن الخوارج ، لما وصلوا الى المغرب ، استطاعوا ان ينشروا أفكارهم ، ويتوغلوا بين القبائل البربرية ، ويناوئوا عمال بني أمية بسكان المغرب أنفسهم ، مما طبع حركاتهم بالطابع المحلي ، وبالتالي اقتضت الضرورة تكثيف الجند العربي القادم من المشرق ، بإفريقية خاصة ، لمواجهة البربر الخوارج .

وفي غمرة الانتصارات الاولى التي حققها الخوارج في المغرب ، عرف المشرق تطورا خطيرا قلب الاحداث رأسا على عقب ، ذلك هو انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية 132هـ كقوة فتية ، جديدة ، في ريعان شبابها ، الأمر الذي أثبت للخوارج حتمية نقل نشاطهم السياسي الى مراكز بعيدة خاصة وأن العباسيين اختاروا موضع بغداد عاصمة لهم ، وبالتالي قد أصبحوا بجوار البصرة احدى المراكز الأساسية لحركتهم .

وبديهي ، أن نعرف أن العباسيين في البداية ، اهتموا بشؤونهم الخاصة ، كتدعيم أركان دولتهم ، وتثبيت قواعد ملكهم بالمشرق ، وبالتالي فانهم لم يعيروا كبير اعتناء بالشؤون المغربية في هذه الفترة . وما أن تمكنوا من بسط نفوذهم بالمشرق ، حتى ظهر اهتمامهم بالمغرب جليا[3] ويعتبر الخليفة المنصور (132هـ ـ 158هـ) أول من اتجه بنظره ، من الخلفاء العباسيين

(2) محمود اسماعيل ، الخوارج ، ص 35 ـ 36 ، الجيلالي : تاريخ الجزائر ، ج1 ، ص202 .
(3) عوض خليفات : نشأة ، ص 102 ، دبوز : تاريخ المغرب ، ج3 ، ص4 ـ 5 .

نحو المغرب ، مهتما بشؤونه وأحداثه التي طغت عليها في عهده ثورات الخوارج اذ ، تمكن هؤلاء عدة مرات من دخول القيروان ، أول مدينة عربية بالمغرب العربي ، وقاعدته ومقر حكمه .

هذه هي وضعية المشرق باختصار ، قبل بنة 160هـ ..أردت من ذكرها ربط أحداث المغرب بالمشرق ، اذ كان المغرب في تلك الفترة جزءا من الخلافة الاسلامية المترامية الاطراف .

أما المغرب العربي ، الذي التجأ اليه الخوارج لمواصلة نشاطهم السياسي ، فقد وجدوه مهيأ لتقبل أفكارهم ، إذ أن بعض ولاة بني أمية على المغرب كانوا يسوسونه بالشدة والظلم والجور[4] . ومازال البربر صابرين على ذلك حتى جاءتهم الوفود الاولى من الخوارج الهاربين من العراق[5] ، فاعتنقوا مبادئهم التي كانت تدعو الى الثورة والمساواة والعدل . وهي مبادئ تتسق مع صفات المغاربة وطباعهم وعقليتهم[6] .

والجدير بالذكر أن من بين فرق الخوارج العديدة ، لم تنتقل الى المغرب إلا فرقتان فقط ، هما الاباضية[7] والصفرية[8] . وتروي المصادر الاباضية ، أن أول داع لمذهبها ببلاد المغرب هو سلمة بن سعيد جاء من البصرة مع

(4) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 239 ـ 240 ، محمود اسماعيل الخوارج ، ص 32 ـ 33 .
وأنظر خاصة ماقام بفعله يزيد بن أبي مسلم ، عامل بني أمية ، سنة 102هـ اذ أراد أن يسم في يمين الرجل اسمه ، وفي يساره كلمة «حرسي» وكذلك أساء عمر بن عبيد الله المرادي ، عامل ابن الحبحاب على طنجة وما والاها ، السيرة وتعدى في الصدقات والقسم وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فيءٌ للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية ، ص 99 – 109 . والحقيقة أن هذه الذلة والمهانة التي شعر بمرارتها البربر كانت السبب المباشر في ثورتهم الاولى سنة 122هـ كما سوف نرى .
(5) ابن الأثير : الكامل ، ج3 ، ص 92 ، ابن خلدون : العبر ج6 ، ص 220 .
(6) ابن خلدون : نفسه ، ج6 ، ص 207 ، محمود اسماعيل : الخوارج ص 35 .
(7) الاباضية نسبة الى عبد الله بن اباض الذي كان معاصرا لعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي (65هـ ـ 86هـ) أنظر الفصل الأول من الباب الاول عن نشأة الاباضية وبعض عقائدها .
(8) الصفرية هم أتباع عبد الله بن الصفار واليه النسبة . وقيل سموا بذلك لصفرة وجوههم من كثرة العبادة وهو ضعيف . أنظر للمبرد أبو العباس : الكامل ، باب الخوارج ، دار الحكمة ، دمشق ، 1972 ، ص 105

عكرمة مولى عبد الله بن عباس . وكان بعكرمة يدعو الى الصفرية ، وسلمة يدعو الى الاباضية ، ولشدة حرص هذا الا... ير على نشر الاباضية ، كان يتمنى أن لو ظهرت ولو يوما واحدا من أول النهار الى آخره ، ولا يأسف إن ضربت عنقه بعد ذلك[9] . ويرى الدكتور محمود اسماعيل أن أول بدايات ظهور الخوارج بالمغرب ، كان في أواخر القرن الأول ، وأوائل الثاني الهجريين[10] ، اذ أن عكرمة توفي حوالي سنة 105هـ كما تشير الى ذلك بعض المصادر[11] ، وكما أكده الدكتور عوض خليفات[12] .

إن الرواية الاباضية المذكورة اذن ، تجعل بدايات ظهور مذهبها في المغرب ، مع نهاية القرن الأول وبداية الثاني ، وهذا لا يعني ان الخوارج لم يكونوا بالمغرب قبل ذلك التاريخ ، فمن المحتمل أنهم وفدوا عليه واستوطنوه كلما لحقت بهم هزيمة في المشرق العربي ، وضاقت عليهم الارض .

ـ إنَّ الاباضية والصفرية ، بعد ما جاء داعيتاهما الى المغرب ، استطاعا أن يحققا نجاحا باهرا في نشر دعوتيهما ، اذ اعتنق البربر المذهبين بكثرة وأخلصوا لهما ، ووجدوا في مبادئهما ما يطابق ميولهم وعقليتهم ، اضافة الى أنهما جاءا في فترة حساسة جدا ، اذ أن البربر قد ضاقوا ذرعاً بحكم الولاة الأمويين وجورهم ، وربما استغلوا خصومات العرب المشهورة فيما بينهم من قيسية ويمنية[13] . وهكذا تكون الأسباب قد تكاثفت لقيام ثورات البربر أو ثورات الخوارج في المغرب العربي ، ابتداء من سنة122هـ . وتستمر دون

(9) أبو زكرياء : سير ، ص 25 ـ 26 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص11 ـ 12 ، الشماخي : سير ، ص 123 .

(10) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 36 ـ 39 .

(11) ابن سعد محمد : كتاب الطبقات الكبير ، م5 ، تحقيق ادوارد سخو مطبعة بريل ليدن ، 1905م ، ص 215 ـ 216 ، ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، م7 ، ط1 ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، الهند ، الدكن ، 1325هـ/ص 271 ـ 273 .

(12) خليفات : نشأة الحركة الاباضية ، 122 ـ 124 .

(13) حسين مؤنس : فجر الأندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الأموية (711 ـ 756م) ط1 ، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ، 1959 ، ص 144 .

توقف إلى أن يؤسس الصفريون دولتهم المدرارية بسجلماسة في المغرب الاقصى ، ويؤسس الاباضية دولتهم الرستمية في المغربين الأوسط والادنى .

وهكذا ، فان أوضاع المغرب العربي قبل سنة 160هـ تتميز بتلك الثورات[14] التي قامت على طول البلاد وعرضها ، ومن هنا ، فقد عرف المغرب عدة ثورات ، كان من أهمها الثورة الأولى سنة 122هـ ، وكانت ثورة بربرية صفرية قادها ميسرة المطغرى . وثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني الاباضية سنة 140هـ . وسنقتصر على ذكر هاتين الثورتين فقط ، اذ أن الاولى كانت الممهدة لانشاء الدولة الصفرية ، بينما الثانية مهدت لانشاء الدولة الاباضية بالمغرب العربي .

وقبل أن أتطرق لتينك الثورتين ، يجدر بنا أن أشير الى أن الصفرية اختاروا المغرب الاقصى وتمركزوا فيه ، مع انتشار قليل في المغرب الأدنى وافريقية . أما الاباضية ، فقد كانوا ينتشرون من المغرب الادنى الى الاوسط إذ اعتنقت الاباضية قبائل نفوسة وهوارة ولماية وزناتة وسدراتة وزواغة ولواتة[15] لهذا فان ثورات الصفرية ، انطلقت من المغرب الاقصى ، ثم تأسست دولتهم فيما بعد ذلك . أما ثورات الاباضية ، فقد كانت تدور دائما في المغرب الأدنى وافريقية . ولما يئسوا من تلك البلاد ولوا وجوههم شطر المغرب الاوسط وقد استطاعوا في النهاية ، أن يؤسسوا دولتهم بعيدا عن القيروان ، مركز الجيوش العباسية وهدفها .

(14) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج1 ، ص 52 ـ 59 ، 69 ـ 79 وراجع ابن خلدون الذي يعلق على ثورة البربر الاولى فيقول « واضطرم المغرب نارا . وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد » العبر ، ج6 ، ص 240

(15) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص246 ، محمود اسماعيل : الخوارج ص 41 ـ 44 ، عوض : نشأة ، ص 136 وأنظر كذلك Masqueray E: opcit, P. LXXIII .

أولا - ثورة ميسرة المطغري الصفري سنة 122هـ :

قامت ثورة الخوارج الأولى بالمغرب[16] . في المغرب الأقصى . وبقيت مستمرة حتى استفحل أمرها وعمت ربوع المغرب كله تقريبا . فسميت بذلك ثورة البربر[17] . وانما الذي دعا اليها هو ميسرة المطغري الصفري ، قاد جموعا من بربر مطغرة قبيلته والقبائل المجاورة لها[18] ، وقصد طنجة والسوس ، حيث عاملا عبيد الله بن الحبحاب آنذاك فقتلها ، ويبدو أن البربر الصفرية في المغرب الأقصى ، بعد هذا الانتصار ، تقاطروا عليه ، مما دعاهم الى مبايعته بالخلافة . وما وصلت أخبار هذه الثورة عند الوالي بالقيروان ابن الحبحاب ، حتى انفذ اليها جيشين : احدهما بقيادة حبيب بن أبي عبدة[19] وثانيهما يقوده خالد بن أبي حبيب الفهري ، فالتقى هذا الأخير بميسرة في مقربة من طنجة ، ووقع بين جيشيهما قتال شديد ، انهزم على اثره ميسرة وولى راجعا الى طنجة ، هنالك بايع الخوارج خالد بن حميد الزناتي مكان ميسرة الذي قتلوه بسبب تخاذله . فالتقى الجيشان مرة « ثانية وكانت وقعة عظيمة مات فيها » حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها فسميت الغزوة غزوة الأشراف »[20] .

(16) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والاندلس ، تحقيق أنيس الطباع دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1964م ص 64 وأنظر كذلك الرقيق في تاريخ افريقية ص 109 حيث يقول : « وعظم البلاء وذلك في سنة 122هـ وهي أول فتن كانت بافريقية في الاسلام » .

(17) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص52 .

(18) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 49 .

(19) يخبرنا ابن عذارى أن عبيد الله بن الحبحاب كتب الى حبيب بن أبي عبدة يأمره بالرجوع من صقلية ، اذ كان في غزوة لها ، وذلك ليتقوى به في مواجهة الخوارج . ومن هنا نلمس مدى خطورة هذه الثورة ، كما يظهر لنا جليا أنها كانت سببا مباشرا في عرقلة فتح صقلية فلم تفتح الا تسعين سنة بعد ذلك أي سنة 212هـ . أنظر البيان ، ج1 ، ص 52 - 53 ، 102 . ومن بين النتائج العديدة لهذه الثورة ، انتقال عدواها الى الاندلس ، اذ أن البربر هناك ثاروا على عاملهم فعزلوه وهكذا تمم الثورات جميع بلاد المغرب في العدوتين .
ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 54 ، ابن خلدون : العبر ج6 ، ص 240 .

(20) الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب ، ص 110 - 111 ، ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 54 .

ثم توالت الثورات من صفرية واباضية ، حتى كان عام 138هـ لما هاجمت قبيلة ورفجومة الصفرية القيروان ، بقيادة عاصم بن جميل ، فأخرجوا منها واليها حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب ، الذي التجأ الى جبل الاوراس فلحقه عاصم الى هناك ، واقتتلا فانتصر حبيب ، وقتل عاصم ، وفي غمرة هذا الانتصار قاد حبيب جيوشه وسيرها نحو القيروان لاستردادها من خليفة عاصم عبد الملك بن أبي الجعد . ودارت المعركة بين الجانبين فقتل حبيب سنة 140هـ عندئذ خلا الجو للصفرية في القيروان ، فعاثوا فيها فسادا . ولا تختلف المصادر الاباضية وغيرها[21] في تصوير مناكرهم ، بل إن الكتابات الاباضية تعزو قيام ثورة أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري اليمني الى تلك الاعمال الشنيعة التي قامت بها ورفجومة الصفرية .

ثانيا - ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح الاباضي سنة 140هـ[22] :

كان أبو الخطاب[23] ، قد بويع بالامامة سنة 140هـ ، وفي نفس السنة توجه بأصحابه من الاباضية الى مدينة طرابلس ، فدخلها وطرد منها عاملها الذي رجع الى المشرق ، حسبما ترويه المصادر الاباضية ، ثم ان

(21) أبو زكرياء : سير ، ص 38 - 39 ، الرقيق : نفسه ، ص 141 ، ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص69 - 70 ، ابن خلدون : العبر : ج6 ، ص 232 .
يخطيء ابن خلدون عندما يقول أن ورفجومة اباضية ، والغريب أنه يذكر بعد ذلك مباشرة أن الاباضية أنكروا ذلك عليهم ، واجتمعوا الى أبي الخطاب عبد الأعلى لمحاربة ورفجومة . أنظر : العبر ، ج6 ، 231 - 232 .

(22) سنفصل أحداث هذه الثورة والتي تليها لأنها تمهد فعلا لموضوع هذه الدراسة .

(23) أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني ، أحد حملة العلم (الاباضية) الى المغرب من البصرة . التقى بعبد الرحمن بن رستم وعاصم السدراتي وأبي داود القبلي النفزاوي واسماعيل بن درار الغدامسي بالبصرة وكلهم من حملة العلم ، حيث أخذوه عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة مدة خمس سنوات (135هـ - 140هـ) ومنها رجعوا الى المغرب لنشر الاباضية . وكان شيخهم أبو عبيدة قد اقترح عليهم إن أنسوا من أنفسهم قوة وأرادوا اعلان امامة اباضية ، أن يعقدوها لأبي الخطاب . وكان كما أراد . أنظر : أبو زكرياء : سير ، ص 37 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 19 - 23 ، الشماخي : سير ص 123 - 124 ، علي يحيى معمر : الاباضية في موكب التاريخ الحلقة 2 ، القسم 1 ، ص 49 - 54 ، ديوز : المغرب الكبير ، ج3 ، ص 189 - 190 .

وجوده بطرابلس سهل له الاستيلاء على جزيرة جربة وجبل دمر ، وكان هذا كله في عام واحد[24] .

ولما قامت القبائل البربرية الصفرية ، وعلى رأسها ورفجومة ، بأعمالها الشنيعة في القيروان ، رأى الاباضية ضرورة الوقوف أمام المعتدي على حرمات الله[25] ، وكسر شوكته ، فتوجهوا بقيادة امامهم نحو القيروان ، وفي طريقهم استطاعوا أن يستولوا على قابس ، وبعد أن ترك أبو الخطاب عليها عاملا ، ارتحل وحاصر القيروان ، ولما قتل زعيم الصفرية بها عبد الملك بن أبي الجعد استطاع أن يدخل المدينة سنة 141هـ[26] ويستخلصها من يد ورفجومة وينقذ أهلها من مناكرهم .

ويبدو أن أبا الخطاب ، لم يقم طويلا بالقيروان حيث خرج لمواجهة جيش محمد بن الاشعث الخزاعي ، الذي بعثه الخليفة المنصور الى افريقية سنة 142هـ لاستردادها ، فترك عبد الرحمن بن رستم واليا عليها[27] ، وتوجه مسرعا نحو طرابلس فالتقى بعمرو بن الأحوص العجلي المبعوث من طرف ابن الاشعث[28] ، ويبدو أن أبا الخطاب وجيشه ، لم يجدوا كبير عناء في الانتصار على هذا الجيش ، ورد قائده مهزوما . ولما وصلت أخبار هذه الهزيمة المنصور ، كتب الى ابن الاشعث يأمره بالمسير بنفسه الى

(24) الجربي محمد أبو راس : مؤنس الاحبة في اخبار جربة ، تونس 1958م ، ص 44 ـ 45 .

(25) يذكر أبو زكرياء رواية عن السبب المباشر الذي دفع أبا الخطاب للتوجه الى القيروان فيقول إن امرأة ... قيروانية كتبت بطاقة الى ابي الخطاب تشكو اليه فيها جور ورفجومة وخوفها على شرف ابنتها التي اخفتها في حفرة تحت سريرها . ولما وصلت البطاقة الى أبي الخطاب بكى رحمة عليها ونادي الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر ورغب أصحابه في الجهاد وأمر رعيته بالاستعداد للحرب ، أبو زكرياء : سير ، ص 38 ـ 39 وأنظر كذلك الرقيق اذ يورد رواية قريبة من الأولى ، تاريخ افريقية ، ص 142 .

(26) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 64 ـ 65 ، الدرجيني : طبقات ج1 ، ص 29 .

(27) أبو زكرياء : سير ، ص 41 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 29 .

(28) يبدو أن محمد بن الاشعث كان يرمي من وراء ارسال ابن الاحوص الى جس النبض ، وتلمس مواطن القوى والضعف في افريقية ، أو كان خائفا من كثرة الاباضية يقول ابن عذاري « فضاق ذرع ابن الاشعث بلقاء أبي الخطاب لما بلغه كثرة جيوشه » البيان ، ج1 ، ص 72 وأنظر كذلك الشماخي : سير ، ص 131 .

المغرب ، فلبى الامر وتوجه بجيش قوامه أربعون ألفا ، فوجد أبا الخطاب مستعدا ، قد جمع أصحابه في كل ناحية .

وتروي المصادر الاباضية التقاء الجيشين ، وانهزام أبي الخطاب في هذه المعركة ، التي تعرف بمعركة « تاورغا »[29] ، وتعزوها الى الحيلة التي اتبعها ابن الاشعث في تشتيت الجيش الاباضي البالغ تعداده حوالي اثني عشر أو أربعة عشر ألف رجل[30] من الاباضية ، اذ التجأ قائد جيوش المنصور لما رأى كثرة جنود أبي الخطاب ، الى الانسحاب والعودة الى المشرق خدعة فلما رأى رجال أبي الخطاب ذلك ، وكان منهم الفلاحون الذين تركوا حقولهم اذ الموسم موسم حصاد ، تخلوا عن أبي الخطاب ، ورجعوا الى مزارعهم وحقولهم ، رغم تنبيه قائدهم لهم بأن انسحاب ابن الاشعث انما هو محض خدعة الا أنهم تمادوا في الانسحاب ، فتصدع جيش الاباضية ، ونقص عدده ، وتشتت مما سهل مهمة ابن الاشعث في القضاء على من بقي مع أبي الخطاب فقتلهم جميعا سنة 144هـ[31] .

أما ابن عذارى[32] ، فيعزو انهزام سبعين ألفا أما أربعين ألفا ، حسب

(29) تاورغا أو تاورغة ، المنطقة التي وقعت فيها المعركة المذكورة ، وتبعد مسيرة أربعة أيام من مدينة طرابلس شرقا .

(30) تذكر المصادر الاباضية أن جيش ابن الاشعث سبعين أو خمسين ألف رجل ، بينما يجعله ابن عذارى أربعين ألفا . أنظر لواب بن سلام شرائع الدين (مخطوط) ورقة42 ـ 45 ، الشماخي : سير ، ص 130 ـ 132 .

(31) أبو زكرياء : سير ، ص 44 ـ 46 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 32 ـ 34 ، الشماخي : سير ، 131 ـ 132 .

(32) ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 72 . والجدير بالذكر أن الدكتور محمود اسماعيل يرجح رواية ابن عذارى على الرواية الاباضية ويرى أن هذه الاخيرة ارادت بروايتها اخفاء الانشقاق داخل المعسكر الاباضي بسبب انسحاب اباضية زناتة ، ومما يرجح هذه الرواية خروج الزناتيين فجأة بقيادة زعيمهم أبي هريرة الزناتي ، على ابن الاشعث بعد انهزام أبي الخطاب ، ربما ذلك لشعورهم بانهم السبب في ذلك الانهزام . وقارن بما قاله ابن سلام ، وهو أقدم ما وصلنا من المصادر الاباضية ، اذ يذكر تخوف رجال أبي الخطاب من مباغتة ابن الاشعث للاباضية . وفي الرواية التي يسوقها لنا ما يوحي بأن ابن الاشعث لم يخادع الاباضية ثم لا يذكر أي شيء عن تصدع جيش أبي الخطاب سواء ، بسبب مغادرة الفلاحين الميدان لان الموسم موسم حصاد . أو بسبب تنازع القبائل البربرية واتهام قبيلة زناتة أبي الخطاب بالميل الى هوارة. وانما الذي يذكره في هذا الصدد أن القبائل المشاركة في المعركة ـ

روايته ، الى انقسام جيش أبي الخطاب ، وتنازع القبائل البربرية المشكلة له بأن اتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل الى هوارة على حسابها ، فانسحبت واستغل ابن الاشعث هذا التصدع ، وسُرَّ به ، فتوجه مطمئنا نحو أبي الخطاب ومن بقي معه فاقتتلا قتالا شديدا ، وانهزم الجيش الاباضي ، وقتل قائده سنة 144هـ . فتقدم ابن الاشعث ظانا ألا بقية للاباضية بعد تلك المركة ، ففاجأه أبو هريرة الزناتي بستة عشر ألفا من رجاله ، استطاع ابن الاشعث على ما يبدو أن يقضي عليه ويهزمه بسهولة .

ولما وقعت هذه الهزيمة الشنعاء بالاباضية ، تشتتوا في البلاد ، والتجأوا الى الجبال يتحصنون بها ، لان ابن الاشعث لم يكتف بمعركة تاورغا وما آلت اليه الاباضية من ضعف ، وانما تمادى في ملاحقتهم وقتل خلق كثير منهم[33] .

ولما علم عبد الرحمن بن رستم بانهزام اخوانه ووفاة صاحبه أبي الخطاب وهو في طريقه من القيروان الى تاورغا[34] لمساعدته وتقديم العون له ، ولى راجعا ، وتفرق عنه أصحابه بقابس ، ودخل القيروان خائفا يترقب ، فوجدها قد تغيرت عليه ، بايع أهلها عمر بن عثمان القرشي على أنفسهم ، فلم يجد الا اتجاها واحدا أمامه يسلكه لينجو بنفسه ، ذلك هو الاتجاه نحو المغرب الأوسط[35] ، أولى خطوات تأسيس الدولة الرستمية .

بعد هزيمة أبي الخطاب وهروب عبد الرحمن ، تداعت القبائل البربرية

ـ هي زهانة ؟ هوارة ، نفوسة ، لواتة ، مزاتة ، وه أن الله يعطي الغلبة لمن شاء ، أنظر شرائع الدين (مخطوط) ورقة 41 ـ 42 ، محمود اسماعيل الخوارج ، ص 255 ، هامش 235 ، عوض خليفات : نشأة ، ص 154 .

(33) ابن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 45 ، ابن عذارى : البيان ج1 ، ص 73 ، الشماخي : سير ، ص 132 ـ 133 .

(34) يذكر ابن خلدون ان خبر هزيمة أبي الخطاب وصل عبد الرحمن بن رستم وهو بالقيروان وكأنه لم يخرج منها اطلاقا ، أنظر العبر ، ج6 ، ص 247 .

(35) أبو زكرياء : سير ، ص 46 ، ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 72 ، الدرجيني : طبقات ج1 ، ص 35 .

الاباضية الى الهدوء ، والكتمان ، بعد الثورة والظهور[36] ، وبقيت على ذلك ردحا من الزمن حتى أنست من نفسها قوة خاصة في حيز طرابلس ، حيث قبيلة نفوسة ، المادة العسكرية الاساسية للاباضية في المغرب العربي فاجتمعوا على مبايعة امام للدفاع[37] عنهم ، فوقع اختيارهم على أبي حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي ، مولى كندة فبايعوه سنة 145هـ[38] . واستطاع أن ينتصر على جيوش الولاة في عدة معارك ، ويدخل طرابلس ، كما أنه تمكن من حصار القيروان زمنا ليس بالقصير ، حتى ضاق أهل المدينة بحصاره ذرعا ، والتجأ أفراد منهم اليه ، فلم تستطع المدينة الصمود أمام قواته ، فقتل عمر بن حفص عامل العباسيين على المغرب في احدى المعارك ، ودخل أبو حاتم وجنده القيروان ، ثم ترك عليها عاملا من قبله وغادرها متوجها نحو طرابلس لمواجهة يزيد بن حاتم القادم من مصر ، أرسله أبو جعفر المنصور لما بلغته أحداث المغرب وثوراته ، ومقتل عامله عمر بن حفص . وبعد انتصارات لأبي حاتم وجنده عديدة ، استطاع يزيد بن حاتم أن يهزم الاباضية ، ويقتل امامها سنة 155هـ بل لم يكتف بذلك ، وانما راح يلاحقهم ويقتلهم في كل سهل وجبل[39] .

وهكذا يعود الاباضية مرة أخرى الى الكتمان ، والعمل بالتقية . ولاشك أن انهزامهم مرة ثانية ، وتشتتهم في البلاد ، أدى بالكثير منهم

(36) عن مصطلحات الكتمان والظهور والدفاع وغيرها أنظر عقائد الاباضية في الفصل الاول من الباب الاول .

(37) من هنا يفهم أن الولاة الذين تعاقبوا على حكم افريقية والمغرب منذ محمد بن الاشعث الخزاعي ، الذي هزم الاباضية سنة 144هـ ، كانوا يمارسون العنف على الخوارج ويلاحقونهم رغم كونهم في الكتمان ، لذلك كان رد الفعل لدى الاباضية حاسما اذ اختاروا امامة الدفاع دون غيرها من أنواع الامامة المعمول بها عند الاباضية . وذلك للدفاع عن أنفسهم .

(38) تذكر المصادر الاباضية أن تولية أبي حاتم كانت سنة 154هـ ، وهو خطأ والصحيح هو 145هـ اذ كانت بعد انهزام أبي الخطاب وملاحقة ابن الاشعث للاباضية وتقتيلهم ، وهو ما دفع جماعة الاباضية لرد العنف بالعنف .

أنظر شرائع الدين لابن سلام (مخطوط) ورقة 45 ـ 46 ، أبو زكرياء سير ، ص 49 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 38 وقارن : محمود اسماعيل ، الخوارج ، ص 66 ـ 256 ، هامش 250 ، عوض خليفات : نشأة ، ص 157 .

(39) الرقيق : تاريخ افريقية ، ص 143 ـ 148 ، 159 ـ 160 ، ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 79 .

الى التفكير في التوجه نحو المغرب الاوسط ، حيث عبد الرحمن بن رستم أبرز شخصية اباضية بعد مقتل أبي الخطاب وأبي حاتم . وهكذا تتجه الأنظار اليه فيستقطب الأحداث . ولا يخامرنا الشك في أن العديد من أولئك توجهوا فعلا نحو عبد الرحمن ، الأمر الذي شجعهم لما كثر عددهم في منطقة معينة محدودة ، على بناء مدينة تأويهم ، وتحميهم ، وتكون حصنا لهم وللامامة التي بدأوا يفكرون في اعلانها ، وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في الباب الأول ، بعد أن تقدم نبذة عن نشأة الاباضية وبعض عقائدها ، نراها ضرورية ، تسهل علينا تتبع مراحل نشأة هذه الدولة ابتداء من عاصمتها تيهرت ، وتيسر علينا فهم أحداثها .

الباب الأوّل

الأوضاع السياسيّة

﴿ الفصـل الأول ﴾

المذهب الاباضي : نشأته وبعض عقائده

عنـدمـا وقع الخلاف في الاسـلام ، وانقسم المسلمـون الى فئتين : علي بن أبي طالب (ض) وأتباعه من جهة ، ومعاويـة بن أبي سفيـان (ض) وأنصـاره من جهة أخرى ، انتهى خلافها الى معركة صفين سنـة 36هـ . والتي ترتب عنها ما يعرف في التاريخ بحادثة التحكيم[1] ، التي أبقت الخلاف في جيش علي وفرقت بينـه وبين عنـاصر منـه ، ومن أولئـك فرقـة الخـوارج التي اعتزلت عليا وخرجت عنه بعد ما كانت معه ، كما بقيت في عدائها لمعـاويـة واتباعه من الشاميين خاصة .

إن الخـوارج لمـا استقلوا برأيهم في قضيـة التحكيم ، والامـامـة وقـالـوا « لاحكم الا لله »[2] ولوّا عليهم عبـد الله بن وهب الراسبي امـامـا ، ثم قتـل وعـدد كبير من أصحـابـه في معركـة النهروان المشهـورة سنـة 38هـ ، قضى عليهم علي بن أبي طـالـب . واستمرت حركتهم هكـذا متماسكـة وبقيـادة واحـدة ، حتى وقـع الخـلاف بينهم حـول مسـألـة الخروج لمحـاربـة السلطـة الامـويـة المنـاهضـة لهم حيث أن فريقـا منهم رأى الخروج واجبـا ، بينمـا

---

(1) عن حادثة التحكيم : تفاصيلها وأسبابها ونتائجها ، أنظر اضافة الى المصادر الاولية كلها تقريبا ، الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين ، ج2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1956م ، ص 91 ـ 123 وأنظر كـذلـك عوض خليفـات : نشأة ، الباب الاول والثاني .

(2) لـذلـك سموا في أول الامر بالمحكمة ثم أطلق عليهم الحروريه نسبـة الى حروراء ، المنطقـة التي اجتمعوا فيهـا بالعراق وسموا كـذلـك بـالشراة أي الـذين أشتروا الاخرة بـالـدنيـا ، وهـذه التسميـات كلهـا كانت قبل أن يعرفوا بالخوارج التي سموا بها لذلك نجـد شعراءهم يفتخرون بهـا ، ثم انقلب المـدح ذمـا لمـا تفرقت كتلة الخوارج الى فرق مختلفة ، ولما غـالت فرق منهـا وتطرفت كالازارقة والنجـدات ممـا يجعلنـا نعتقـد أن صفـة الـذم التصقت بـالفرق المغالية من الخوارج بينما احتفظت غيرها بصفة المدح أو تسمية أخرى هي القعدة ، أي القعود عن محاربـة المسلمين المخالفين لهم من أتباع معاوية وغيره . أنظر عوض : نشأة ، ص 67 . وانظر مقدمة الطبعة الثانية

6

الفريق الاخر التزم القعود واعتبر الخروج لا يحل لان المخالفين لهم بريئون من الشرك[3] وبالتالي لا تجوز مقاتلتهم . وكان عبد الله بن اباض[4] هو صاحب هذا الرأي الأخير الذي ردّ به على تطرف نافع بن الازرق ومن رأى رأيه .

وابتداء من هذا الاختلاف الذي وقع حوالي سنة 64هـ ، انقسم الخوارج الى متطرفين ومعتدلين ، فكان في الجانب الاول الازارقة والنجدية وفي الجانب الثاني الاباضية والصفرية[5] . وتذكر المصادر الاباضية أن عبد الله بن اباض الذي تنسب اليه الفرقة ، انما كان يصدر في أمره عن رأي جابر بن زيد[6] شيخه ، الذي يعتبر عند الاباضية أصل المذهب

(3) المبرد أبو العباس : الكامل ، باب الخوارج ، ص 105 ـ 119 ، تاريخ الرسل والملوك ، ج5 ، ص 567 ، عوض : نشأة ، ص 79 .

(4) يذكر ابن رستة أن عبد الله بن اباض من بني مرة بن عبيد من تميم رهط الاحنف بن قيس . واليه تنسب الاباضية . الاعلاق النفيسة ، بريل ليدن1891م ص 217 وأنظر القلهاتي أبو عبد الله محمد بن سعيد 1400هـ/1980م ص 471 حيث يقول : بأن امام المسلمين (الاباضية) عبد الله بن اباض بن تيم اللات بن ثعلبة رهط الاحنف بن قيس التميمي نشأ في زمان معاوية بن أبي سفيان وعاش الى زمان عبد الملك بن مروان وشيوخه عبد الله بن عباس ، وأبو الشعثاء جابر بن زيد... وأخذ من أهل النهروان والتابعين من أهل صفين والجمل اضافة الى بعض الصحابة . وأنظر كذلك المبرد : الكامل ، ص 105 ، البغدادي عبد القاهر : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منها ط3 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1978م ، ص 72 ابن حزم أبو محمد علي بن سعيد : كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل ج3 ، ط. أوفست مكتبة المثنى ، بغداد 1377هـ ، ص 191 الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ج1 ، ط. أوفست ، دار المعرفة ، بيروت 1400هـ/1980م ص 134 وما بعدها . أما الشيخ أطفيش امحمد بن يوسف فيقول بان الاباضية بكسر الهمزة نسبة الى عبد الله بن اباض . الامكان فيما جاز أن يكون أو كان ، ص 113 وأنظر كذلك الدرجيني طبقات ، ج2 ، ص 214 .

(5) عوض خليفات : نشأة ، ص 71 . .

(6) أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي . ولد في خلافة عمر بن الخطاب بعمان وربما سنة 21هـ . وعاش بالبصرة ، وبها تعلم ، وله الدور البارز في توجيه حركة الاباضية في طور كتمانها ، وبقي هو ممارسا للتقية الى أن توفي سنة 93هـ . وكان محدثا ثقة ذكره أصحاب الحديث والرجال وأستوثقوه . ويفيضون في ذكر غزارة علمه ، مثلهم في ذلك مثل كتب الاباضية ، الا أن بعض كتب الرجال تشير الى أن جابراً لم يكن اباضيا ولا زعيما لها معتمدة بعض الروايات على لسان جابر نفسه . ولا شك أن تلك الروايات ، ان صحت لا تمنع كون جابر اباضيا ، لأنه لما سئل وأجاب عن مذهبه بأنه غير اباضي ، انما أراد من وراء ذلك عدم افشاء سره وكتمانه ، فمبدأ التقية والكتمان يجيز له ذلك . ثم إنه لا يريد أن يفقد مركزه العلمي والثقة التي وضعها فيه أصحاب الحديث ، فهو إن أبدى شيئا من اعتقاداته تكون مطعنا عليه وعورة في علمه ، ويكون بذلك مجروحا . أنظر: ابن سعد : الطبقات ، =

وأسّه[7] . وهو إمامهم الأول ، ويأتي عبد الله بن اباض في الدرجة الثانية[8] . وكان هو الذي يتولى مناظرة المخالفين للاباضية ، بل كانت له مراسلات مع الخليفة عبد الملك بن مروان[9] ، ولم تتعدّ أعماله ومسؤولياته الى اكثر من هذا ، وانما تولى المناظرة دون غيره من الاباضية ، لحماية تميم قبيلته له ، ولقدرته على المناظرة والمجادلة . ومن هنا كانت النسبة اليه لظهوره علنا بخلاف جابر بن زيد الذي اختار التقية والكتمان ، لمركزه العلمي أولا ، ثم لكي لا تصل اليه السلطة الأموية ، ولا تمسه بسوء ، فيخسره أصحابه ، وربما تكون نكبة على الدعوة الاباضية كلها[10] .

ومجمل القول ، إن الاباضية ، الى يومنا هذا ، يعتبرون جابرا امام مذهبهم وشيخ تلميذه وخليفته في الكتمان أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة[11]

= م7 ، ص 130 ـ 133 ، ابن تيمية : رفع الملام عن الائمة الاعلام ، ط5 ، مؤسسة مكة للطباعة والنشر، مكة ، 1396هـ/ص 76 ، ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ج2 ، ص 38 ، وما بعدها . ابن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 35 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 205 ، الشماخي : سير ص 70 ـ 77 ، علي معمر : الاباضية في موكب التاريخ ، ج1 ، ص 143 ـ 151 ، عوض : نشأة ، ص 82 ، 95 ، 102 ، مهدي هاشم طالب : الحركة الاباضية في المشرق ، نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن 3 هـ (رسالة ماجستير) جامعة بغداد ، 1977م ، ص 70 ـ 77 . .

(7) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 205 ، الشماخي : سير ، ص 77 .

(8) يرى الاستاذ أحمد توفيق المدني أن عبد الله بن اباض كان بالنسبة لجابر بن زيد كأبي يوسف بالنسبة لأبي حنيفة . أنظر مدخل لدراسة الدولة الرستمية ، محاضرة ألقيت في الملتقى 11 للفكر الاسلامي بوارجلان ، الجزائر ، 1977م ، ص 4 .

(9) توجد رسالة له في كتاب البرادي : الجواهر المنتقاة ، ص 156 ـ 167 الأزكوي : كشف الغمة (مخطوط) ، ص 298 ـ 317 ـ ونشرها د. عوض خليفات كملحق في كتابه نشأة الحركة الاباضية ، ص 172 ـ 180 .

(10) خليفات : نفسه ، ص 80 ـ 82 .

(11) أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، مولى بني تميم ، تولى زعامة الاباضية بعد وفاة جابر حوالي سنة 95هـ بالبصرة ، وبعد أن أفرج عنه من سجن الحجاج الذي توفي سنة 95هـ ، وكان لابي عبيدة الدور البارز في نشر الاباضية بالمغرب العربي . وقد عاصر عهد الامام الرستمي الاول عبد الرحمن بن رستم (160هـ ـ 171هـ) وجزءا من عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن . ويبدو أنه توفي حوالي سنة 172هـ . وبذلك يتضح دوره كزعيم للاباضية اذ أغلب الأحداث التي شهدتها اباضية المغرب خاصة فضلا عن اباضية المشرق كانت في عهده (95هـ ـ 172هـ) أنظر عوض خليفات : نشأة ، ص 103 ، مهدي هاشم طالب : المرجع السابق ص 77 ـ 79 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 159 ، وراجع أبن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 36 .

وهذا بدوره كان شيخ الربيع بن حبيب[12]، واضع مسند الاباضية في الحديث النبوي .

ولما توفي الامام جابر بن زيد سنة 93هـ تقريبا ، خلفه تلميذه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، الذي عرفت الحركة الاباضية في عهده الطويل نظاما دقيقا ، واستطاع أن يبث الدعاة في المشرق والمغرب . وفي عهده خرج سلمة بن سعد (سعيد) من قبله الى المغرب ، يدعو للاباضية ، وفي سنة 135هـ خرجت الى البصرة البعثة العلمية المغربية المعروفة عند الاباضية بحملة العلم[13] ، وتتكون من أربعة أشخاص هم : عبد الرحمان بن رستم وعاصم السدراتي واسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داود القبلي النفزاوي ، وقضوا مع شيخهم أبي عبيدة خمسة أعوام تلقوا فيها علوم المذهب ، في كتمان وسرية تامة ، ولما هموا بالرجوع الى وطنهم بالمغرب ، إنضم اليهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني ، وكان قد قدم الى البصرة في عدد من أهل اليمن حيث التقوا ببعثة أهل المغرب ، وتلقوا العلم في فترة واحدة من شيخهم أبي عبيدة .

وهكذا يكون حملة العلم الى المغرب العربي خمسة ، زودهم شيخهم بالمعلومات الضرورية لظهور مذهبهم ، وخروجه من طور الكتمان ، ان أنسوا من أنفسهم قوة . وكانت مدرسة أبي عبيدة عبارة عن سرداب سري ،

(12) الربيع بن حبيب العماني عاش في القرن الثاني الهجري وتولى أمامة الاباضية بالبصرة بعد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في ظروف غامضة لدينا ، ويعتبر مسنده المعتمد الاول لدى الاباضية في الحديث . وقد اعتمد الربيع في وضعه على الأحاديث التي حفظها عن أستاذه أبي عبيدة وهذا بدوره حفظها عن الامام الثقة جابر بن زيد . لذلك فان أحاديث المسند كلها تقريبا تروى عن الربيع عن أبي عبيدة عن جابر عن الصحابة عن رسول الله ﷺ . أنظر الربيع بن حبيب : الجامع الصحيح، ترتيب أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني . تحقيق وتصحيح نور الدين السالمي ، ط2 وهو في أربعة أجزاء ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1349هـ وأنظر الدرجيني : طبقات : ج2 ، ص 273 ومابعدها الشماخي : سير ، ص 102 ، المضيري عبد الله سالم بن حمد العقود الفضية في أصول الاباضية ، لبنان ، بلا تاريخ الطبع ، ص 149 ، وما بعدها . وراجع ابن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 36 .

(13) أبو زكرياء : سير ، ص 35 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 19 ، الشماخي : سير ، ص 123 ـ 124 ، أطفيش : الامكان ، ص 111 ، علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص 188 .

وكان الشيخ يعرف بالقفاف لتظاهره بصناعة القفاف أثناء القاء دروسه السرية ، وتظاهر تلامذته بتعلم الصنعة منه[14] . ولما وصلوا الى المغرب سنة 140هـ ، يبدو أنهم وجدوا المذهب الاباضي منتشرا في المغرب الأدنى خاصة ، وذلك بجهود سلمة بن سعد ، الذي نجهل كل شيء عن نهايته الامر الذي دفعهم الى مبايعة أبي الخطاب بالامامة في نفس العام ، وكانوا من القوة والكثرة بحيث استطاعوا أن يدخلوا طرابلس ، ويطردوا منها عاملها سنة 140هـ[15] كما سبق أن رأينا .

والحقيقة أن الصورة لا تكتمل لدينا اذا توقفنا عند هذا الحد ، لهذا رأينا من الضرورة بمكان ذكر بعض معتقدات الاباضية خاصة منها التي تتعلق بموضوع هذه الدراسة وتزيده وضوحا في بعض جوانبه . والواقع ، أن المذهب الاباضي كغيره من المذاهب الاسلامية ، لا يوجد كبير اختلاف بينه وبينها[16] ، فالمذهب الاباضي أقرب المذاهب الى السنة ، اذ قول ابن اباض ، كما يقول المبرد[17] ، أقرب الاقاويل الى السنة .

بعض عقائد الاباضية[18] :

1 ـ الصفات الالهية : هي عين ذات الله ، نفيا لتعدد القدماء .

2 ـ رؤية الله لا تتحقق للانسان أبدا ، في الاخرة فضلا عن الدنيا .

(14) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 20 ، الشماخي : سير ، ص 83 ، علي معمر : الاباضية في موكب التاريخ ، ج1 ، ص 153 ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص 193 .

(15) أبو زكرياء : سير ، ص 37 ـ 38 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 22 ـ 26 .

(16) عبد العزيز المجدوب : الصراع المذهبي بافريقية الى قيام الدولة الزيرية ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ، 1395هـ/1975م ، ص 110 ـ 111 .

(17) المبرد : الكامل ، ص 119 .

(18) من الكتب الكثيرة جدا التي تتحدث عن عقائد الاباضية أنظر : ابن جميع أبو حفص عمر : مقدمة التوحيد ، شرح أبي العباس الشماخي وأبي سليمان التلاتي ، ط2 ، الجزائر 1392هـ/1973م . أبو عمار عبد الكافي : الموجز (آراء الخوارج الكلامية) تحقيق عمار طالبي جزءان الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1398هـ / 1978م ، الباروني أبو الربيع : مختصر تاريخ الاباضية ص 71 – 78 ، القلهاتي أبو عبدالله محمد بن سعيد الأزدي : الكشف والبيان ، جزءان ، أنظر الجزء الثاني خاصة ، الأزكوي . سرحان بن سعيد : كشف =

3 ـ القرآن مخلوق عند قسم منها : المغاربة خاصة ، وغير مخلوق عند القسم الاخر[19] .

4 ـ الخلود في الجنة والنار أبدي . لا يشقى من سعد في الآخرة أبدا ولا يسعد من شقي في الآخرة أبدا .

5 ـ الانسان حر في اختياره ، مكتسب لعمله ، ليس مجبرا عليه ، ولا خالقا لفعله .

6 ـ الايمان قول وتصديق وعمل وليس قولا وتصديقا فقط دون عمل .

7 ـ ولاية المطيع والبراءة من العاصي والوقوف عند الضرورة واجب[20] .

8 ـ النفاق منزلة بين الشرك والايمان ولا منزلة بين الايمان والكفر .

9 ـ اذا اطلقت كلمة الكفر على الموحد فالمقصود بها كفر النعمة لا كفر الشرك .

10 ـ مصادر التشريع هي القرآن والسنة والرأي وهذا الاخير قد يأتي في بعض الاحيان بمعنى الاجتهاد أو الاجماع أو القياس .

11 ـ الصحابة كلهم عدول وروايتهم مقبولة الا في الاحاديث المتعلقة بالفتن ممن خاض في الفتن ، ولا بأس أن يقال « الحق مع فلان الصحابي بدليل كذا وكذا . وان الاولى للصحابي الفلاني الا يفعل كذا بحجة كذا وكذا » [21] ولا يظلم الاباضية صحابيا .

ـــــــــــ

= النفة (مخطوط) ورقة 533 ـ 541 ، وأنظر كذلك علي يحي معمر : الاباضية بين الفرق الاسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث مكتبة وهبة ، مطابع سجل العرب ، القاهرة 1396هـ/1976م وهناك رسالة مخطوطة للشيخ علي يحي معمر أيضا أوجز فيها عقائد الاباضية تقع في ست صفحات ، بعثها الى احدى الحلقات العلمية الشرعية في الوطن العربي ، وأنظر كذلك : Moutylinski A de C: l'Aquida, opcit, p. 517-545

وهناك دراسة اكادمية حديثة لمستشرق فرنسي تناول فيها عقائد الاباضية بالتفصيل : Cuperly Pierre: Professions foi Ibadites, contribution à l'étude de l'Ibadisme de sa théologie, thèse de Doctorat d'Etat. Université de Paris IV – Sorbonne 1982. وانظر مقدمة الطبعة الثانية .

(19) من الذين يقولون بأن القرآن غير مخلوق القلهاتي اذ ينفي فكرة ان القرآن مخلوق نفيا قاطعا ، أنظر الكشف والبيان ، ج1 ، ص 293 ـ 324 ، أما الأغلبية فتقول بخلق القرآن .

(20) أنظر تفاصيل المصطلحات : ولاية ، براءة ، وقوف في : ابن جميع مقدمة التوحيد ص 84 ـ 104 ، معمر : الاباضية في موكب التاريخ ج1 ، ص 83 ـ 87 .

(21) اطفيش : أزهاق الباطل بالعلم الماطل ، ص 31 .

12 ـ الامامة فرض ، ولا تنحصر في عنصر خاص . وانما شرطها هو الكفاءة الشرعية .

13 ـ الامامة أربعة أنواع ، وتعرف عند الاباضية بمسالك الدين وهي : امامة الظهور والدفاع والشراء والكتمان[22] :

أ ـ امامة الظهور : وهي واجبة عندما تتوفر شروطها لتأسيس دولة اباضية المذهب . وشروطها ، هي أن يكون المسلمون من الاباضية أقوى من غيرهم بحيث يستطيعون انتخاب من يحكمهم علنا ، وذلك طبقا لكتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده . فيقوم امام الظهور بالقطع والجلد والرجم وأخذ الحقوق . وأحسن من يمثل هذا النوع من الامامة التي تعتبر هي الأصل والواجب ، الامامة الرستمية ابتداء من امامها الاول عبد الرحمن بن رستم .

ب ـ امامة الدفاع : وهي مرحلة بين الظهور والكتمان . فاذا كان الاباضية في طور الكتمان ، وداهمهم العدو ، فيجب عليهم أن يعلنوا حالة الدفاع عن أنفسهم ، ويعقدوا امامتها لمن يعرف بالشجاعة والخبرة العسكرية ويطلق عليه اسم امام الدفاع ، له كل الصلاحيات التي لامام الظهور الا أن امامته تزول بزوال الخطر الداهم . فاذا كان ذلك بالانتصار تحولت جماعة الاباضية الى اعلان امامة الظهور بمبايعة امام يحمل ذلك الاسم . ولا يشترط أن يكون هو امام الدفاع السابق . أما اذا كانت نتيجة الدفاع سلبية عليهم تحولوا الى التقية والسرية ودخلوا مرحلة الكتمان مرة ثانية . ويعتبر أبو حاتم الملزوزي في المغرب امام الدفاع .

جـ ـ امامة الشراء : وهي ان يخرج امام بأربعين رجلا فما فوق

ـــــــــــ

(22) عن هذه الأنواع من الامامة وشروحها أنظر خاصه : أبو حفص عمرو بن جميع مقدمة التوحيد ، 69 ـ 72 ، علي معمر : الاباضية ، ج1 ، ص 93 ـ 96 ، عوض خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية ، ص 109 ـ 113 .

يبايعونه على الجهاد في سبيل الله . ويسمون شراة لانهم اشتروا الجنة بأرواحهم ، والكلمة مستوحاة من قوله تعالى « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله »[23] وقوله كذلك « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله »[24] . ولا يجوز للشراة بعد أن يخرجوا للجهاد الرجوع الى منازلهم حتى ينقص عددهم عن ثلاثة رجال ، كما لا يجوز لهم استعمال التقية ماداموا قد هبوا في سبيل الله . ويعتبر مرداس وعروة ابنا حدير وأمها أدية من الشراة[25] ، ثارا ضد ولاة بني أمية بالمشرق .

د - **امامة الكتمان** : وتعبّر عن مرحلة الضعف التي تردّى اليها الاباضية ، بحيث يركنون الى السرية ، واستعمال التقية ، وينتخبون إماماً عليهم ، يكون عادة هو أعلمهم كجابر بن زيد الأزدي وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة اللذين تزعما الاباضية في البصرة في القرنين الاول والثاني للهجرة ويقوم الاباضية في امامة الكتمان بنشر دعوتهم سرا ، دون اثارة أو دعوة للثورة اذ يجوز في هذه المرحلة البقاء تحت حكم غيرهم ماداموا عاجزين عن تغيير الوضع لصالحهم .

14 - وتختم هذه المعتقدات الاباضية ، بما ذكره امام الاباضية في القرن الرابع عشر الهجري قطب الائمة ، الشيخ أطفيش حيث يذكر أن الاباضية يقولون إن « الحق ما نحن عليه والباطل ما عليه خصومنا ، لأن الحق عند الله واحد . ومذهبنا في الفروع صواب يحتمل الخطأ ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصدق »[26] .

(23) آية رقم 207 سورة البقرة .
(24) آية 111 سورة التوبة .
(25) أنظر ترجمتها في طبقات الدرجيني ، ج2 ، ص 214 - 226 ، وراجع ابن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 36 .
(26) أطفيش الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد ، ص 37 - 38 .

﴿ الفصـل الثـانـي ﴾

بناء العاصمة تيهرت ، ونشأة الدولة الرستمية

أ - ممهدات بناء مدينة تيهرت :

عندما غادر أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني القيروان لملاقاة محمد بن الأشعث الخزاعي المرسل من طرف العباسيين ، عين عبد الرحمن بن رستم واليا على المدينة . وقام هذا الاخير بتنظيم البلاد وتعيين العمال في بعض الجهات[1] . أما أبو الخطاب ، فانه رجع الى طرابلس التي اتخذها قاعدة حكمه ربما لكثرة معتنقي الاباضية في تلك النواحي أو لعله بحتمية رد فعل الخلافة العباسية على ثورته . فوجوده بطرابلس يساعده على المواجهة السريعة[2] ومهما يكن ، فقد بعث الخليفة العباسي المنصور محمد بن الأشعث الى المغرب سنة 140هـ ، فوجد أبو الخطاب نفسه وجها لوجه أمام جيش العباسيين فأرسل الى عبد الرحمن يدعوه القدوم والمساعدة ، فلبى الاخير النداء[3] .

وفي أثناء الطريق ، علم عبد الرحمن باستشهاد صاحبه ، وانهزام اخوانه ، ولما توجه راجعا الى قابس وجدها قد قامت على عامله بها ، فأسرع الخطى نحو القيروان ، فوجد حالها مثل حال قابس ، عندئذ ولى وجهه شطر المغرب الأوسط مع ابنه عبد الوهاب ، وخادمها .

(1) الشماخي : سير ، ص 130 .
(2) عوض : نشأة ، ص 151 .
(3) أبو زكرياء : سير ، ص 45 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 44 - 45 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 2 .

وتروي المصادر الاباضية ، مأساة عبد الرحمن بن رستم التي واجهها في طريقه ، اذ يموت فرسه ، فيتعاقب على حمله ابنه وخادمه ، وكأن ليس لهم الا مركوبا واحدا . ولا يترك الفرس دون أن يوارى التراب حتى لا يكون دليلاً لابن الاشعث اللاحق لهم[4] . وظلوا سائرين بين القبائل الاباضية سالكين طريقا جنوبيا وعرا ، يمر بقسطيلية ، جنوب البلاد التونسية فصحراء الجزائر من شرقها الى غربها[5] . وكان هدفهم موطن قبيلة لماية بالمغرب الأوسط ، فوصلوا اليها وهي بجبل سوفجج[6] .

اختار عبد الرحمن بن رستم هذا الجبل المنيع الصعب ليتحصن فيه ويستعد لمواجهة ابن الأشعث . ويبدو أنه وجد أنصارا له في الطريق ساروا معه الى الجبل المذكور . ولا شك أن عددهم كان كبيرا نسبيا بحيث أن محمد بن الأشعث لم يستطع اقتحام الجبل بمن فيه ، بل لقد خندق حوله مخافة أن يهجم عليه الاباضية بقيادة عبد الرحمن . وبقي ابن الأشعث محاصرا للجبل حتى أيس ، وخاف انقلاب الأوضاع عليه ، فلما لم يتمكن رجع الى القيروان دون أن يحقق في ملاحقته لابن رستم أي نتيجة تذكر[7] . ثم تسكت المصادر الاباضية ، عن ذكر أخبار عبد الرحمن ، وما آل اليه أمره بعد سنة 144هـ ، وهي سنة انهزام أبي الخطاب ، وهروب عبد الرحمن الى المغرب الأوسط واعتصامه بجبل سوفجج .

والجدير بالذكر أن المصادر غير الاباضية لا تشير الى هذه الملاحقة بل

(4) الحقيقة أن الشك يرقى الى هذه الرواية لان عبد الرحمن انما عاد من قيادة جيش بأكمله ، لذلك لا يعقل أن يكون كبير السن مثلما أراده له الباروني حتى يحمله خادمه وابنه ، كما لا يعقل أن يكونوا قد هربوا بفرس واحد فقط . أنظر الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 2 ـ 3 . .

(5) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 35 ، دبوز : تاريخ المغرب ، ج3 ، ص 256 . .

(6) يقول الباروني أنه لم يتمكن من تعيين هذا الجبل لتبدل الاسماء وطول الزمن أما دبوز فيقول هو الجبل المعروف حاليا بسوفجاج جنوب تيهرت حيث موطن لماية

أنظر الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 3 ـ 4 ، دبوز : تاريخ المغرب ، ج3 ، ص 257 ـ 258 .

(7) أبو زكرياء : سير ، ص 47 ، الشماخي : سير ، ص 111 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 3 .

تؤكد[8] أن عبد الرحمن لما خرج من القيروان اتجه الى موضع تيهرت مباشرة حيث قبيلة لماية ، فنزل عندهم لقديم حلف بينه وبينهم[9] . الا أن البكري يقول أن موضع تيهرت كان « لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة »[10] ، وهذا يعني أن عبد الرحمن انما قصد في البداية جبل سوفجج حيث مواطن لماية[11] وأقام هنالك زمنا ليس بالقصير .

ويخبرنا الرقيق وابن عذارى[12] أن ابن رستم كان من المشاركين في حصار طبنه قاعدة الزاب سنة 153هـ بجيش قوامه خمسة عشر ألفا ، ولما كان هذا الحصار فاشلا ، فقد انهزم عبد الرحمن في تهودا القريبة من طبنة ووصل الى جبل سوفجج مرة ثانية ، بعد أن فقد من أصحابه نحو ثلاثمائة رجل .

وهكذا ، وبمقابلة الروايات ، يمكن أن نلاحظ أن عبد الرحمن بن رستم لم يقصد موضع تيهرت الا في سنة 153هـ أو بعد ذلك باعوام ، فبعد أن حوصر في جبل سوفجج ، حسب الروايات الاباضية وخرج من الحصار منتصرا يبدو أنه بقي هنالك بين القبائل البربرية الاباضية ، تصله أخبار

(8) يذكر ابن القوطية ويؤكد اليعقوبي أن جيوش بني العباس لم تتعد حدود طبنة قاعدة الزاب في شرق الجزائر الحالية . ولعل الرواية الاباضية تريد وصف قوة عبد الرحمن وجنده وصبرهم على الشدائد . أنظر تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين بيروت ، 1957م ، ص 41 ، اليعقوبي : البلدان ، ص 103 .

(9) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 247 ، ينفرد ابن خلدون برواية الحلف بين لماية وعبد الرحمن ، ولا نستبعد ذلك لان مواطن لماية بالمغرب الأدنى كثيرة مثل جربة وجنوب قابس ، وهي المناطق التي كان يتولاها عبد الرحمن لما كان واليا على القيروان من قبل أبي الخطاب . فلعل لماية المغرب الأدنى شجعت عبد الرحمن للتوجه الى لماية المغرب الأوسط . عن مواطن لماية أنظر العبر ، ج6 ، ص 246 ـ 250 ، دبوز : تاريخ المغرب ، ج3 ، ص 253 ـ 255 ، فرحات الجعبيري : نظام العزابة عند الاباضية الوهبية في جربة تونس ، 1975 ، ص 43 هامش 3 . .

(10) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 68 .

(11) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص 258 .

(12) الرقيق : تاريخ افريقية ، ص 143 ، ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 76 ويبالغ ابن عذارى عندما يجعل عدد قتلى أصحاب عبد الرحمن يصل الى ثلاثة آلاف في هذا الحصار ، وهذا يدل من جهة أخرى على كثرة رجال عبد الرحمن كما اعتقدناه سابقا .

أصحابه في المغرب الأدنى ، وهو ما يفهم من كلام صاحب الأزهار « واقام عبد الرحمن هنالك (أي بجبل سوفجج) حتى اجتمع عليه من أهل الفضل والعلم والصلاح جم غفير ، وارتحل الى جهة تاهرت »[13] . وهكذا ، لما وقع حصار طبنة شارك فيه ابن رستم ، ورجع الى نفس الجبل بعد هزيمته في تهودا سنة 153هـ ، اذ لا تشير المصادر الى انه كان اماما قدم من العاصمة تيهرت[14] كما لا تشير الى العامل الذي تركه فيها ليتوجه هو الى طبنة . ومن هنا يمكن القول إن المدينة تيهرت لم تكن قد بنيت سنة 153هـ ، وربما لم تتطرق فكرة بنائها بعد الى الاذهان .

ولا شك أن عبد الرحمن بعد هزيمته بتهودا ، يئس من ظهور امامة اباضية في المغرب الأدنى والزاب ، وهي مناطق تسيطر عليها قوات الخلافة العباسية سيطرة تامة .

ولا نعرف بالضبط ، متى انتقل عبد الرحمن الى موضع تيهرت ، الا أننا نرجح ذلك ما بين سنوات 155هـ - 160هـ . وتفسير ذلك أن الاباضية في المغرب الأدنى ، لما رأوا ملاحقة ابن الأشعث لهم ، بعد مقتل امامهم أبي الخطاب سنة 144هـ رغم استتارهم وركونهم الى التقية ، عقدوا الامامة امامة الدفاع لأبي حاتم الملزوزي سنة 145هـ ، فخاض عدة معارك ، وشارك في حصار طبنة سنة 153هـ . وكان في هذه الاثناء يبعث بما فضل من صدقات الاباضية عنده الى عبد الرحمن بن رستم قبل ظهوره[15] . وفي

---

(13) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 4 .

(14) الجنحاني : تاهرت عاصمة الرستميين ، سبق ذكره ، ص 11 .

(15) أبو زكرياء : سير ، ص 48 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 36 .
يذكر رفعت فوزى عبد المطلب ، أن امامة أبي حاتم ، كانت امامة دفاع فقط ، لان الاباضية يعتبرون امامهم هو عبد الرحمن بن رستم ويقول بأن الاول كان نائبا للثاني في منطقة طرابلس . وهو خطأ ما قال ، به أحد . ويبدو أنه وقع فيه ، عندما أخطأ فهم نص الدرجيني الذي جاء فيه « كانت ولايته (أبو حاتم) ولاية دفاع وطلب الحق ، يرسل ثقاته بما يجتمع من مال الصدقة الى عبد الرحمن قبل ظهوره » طبقات ج1 ، ص 36 - 37 . فرغم أن النص واضح ، اذ يثبت الولاية (الامامة) لأبي حاتم وحده ، ويعتبر عبد الرحمن في التقيه ، غير ظاهر (امامة الـ ـور) أي لا امامة له ، فان رفعت فوزى يجعل عبد الرحمن هو الامام ، وأبا حاتم هو المأموم ، في حين أننا=

سنة 155هـ ، انهزم أبو حاتم ، وقتل مع جمع غفير من أصحابه ، قتلهم يزيد بن حاتم الذي قدم من المشرق بجيش كبير . ولم يكتف بقتلهم وهزيمتهم ، بل ظل يلاحقهم في كل سهل وجبل[16] ، فلا شك أن أعدادا كبيرة منهم التحقت بالمغرب الأوسط ، حيث عبد الرحمن بن رستم ، أبرز شخصية سياسية بعد وفاة أبي الخطاب وأبي حاتم .

ففي هذه الفترة بالذات ، لما كثر الاباضية من المغربين الأدنى والأوسط وتمركزوا في نقطة واحدة ، والتقوا حول شخصية عبد الرحمن بن رستم رأوا ضرورة بناء مدينة يأوون اليها ، ويتحصنون بها[17] ، ويبدو أن الانطلاقة الفعلية لبناء هذه المدينة[18] ، التي ستصبح عاصمة الدولة الرستمية فيما بعد ، كانت في نهاية عام 155هـ وبداية عام 156هـ .

ب - بناء العاصمة تيهرت :

عندما قرر الاباضية بناء مدينة يتحصنون فيها ، خرجت طائفة منهم

= نعلم أن أبا حاتم بويع بالامامة سنة 145هـ ، بينما لم يبايع عليها عبد الرحمن الا في سنة 160هـ أو 161هـ كما سنرى . ثم إننا نرى مشاركة عبد الرحمن في حصار طبنة ، لا يستبعد ان يكون بأمر من أبي حاتم ، لانه هو الامام في ذلك الوقت على الاباضية في المغرب . أنظر رفعت فوزى عبد المطلب : الخلافة والخوارج في المغرب العربي (الصراع بينهما حتى قيام دولة الاغالبة) ط1 ، بلا مكان الطبع 1393هـ/1973م ، ص 163 .

(16) ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 79 ، أبو زكرياء : سير ، ص 52 .

(17) أبو زكرياء : سير ، ص 53 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 41 ، الشماخي : سير ، ص 139 ، وراجع كذلك الباروني حيث يتساءل عن تاريخ اجتماع الاباضية الى عبد الرحمن واقتراحهم عليه بناء المدينة ويرى أن ذلك كان قبل امامة أبي حاتم ، اذ يجعلها عام 154هـ ، تقليدا للمصادر الاباضية ، وهو خطأ ، كما رأينا ، لذلك فهو يتساءل عن الفترة التي بين وفاة أبي الخطاب سنة 144هـ وامامة أبي حاتم سنة 154هـ وخلوها من نشاط قامت به الاباضية رغم قوتهم كما يقول . ومن هنا يتضح ارتباك الباروني في اعتقاده سنة 154هـ هي السنة التي تولى فيها أبو حاتم امامة الدفاع ، في حين أننا نعلم أن أبا حاتم هذا كان على رأس جيش من الاباضية سنة 153هـ مشاركا في حصار طبنة . وقد بويع بالامامة سنة 145هـ وليس 154هـ وذلك كرد فعل مباشر وحاسم على تمادي ابن الأشعث في ملاحقة الاباضية ، وتقتيلهم كما تذكر ذلك الروايات الاباضية . أنظر الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 5 ، هامش 1 و3 ، وقارن بما قاله د. محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 256 هامش 250 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 34 - 35 ، الشماخي : سير ، ص 132 .

(18) يذكر عبد الرحمن الجيلالي أن تيهرت شرع في بنائها سنة 148هـ ، ولكنه لا يذكر كيف كان ذلك ، ولم يشر الى مراجعه التي اعتمدها.تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، ص 220 .

ترتاد مكانا صالحا لهذا المشروع الكبير ، فاختارت موضع تيهرت[19] دون غيره اذ يمتاز بجودة الهواء ، وكثرة المياه ، وخصب الأراضي ، وهو قابل للعمارة مأمون من العدو[20] ، وهي شروط اشترطوها لمدينتهم التي سوف تكون حرزا وحصنا للاسلام ، على حد تعبير الشماخي[21] .

وتروى المصادر الاباضية ، كيفية الابتداء في بناء هذه المدينة بذلك الموضع الذي كان لقوم ، اتفقوا معهم على اعطائهم قدرا معلوما من خراجه يأخذونه من غلته . وكان الموضع غياطيل ، واشجارا ملتفة كثيفة ، ومرتعا لأنواع من السباع والوحوش ، بحيث اقتضت الضرورة اقتلاع ذلك كله ، وتضيف الرواية نفسها ، كرامة اسطورية ، فتقول إنه نادى مناد للسباع أن أخرجوا من الغابة ، فاننا ننوي عمارتها فشوهدت الحيوانات تخرج من تلك الاحراش حاملة أولادها ، وبعد ثلاثة أيام من ذلك ، حرقت الغابة ، واستوت بالارض كأن لم تكن بالامس (هنالك فكروا بادئ ذي بدء ، بتأسيس المسجد الجامع فاقترحوا لذلك بين أربعة امكنة ، فشرعوا في بنائه حيث وقعت القرعة . ثم اختطوا المدينة دورا وقصورا وبيوتا[22] .

(19) تيهرت . هنالك من يكتب تيهرت بالالف مكان الياء « تاهرت » وهو خطأ . وانما حرفت الكلمة بمرور الزمن ، والصحيح هو تيهرت . ويذكرها المغاربة مثل الرقيق القيرواني وابن عذارى وابن سعيد المغربي بذلك يقول أبو الفداء « وفي خط ابن سعيد عوض الالف ياء مثناة من تحت وهو الاصح عندي لان ابن سعيد مغربي فاضل » تقويم البلدان تصحيح رينود وآخرين ، طبع دار الطباعة السلطانية ، باريس 1840م ص 138 . وأنظر كذلك جورج مارسيه وآخر حيث رجحا تيهرت على تاهرت Maçais G. et Dessus L. ; Tihert tagdemt, p.24 أما الشيخ أطفيش فيقول « وتيهرت بكسر التاء وإسكان الياء بعدها اسكانا ميتا ، وبفتحها وإسكان الياء بعدها حيا والفتح أولى وبفتح الهاء وبعدها راء مهملة ساكنة والتاء مجرورة في السطر لاعلى صورة هاء لانها تاء تأنيث في لغة البربر... ويقال تاهرت بالالف وهو ضعيف » الرد على المقني ، ص 70 ، وأنظر كذلك جوزي : تاريخ المغرب ج3 ص 262 . وتقع تيهرت (العاصمة الرستمية) على بعد 9 كيلومترات من تيهرت اليوم . وتبتعد عن مدينة وهران في الشمال الغربي الجزائري بحوالي240 كلم وتفصلها 430 كلم عن الجزائر العاصمة في الشمال الشرقي منها .

(20) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 5 ـ 6 ، الشماخي : سير ، ص 139 . .

(21) الشماخي : نفسه ، ص 139 ، الأزكوي : كشف الغمة (مخطوط) ورقة 414 . .

(22) أبو زكرياء : سير ، ص 53 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 41 الشماخي : سير ، ص 139 . وتشبه أسطورة بناء العاصمة تيهرت أسطورة بناء القيروان من طرف عقبة بن نافع ، أنظر ابن عبد الحكم فتوح افريقيا والاندلس ، ص 54 ، البلاذري : البلدان ، ص 230 ، وأنظر كذلك الباروني : الازهار ، ج2 ، ص 7 هامش 1 . .

أما البكري[23] ، فقد احتفظ لنا بمعلومات قيمة ، استقاها من كتاب محمد بن يوسف الوراق ، المفقود ، ويخبرنا ان موضع تيهرت كان غيضة أشبة ملتف الأشجار ، اختار عبد الرحمن منه مكاناً لا شعراء فيه . وكان هذا المكان لقوم مستضعفين من مراسة[24] وصنهاجة ، اتفق معهم ابن رستم على أن يؤدي اليهم خراجا من الأسواق بعدما امتنعوا من بيعه له ، وفي الحين شرعوا في بناء المسجد الجامع .

وينفرد البكري برواية دون غيره ، اذ يذكر ان الاباضية في أول الامر توجهوا الى تيهرت القديمة أو العليا حسبما يفهم من كلامه ، فلما أرادوا بناءها من جديد . أو ربما توسيعها ، ووضع سور لها ، كانوا كلما بنوا شيئا في الليل وجدوه قد تهدم في الصباح ، فعزفوا عن ذلك الموضع ، وانتقلوا الى موضع تيهرت ، وهي الحديثة ، وتقع على خمسة أميال من القديمة غربا[25] . وبهذا يكون البكرى ، قد أجاب على التساؤلات التي طرحها الاستاذ شيخ بكري عندما أراد ان يعرف السبب الذي دفع عبد الرحمن وأصحابه الى بناء تيهرت الجديدة بينما على بعد أميال منها فقط ، توجد مدينة تيهرت القديمة الرومانية ويقول مستفسرا هل كان عبد الرحمن يطمح فقط الى ربط اسمه بانشاء مدينة مثلما فعل عقبة أو ادريس الاول بالنسبة للقيروان وفاس ؟ فبالاضافة الى السبب الذي ذكره صاحب المغرب ، ويبدو أن شيخ بكري لم يطلع عليه ، يجيب على تساؤله قائلا ان عبد الرحمن لم يكن يطمح الى شيء من ذلك ، وانما راعى في اختياره

(23) البكري : المغرب ، ص 67 ـ 68 .

(24) مراسة يكتبها الباروني مداسة بالدال بدل الراء ولا يذكر ابن خلدون قبيلة بهذين الاسمين ، فربما تكون من القبائل التي تلاشت وانقرضت أنظر الأزهار ، ج2 ، ص 31 .

(25) البكري : المغرب ، ص 67 ، وأنظر ابن عذارى حيث يقول إن المدينة كانت قديمة في الزمان الحالي فأحدثها عبد الرحمن مخالفا بذلك جميع الجغرافيين الذين يؤكدون بأن تيهرت مدينتان ، البيان ، ج1 ص 196 .وأنظر كذلك ياقوت الحموي حيث يقول إن تيهرت القديمة تبعد عن تيهرت الجديدة بمرحلة واحدة وليس خمس مراحل كما يذكر البكري . ياقوت : المشترك وضعا والمفترق صقعا ، ليدن ، 1846م ص 80 .

بانيا هاما في الحياة ، ذلك هو المياه المتوفرة بكثرة في تيهرت الجديدة ، بينما تعاني القديمة قلة الماء بشكل حاد جدا[26] وقد أطنب الجغرافيون ، في ذكر محاسنها ، خاصة منها الانهار القريبة منها مثل نهر مينة الذي يأتيها من جهة القبلة ، ونهر تاتش من شرقها ، وهذا الاخير يجتمع من عيون عديدة ، ومنه يشرب أهل تيهرت[27] ، اذ يدخل أغلب دورهم[28] .

إن المدينة بهذا الشكل والوصف ، هي حقا كما يقول ابن عذاري[29] غيضة بين ثلاثة أنهر . وليس هناك من وصف تيهرت وأبدع مثل المقدسي حيث يقول : « هي اسم القصبة أيضا ، هي بلخ المغرب ، قد أحدق بها الانهار والتفت بها الاشجار ، وغابت في البساتين ، ونبعت حولها الاعين ، رجل بها الاقليم ، وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب ، يفضلونها على دمشق واخطؤوا وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا هو بلد كبير ، كثير الخير ، رحب ، رفق ، طيب ، رشيق الاسواق ، غزير الماء ، جيد الأهل ، قديم الوضع محكم الرصف ، عجيب الوصف ، غير أنه متى يقاس المغرب بالشام ، وأين مثل دمشق في الاسلام »[30] .

هذه هي ولا شك الاسباب التي دفعت عبد الرحمن وأصحابه الى اختيار موضع تيهرت عاصمة لدولتهم الناشئة ، دون غيرها من المدن في المغرب الأوسط ، اضافة الى وفرة المياه ، والحلف القائم بين عبد الرحمن وقبيلة لماية القريبة من تيهرت ، هناك أسباب أخرى يمكن أجمالها فيما يلي :

(26) Bekri Ch : de Kharijisme, opcit, p. 64, Marçais G. : Tihert, opcit, p. 26-27.

(38) أبو زكرياء : سير ، ص 53 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 42 ، الأزكوي : كشف الغمة (مخطوط) ورقة 45 .

(27) البكري : المغرب ، ص 66 ـ 67 .

(28) ابن حوقل :صورة الأرض ، ص 86 .

(29) ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 277 .

(30) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص 228 .

1 ـ تقليد عبد الرحمن للمدراريين الخوارج الصفرية ، الذين بنوا عاصمتهم سجلماسة في جوف الصحراء[31] ، واستطاعوا أن يكونوا في مأمن من هجومات القوات العباسية . فلا غرو أن عبد الرحمن لاحظ هذا واختار تيهرت الواقعة على تخوم الصحراء والبعيدة عن القيروان ، مركز أعدائه بنحو تسعة عشر مرحلة[32] . ويفصلها عن البحر المتوسط مسيرة ثلاث رحلات[33] . وقد اختارها على المدن الشمالية ، البحرية منها خاصة ، وهي كثيرة في المغرب الأوسط ، لانه يعلم أن مثل تلك المناطق يسهل لجند الخلافة الوصول اليها . فتيهرت ، كما يقول الجيلالي « تهيمن على بلاد المغرب من جهاتها الأربع فلا هي متطرفة جنوبا ولا شمالا »[34] .

2 ـ مركز تيهرت التجاري ، اذ يربط تجارة الشمال ، بتجارة الجنوب ، تماما كما اختارها الامير عبد القادر الجزائري في القرن الماضي اذ يقول في رسالة له ان تيهرت قد اعجبت البدو ، يؤمونها ، ويجدون فيها امتيازات كبيرة .

3 ـ أخيرا اختار عبد الرحمن تيهرت لكي يستطيع أن يتحكم في القبائل الصحراوية البدوية ، بحيث لا يمكنها الهروب منه ، لانه يقبض عليها من الوسط ، كما يقول الامير عبد القادر الجزائري أيضا ، شارحا أسباب اختياره هو لتلك المدينة ، أثناء ثورته ضد الفرنسيين الغزاة في الثلث الأول من القرن الماضي[35]

(31) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 83 ـ 86 .

(32) ابن حوقل : صورة ، ص 84 ـ 85 ، وأنظر كذلك الاصطخري حيث يقول إن المسافة بين تيهرت والقيروان تقدر بـ 36 مرحلة ، المسالك والممالك ، ص 37 .

(33) اليعقوبي : البلدان ، ص 109 ، البكري يقول تيهرت تبعد عن البحر مسيرة يومين ، أنظر المغرب ، ص 69 .

(34) الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، ص 220 .

(35) Bourouiba Rachid : Tagdmet, Majallat et Tarikh Centre National d'Etude =

وهكذا تكون الأسباب السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، كلها مجتمعة دفعت عبد الرحمن وأصحابه الى اختيار تيهرت عاصمة لدولته المنتظرة .

وقبل أن نختم هذا الجانب ، بقي لنا أن نعرف معنى كلمة تيهرت : وهي كلمة بربرية ، يرى مستشرقان فرنسيان مختصان في اللسان البربري ، أن « تيهرت » كلمة تعني عند أحدهما « محطة » وعند الاخر « اقامة »[36] ويبدو جليا أن لا فرق كبير بين المعنيين ، اذ المحطة للاقامة أو الاقامة بالمحطة فكلاهما جائز . ولا شك أن تيهرت ، لعبت هذين الدورين منذ العهد الروماني ، فالرستمي ، الى يومنا هذا ، وهما يشيران بوضوح ، الى دور تيهرت التجاري بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب . وهو ما سوف نتطرق اليه في الباب الاقتصادي .

ثم استمرت المدينة ، بعد ذلك ، في التطور والعمران ، وقصدها الاباضية من المغرب العربي كله حتى كان عام 160هـ[37] ، عندما استأنس

= Historiques, Alger, 1977, N° 4, p. 30 وأنظر كذلك جورج مارسيه : دائرة المعارف الاسلامية ، ج4 مادة «تاهرت» ص 525 . والامير عبد القادر هو ابن محي الدين ولد بمدينة المعسكر في الغرب الجزائري ، ثار على المستعمر الفرنسي سنة 1832م بعد أن بايعته القبائل الجزائرية الى سنة 1847م . ثم سجن في فرنسا ونفي الى دمشق وتوفي بها سنة 1883م .

(36) Canal J : Tiaret (monographie ancienne et moderne) Bulletin de la société de Géographie et d'Archéologie d'Oran (B.S.G.A.O.), Alger, Tome XX 1900, p. 7.

(37) أبو زكرياء : سير ، ص 53 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 40 ـ 41 ، الشماخي : سير ، ص 139 ، ذكر أبو زكرياء أن عبد الرحمن تولى الامامة سنة 160هـ أو 162هـ ، وتبعه في ذلك كل من جاء بعده كالدرجيني والشماخي وغيرهما . ويبدو أن سنة 160هـ هي الصحيحة بتتبع الاحداث ، اذ لا يمكن أن تبقى الجماعة الاباضية في مدينة أسوها بأنفسهم ، مر عليها ما يقرب من خمس سنوات ، دون أن يعلنوا امامة الظهور . فليس هناك داع الى تأجيل تاريخ تأسيس الدولة الرستمية أكثر من سنة 160هـ خاصة وأن الاباضية قد قضوا خمس سنوات دون امام ، أي منذ مقتل أبي حاتم الملزوزي سنة 155هـ . وهذا التاريخ ، أي سنة 160هـ ، يراه أيضا الباروني كما أن موتيلنسكي يقول أن سنة 160هـ ، هي تاريخ مقبول لابتداء الدولة الرستمية . أما ابن عذارى والذين نقلوا عنه خاصة من المحدثين فيجعل ابتداء الامامة الاباضية الرستمية 161هـ ونراه ضعيفا . ويعترف ابن الصغير بأنه وقف على عدد امارة عبد الرحمن الا أنه نسيه مع مرور الأيام . أنظر الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 101 ، ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 196 ، ابن الصغير : سير ، ص 16 .
Moutylinsky : Chronique, opcit, p.5 (préface).

الاباضية من أنفسهم قوة ، ووجدوا أنهم يملكون كل دوافع اعلان امامة الظهور مثل العدد والقوة المطلوبة والمكان الحصين ، فنظروا الى من يتولى هذا الامر فلم يجدوا أبرز من عبد الرحمن بن رستم ، لسابقته ، ودينه ، وعلمه ، حيث أنه أحد حملة العلم من البصرة الى المغرب ، وكان عاملا للامام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمنى على القيروان[38] . ولا شك أن عبد الرحمن ، لما وصل الى المغرب الأوسط ، وبنى مدينة تيهرت ، وكان أول ما بنى منها المسجد الجامع ، كما تخبرنا بذلك جميع المصادر[39] ، أقول ، لا شك أن عبد الرحمن كان في هذه المرحلة امام صلاة[*] على الأقل . وهذا يكون من العوامل التي دفعت الاباضية الى تقديمه ، دون غيره والحقيقة أنني أستبعد ما ذهب اليه الدكتور محمود اسماعيل[40] ، عندما قال إن عبد الرحمن بويع بالامامة مرتين ، الاولى كانت امامة دفاع ، والثانية امامة ظهور ، اذ ان المصادر الاباضية لم تذكر هذا ، ولم تشر اليه ، وهي الحريصة ، في ذكر أئمتها خاصة منهم الذين بويعوا لاحدى أنواع الامامة المذكورة سابقا . أما أن المذهب الاباضي يجيز وجود امامين في وقت واحد ، فذلك جائز ، على ما يبدو ، عندما يكونا امامي ظهور ، أما امامة الدفاع ، فهي بحاجة الى التكاتف والتكتل حول امام واحد ، فضلا عن الرقعة الجغرافية التي لا تسمح بوجود امامين

(38) أبو زكرياء : سير ، ص 53 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 43 ، الأزكوي : كشف الغمة (مخطوط) ورقة 45 .

(39) أبو زكرياء : ص 53 ، البكري : المغرب ، ص 68 .

(*) لا تدخل امامة الصلاة في الأنواع الاربع للامامة عند الاباضية ، وقد سبق ذكرها وانما هي مرتبة دينية علمية ولا شك أردت من ذكرها تبيين درجة عبد الرحمن العلمية ، اذ أن امامة الصلاة ، لا يتقدم اليها ، الا من تتوفر فيه شروطا معروفة ، لا نشك في توفرها عند عبد الرحمن قبل غيره . ومما يدل على أن لامامة الصلاة دورا ، ما حدث في صدر الاسلام من مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ، لانه استخلفه على امامة الصلاة عندما أقعد به المرض وكان هذا حجة للذين بايعوه على الذين أنكروا خلافته فيما بعد واعتبروها غصبا .

(40) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 112 ، واتبع الدكتور عوض خليفات نفس الفكرة عندما قال بأن عبد الرحمن « ... كان من قبل إمام دفاع فقط » ووضع الجملة بين قوسين على غير عادته دون أن نعرف المقصود من ذلك . أنظر نشأة الحركة الاباضية ص 168 .

في وقت واحد ، لذلك أرى أن عبد الرحمن بن رستم ، لم يبايع بامامة الدفاع ، إنما كان على أكبر تقدير ، اماما للصلاة لاغير.

ومن الأسباب التي رشحت عبد الرحمن الى منصب الامامة ، كونه غريبا ، ليست له قبيلة تحميه إن غيّر أو بدّل ، على حد تعبير المصادر الاباضية اذ أن القوم لما نظروا فين يولونه هذا المنصب الخطير ، وجدوا على كل قبيلة منهم رأسا أو رأسين أو أكثر ، كلهم مؤهلون للامامة ، فخافوا من النزاع القبلي أو حماية القبلية لابنها المرشح[41] اذا ما انحرف عن تعاليم المذهب والدين عندئذ اجتمع رأيهم على تقديم عبد الرحمن ، فبايعوه بالامامة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وآثار الخلفاء الراشدين[42] ، سنة 160هـ/777م .

جـ - الامام عبد الرحمن بن رستم ، حياته ونسبه :

لا تختلف المصادر التي بين أيدينا[43] على انتماء عبد الرحمن بن رستم الى الفرس ، حتى القديمة منها[44] ، مثل اليعقوبي المعاصر للدولة والزائر لها ، اذ يقول متحدثا عن تيهرت : « تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي »[45]. الا

(41) ابن الصغير : سيرة ، ص 9 .
(42) أبو زكرياء : سير ، ص 53 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 42 .
(43) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، م5 ، 1377هـ/1957م ، ص 105 ـ 106 . وانظر مقدمة الطبعة الثانية
(44) ابن الصغير : لا يذكر صراحة أن عبد الرحمن فارسي ، وانما يقول إنه « لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة تحميه » أنظر سيرة ، ص 9 . ويذكر المسعودي في مروج الذهب أن سلالة عبد الرحمن بن رستم التي حكمت المغرب وعرت الديار ، من الأشبان الذين تتوزع في نسبهم فنهم من يقول إنهم من أهل أصبهان من ملوك فارس الاولى ، ومنهم من يرى أنهم من ملوك الاندلس اللذارقة ، وأخذهم لدريق والمسعودي مع هذا الرأي الاخير ، ويستشف من كلامه أنه لا يجعل الرستميين من الفرس . أنظر : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج1 ، ط4 ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، 1401هـ/1981م ، ص 186 ، 357 ـ 358 .
(45) اليعقوبي : البلدان ، ص 104 .

أن الخلاف ، بين تلك المصادر الأولية ، قائم حول أبيه فابن خلدون[46] يجعله ابن رستم قائد الفرس بالقادسية ، وهذا مستبعد جدا لأن رستم القادسية قتل سنة 14هـ أو 15هـ[47] ، بينما توفي عبد الرحمن سنة 171هـ[48] ، وبذلك يكون قد عمر أكثر من قرن ونصف وهو أمر مستبعد فضلا ، عن أن المصادر الاباضية ، خاصة لم تذكر مثل هذا العمر الطويل لعبد الرحمن ، وهي الحريصة المهتمة بحياة أئمتها وتراجمهم ، بل تنسب تلك المصادر عبد الرحمن الى « رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسي »[49] .

ويذكر ابن حزم الاندلسي[50] ، في جمهرته لانساب العرب ، قطعة من نسب الفرس فيقول « بنو رستم ، ملوك تيهرت ، من ولد جاماسب » والملك جاماسب هو ابن فيروز بن يزد جرد بن بهرام جور ، وبذلك يوافق ابن حزم الروايات الاباضية في جعله بني رستم من سلالة الملك الفارسي .

أما البكري[51] وابن عذارى[52] ، فيخبراننا أن بهرام ، جد عبد الرحمن ، كان مولى للخليفة عثمان بن عفان . وبهذا يمكن أن نلاحظ أن عبد الرحمن عاش حياة عربية ، اذ كان جده مع عثمان ، فلا يشك في أن أباه تربى في بيئة عربية ، وربما بالحجاز حيث الخليفة المذكور . واذا

(46) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 225 .
(47) الطبري : تاريخ ، ج3 ، ص 564 ، وأنظر كذلك المسعودي : مروج الذهب ، ج2 ، ص 319 ـ 320 .
(48) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 100 ـ 101 . .
(49) أبو زكرياء : ، سير ، ص 35 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 19 ، وأنظر كذلك الشماخي يقول « عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن سام بن كسرى الملك الفارسي » ، سير ، ص 138 .
(50) ابن حزم علي بن سعيد : جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنصال ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة 1948م ، ص 511 .
(51) البكري : المغرب ، ص 67 ، ويخطيء عندما يجعل عبد الرحمن ابنا لعبد الوهاب اذ يقول « عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام وبهرام هذا مولى أمير المؤمنين عثمان (ض) وهو بهرام بن ذو شرار بن سابور بن بابكن بن سابور ذي الاكتاف الملك الفارسي » .
(52) ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 196 .

سايرنا الكتابات الاباضية في أن عبد الرحمن أصله من العراق[53] أو أنه ولد بالعراق[54] ، فلا تكون عائلته انتقلت من الحجاز الى العراق ، الا بعد مقتل عثمان بن عفان سنة 35هـ ، على أكبر تقدير . وفي هذه الفترة يكون رستم والد عبد الرحمن قد تزوج بأم عبد الرحمن التي ستلد له هذا الصبي ، ويحملانه صغيرا معهما الى الحجاز ، بنية الحج ، حيث يتوفى الأب في موسم الحج تاركا يتيما وأرملة .

وتقول المصادر الاباضية ، بأن رستم ، له علم مسبق في أن ذريته ستلي أرض المغرب ، فخرج من العراق ، في اتجاه المغرب ، لهذا الغرض الا أن منيته اخترمته بالحجاز[55] .

ولا شك أن هذا « العلم المسبق » لا يعدو أن يكون قصة أسطورية لا غير ، لذلك لا نجد الشماخي يذكرها ، بل يقول إن رستم خرج من العراق الى مكة حاجا فتوفي هناك[56] . وتتفق المصادر الاباضية كلها ، في أن أم عبد الرحمن ، لما توفي زوجها ، تزوجت حاجا مغربيا من القيروان[57] ، فأخذ الأم وابنها الى مدينته بالمغرب العربي[58] .

ـ هنالك ، نشأ عبد الرحمن ، وترعرع وأخذ نصيبا من العلم ، فتربيته ونشأته الاولى ، اذن ، كانت بالقيروان ، المدينة العربية الاولى بالمغرب ولا شك أن عبد الرحمن ، وصل الى هذه المنطقة في أواخر القرن الاول الهجري وبداية الثاني[59] ، اذ يروي الدرجيني اتصال ابن رستم ، وهو حدث ،

(53) أبو زكرياء : سير ، ص 35 ، يقول الشيخ أطفيش : ان عبد الرحمن « أصله من عراق العرب » رسالة موسعة ص 100 .
(54) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 19 .
(55) أبو زكرياء : سير ، ص 35 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 19 ـ 20 .
(56) الشماخي : سير ، ص 123 .
(57) الغريب أن تلك المصادر لا تشير الى اسم أم عبد الرحمن أو اسم الرجل المغربي الذي تزوجها .
(58) أبو زكرياء : سير ، ص 35 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 19 ـ 20 ، الشماخي : سير ، ص 123 .
(59) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 108 .

بسلمة بن سعيد : الداعية الاباضي ، وتعلقه بتعاليمه ويقول : « عن الامام أفلح عن أبيه عبد الوهاب عن جده عبد الرحمن أنه قال : أول من جاء يطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية سلامة بن سعد قال قدم علينا من أرض البصرة... فسمعت سلامة يقول وددت أن لو ظهر هذا الأمر... يوما واحدا من أول النهار الى آخره ، فلا أسف على الحياة بعده . فقام عبد الرحمن مجتهدا في ذلك الأمر »[60] وهكذا يكون عبد الرحمن في القيروان عندما قدم اليها سلمة بن سعيد في أواخر القرن الاول ، وبداية الثاني الهجريين .

ـ ولما كان عام 135هـ ، انتقل عبد الرحمن ، كما سبق أن رأينا ، الى البصرة حيث أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، يدرس الفقه الاباضي ، وتعاليمه في كتمان تام ، وقضى هناك خمس سنوات [61] ، كانت أساس علمه وفقهه الذي سيرشح بسببهما الى منصب الامامة .

ـ هكذا ، نلاحظ أن عبد الرحمن ، وإن اتفقت كثير من المصادر على أنه من أصل فارسي ، كان عربي المولد والمنشأ والمربى والثقافة واللغة : ولد بالعراق ، وتربى بالقيروان ، ثم عاد الى العراق فتعلم بالبصرة . فلا شك أن هذه العوامل كلها قد أثرت في حياته ، فعاش عيشة عربية ، ولد بالأرض العربية ، وتعلم فيها ، كما أنه نشأ بأول مدينة عربية بنيت في المغرب العربي .

والجدير بالذكر ، أن المستشرق زامباور ، في معجمه للانساب والاسرات الحاكمة في الاسلام ، علق على نسب الرستميين الفارسي وقال بأنه « نسب خرافي »[62] كما أن الدكتور فخار ابراهيم ، يرى أنه من الخطأ

(60) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 11 ـ 12 .
(61) دبوز : تاريخ ، ج3 ، ص 189 ـ 194 .
(62) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ج1 ، ترجمة زكي محمد حسن بك ـ

الفادح مسايرة من يدعي أن عبد الرحمن فارسي ، فيقول « .... إني أبادر الى القول بأنه من الخطورة بمكان ، ان نساير هذا الاتجاه الذي يجعل أرومة بني رستم في الساسانيين . ومالم يثبت لدينا بالادلة القطعية بأن عبد الرحمن ابن رستم من أصل فارسي ، فلا يمكن قبول هذه للدعوى ، ولو قبلناها على علاتها فمؤسس الدولة الرستمية (قد) نشأ نشأة عربية وظهر في العراق مع والديه قبل رحيله الى المغرب مع زوج أمه التي تزوجت حاجا مغربيا في موسم الحج[63]» .

وهكذا يكون عبد الرحمن بن رستم ، بعد مبايعته بالامامة من طرف اخوانه في المذهب أول امام ، لاول دولة اسلامية في المغرب الاوسط (الجزائر) عرفت في التاريخ بالدولة الرستمية[64] . وكانت دولة اباضية تستظل بها جميع القبائل المعتنقة لهذا المذهب من المغربين الأدنى والأوسط ، اضافة الى غيرها من المذاهب الداخلة ضمن حدودها . وتعتبر الدولة الرستمية أيضا ، ثمرة جهود علماء المذهب الاباضي في المشرق والمغرب وتتويجا لثورات الاباضية ضد الولاة الأمويين والعباسيين في المغرب العربي .

واستمرت الدولة في التطور والعمران ، انطلاقا من عاصمتها تيهرت حيث « شرعوا (سكانها) في العمارة والبناء واحياء وغرس البساتين واجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك ، واتسعوا في البلد وتفسحوا فيه وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار »[65] .

= وآخرون ، مطبعة جامعة فؤاد الاول ، القاهرة ، 1370هـ/1951م ، ص 100 .
ويقول ابن تاويت الطانجي بأن صحة هذا النسب لاتهم بقدر ما يهم ان عبد الرحمن هذا اعتقد أو اعتقد الناس على عهده أنه فارسي أنظر دولة الرستميين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، م5 ، عدد 1 ، 2 ، ص 106 .

(63) مختار ابراهيم : دور الرستميين ، سبق ذكرها في مجلة الأصالة عدد 42 ـ 43 ، ص 39 .

(64) الكماك : موجز ، ص 81 ـ 83 .

(65) ابن الصغير : سيرة ، ص 12 ـ 13 .

وهكذا تنطلق الدولة الرستمية ، انطلاقة قوية ، تعبر عن متانة في أركانها ، وقوة في تأسيسها ، وتستمر في الشموخ والرقي الحضاري ردحا من الزمن ، ثم تتداعى الى الخمول والضعف فالسقوط . وكانت حياتها السياسية غنية بالاحداث ، ثرية بالوقائع ، وهو ما سنعالجه في الفصول القادمة ، بعد أن نحدد امتداد هذه الدولة ، ونضبط حدودها بقدر المستطاع ، وبقدر ما توفر لدينا من نصوص .

﴿ الفصـــل الثـالـث ﴾

حدود الدولة الرستمية

لم تعرف الدولة الرستمية حدودا ثابتة ، ظاهرة المعالم خلال كل تاريخها الطويل ، مثلها في ذلك مثل سائر الدول والدويلات الاسلامية المعاصرة لها ، اذ أن فكرة الحدود بمعناها الحالي ، لم تكن معروفة في تلك العصور ، لذلك فان محاولة وضع حدود لهذه الدولة ، انما تكون من باب التقريب حتى تتضح الرقعة الجغرافية التي جرت فيها الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية لهذه الدولة .

وفي البداية ، لابد من الاشاره الى أن الباحثين الذين تطرقوا الى هذه النقطة ، خرجوا بآراء متضاربة ، مختلفة اختلافا شديدا . فبينما يرى الأستاذ عبد الله العروي[1] (Laroui Abdallah) حدود هذه الدولة لاتتعدى مدينة تيهرت ، وبالتالي فهو يعتبرها « دولة مدينة » ، بل ويوظف هذا المصطلح في كتاب « تاريخ المغرب » ينظر اليها الأستاذ شيخ بكري[2] (Bekri Chikh) بأنها تضم تيهرت وبعض المناطق القريبة منها ، ويقول بأن هذه الدولة مغلقة حدودها من جميع الجهات ، الا الجهة الصحراوية فمفتوحة ، ويستبعد أن تكون سلطة الرستميين قد بلغت جبل نفوسة باقليم طرابلس الغرب ، في حين أن الباحث الفرنسي جيرارد دانجيل[3] (Gerard Dengel) ، لا ينفي دخول ذلك الجبل البعيد[4] عن مركز الامامة الرستمية تحت سلطة الرستميين ، في فترة من الفترات .

(1) Laraoui Abdallah : opcit, p. 104-109, 116

(2) Bekri Chikh : opcit, p. 77, 81

(3) Gerard Dengel : opcit, p. 71, 100

(4) يبتعد جبل نفوسة ، الواقع بالقرب من طرابلس الغرب بليبيا ، عن تيهرت بحوالي 56 مرحلة . أنظر الاصطخري : المسالك والممالك ص 37 .

الى جانب هذه الاراء الثلاثة ، هنالك رأي رابع يراه أغلب الباحثين والمؤرخين[5] ، مفاده أن الدولة الرستمية تضم المغرب الأوسط كله ، ما عدا تلمسان التابعة للادارسة غربا ، ومنطقة الزاب[6] التي يسيطر عليها الأغالبة شرقا ، ويدخل ضمن الحدود الرستمية أيضا ، جبل نفوسة ، وكل المناطق جنوب طرابلس ، وجزيرة جربة ، اضافة الى الجنوب التونسي أي بلاد الجريد . وهكذا فان هذه الدولة تكون قد تربعت على رقعة شاسعة من المغرب العربي تحيط بالدولة الاغلبية من الغرب والشرق والجنوب[7] - ويبدو أن هذا الرأي الأخير أقرب الى الصواب ، لأسباب عديدة تتضح لنا عند مناقشتنا للآراء الثلاثة الاولى واستقرائنا للنصوص القديمة التي وصلتنا .

ففي البداية ، لا يمكن تقبل فكرة « دولة المدينة الرستمية » لأنها متناقضة مع ما بلغته هذه الدولة من اتساع في الرقعة ، ورقي في الاقتصاد والثقافة ، وهي من جهة أخرى لا تساير الاحداث القائمة ، آنذاك في المغرب العربي[8] الذي تشهد ساحاته ، اعتناق البربر للمذهب الاباضي والصفري وبشكل واسع كما رأينا ذلك

(5) د الحبيب الجنحاني : العلاقات السياسية والاقتصادية بين افريقية والمغرب الأوسط فيما بين القرن الثاني والخامس للهجرة ، محاضرة رقم 46 ، الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي ، باتنة ، الجزائر 1978م ، ص 5 ، محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 141 ، بحاز ابراهيم : دور الرستميين ، الاصالة عدد 42 ـ 43 ، ص 41 ، موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية ، سبق ذكره ، ص 87 ، 283 ، الكعاك عثمان : موجز ، ص 189 وأنظر كذلك :
Lewicki : l'Etat Nord Africain, opcit, p. 514
Basset R. : les Sanctuaires, opcit, p. 423-424.

(6) الزاب : اقليم في بلاد الجزائر اليوم ، وأطلق على المنطقة التي حول مدينة بسكرة ، جنوب مقاطعة قسنطينة ، بالشرق الجزائري . ومن مدنه قديما ، طبنة ، طولقة ، تهودة وغيرها ، ومن المعلوم أن هذه التسمية نفسها نجدها في العراق « الزاب » في شمال العراق ، ونحن في هذا البحث نقصد زاب المغرب لاغير . عن الزاب أنظر : دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة « الزاب » ، ج10 ، ص 318 ـ 321 .

(7) الجنحاني : العلاقات السياسية ، المحاضرة السالفة الذكر ، ص 5 .

(8) يذكر ابن القوطية واليعقوبي أن طاعة بني العباس (بما في ذلك الاغالبة) لم تتجاوز طبنة ، قاعدة الزاب وما حولها . أنظر تاريخ افتتاح ، أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ، 1957م ص 41 ، اليعقوبي : البلدان ، ص 103 ، ومما يدل على أن الدولة الرستمية لم تكن دولة مدينة ، وانما تهين ايضا حتى على القبائل -

وقد ردّ الدكتور الجنحاني[9] على ذلك الرأي واعتبر استعماله لمفهوم « دولة المدينة » غير دقيق .

والحقيقة ، أنه يمكن اختصار الأراء الأربعة السابقة الذكر الى رأيين فقط : الذين يرون أن حدود الرستميين لا تتعدى مدينة تيهرت أو تيهرت وأحوازها من جهة ، ومن جهة أخرى الذين يوسعون سلطة الرستميين بحيث تضم ما بين تلمسان غربا وطرابلس شرقا مع مدّ وجزر بطبيعة الحال .

وهكذا يكون رأي شيخ بكري مثل رأي سابقه عبد الله العروي ، مع شيء من الاختلاف طفيف[10] ، اذ أن بكري يرى سلطة الرستميين على جبل نفوسة ، وعلى اباضية المغرب العربي كله ، انما هي سلطة روحية لاغير ، الدافع اليها وحدة المذهب ويبرر هذا بقوله ، ان سلطة الرستميين ، اذا كانت قد بلغت جبل نفوسة ، فلماذا لم تصل الى بعض الزعامات القبلية

= البدوية الضاربة في الصحراء والشرق ، ما قاله ابن الصغير من « أن ـ قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهم كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع الى مدينة تاهرت واحوازها » ثم يضيف بأن مقدمي تلك القبائل دخلوا مرة على الامام عبد الوهاب وسألوه تغيير بعض موظفيه . ابن الصغير : سيرة ، ص 17 ـ 18 .

إن هذا النص وحده يمكن أن نستنتج منه أن سلطة الرستميين كانت واسعة جدا بحيث أنه لا يمكن أن تدخل تلك القبائل على الامام وتسأله تغيير بعض موظفيه اذا لم تكن هي داخلة في طاعته ومبايعته له بالامامة هذا في عهد قوة الدولة وازدهارها اما في عهد الامام أبي حاتم حيث أن الدولة بدأت تدخل عصر شيخوختها « فاننا رغم ذلك نلاحظ أن تيهرت اكتظت بالسكان لمبايعة أبي حاتم بالامامة ، وبعد ذلك يقول ابن الصغير « ثم أرسلوا الى القبائل فبايعته » اذن هنالك قبائل خارج تيهرت تابعة للامام الرستمي ، وهي بعيدة عن العاصمة تيهرت . ابن الصغير : سيرة ، ص 50 .

(9) الجنحاني الحبيب : تاهرت عاصمة الرستميين ، المجلة التونسية عدد 40 ـ 43 ، ص 9 هامش 15 ، ويقع العروي في تناقض عندما يقول « إن امراء سجلماسة لم يكونوا يحملون لقب امام ».و.: سامل قائلا هل هذا يعني أن الامام الحقيقي والوحيد هو الذي يوجد في تيهرت ؟ مع العلم أن مدرار بن اليسع هو زوج أروى بنت عبد الرحمن بن رستم . أنظر : Laroui A.: opcit, p. 103 وهذا الاحتمال وارد ، فلعل الباحث سوف يتناوله بالبحث والتدقيق في دراسة أخرى مستقلة ، ان شاء الله . وانظر مقدمة الطبعة الثانية

(10) يقول بكري بأن الرستميين اذا بلغوا فعلا الى طرابلس (جبل نفوسة) فلا يكون ذلك الا في عهد الامام الثالث عبد الوهاب بن عبد الرحمن (171هـ ـ 208هـ) أنظر : Bekri Chikh: opcit, p. 77-78, 81

لرابضة بجوار تيهرت ؟ ويعزو هذا الى غياب الجيش المنظم في الدولة لرستمية[11] .

والسؤال المطروح هنا هو هل ينبغي للدولة أن يكون لها جيش منظم ولا بد ، منتشر في مناطق مختلفة ، حتى يثبت أن هذه المنطقة أو تلك تابعة لهذه الدولة أو تلك ؟ وهل اذا كان رعايا دولة يعترفون بسلطة امام تلك الدولة ، وسلطته روحية وليست عسكرية ، لا يعتبرون تحت نفوذ ذلك الامام ولا يدخلون ضمن حدود دولته ؟ أو بتعبير آخر بسيط : هل أن بالسلطة العسكرية وحدها فقط تتحدد الحدود ، وغيرها غير معتبرة ؟

أظن أن الجواب على هذا السؤال نجده في أحداث الدولة وتاريخها وفي اعتقاد الاباضية وآرائهم حول مسألة الامامة والمأمومين[12] .

ان عبد الرحمن بن رستم ، لما أراد أن يؤسس دولته سنة 160هـ/777م ويعلن امامة الظهور في المغرب ، لم يقدم على هذا العمل الخطير الا بعد أن

(11) Bekri chikh · idid, p. 77-81.

(12) يقول العالم الاباضي أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني (500هـ ـ 570هـ) في باب ما ينبغي لأمير المؤمنين أن يفعله في أهل الخلاف : « والذي ينبغي لأمير المؤمنين أن يستعمله بينه وبين أهل الخلاف أن يدعوهم الى ترك ما به ضلوا ، فان أجابوا اهتدوا وصاروا اخواننا ولهم مالنا وعليهم ما علينا.... وان امتنعوا من ذلك ، دعوناهم الى أن نجري عليهم حكم الله تعالى من دفع الحقوق والخضوع لواجب الاحكام . فان أطاعوا بذلك تركناهم على ما هم عليه ووجب لهم من الحقوق والاحكام ما يجب لنا... ولهم حقوقهم من الفيء والغنائم والصدقات على وجوهها ولهم علينا دفع الظلم عنهم كما يجب... ومن امتنع منهم مما وجب عليه من الحقوق أدبناه بما يقمعه ونرده الى سواء السبيل وان جاوز ذلك سفكنا دمه واستحللنا قتاله . وان اعترفوا بطاعتنا وانفردوا ببلادهم . وأجروا فيها احكامهم تركناهم... ونستقضي عليهم منهم من يقوم بواجب الحقوق عليهم ولهم.. ونأخذ منهم كل ما يجب... من الحقوق ونردها في فقرائهم وذوي الحاجة منهم... وان حاربناهم... وهزمناهم فانا لا نتبع مدبرا ولا نجهز على جريح . وأموالهم مردودة عليهم الا ما كان لبيت المال فانا نجوزه على وجوهه... » أنظر الدليل لأهل العقول ، ج3 ، ص 53 ـ 54 . ويروي لنا الشماخي عن رجل أنه قال لقبيلة زواغة لما هرب اليها ابن خلف بن السمح المنشق عن الامامة الرستمية في جبل نفوسة وأراد أن يستقل عن تيهرت اقتداء بأبيه وهذا في أواخر أيام الدولة الرستمية ، قال الرجل « هل لكم أن تتركوا ربعوا وتتحصنوا بجزيرة جربة أو ترسلوا الى الامام بتيهرت يخرجكم من عمالة نفوسة ويفرد لكم عاملا أو تدفعوا صاحبكم الى نفوسة » سير الشماخي ، ص 224 . ومن هذا النص نستشف أن جزيرة جربة مازالت للرستميين وان سياسة الرستميين مع مخالفيهم أو المنشقين عنهم هي أن يعينوا لهم عاملا ويتركوهم شبه مستقلين . وهذا ما كان موجودا في المغرب الأوسط على أكبر تقدير في عهد الرستميين .

تيقن من قوته ، وقوة أتباعه[13] ، وذلك حتى لا يورطهم في حرب قد تقضي عليهم وتكون عواقبها عليهم وخيمة[14] . ثم ان شيخ بكري يقر للدولة الرستمية باشعاعها الروحي وسلطتها المذهبية ، وعدل أئمتها الذين بهروا اخوانهم في المذهب ، وغيرهم ، بسلوكهم وسيرتهم الحسنة[15] . ويبدو لي أن هذه السلطة ، وفي تلك الأزمنة بالذات أقوى من سلطة السيف والجيش[16] ، اذ الولاء المذهبي أو الديني بصفة عامة للامام يكون في مأمن ، ولا يحتاج الى قوة عسكرية تدعمه ، خاصة اذا علمنا أن الائمة الرستميين لم يكونوا يستسيغون اتباع السلطة العسكرية ، بل كانوا لا يلجأون اليها الا عند الضرورة القصوى ، عندما يداهمهم الخطر[17] . والسلطة الروحية التي كان الرستميون يهيمنون بها على جميع اخوانهم في المذهب المنتشر في أغلب ارجاء المغرب العربي ، هي سلطة ينظر اليها الاباضية بعين الاعتبار ، ومن خرج عن حماية الرستميين ، لا يكون الا خارجا عن المذهب نفسه[18] ، في حين أن المعلومات المتوفرة لدينا تؤكد

(13) ابن الصغير : سيرة ، ص 9 ، أبو زكرياء : سيرة ، ص 139 .

(14) ربما هذا يفسّر تأخير اعلان امامة الظهور بتيهرت الى سنة 160هـ ، رغم أن المدينة قد بنيت منذ خمس سنوات على الأقل .

(15) Bekri Chikh : ibid, p. 76-77.

(16) من الأدلة على قوة الرستميين وتفوذهم الروحي . والمادي أن فوندر هيدن يعزو اتباع الاغالبة « السياسة البحرية والاتجاه الى فتح صقلية ثم ايطالية الى أن الاغالبة لم يستطيعوا التقدم شرقا أو غربا أي أنهم لم يستطيعوا السيطرة على برقة ومصر وبقية المغرب » د. تقي الدين عارف الدوري : صقلية علاقاتها بدول البحر المتوسط الاسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي ، ص 34 وأنظر أيضا شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالي وآخر ، الدار التونسية للنشر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، تونس ، الجزائر 1398هـ/1978م ، ص 41 .

(17) كمثال لذلك فتنة خلف بن السمح الذي أراد أن يتولى شؤون نفوسة بغير اذن الامام ، فأمهلوه طويلا ، ولما ظهر أنه لا يريد الا ركوب رأسه حاربوه .
وكذلك الحال بالنسبة لمدينة العباسية التي بناها الامير الأغلبي على مقربة من تيهرت ، هدمها أفلح فجأة وبقوة . أنظر أبو زكرياء : سير ، ص 83 ـ 89 ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص 236 .

(18) ابن سلام : شرائع (مخطوط) في ورقة 29 يذكر رسالة للامام عبد الوهاب بعثها الى أهل طرابلس يحثهم فيها على اتباع الامام ويسوق لهم حديثا نبويا « أيما امام ولي بعدي ولم يطع فقد برئت ذمة الله وذمة رسوله ممن عصاه » . وأنظر كذلك رسالة لنفس الامام يحظر فيها النفوسيين فتنة خلف بن السمح الذي تذكره المصادر الاباضية باسم الخبيث ابن الطيب تبرأ منه . الدرجيني : طبقات ج 1 ، ص 69 ، الشماخي : سير ، ص 180 ـ 181 .

انتشار المذهب الخارجي في المغرب كله[19] . لهذا يكون الاباضية كلهم تابعين بصورة أو بأخرى للدولة الرستمية ، ويكونون من رعاياها ، لأنه ليس في وسعهم أن يصوغوا حياتهم وحدهم في تلك الظروف[20]

واذا سرنا مع اليعقوبي (ت 284هـ) الذي زار المنطقة في أواخر أيام الدولة الرستمية ، تتلمس مناطق الاباضية ، والقبائل الخاضعة لتيهرت ، نجده يقول أن قبيلة مزاتة في سرت ، شرقي طرابلس كلها اباضية ، وهم الغالبون عليها « ووراء ذلك بلد زويلة ، مما يلي القبلة ، وهم قوم مسلمون اباضية كلهم »[21] ثم نتوجه غربا لنصل « أرض نفوسة وهم قوم عجم الالسن ، اباضية كلهم ، لهم رئيس يقال له الياس ، لا يخرجون عن أمره.... لا يؤدون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الاباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم »[22] ثم نواصل المسير في الجنوب التونسي ، الذي لا يذكر اليعقوبي عنه شيئا يهم موضوعنا ، الا أن ابن حوقل (ت 367هـ) يفيدنا في هذا الخصوص ، ويقول « فأما أهل قسطيلية وقفصة ونفطة والحامة وسماطة وبشرى وأهل جبل نفوسة فشراة إمّا اباضية.... أو وهبية »[23] وهكذا تكون هذه المنطقة امتدادا طبيعيا ، يضمن الصلة بين نفوسة وتيهرت[24] .

(19) ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، ص 243 . ولم تحكم الدولة الرستمية القبائل الاباضية فحسب وانما أيضا غيرها حيث يثبت لنا نصا للبكري أن الامام الرستمي كان « رأس الاباضية وامامهم وامام الصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالاخلافة » المغرب ، ص 67 . ويذكر الوسياني أن الامام عبد الوهاب جعل على أهل قنطرارة بالجنوب التونسي صلاة الجمعة ، ولم يجعل عليهم القطع في السرقة لانهم ليسوا اباضية بينما جعل ذلك على نفوسة . سير الوسياني ، ورقة 38 .

(20) د. فخار ابراهيم : دور الرستميين ، مجلة الاصالة ، عدد 42 ـ 43 ص 41 .

(21) اليعقوبي : البلدان ، ص 97 ـ 98 .

(22) نفسه ، ص 99 . يتفق اليعقوبي مع المصادر الاباضية في تسمية العامل الرستمي على جبل نفوسة . وهو أبو منصور الياس تولى شؤون الجبل منذ عهد الامام أفلح ، وتوفي في عهد الامام أبي حاتم (281هـ ـ 294هـ) . أنظر أبو زكرياء : سير ، ص 99 ، الدرجيني : طبقات ، ج 1 ، ص 84 ، الباروني : مختصر ، ص 48 .

(23) ابن حوقل : صورة ، ص 96 . والوهبية التي يذكرها اباضية لا غير أنظر ابن الصغير : سيرة ، ص 16 ، الرقيق : تاريخ ، ص 173 ، عوض خليفات : النظم الاجتماعية ، ص 117 ـ 118 .

(24) باجية صالح : الاباضية بالجريد في العصور الاسلامية الاولى ، دار بوسلامة ، تونس 1972 ، ص 80 .

وإذا تجاوزنا بلاد الزاب ، اقليم قسنطينة في شرق الجزائر حاليا التابع للاغالبة ، صرنا « الى قوم يقال لهم بنو برزال ، وهم فخذ من بني دمر من زناتة وهم شراة كلهم »[25] .

ثم ندخل المغرب الأوسط ، بعد ذلك ، والذي يصوره لنا اليعقوبي وكأنه منقسم الى زعامات قبلية ومذهبية مختلفة[26] . فاذا وصلنا مدينة تيهرت رأيناه يقول « والمدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار ، عظيمة الأمر تسمى (عراق المغرب)... تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب..... فهم رؤساء اباضية المغرب . ويتصل بمدينة تاهرت بلد عظيم ينسب الى تاهرت في طاعة محمد بن أفلح »[27] .

هكذا ، اذا أخذنا ، بعين الاعتبار ، الفترة الزمنية التي كتب فيها اليعقوبي كتابه ، أي في أواخر أيام الدولة الرستمية ، حيث كثرت الفتن ،

---

(25) اليعقوبي : البلدان ، ص 102 ـ 103 .

(26) يبدو أن تلك الزعامات القبلية والمذهبية خاصة وان الاكثرية منها علوية إنما هي في طاعة الامام الرستمي بشكل أو بآخر . فكونها علوية النسب لا يعني أنها منفصلة عن تيهرت وحكامها ، بل العكس أصح ، اذ روى لنا ابن الصغير التيهرتي ، وهو المعاصر للدولة الرستمية أن خطب الاباضية في تيهرت هي خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . ثم إن ابن الصغير الذي سجل معظم الفتن السياسية التي مرت بها تيهرت ، لم يذكر اطلاقا حركة انفصالية للعلويين ويرى الشيخ محمد علي دبوز أن أولئك العلويين انما اوتهم الدولة الرستمية عندما جد العباسيون في مطاردتهم ، وقتل زعمائهم ، اكراما واعترافا لهم بمقامهم الرفيع . لهذا فانني أرجح أن تكون تلك المناصب والزعامات في طاعة الامام الرستمي بتيهرت . وانما يجعل عليها عاملا من أنفسهم يتولى حكمهم من قبله ، أنظر ابن الصغير : سير ، ص 59 ، اليعقوبي : البلدان ، ص 104 ـ 107 ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص 336 ـ 337 ، الكعاك : موجز ، ص 173 ـ 175 . وقارن بما نقلناه عن أبي يعقوب يوسف الوارجلاني ، هامش رقم 12 ، ص 101 من هذا الفصل .

(27) اليعقوبي : البلدان ، ص 104 ـ 105 ، وأنظر المقدسي الذي جعل تيهرت من الامصار الكبيرة ، وذكر عدة مدن تنسب اليها مثل وهران ، تنس ، شلف الخضراء ، سوق ابراهيم ، متملس ، الغدير ، وغيرها كثير . أنظر: أحسن التقاسيم ، ص 218 ـ 219 . وأنظر الكعاك : موجز ، ص 172 . هذا من الجهة الغربية أما من الجهة الشرقية ، فيذكر الدكتور محمود اسماعيل أن بعض الجغرافيين اختلط عليهم الامر فنسبوا بعض البلدان والكور الرستمية كغدامس في صحراء ليبيا ، اليوم ، وتهودة في حدود الزاب ، وودان الى دولة الأغالبة أنظر الخوارج في المغرب الاسلامي ، ص 141 .

ونستفيد من المصادر الاباضية ، أسماء بعض العمال في الجهة الشرقية للدولة ، مثل « سلام بن عمرو اللواتي عامل الامام عبد الوهاب على سرت ونواحيها ، ومنهم ميال بن يوسف عامل الامام أفلح على نفزاوة... ومنهم سلمة بن قطفة عامل الامام عبد الوهاب على قابس ونواحيها »[35] ، « ومنهم سعد بن أبي يونس عامل الامام عبد الوهاب على قنطرار.. ومنهم أبو ذر أبان بن وسيم الويغوى... وكان عاملا على جبل نفوسة »[36] وقبل هذا يذكر الشماخي أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن عندما غادر جبل نفوسة راجعا الى تيهرت ، أرسل « قطعان بن سلمة الزواغي في جيش الى قابس ، فحاصرها وكان خارج قابس مطماطة وزنزفة ودمر[*] وزواغة وغيرها تحت ولايته ، وكذا جربة »[37] وفي مكان آخر يذكر الشماخي[38] أبا جمال المدوني عاملا على وارجلان وأريغ .

وهكذا ، اذا اعتمدنا على الرواية الاباضية ، رأينا أن سلطة الدولة الرستمية وصلت الى سرت ، أقصى نقطة شرقية في المغرب العربي ، والى جربة في البحر المتوسط ، فوارجلان في الصحراء والجدير بالذكر هنا ، أن أبا جمال المدوني المذكور يضعه الدرجيني[39] في الطبقة السابعة (300هـ/350هـ) فرغم أنه جاء بعد سقوط الرستميين ، الا أنه يوحي أن للائمة بتيهرت عاملا لهم على وارجلان ، وهو أمر غير مستبعد تماما ، خاصة اذا علمنا أن يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب قد هرب الى تلك المدينة ،

---

(35) الشماخي : سير ، ص 203 ، وأنظر الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 111

(36) الشماخي : نفسه ، ص 214 ـ 215 ، وأنظر أطفيش محمد بن يوسف رسالة الرد على العقبي (ان لم تعرف الاباضية) ، ص 68 ـ 144 .

(*) هذه كلها أسماء قبائل ، ودمر إضافة إلى ذلك ، جبل يتصل بجبل نفوسة شرقا ، وبجبل الاوراس في الجزائر غربا . ويذكر الدكتور عبد العزيز سالم أنه كان تابعا للدولة الرستمية . أنظر المغرب الكبير العصر الاسلامي ، ج2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ص 555 .

(37) الشماخي : نفسه ، ص 161 ، وأنظر الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 164 ـ 165 .

(38) نفسه ، ص 591 ـ 592 .

(39) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 345 .

لـمـا هـاجم أبـو عبـد الله الشيعي تيهرت سنـة 296هـ ، واستقبلـه أهلها ، استقبالا مناسبا لمقامه الرفيع عندهم[40] .

وختاما ، يمكن القول . ان الدولة الرستمية ، عرفت حدودا متموجة تمتد أحيانا ، وتتقلص أخرى . وهذا أمر مفهوم في مثل العصر الذي قامت فيه هذه الدولة ، والبقعة التي قامت عليها ، وطبيعة التنظيم الاجتماعي للسكان وهم في غالبيتهم من القبائل البدوية . وأما أقصى مدّ لها فهو ما بلغته خاصة في عهد الائمة الثلاثة الأول (160هـ ـ 258هـ) اذ كانت الدولة يحدها شرقا سرت ، والدولة الاغلبية ، وغربا تلمسان ونهر الملوية ، فما سوى ذلك من الصحراء والمغرب الاوسط ، فهو داخل ضمن حدودها . واما فترة الجزر فكانت حدودها تضم الجزء الأكبر من المغرب الاوسط ، اضافة الى جبل نفوسة الذي بقي دوما مخلصا في ولائه للأئمة الرستميين بتيهرت .

والواقع أن الرستميين ، كما يقول الدكتور ابراهيم فخار ، كانوا يحكمون من سرت الى زويلة ، الى جبل نفوسة ، إلى شط الجريد فالمغرب الأوسط بكامله تقريبا بواسطة عمال لهم لا يمثلون الحكام بتيهرت ، وانما يمثلون رعيتهم أمام أولئك الحكام . اذ أن تلك الرعية لم يكن في وسعها أن تصوغ وحدها تاريخها « انما كانت.... في أشد الحاجة الى من يفجر طاقاتها ، ويوحد سلوكها.... ومشاعرها ، ويحدد وجهتها فتلك ، اذن هي المسؤولية التاريخية الخطيرة التي وقعت على كاهل الرستميين في القديم[41] .

ولعل مما يدعم رأينا ، وهو رأي أغلب المؤرخين ، في أن سلطة الرستميين كانت تمتد من المغرب الأدنى الى الاوسط ، باستثناء ، اقليم طرابلس ، وافريقية الاغلبية ، والزاب ، وتلمسان ، هو أن معظم

(40) أبو زكرياء : سير ، ص 124 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 105 ، وأنظر لوفيسكي حيث يؤكد أن سلطة الرستميين وصلت حتى وارجلان : Lewicki : l'Etat Nord Africain, opcit, p. 532.

(41) فخار ابراهيم : دور الرستميين ، الأصالة عدد 42/43 ، ص 41 .

المؤرخين[42] القدامى ، ان لم نقل كلهم ، والذين أرخوا لسقوط دول المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي ، لا يذكرون سقوط أي ملك أو امارة في المغرب الأوسط خاصة من تلك الامارات التي انفرد اليعقوبي[43] بذكرها ، وانما هي كلها تتفق في ذكر سقوط الأغالبة بالقيروان ورقادة ، والرستميين بتيهرت ، والادارسة بفاس ، والمدراريين بسجلماسة لاغير .

هكذا ، يظهر جليا امتداد الدولة الرستمية على رقعة شاسعة ، بحيث كان الأئمة يهيمنون روحيا وسياسيا على رعاياهم من الاباضية خاصة . وعلى تلك الرقعة الجغرافية الشاسعة ، جرت الأحداث السياسية التي نتحدث عنها في الفصل التالي .

(42) أبو زكرياء : سير ، ص 109 ، 114 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 93 ـ 94 ، ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 149 ـ 151 ، ابن الأثير : الكامل ، ج8 ، ص 40 ـ 49 ، المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ، سبق ذكره ، ص 81 ـ 92 ، وأنظر ابن خلدون : العبر ، ج4 ، ص 70 ـ 76 .

(43) اليعقوبي : البلدان ، ص 104 ـ 107 .

﴿ الفصـل الرابع ﴾

الأوضاع السياسية العامة للدولة الرستمية
160هـ - 296هـ

تميزت الأوضـاع السيـاسيـة ، للـدولـة الرستميـة ، بـالنشـاط والحيـويـة والاستقرار والاضطراب في آن واحد » ويرجع الفضل في معرفة أوضـاع ، هذه الدولة ، السيـاسيـة الى المؤرخ التيهرتي ابن الصغير ، فضلا عن المصـادر الاباضية ، حيث أن القارئ لكتـابـه ، يتبـادر الى ذهنـه لأول وهلـة ، أن صاحبه ألفه لذكر الاحداث والاضطرابات التي مرت بهـا الـدولـة الرستميـة عامة ومدينة تيهرت خاصة .

إن عبـد الرحمن بن رستم ، لما بنى العـاصمـة ، وبويـع بـالامـامـة سنـة 160هـ ، قضى بـذلـك على الفـوضى الضـاربـة أطنـابهـا في المغرب الأوسـط والأدنى ، وأنقذ البلاد من الثورات المتعاقبة[1] ، ثم إنـه لم يـدخر جهـدا في اظهار دولته بمظهر القوة والسلطان ، وانكب بذلك على تثبيت أركان هـذه الدولة ، ووضع دعائمها ، حتى يضمن لها البقاء والاستمرار . وهـذا لا يتحقق الا ببعض الاحتياطات التي اتخذهـا عبـد الرحمن وأصحـابـه ، عنـدمـا بنوا عاصمتهم ، اذ جعلوا لها سورا[2] ، يقيهم هجمات أعدائهم ، وينطلقون منهـا لحكم البلاد شرقا وغربا ، شمالا وجنوبـا . ولا شـك أن الاهتمام بـالعـاصمـة ، اهتمام بباقي أقاليم الدولة .

(1) توفيق المدني : مدخل ، مطبوعات الملتقى 11 للفكر الاسلامي ، ص 1 .
(2) البكري : المغرب ، ص 66 ، ويذكر الباروني أنه شاهد جزءا من هذا السور ينم عن متانة ومنعة وقوة ، الأزهار ، ج2 ، ص 8 هامش 1 ، ص 303 .

واستمرت الدولة في التطور والظهور ، في ظل امامها الأول عبد الرحمن الـذي يقول عنـه ابن الصغير : « لما ولي عبـد الرحمن بن رستم مـا ولي من أمـور النـاس شمر مئزره ، وأحسن سيرتـه ، وجلس في مسجـده للارملـة والضعيف ولا يخاف في الله لومـة لائم . فطـار ذلـك في أطراف الارض مشارقها ومغـاربهـا حتى اتصل ذلـك (من) اخوانهم من أهل البصرة وغيرهـا من البلدان.... وقال بعضهم لبعض قد ظهر بالمغرب امام ملاه عدلا وسوف يملـك المشرق ويملأه عـدلا »[3] وهكـذا تكـون سيرة عبـد الرحمن عـامـلا أساسيا في تعاطف اباضية المشرق معه ومساعدتـه على تخطي الصعـاب التي غالبا ما تحدث بعد تـأسيس الـدول مبـاشرة . لـذلـك نجـد ابـاضيـة البصرة وغيرها من البلدان ، يرسلون للدولة أموالا تقدر بثلاثة أحمـال ، اتفق عبـد الرحمن ورعيتـه على تقسيمهـا وجعل ثلث منهـا في الكراع وثلث يوزع على الفقراء والضعفاء من النـاس[4] . ويخبرنـا ابن الصغير ، أن هـذه الاموال لما وزعت حسب الاتفاق « قوى الضعيف ، وانتعش الفقير (و) حسنت أحوالهم وخـافهم جميـع من اتصـل بـه خبرهم ، وأمنـوا ممن كان يغـزوهم من عـدوهم ورأوا أنهم قادرون على غيرهم ومن كان يخافون أن يغزوهم »[5] .

هكذا ، يوضح لنا ابن الصغير جانبا هـامـا من حيـاة الـدولـة الرستميـة وهو جانب التأسيس والانطلاقة الاولى للـدولـة التي كثيرا مـا تكـون شـاقـة ومحفوفة بالمخاطر . ولا شك أن اباضية المشرق ، قد اطلعوا على هذا الجـانب فأسرعوا في تقديم مسـاعـداتهم لاخوانهم في المـذهب[6] ، وبـذلـك سـاهموا في

(3) ابن الصغير : ص 10 .
(4) نفسه ، ص 12 ، أبو زكرياء : سير ، ص 54 .
(5) ابن الصغير : ص 12 .
(6) يرى الدكتور محمود اسماعيل أن عبد الرحمن هو الذي طلب المساعدة من اباضية المشرق ليتقوى بها ، خلافا لما يذكره ابن الصغير وهو مستبعد لأن أموالا أخرى جاءت الى تيهرت من المشرق رفضها عبد الرحمن وأصحابه . أنظر محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 113 .

انتقال الدولة من طور النشوء والتأسيس والخوف ، الى طور النضج والقوة والأمن والثقة بالنفس .

ان الدولة الرستمية ، لما انتصب عودها ، انضوت تحت لوائها جميع القبائل البربرية الضاربة داخل حدودها « في شكل إئتلاف شمل البربر وما عداهم من العناصر الأخرى»[7] . ولا شك أن هذه الفترة ، عرفت اعتناق الكثيرين للمذهب الاباضي ، واعترافهم بالدولة الرستمية ، ومبايعتهم لامامها بتيهرت ، خاصة وأنها فترة هدوء الدولة واستقرارها وقوتها واستكمال بنائها الاداري والعمراني ، على حد سواء[8] . ثم إنها فترة ازدهار حقيقية ، اذ لم يمر على الدولة اكثر من ثلاث سنوات ، حتى جاءتها عشرة أحمال من الاموال أرسلها اليها اباضية المشرق أيضا لتدعيمها والمساهمة في بنائها[9] ، وكان اباضية المشرق ينظرون الى عبد الرحمن وعدله في المغرب بأنه « سوف يملك المشرق ويملأه عدلا »[10] وينظرون الى دولتهم المتطلعة للمستقبل ، نظرة اكبار واعجاب ، وكانوا يترقبون اليوم الذي يقتحم فيه امام المغرب حدود المشرق ليعلن الخلافة الاسلامية الحقيقية بالمنظور الاباضي[11] ، فيملأ بذلك المشرق والمغرب عدلا ، الا أن عبد الرحمن ورعيته اعتذروا هذه المرة من أخذ تلك الاموال[12] تعففا ، ورأوا أنه لا يجوز لهم أخذها ، لأن أهلها في المشرق هم أحوج منهم اليها ، حتى يقاوموا بها الفقر وجور الولاة . واعتمد عبد الرحمن في رد الاموال الى أصحابها ، على اكتفائه ، واقتناع رعيته بما توصل اليه من مستوى معيشي راق حيث أن المال كثر عند

(7) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 113 .
(8) ابن الصغير ، ص 13 ـ 16 .
(9) ابن الصغير ، ص 13 ، أبو زكرياء : سير ، ص 54 .
(10) ابن الصغير ، ص 10 .
(11) الكعاك : موجز ، ص 189 .
(12) ابن الصغير : ص 14 ـ 15 .

الرعايا ، فبنوا القصور ، وغرسوا البساتين ، وظهرت علامات الترف على وجوههم .

والحقيقة ، أن رد عبد الرحمن لتلك الاموال ، أكسبته ثقة لدى اباضية المشرق وازدادوا تعظيما له ، ووصل بهم الامر الى الرغبة « في امامته ورأوا أنها فرض عليهم »[13] .

واذا كانت سياسة عبد الرحمن الداخلية هكذا ، فان سياسته الخارجية ، اتسمت بالحكمة ، والتسامح ، اذ وادع صاحب افريقية « روح بن حاتم (171هـ ـ 174هـ) سنة 171هـ فوادعه[14] ، وامن شره ، واتجه ببصره نحو دولة بني مدرار الصفرية فربطها اليه بعقد المصاهرة ، اذ قدم ابنته أروى[*] لمدرار ابن الامام الصفري اليسع بن أبي القاسم سمكو بن واسول[15] وهكذا يكون عبد الرحمن ، قد هيأ لدولته كل أسباب الاستقرار والديمومة نظم ادارتها ، ورتب أجهزتها[16] ، وأمن شر جيرانه الغربي والشرقي ، وبذلك لم يأت تاريخ وفاته سنة 171هـ حتى كان قد ترك دولة ثابتة الأركان ، قوية الجانب ، بامكانها أن تواصل الحياة باطمئنان .

ويشبه علي يحي معمر[17] ، عبد الرحمن الرستمي بعبد الرحمن الداخل الأموي في كثير من الجوانب ، منها أن كليهما ينحدران من أسرة الملك في المشرق ، فأسسا دولتين لهما في المغرب ، وتوفي عبد الرحمن بن رستم سنة

(13) ابن الصغير ، ص 15 .
(14) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 228 .
(15) نفسه ، ج6 ، ص 268 .
(16) لمزيد من المعلومات حول الادارة الرستمية أنظر الكعاك : موجز ص 180 ـ 185 . وكذلك أنظر : Bekri Chikh : opcit, p. 66-74. Dengel G. : opcit, p. 104-133.
(*) يذكر ابن الخطيب خطأ اسم ابنة عبد الرحمن بن رستم فيقول بأن أسمها معنوه ولم يقل بذلك غيره ممن ذكرها . أنظر ابن الخطيب لسان الدين : اعمال الاعلام (تاريخ للمغرب العربي الوسيط) تحقيق أحمد مختار العبادي ، محمد ابراهيم الكتاني دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1964 ، ص 143 .
(17) علي يحي معمر : الاباضية في موكب التاريخ ، الحلقة الرابعة ، ص 134 ـ 137 .

171هـ بينما توفي عبد الرحمن الداخل بعد ذلك بسنة فقط ، بعد أن ترك كل واحد منهما دولته قوية عظيمة . ويرى معمر ، أن الفرق الوحيد بين الأموي والرستمي هو أن الاول احتفل به الكتاب ورسموا حوله هالة من المجد والعظمة والفخار ، في حين أن الثاني أهمله التاريخ وحقد عليه المؤرخون .

وبجمل القول ، إن عبد الرحمن بن رستم ، استطاع ان يؤسس دولة تضم اخوانه في المذهب ، يستظلون بها ، ويحتمون بحدودها ، ولما مات سنة 171هـ « ... لم ينقم عليه أحد في حكومة ولا في خصومة ، ولم يكن على يديه افتراق الاباضية »[18] .

وتذكر المصادر الاباضية ، أن عبد الرحمن لما حضرته الوفاة ، جعل الامامة « شورى في سبعة نفر صنيع عمر بن الخطاب »[19] ، بينما لا يذكر ابن الصغير شيئا من ذلك ، بل يقول « وكان قد نشأ له (لعبد الرحمن) في أيامه ولد يعرف بعبد الوهاب ، وكان محمود الأفعال ، وكان قادرا للقيام بعده ، فلما انقضت أيامه صيرت الاباضية الامر اليه بعده »[20] الا أن الباروني ينقل لنا نفس هذا النص حرفيا في أزهاره من ابن الصغير ولكن بصيغة أخرى علما بأنه اعتمد على مخطوط لديه ، والنص هو : « وكان قد نشأ له في أيامه ولد يعرف بعبد الوهاب وكان محمود الافعال ، وكان قد رشحه للقيام بعده فلما انقضت ايامه صيرت الاباضية اليه الامر بعده »[21]

(18) أبو زكرياء : سير ، ص 54 ، ابن الصغير : ص 16 ، الأزكوي : كشف الغمة (مخطوط) ورقة 45 .

(19) أبو زكرياء : سير ، ص 54 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 46 . ويساير الدكتور عبد الحميد حاجيات الرواية المذكورة . أنظر : مبدأ الشورى في نظام الحكم بالمغرب العربي خلال العصر الوسيط ـ مجلة التاريخ ، عدد 12 ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر ، 1982 ، ص 92 .

(20) ابن الصغير ، ص 16 .

(21) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 98

فالرواية الاباضية التي تقول بأن عبد الرحمن عين سبعة نفر ، وهم مسعود الاندلسي وأبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني ، وعمران بن مروان الأندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن ، وأبو الموفق سعدوس بن عطية وشكر بن صالح الكتامي ، ومصعب بن سدمان[22] ، اقتداء بعمر بن الخطاب يبدو أن فيها شيئا من المبالغة لان عمر بن الخطاب (ض) ، عندما عين النفر الستة ، جعل ابنه مستشارا لا غير ، يحضر مجلس المرشحين ، ويبدي رأيه ولا يتولى من الأمر شيئا[23] . لذلك ، فان صدقنا الرواية الاباضية وسايرناها في تعيين عبد الرحمن لمجلس السبعة من بينهم ابنه عبد الوهاب ، فاننا لا نصدقها في دعواها أن ذلك اقتداءً بعمر بن الخطاب (ض) ، بل يتبادر الى الذهن أن ذلك المجلس ، وكأنه مجلس الحل والعقد ، كان لتعيين عبد الوهاب وتأمين وصوله الى الامامة ، بعد أن « رشحه (أبوه) للقيام بعده »[24] ، وبالتالي ، فان الشك يرقى أيضا الى قصة الاختيار[25] .

(22) أبو زكرياء : سير ، ص 54 ـ 55 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 46 ، الشماخي : سير ، ص 154 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 99 ، ونشير الى أنه يوجد اختلاف بينها في العدد وضبط بعض الأسماء المذكورة .

(23) يذكر ابن قتيبة عن عمر بن الخطاب أنه قال « ويحضر ابني عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شيء... ثم قال ياعبد الله اياك ثم اياك لا تتلبس بها » أنظر الامامة والسياسة وهو المعروف بتاريخ الخلفاء ط2 ، ج1 ، مطبعة الحلبي ، مصر ، 1377هـ/1957م ، ص 24 ، ويروي اليعقوبي رواية أخرى عن عمر الذي قال « أخرجت سعيد بن زيد لقرابته مني فقيل في ابنه عبد الله بن عمر قال حسب آل الخطاب ما تحملوا منها » تاريخ اليعقوبي ، ج3 ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت 1379هـ/1960م ، ص 160 ، اذن ليس ما فعله عبد الرحمن بن رستم يشبه تماما وفي كل تفاصيله ما فعله عمر بن الخطاب . ويذكر لواب بن سلام ، إبعاد الخليفة عمر لابنه وأهل بيته من الولاية ولكنه ينسب ذلك خطأ الى أبي بكر الصديق (ض) ثم يعيد بعد صفحة واحدة فينسبه الى عمر (ض) . أنظر شرائع الدين (مخطوط) ورقة 31 ـ 33 .

(24) ابن الصغير : بالصيغة التي أوردها الباروني في أزهاره ، ج2 ، ص 98 .

(25) تقول قصة الاختيار أن العامة لما عرض عليها الاشخاص السبعة ، مالت الى اثنين منهم فقط ، وهما عبد الوهاب بن عبد الرحمن ومسعود الأندلسي . وفاز هذا الاخير بالأكثرية . ولما هبوا لمبايعته ، هرب واختفى تاركا مكانه للذي يليه مباشرة في ميل الناس اليه وهو عبد الوهاب الذي قبل البيعة ، وتولى الامامة . وكان مسعود أول مبايع له ، ثم بايعته العامة بعد ذلك بيعة عامة . أنظر أبو زكرياء : سير ، ص 56 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 46 ـ 47 .

وان مما يؤيد هذا الشك ، حدوث فتنة ابن فندين ، بعد تولية عبد الوهاب مباشرة : وهي الفتنة التي طعنت في امامة عبد الوهاب ، وسمي أنصارها نكارية[26] ، لانكارهم تلك الامامة ، مما يخيل الينا أنها كانت ضد نظام الوراثة في الحكم[27] ، وهو النظام الذي رفضه الخوارج عامة ، والاباضية خاصة . فالمبدأ المقرر عندهم أن الامامة شورى بين المسلمين يتولاها أصلح المسلمين لها . ويبدو أن ابن فندين وأصحابه ، عرفوا أن لتولية عبد الوهاب الامامة عواقب وخيمة أخطرها الاستمرار في وراثة الحكم . وبالفعل لقد تولى امامة الدولة الرستمية ، منذ نشأتها الى سقوطها ، أبناء عبد الرحمن وحفدته ولا يمكن أن تتفق مع بعض الكتابات[28] الحديثة التي تريد أن تجعل نظام الحكم في الدولة الرستمية شوريا ، لا يختلف عن عهد الخلفاء الراشدين ، رغم أن الذين تولوا الحكم في الدولة كلهم أبناء أسرة واحدة ، ومن الذين يرون هذا الرأي ويتعصبون له ، الشيخ علي معمر الذي يقول « يبدو أن أئمة الاباضية في المغرب الاسلامي جميعا ، ما عدا اليقظان الذي تبرأ منه الاباضية ولم يعتبروه اماما ، قد وصلوا الى الحكم بالاسلوب الذي وصل به الخلفاء الراشدون الى الحكم... ولم يكن لولاية العهد أي اعتبار أو نظر بل لم يكن لهم فيها أي تفكير ولا عنها أي حديث... [29] ويتناقض الشيخ في مكان آخر ، عندما يتحدث عن الامام أبي اليقظان ويقول « وعندما حان أجله ، كان أكبر أولاده اليقظان في الديار المقدسة... وكان ولده يوسف على رئاسة جيش يحرس قافلة تجارية

(26) أبو زكرياء : سير ، ص 58 ـ 66 .

(27) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 117 ـ 118 .

(28) من الذين يرون أن الدولة الرستمية كانت شورية في امامتها ، الاستاذ محمد علي دبوز ، اذ يفسر سبب كون أئمة الدولة كلهم من عائلة واحدة وهي الاسرة الرستمية « تفسيرا بعيدا عن الموضوعية ، أقل ما يقال عنه إنه ، يناقضه الواقع » ، والنصوص الصريحة الاولية التي وصلتنا ، ويطلق دبوز على حكام الدولة الرستمية ، لقب الجمهوريين ، بينما يطلق على سواهم لقب الملكيين . والمصطلحان موزعان في جميع صفحات الكتاب تقريبا . أنظر دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص 527 ـ 530 ، وراجع الكعاك : موجز ، ص 180 ، الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج1 ، ص 221 .

(29) علي يحيى معمر : المرجع السابق ، الحلقة الرابعة ، ص 56 .

كبرى... فتوفي الامام وأكبر أولاده غائبان »[30] . فلماذا يبحث الشيخ عن أولاد الامام ، اذا كان الحكم غير وراثي ؟ انما هو بحث عن الوريث الشرعي للامامة لا غير . فلم يكن الحكم في الدولة الرستمية شوريا ، بل لقد « خالف الرستميون أهم ركن من مبادئهم الشورية ، ألا وهو شورية الامامة وجعلوا هذه الاخيرة وراثية[31] . كما يؤكد ذلك الاستاذ محمد الثميني .

مجمل القول حول هذه النقطة ، أن نظام الحكم في الدولة الرستمية نظام وراثي ، كنظام الأمويين والعباسيين بالمشرق ، أو الأغالبة والادارسة بالمغرب . ويبقى العدل والاحسان ، وما التزم به الائمة الرستميون من مبادىء الاباضية السمحة ، وما تميزوا به من صفات التقوى سائدة خلال كل تاريخ الرستميين ، باتفاق المؤرخين كلهم تقريبا ، « فلو وجد لهم غيرها لذكروه »[32] كما يقول الباروني . إن ابن فندين وأصحابه ، أو النكار ، كما يعرفون في التاريخ الاباضي ، تحدوا الامام عبد الوهاب ، وخاضوا معركة ضده فقضى عليهم قضاء مبرما ، ومحقهم ، فانزووا في كديتهم[*] المعروفة

(30) نفسه ، ج4 ، ص 77 .

(31) محمد الثميني : مفهوم الشورى والديمقراطية في التاريخ العربي لدى الرستميين والجماعات المحلية بوادي ميزاب بالجنوب الجزائري اعمال المؤتمر البرلماني العربي الثاني ، الجزائر من 8 الى 12 آذار 1981م ، ص 8 . المدني أحمد توفيق : مدخل لدراسة ، المحاضرة السابقة الذكر ، ص 21 . ويبدوا أن ابن عذارى قد اعتمد على رواية نكاري أو أراد التهكم اذ لا يذكر عبد الوهاب الا باسم عبد الوارث ربما لوارثته حكم أبيه . البيان ، ج1 ، ص 197 وغيرها . وأنظر كذلك محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 202 . عبد الحميد سعد زغلول : المغرب العربي ، سبق ذكره ، ص 104 ، عوض خليفات : نشأة ، ص 55 . وأنظر كذلك : Marçais G.: La Berberie, opcit, p. 106 ومن الأدلة القاطعة على أن الاباضية في تيهرت كانوا يولون الأئمة دون الرجوع الى مبدأ الشورى ما حكاه ابن الصغير من أحد علماء الاباضية الذي نادى « بأعلى صوته ، الله سائلكم معاشر نفوسة اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ، ولم تجعلوا الامر للمسلمين ، وتردوه اليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى » علما بأن ابن الصغير يتحدث هنا عن امامة أبي بكر بن أفلح القريب العهد منها . أنظر ابن الصغير سير ، ص 31 .

(32) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 250 :

(*) الكدية هي الأرض المرتفعة ، أو الارتفاع من الأرض . وهي أيضا صلابة تكون في الأرض ، لعل المقصود بها هنا المكان المرتفع في المدينة أنظر إبن منظور : لسان العرب المحيط ، ج3 ، اعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، بيروت ، 1980 ، ص 232 .

باسمهم[33] . ولم نسمع لهم ذكرا بعد ذلك[34]

والحقيقة أن عبد الوهاب «... كان ملكا ضخما ، وسلطانا قاهرا... قد اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم مالم يجتمع للاباضية قبله ، ودان له مالم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة مالم يجتمع لاحد قبله »[35] واستطاع بذلك أن يقضي على الواصلية[36] ، الذين تكالبوا على الدولة ، في حرب ضروس ، ولم يفلت منهم الا اليسير[37] .

وتروي المصادر الاباضية ، انتقال عبد الوهاب الى جبل نفوسة واقامته به سبع سنوات . وانما توجه الى تلك المنطقة ، بقصد أداء فريضة الحج ، فأبى عليه أهل نفوسة ، وخافوا على امامهم من العباسيين ، واحتياطا لوقوعه في قبضتهم . فبقي معهم تلك المدة الطويلة يلقي عليهم الدروس والمواعظ وفي اثنائها حاصر طرابلس ، ولكن لم يستطع دخولها[38] ، فعقد صلحا مع أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، على أن تكون المدينة والبحر للاغالبة ، وماكان خارجا عنها للامام[39] . وكان قد رغب

(33) ابن الصغير : ص 20 .

(34) أبو زكرياء : سير ، ص 58 ـ 65 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 48 ـ 56 ، ويذكر ابن الصغير قصة النكار بخلاف ما يذكرها الكتاب الاباضية ، فربما هي حادثتان اختلطتا على ابن الصغير ، ولكن من المؤكد أن الرواية الاباضية هي الأصح ، أنظر ابن الصغير ، ص 17 ـ 20 .

(35) ابن الصغير : ص16 ـ 17 .

(36) الواصلية : من فرق المعتزلة رئيسها واصل بن عطاء (80 ـ 171هـ) يقول البكري بأن لواصلية جمعا قريبا من تيهرت . كان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها . أنظر المغرب ، ص 67 .

(37) أبو زكرياء : سير ، ص 67 ـ 73 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 57 ـ 62 ، لا يذكر ابن الصغير حادثة الواصلية ، التي سوف نرجع اليها بشيء من التفصيل في الباب الفكري ، اذ أنه جرت بين الجانبين مناظرات كلامية قبل أن تحدث المعركة . وانما يذكر ابن الصغير فتنة أخرى مرت بها الدولة الرستمية ، سببها التنافس على فتاة من قبيلة لواتة أراد رئيس هوارة التزوج بها فخاف عبد الوهاب المصاهرة بين القبيلتين الكبيرتين في المغرب هوارة ولواتة ، فأسرع وسبق الهوارى وتزوج بالفتاة ، فثارت ثائرة الزعيم الهوارى وقبيلته ، واستعد للقتال ووقعت الحرب ، فكانت الدائرة فيها على هوارة . أنظر ابن الصغير ص 20 ـ 23 .

(38) أبو زكرياء : سير ، ص 76 ـ 77 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 67 .

(39) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 287 ، الشماخي : سير ، ص 162 .

في موادعته روح بن حاتم صاحب افريقية[40] ، وهذا دليل على القوة والسلطان اللذين وصلتها الدولة الرستمية في شخص امامها عبد الوهاب . ولا شك أن ابن الصغير انما أراد أن يعبر عن هذه القوة عندما قال « ثم أشتد أمر عبد الوهاب وقوي عليه وانتقل من حال الامامة الى حال الملك »[41] .

ان المدة الطويلة التي قضاها عبد الوهاب ، في جبل نفوسة ، تتركنا نتساءل عمن قام مقامه بتيهرت ؟

إن أول ما يتبادر الى الذهن ، أن أبنه أفلح كان خليفته ، وولي عهده . ومما يؤيد هذا ما يخبرنا به ابن الصغير من أن الامام عبد الوهاب في احدى معاركه السالفة الذكر ، كان قد رشح ابنه للامامة ، وعقدها له ، لما أظهر في تلك الحرب من بلاء حسن[42] . ويتهيأ لنا أن الامام عبد الوهاب لم يغادر العاصمة تيهرت نحو جبل نفوسة ، أقصى نقطة شرقية في دولته ، الا بعد أن عين ابنه خليفة له ، بل يؤكد علي يحي معمر[43] أن الامام فعلا أناب عنه ابنه أفلح في رعاية الدولة لما قصد الشرق بنية الحج .

وهكذا يكون عبد الوهاب ، قد دعم نفوذ دولته الداخلي والخارجي اذ بعد أن قضى على مناوئيه ، ونصب ابنه خليفة له ، راح مطمئنا من تيهرت باتجاه الشرق ، فقضى تلك المدة الطويلة في جبل نفوسة ، ركز فيها ارتباط الجانب الشرقي من الدولة بتيهرت ، حيث أنه بعد الصلح الذي عقده مع الأغالبة حول طرابلس وضواحيها ، عين ولاة له على الجبل

(40) القيرواني الرقيق : تاريخ افريقية ، 173 ، ابن خلدون : العبر ، ج4 ، ص 415 .

(41) ابن الصغير : سيرة ، ص 20 .

(42) ابن الصغير : ص 22 . وهذه القصة أيضا من الادلة على أن الدولة الرستمية ، كانت لا تتبع طريقة الشورى في الحكم ، بعكس ما تدعيه بعض الكتابات الحديثة . وأنظر كذلك : الباروني اذ يقول بعد أن أنتهت المعركة « أقبل على ابنه أفلح وقربه اليه ورشحه للامامة » الأزهار ، ج2 ، ص 135 .

(43) علي يحي معمر : الاباضية ، الحلقة الرابعة ، ص 59 .

الذي به تتكافأ السياسة البربرية[51] . فأمن شرهما واستلقى على ظهره ، كما يقول ابن الصغير ، مطمئنا لا شيء يكدر له صفو حياته ، وأقام في امامته خمسين عاما[52] حتى « شمخ في ملكه ، وابتنى القصور واتخذ بابا من حديد ، وبنى الجفان وأطعم فيها »[53] . والحقيقة أن الرعية كلها ، بما في ذلك القبائل البدوية نالها الترف والرخاء ، وعظم أمرها وأمر امامها .

ومما يدل على عنصر القوة والشباب في عهد الامام أفلح أنه لما بنى الاغالبة مدينة لهم بالقرب من تيهرت سنة 239هـ ، وأطلقوا عليها اسم « العباسية » ، دمرها أفلح تدميرا كاملا ، وأخبر بذلك أمراء بني أمية بالأندلس ، فما كان من هؤلاء ، الا أن أرسلوا اليه هدية ثمينة تقدر بمائة ألف درهم[54] ، تقديرا لعمله .

ولما توفي أفلح سنة 258هـ ، ترك الدولة لابنه أبي بكر ، قوية بقوته وحسن سياسته ، وهي بحاجة الى من يواصل تلك السياسة . الا أن نظام الوراثة في الدولة الاباضية ، أهلكها ، وقضى على قوتها ، وأورثها من بعد عزها ضعفا .

ويعتبر عهد الامام أبي بكر ، البداية الاولى لذلك الضعف ، لأنه لم يستطع أن يسوس القبائل المختلفة ، ويتحكم فيها بقوة ، مثلما كان أبوه أو جده . وأبرز ما يميز عهد أبي بكر ، فتنة ابن عرفة[55] ، التي يروي ابن

(51) الكماك : موجز ، ص 190 .

(52) يذكر أبو زكرياء والوسياني وغيرهما أن امامة أفلح كانت ستين سنة . أما الدرجيني فيجعلها تسعة وأربعين سنة . وهي محتملة جدا خاصة وأنها قريبة من رواية ابن الصغير . أنظر ابن الصغير : ص 26 ، أبو زكرياء : سير ، ص 96 ، الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 39 . الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 320 .

(53) ابن الصغير ، ص 26 .

(54) البلاذري : فتوح البلدان ، ص 236 ، ابن خلدون : العبر ، ج4 ، ص 429 .

(55) لا تذكر المصادر الاباضية القديمة ، عهد الامام أبي بكر مثل باقي الأئمة . بل لقد ترك الشماخي في سيره بياضا يشمل ثلثي الصفحة عندما أراد التحدث عن هذا الامام وربما السبب في ذلك هو ضعفه السياسي وقلة حنكته . أنظر الشماخي : سير ، ص 220 ، الباروني عبد الله : سلم العامة والمبتدئين : سبق ذكره ، ص 14 .

الصغير تفاصيلها ، ويذكر أن محمد بن عرفة كان رجلا ذا نفوذ واسع ، وثروة طائلة وكانت زوجة الامام أبي بكر بنتا أو أختا لابن عرفة ، كما أن أخت الامام ، كانت زوجة لابن عرفة مما زادت هذه المصاهرة في نفوذه فكان « اذا ركب من داره يريد أبا بكر ، مشى بين يديه ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره أمم من الأمم »[56] واستمر في هذه الشعبية حتى « كانت الامارة بالاسم لأبي بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة[57] . ولما عاد أبو اليقظان بن أفلح من المشرق[58] ، ووجد أخاه اماما ، كلفه هذا الاخير بمهام في تيهرت وأحوازها ، فقام بها أحسن قيام ولم « يدّع امارة ولا نازع فيها أخاه[59] .

ويصور لنا ابن الصغير ، غفلة الامام أبي بكر عما يدور حوله ، خاصة من جانب صهره ، ونُفُوذَهُ الذي يزداد كل يوم بشيء من السذاجة ، ويقول بأن الامام نبه الى هذا نبهته خاشيته ، ففتح ثقبا في قصره يراقب منه مجيء ابن عرفة وذهابه ، وكأنه لا يكفيه سماع ضجيج الجمهور . ولما تأكد من نفوذه الواسع أوجس في نفسه منه خيفة ، وحرضه أخوه أبو اليقظان خاصة وبطانته عامة على قتل الرجل ، وانهاء أبهته وكبريائه ،

(56) ابن الصغير : ص 31 ـ 32 .

(57) نفسه ، ص 31 ـ 32 .

(58) سجن أبو اليقظان في بغداد ، اذ قبض عليه العباسيون في الحج ووافق سجنه أخا للخليفة ، لا تذكر المصادر اسمه ، يبدو أنه هو المعتمد ، اذ يروى السيوطي في تاريخ الخلفاء أن المعتمد كان محبوسا عندما قتل المهتدى سنة 256هـ . وأخرج من سجنه ، وبويع بالخلافة ، لهذا فان للمعتمد أطلق سراح أبي اليقظان بعد أن كسب صحبته في سجنها . ربما كان ذلك في سنوات 257 ـ 258هـ اذ لم يصل أبو اليقظان الى تيهرت الا في الوقت الذي وجد فيه أباه قد توفي (توفي أفلح سنة 258هـ) وأخاه أبا بكر اماما . أنظر ابن الصغير : ص28 ، الدرجيني : طبقات ، ج1ص 83 ، السيوطي جلال الدين : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين الحميد ط2 ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1959م ، ص 363 .

(59) الحقيقة أن هذا الكلام الذي يورده ابن الصغير ، متناقض مع ما سيذكره فيما بعد من تحريض أبي اليقظان لاخيه أبي بكر ، لقتل ابن عرفة وان كان ابن الصغير يذكر ذلك بشيء من الشك ، كأنه غير مقتنع به مما يوحي عدم ثقته في الرواية والرواة الذين أخبروه بالحادث ، وليس كما يقول الدكتور محمود اسماعيل ان ابن الصغير : « يؤكد أن أبا اليقظان دبر الحادث » أنظر ابن الصغير : ص 32 ـ 33 ، محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 129 .

ليصفو الجو لأصحابه من الرستميين وأخذ أبو بكر برأيهم ، فأمر بقتل ابن عرفة بحضوره سرا ، دون علم العامة[60] . ولما علم أتباعه بذلك ، وتيقنوا من القاتل ، أعلنوا التمرد والعصيان ، وطالبوا بالثأر ، وأنقسمت العاصمة والبلاد الى كتل اجتماعية متنافرة ، كل واحدة تريد الوصول الى الحكم .

ولما رأى أبو بكر ما آلت اليه البلاد من فوضى ، واتهامه بالقتل ، اعتزل السلطة ، وخرج من تيهرت كما خرج أبو اليقظان معتزلا الفتنة ومن اشتبه في أمره بمن فيهم أخوه أبو بكر . وخرج كثير من التيهرتيين ، فبقيت العاصمة بيد القبائل والطوائف المختلفة ، لم يستقر لها قرار ، اذ أفسدت فيها ، وقامت بينها حروب . خاصة بين هوارة ولواتة ، « وحميت فيما بينهم حمية الجاهلية وجرت بينهم الحرب سجمة ورياء »[61] . ولما قوى الرستميون ، وأشأز الناس من تلك الفتنة ، ورأوا ضرورة الرجوع الى الحكام السابقين ، استقدموا أبا اليقظان وبايعوه بالامامة سنة 261هـ[62] ، الا أن الاحوال ، لم تستقم له ، الا بعد سبع سنوات ، قضاها في محاربة ابن مسالة ، أحد الاطراف البارزين في الفتنة. وفي عام 268هـ ، استطاع أبو اليقظان أن يدخل تيهرت بمساعدة النفوسيين الذين استنجد بهم ، فأعلن العفو العام عما سلف ، وعقد صلحا مع القبائل كلها[63] . وشمر عن ساق الجد ليواصل مسيرة أبيه وأجداده ، وينقذ البلاد من الفوضى ، ويعيد لها هناءها وازدهارها .

(60) ابن الصغير : ص 35 ، يبدو أن أبا بكر ، بالصفات التي وصفها به ابن الصغير نفسه « كان سمحا جوادا لين العريكة يسامح أهل المروآت » ، لا يقوى على تدبير مؤامرة القتل ، فضلا عن القيام بها بنفسه ، لهذا أرجح ما ذهب اليه علي يحيى معمر في أن القاتل الحقيقي لابن عرفة ، ليس هو أبا بكر ولا أخاه أبا اليقظان ، وانما طائفة من الطوائف التيهرتية التي أرادت أن تبيت خير الاباضية ، كما يذكر ذلك ابن الصغير في كثير من المناسبات . وقد استطاع علي يحيى معمر ، في نظري أن يحلل أحداث هذه الفتنة تحليلا منطقيا مقبولا . أنظر : الاباضية ج4 ، ص 45 وما بعدها . ابن الصغير ص 51 ، الدرجيني طبقات ، ج1 ، ص 83 .

(61) ابن الصغير : ص 39 .

(62) نفسه ، ص 40 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، 237 ، محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 130 .

(63) ابن الصغير : ص 40 ـ 41 .

أما الامام المعزول أبو بكر ، فقد قضى بقية أيامه في تيهرت ، في ظل امامة أخيه أبي اليقظان[64] ، الذي عمل على تهدئة الخواطر ، واستتباب الأمن . ولا شك أن سجنه ببغداد ، قد أكسبه تجربة في الملك ، وسياسة الرعية ، وكانت أيامه لا تشبه الا بأيام جده عبد الرحمن بن رستم ، اذ كان مثله في الاتفاق على امامته[65] .

ولما كانت تيهرت تمر بآخر مرحلة من مراحل فتنة ابن عرفة ، كان الجانب الشرقي من الدولة الرستمية يمر بنوع من التهديد ، اذ في سنة 267هـ خرج العباس بن أحمد بن طولون ، ولد صاحب مصر ، عاقا لوالده يريد غزو القيروان ، والاستقلال بحكمها عن أبيه وعن الخلافة العباسية فاستولى من خزانة مصر على كثير من الاموال ، واستقل بأعداد غفيرة من الجند وأراد أن يحقق بها طموحه ، الا أن الأغالبة واجهوه ، قبل أن يصل الى طرابلس ، ولما لم يتمكنوا منه ، اعتصموا بالمدينة ، وحاصرهم ابن طولون فيها أكثر من أربعين يوما . وكان بعض جنوده في تلك الاثناء يعتدون على أهل البوادي من أتباع الدولة الرستمية[66] ، مما حدا بهؤلاء ، وبسكان طرابلس للاستعانة بوالي نفوسة آنذاك أبي منصور الياس ، بل لقد قيل ان ابن طولون بعث الى العامل الرستمي يستفزه ويأمره بالقدوم اليه بالسمع والطاعة ، مما دفع أبا منصور ونفوسة ، الى التوجه نحو طرابلس ، وفك حصارها ، وقتل الكثيرين من الجنود المصريين وهزمهم[67] ، وبذلك أثبتوا

(64) ابن عذارى : البيان ، ج1 ، ص 197 .

(65) أبو زكرياء : سير ، ص 98 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 240 .

(66) أنظر الصلح الذي اصطلح عليه الامام عبد الوهاب مع الاغالبة أثناء حصاره لطرابلس ، اذ يجعل مدينة طرابلس للاغالبة ، وما سواها من الصحراء لعبد الوهاب . وبذلك يكون أهل البوادي من رعايا الدولة الرستمية . ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 287 ، الشماخي ص 162 .

(67) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 118 ـ 119 ، ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص 28 ، الشماخي : سير ، ص 225 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 255 ـ 257 ، ويذكر ابن عذاري أن النفوسيين لما تمكنوا من ابن طولون ، وهزموه ، انتهب أهل طرابلس جميع عساكره بينما لم تتلبس النفوسيون منه بشيء ، بل تورعوا عنه » وهذا يدل على استغناء الاباضية عن أموال مخالفيهم من المسلمين وتعففهم عن المال الحرام ، وبالتالي يدل على عدل الأئمة وعمالهم ورعيتهم والتزامهم الحرفي لتعاليم مذهبهم وعقائده . أنظر البيان المغرب ، ج1 ، ص 119 .

قوتهم وشجاعتهم ، وقدم أبو منصور للأغالبة مساعدة لا تعوض . ثم إن أبا اليقظان ، استمر في حكمه عشرين عاما كانت من أزهى أيام الدولة ، اذ عادت الى نشاطها الثقافي والاقتصادي وان كان بشكل أقل من عهد الائمة الثلاثة السابقين .

ولما توفي أبو اليقظان سنة 281هـ[68] ، خلفه ابنه أبو حاتم ، والحقيقة أن الدولة الرستمية بعد عهد أبي اليقظان المتسامح ، دخلت مرحلة الشيخوخة ، برزت جرثومة النظام الوراثي المتمثلة في التنافس على الملك أو الامامة . وهكذا بدأت مفاسد البلاط الرستمي تظهر للعيان لتقضي على الدولة نهائيا ، فلم يقض أبو حاتم اثنى عشر عاما[69] من امامته ، الا في تنافس وصراع بينه وبين عمه يعقوب ، وبين الطوائف المختلفة في تيهرت ، اذ توجد عدة مذاهب اسلامية مثل المالكية والمعتزلة والصفرية والشيعة ، اضافة الى المذهب الاباضي الحاكم المنشق الى عدة فرق وزعامات مثل النكار أتباع يزيد بن فندين والوهبية المعادية للنكار ، والخلفية أتباع خلف بن السمح الذين نشطوا في هذه الفترة ، بزعامة ابن لخلف بجبل نفوسة ، وضواحيها ، اضافة الى السمحيين ، أنصار الامامة الاباضية ، وقد ظهروا كرد فعل للخلفيين ، ولم تكن هذه الفرق وحدها هي المكونة لمجتمع تيهرت ، وانما هناك طوائف أخرى مثل الكوفيين والعجم ، والجند العرب القادم من افريقية ، فضلا عن البربر .

ان أبا حاتم واجه صعوبات جة في امامته ، رغم أنه حمل على الأعناق والاكتاف عندما بويع بالامامة ، حيث اجتمعت كلمة القبائل في توليته[70]

(68) ابن الصغير : ص 29 ، ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 197 .
(69) أبو زكرياء : سير ، ص 99 ، ربما الصحيح هو 14 سنة لأننا نعلم أن أبا حاتم قتل سنة 294هـ ، وبالتالي تكون مدة حكمه أربعة عشر سنة ابتداء من سنة 281هـ وبدون طرح المدة التي حكمها عمه يعقوب ، وهو ما ذكره الشماخي وأكده . أنظر سير الشماخي ، ص 262 ، وأنظر ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 197 .
(70) ابن الصغير : ص 50 .

ولم ينقم عليه أحد من رعيته[71] ، الا أن الاوضاع الاجتماعية في البلاد ، قد بلغت الذروة في الفساد ، فطمع بعضهم « أن يبيتوا خبر الاباضية ويطفوهم »[72] ، واستطاعوا ذلك فعلا ، اذ أرغموا أبا حاتم على مغادرة عاصمته ، بعد سنة واحدة فقط من حكمه[73] . ولم يبق هذا الاخير خاملا ، وانما راح فحاصر تيهرت ، واستطاع ان يهزم أعداءه ، الا أن هؤلاء استقدموا منافسه في الحكم عمه ، يعقوب بن أفلح ، الذي كان منعزلا في ضواحي طرابلس ، عند قبيلة زواغة الخلفية ، فحكم البلاد أربع سنوات ، وقامت بينه وبين ابن أخيه الحروب المتواصلة ، حتى توسط في توقيفها أبو يعقوب المزاتي ، أحد أصحاب الأموال والمصلحين ، فوضعت الفتنة أوزارها ، وعاد أبو حاتم الى امامته سنة 286هـ فقضى ثماني سنوات أخرى ، أعاد فيها النظام للدولة ، وطهرها من الفساد الذي طغى على المجتمع ، الا أنه لم يستطع أن يقضي ويجتث جذور فساد الأسرة الرستمية ، التي كانت السبب في انتهاء أيامه ، وذلك عندما قضى عليه قتلا ، أحد أبناء أخيه اليقظان بن أبي اليقظان سنة 294هـ[74] ، وتولى هذا الاخير المنصب ، فقاطعته الاباضية ، واعتبروا حكمه غصبا ، فلم ينصروه ولم يقفوا الى جانبه . وبلغت الأوضاع في الدولة من التدني والتدهور مبلغا عظيما ، اذ لم تعرف بعد ذلك صحوة ، ويبدو أن اليقظان بن أبي اليقظان لم تستقم له الأمور ، ولم يعرف للراحة معنى ، وقضى عامين في خوف وقلق مستمرين الخوف من أبناء أخيه المقتول من طرف أبنائه ، والقلق من بقائه وحيدا ، ومن الشيعة التي بدأ يستفحل أمرها ، وبدأ داعيتها أبو عبد الله الشيعي

(71) أبو زكرياء : سير ، ص 99 .
(72) ابن الصغير : ص 54 .
(73) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 197 .
(74) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 197 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 291 . وأنظر كذلك محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 133 ، الكماك : موجز ، ص 201 ، لا يعترف الاباضية بامامة اليقظان بن أبي اليقظان ولا امامة يعقوب بن أفلح لذلك فهم يتوقفون عند الامام أبي حاتم ومنهم من يتوقف عند أبي بكر أيضا ، أنظر معمر : الاباضية ج4 ، ص 83 .

يغزو البلاد ، ويقتحم المدن الواحدة تلو الأخرى[75] . وجاء دور تيهرت التي قصدها الداعية الشيعي في شوال سنة 296هـ/909م[76] .

وقبل دخول أبي عبد الله الشيعي الى تيهرت ، بعث الى اليقظان يأمره واسرته بالقدوم اليه ، فلما جاءه ومثل أمامه ، سخر من ضعفه وسذاجته وقتله وقتل أبناءه[77] ، ودخل تيهرت بجيوشه ، فأفسد فيها ، وأهلك الحرث والنسل ، ولم ينج من الأسرة الرستمية ، الا من هرب ملتجأ نحو وارجلان[78] . وتروي المصادر الاباضية فظائع أبي عبد الله الشيعي ، وحرقه لمكتبة المعصومة بعد أن اختار منها ما ينفعه في دنياه من الكتب الرياضية والصناعية والفنية[79] . وبعد أن ترك عاملا من قبله على تيهرت ، توجه نحو سجلماسة بفرقة من جيشه وأرسل فرقة أخرى الى وارجلان حاصرت أهلها في كدية كريمة على بعد ستة أميال من المدينة ، واستطاع المحصورون أن ينجوا من القتل بالحيلة ، اذ فشل الحصار ، ورجعت تلك القوات الى افريقية خائبة[80] .

وهكذا تسقط الدولة الرستمية بكل سهولة في يد أبي عبد الله الشيعي بعد أن عاشت مائة وستة وثلاثين سنة (160هـ ـ 296هـ) كانت تنبض بالحياة والحركة ، واستقرار الأمن ، ومن حين لاخر تتخللها ثورات وحروب وفتن ، شأن معظم الدول في تلك العصور .

---

(75) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 291

(76) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 197 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 293 ، الغريب أن الدكتور محمود اسماعيل يجعل سقوط تيهرت سنة 297هـ بينما تتفق جميع المصادر على أن سقوط تيهرت كان سنة 296هـ في شهر شوال . أنظر : الخوارج ، ص 175 ـ 176 .

(77) André Négre : opcit, p. 19

(78) هرب يعقوب بن أفلح ، وهو الذي نافس أبا حاتم في الحكم ، الى وارجلان ، واستقبل هناك مع من كان معه استقبالا كبيراً . وعرضت عليه الامامة من جديد (امامة الدفاع) فرفضها قائلا « لا يستتر الجمل بالغنم » أنظر أبو زكرياء : سير ، ص 124 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 105 .

(79) أبو زكرياء : سير ، ص 113 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 94 ـ 95 ، الباروني : مختصر ، ص 49 .

(80) أبو زكرياء : سير ، ص 113 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 95 ـ 96 .

وفي الاخير أدى التنافس على الحكم من طرف الأسرة الحاكمة الى ضعف شوكة الأسرة وهيبتها ، وبالتالي ضعف أتباعهم من الاباضية خاصة وتشتت آراؤهم .

ولابد في ختام هذا الفصل ، أن نتساءل عن الاسباب المباشرة في سقوط الدولة بتلك السهولة . وأول ما يتبادر الى الذهن هنا ، اضافة الى ما قلناه سابقا من أن الاباضية ، عندما استولى اليقظان بن أبي اليقظان على الحكم تبرؤوا منه واعتزلوه ، ولم يعتبروه اماما من ائمتهم[81] ، لذلك فان أبا عبد الله الداعية الشيعي عندما هم باقتحام تيهرت ، لم يخرج ضده أحد ، بل ان المصادر الاباضية تذكر أن ابنة الامام المقتول أبي حاتم « دوسرا » واخاها هما اللذان استدعيا أبا عبد الله ، وحرضاه على قتل اليقظان انتقاما لأبيهما[82] .

ثم ان من الاسباب في سقوط الامامة بتيهرت ، تحطم نفوسة في موقعة مانو[83] سنة 283هـ . ويعتبر النفوسيون الدرع الواقي للدولة ، والمادة العسكرية الأساسية[84] التي كانت وراء كل انتصار ، أحرزته الدولة الرستمية ففي موقعة مانو « فل حدّ سيوف نفوسة ، وفنيت فيها أبطالهم »[85] اذ انهزم برجاله أمام الاغالبة ، وأريقت دماؤهم في البحر حتى غلبت حمرة الدم على الماء كما يذكر ذلك الشماخي نقلا عن الرقيق[86] .

---

(81) وكانوا يبرؤون من دخل تحت طاعته ورضي بحكمه واعترف بامارته ، أنظر علي معمر : الاباضية ، ج4 ، ص 63 .

(82) أبو زكرياء : سير ، ص 122 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 292 .

(83) مانو : قصر قديم بين قابس وطرابلس تقريبا كما يفهم من كلام المؤرخين . أنظر الباروني : سلم العامة والمبتدئين ، ص 17 هامش 1 .

(84) قال الامام عبد الوهاب « انما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة » ، أبو زكرياء : سير ، ص 103 . André Négre: ibid, p. 20-21

(85) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 280 .

(86) الشماخي : سير ، ص 268 ، ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 129 ـ 130 .

ومن أسباب هذه الهزيمة الشنعاء ، اختلاف نفوسة في رأيها ، وعدم طاعتها لعامل تيهرت عليها عندما نصحهم بعدم اعتراض الجيش الأغلبي المتوجه الى مصر لمحاربة ابن طولون ، فأبوا الا رأيهم ، فتورطوا في معركة قضت على عزّهم وقوتهم[87] . ثم إن الفترة التي وقعت فيها هذه المعركة كانت فيها تيهرت مضطربة ، تعيش في فوضى التنافس على السلطة بين الامام أبي حاتم بن أبي اليقظان وعمه يعقوب بن أفلح والطوائف المكونة للمجتمع الرستمي بتيهرت ، وهي الحوادث التي ذكرناها سابقا ، وبالتالي ، لم تقم تيهرت بأي عمل لمساعدة النفوسيين .

اذن ، لقد تكاثفت الأسباب في سقوط الدولة الرستمية ، حيث أنها هرمت وشاخت وأضعفتها الفتن الداخلية خاصة ، كما أن شوكة الاباضية تكسرت فلم يهتموا باليقظان ، ولا بأسرته ، لذلك تكالبت القبائل والطوائف ، وقررت « تبييت أمر الاباضية » فكان لهم ما أرادوه ، ثم يضاف الى هذا كله عامل فقدان الجيش المنظم ، اذ أن الرستميين أهملوا هذا الجانب رغم الفتن والثورات والحروب التي مرت بهم ، وبقوا طول عهدهم يعتمدون على المتطوعين[88] الذين يكونون غالبا من الاباضية . وبالتالي عندما ضعف هؤلاء وتقلص عددهم بمرور الأيام ، بلغت الدولة الشيخوخة ، واستسلمت بكل سهولة لأول غاز لها سنة 296هـ/909م . وهكذا تعود

---

(87) تذكر المصادر الاباضية أن المتوكل العباسي ، هو الذي بعث الجيوش وجعل عليها ابراهيم بن أحمد الأغلبي ، قائدا لاسقاط الدولة الرستمية الا أن هذه الرواية ضعيفة أمام الرواية التي ساقها الشماخي نقلا عن الرقيق ، ثم أن معركة مانوا كانت 283هـ أي في عهد المعتضد (279 ـ 289هـ) وليس المتوكل (232 ـ 247هـ) أنظر أبو زكرياء : سير ، ص 103 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 87 .

(88) علي يحيى معمر : الاباضية ، ج4 (الاباضية بالجزائر) ، ص 50 ـ 51 . يقول معمر : « فالدولة الرستمية هي الدولة الوحيدة في ذلك الحين ، التي ليس لها جند قابع في الثكنات ينتظر التعليمات ، ويحلم بالمكاسب والغنائم من وراء الحرب والغارات » ويعتقد شيخ بكري أن الرستميين لم يكن لهم جيش منظم في البداية ولكن ابتداء من الامام الثاني أصبحوا يملكونه ، وإن كان صغيرا ، ثم أن جيشهم لم يكن له دور بارز ..أنظر : Bekri Chikh: le Kharijisme, opcit. p. 73-75. Dengel G.: opcit. p. 130-132 وأنظر كذلك : شارل أندري جوليان : تاريخ افريقية الشمالية ، ص 47 ، د. احسان عباس : المجتمع التاهرتي ، الاصالة ، عدد 45 ، ص 34 .

الاباضية الى الكتمان من جديد بعد أن سادت ردحا من الزمن في المغرب العربي .

ولا يفوتني هنا ، أن أشير الى بعض ملاحظات المؤرخين الذين يرون أن تاريخ الدولة الرستمية سلسلة من الفتن والثورات ، وأنها لم تعرف الاستقرار[89] فلا أكون مبالغا اذا قلت إن أولئك [illegible]الاتهم ، ويبدو أن الدافع لهم الى ذلك اعتمادهم الكلي على ابن الصغير الذي كتب خصيصا في تفصيل الفتن أسبابها ونتائجها ، مما أظهر وكأن الدولة الرستمية عاشت كل تاريخها في الفتن رغم أن ابن الصغير يشير وبكل وضوح من حين لآخر الى فترات الهدوء والاستقرار والازدهار ويبدي اعجابه البالغ كلما اقتضت الضرورة ذلك .

ثم ان تلك الفتن ، اذا وجدت فعلا ، فانها متقطعة شأنها شأن باقي الدول[90] ، وكانت نتيجة منطقية لما بلغته تيهرت خاصة من ازدهار ثقافي واقتصادي ومستوى معيشي راق ، مس كل القبائل حتى البدوية منها ، وبالتالي تضاربت مصالح طبقات المجتمع وفئاته المختلفة ، وتجاوزت في بعض الاحيان قدرة الحاكم ، وكان للأغنياء دور بارز في كل مراحل ذلك الصراع . وفي النهاية حكموا على المجتمع بالشتات ، وعلى « العمران بالخراب ، وأهدروا الأموال في الباطل وقضوا على النشاط العلمي بالتراجع »[91] . واذا كان للاغنياء هذا الدور الخطير في حياة الدولة الرستمية ، فان للعلماء ، وزعماء المذاهب ، دورا أخطر ، اذ يمثلون أقطاب

---

(89) ابن تاويت : دولة الرستميين ، الصحيفة المذكورة ، م5 ، عدد 1ـ2 ، ص 115 ، محمود اسماعيل : الخوارج ص 115 ـ 136 ، الميلي : تاريخ الجزائر ، ج2 ، ص 72 .

(90) يذكر الدكتور عبد العزيز سالم أن المغرب الأوسط في عهد عبد الرحمن بن رستم شهد شيئا من الهدوء والأمن لم يعرفها من قبل ، بينما كان المغرب الأدنى (افريقية) يضطرم بنار الفتن والثورات أنظر المغرب الكبير ، العصر الاسلامي ، ج2 ، ص 550 .

(91) احسان عباس : المجتمع التاهرتي ، الاصالة عدد 45 ، ص 34 .

الفئات والمذاهب في الدولة ، وبالتالي فهم محركو الرعية ، اذ أن هذه لا تتحرك الا بأولئك .

ثم انه لما كانت الدولة الرستمية ، بربرية في شعبها حيث أنهم يشكلون أغلب السكان ، فان حكم هؤلاء ، كما يقول الدكتور عبد الحليم عويس لا يتم الا بأسلوبين على طرفي نقيض « فإما بالقسوة البالغة والاستبداد.... وهذا هو الاسلوب الذي حكم به البربر أنفسهم في معظم الأحايين » وإمّا بـ « التسامح والعدل »[92] .

ويبدو أن الرستميين اختاروا الاسلوب الثاني فلم يفلحوا ، خاصة في النصف الثاني من حكمهم ، اذ نجدهم يهتمون بالسياسة الداخلية ويعالجون أدواء في وضعية البربر صعبة العلاج[93] . ولا أعزو هذا الى تمرد البربر[94] ومناهضتهم لأي سلطة امتثالا وانقيادا لأي داعية أو ثائر يجي فيهم حب الاستقلالية والثورة وعدم الخضوع للسلطة[95] المنظمة فحسب ، انما ترجع روح التمرد هذه في رأيي ، الى بداوتهم ، وطبيعتهم المحبة للاستقلال .

والواقع أن الرستميين استطاعوا ، وبجدارة أن يسوسوا دولة تسكنها مختلف الاجناس والقبائل والأديان والمذاهب والطبقات ، وفيما بينها كلها عداوة أو تنافس أو كبرياء ، استطاعوا ذلك مع وجودهم بين جارين قويين تختلف معهما في المذهب ، ولا شك أن لهما دورا في تلك الفتن التي

(92) عبد الحليم عويس : دولة بني حماد ، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت ، 1400هـ/1980م ، ص 29 .

(93) الكماك : موجز ، ص 193 .

(94) كمثال على ذلك قبائل مزاتة وسدراتة وغيرها والتي غرّ بها بعض سكان الحضر الناهضين للدولة الرستمية ، فطلبوا منهم الاتصال بالامام عبد الوهاب ، ومطالبته بعزل بعض موظفيه ، فلما سألهم عن السبب لم يجيبوا لانهم لا يعرفون . وبالتالي رفض الامام مطالبهم ، واعتبروا ذلك اهانة لهم ، فثاروا وأثاروا الفتنة . أنظر التفاصيل في ابن الصغير ص 17 ـ 20 .

(95) شارل أندري جوليان : تاريخ افريقية الشمالية ، ص 42 ، ويذكر ابن خلدون أن البربر يتصلون بشاقة الدول ، أنظر العبر ، ج6 ، ص 207 .

لحقت بالدولة . وبمجمل القول ، إن الدولة الرستمية ، رغم ذلك كله ، استطاعت أن تعيش قرنا وأكثر من ثلث قرن ، غنية بالاحداث ، بلغت فيها قمة الازدهار والرخاء قبل أن تتردى الى حضيض الضعف والفوضى .

والحقيقة أن تيهرت ، لم تر بعد الرستميين أي ازدهار ، ولم تعرف أي استقرار فعاشت في ثورات وحروب متتالية[96] ، قضت على عمرانها الرستمي ولم تبق منه الا على جزء بسيط من سورها المشهور[97] . وفي هذا التدمير يقول شاعر[98] :

كَـأنْ لَمْ تكُن تيهرَت دَارًا لِمَعْشرٍ ☆ فَـدَمَّرَهَـا المِقْـدَارُ فِيمَنْ تَـدَمَّرَا

ولا بأس أن نختم هذا الباب بذكر ما أدلى به الاستاذ أ. نيفر (André Négre)[99] بشأن سقوط تيهرت ، اذ يرى أن أبا عبد الله الشيعي قد سارع بالتوجه الى تيهرت قبل سجلماسة هدفه الأول ، حيث كان سيده العبيدي مسجونا ، وذلك طمعا في الاستفادة من مركزها التجاري وفي تموين جيوشه بالغلال التيهرتية ، اذ أن عاصمة الرستميين مشهورة بخصوبة أراضيها وكثرة حبوبها ، الأمر الذي أغرى الداعية الشيعي فيها فقصدها متموّنا ومخربا في آن واحد .

(96) Canal J : Tiaret in (B.S.G.A.O.) T. XX, opcit, p. 27

(97) من بقايا مدينة تيهرت ، أنظر : Marçais G. et Lamarre D.: Tihert in (R.A.) T. XC, opcit, p.42-57. وأنظر د. رشيد بورويبة : الفن الرستمي ، الاصالة ، عدد 41 ، ص 180 ومابعدها .

(98) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 199 .

(99) André Négre : opcit, p. 16.

الباب الثاني
الأوضاع الاقتصادية

﴿ تمهيد ﴾

جغرافية الدولة وأثرها في الاقتصاد

تمتاز جغرافية[1] ذلك القسم من المغرب الأوسط والأدنى الذي قامت فيه الدولة الرستمية بالتنوع في طبيعتها والاختلاف في مناخها اذ تشكل سلاسل الجبال حواجز طبيعية ، قسمت بلاد المغرب الى ثلاثة أقسام متباينة :

القسم الأول : ويمكن أن نطلق عليه القسم الشمالي ، وهو يضم البلاد المحاذية للبحر المتوسط شمالا ، ويحدها من الجنوب سلسلة جبال الأطلس التلي التي تسمى درن بالمغرب الأقصى ، وتسمى بتيهرت جزول ، وأما بالزاب في المغرب الأوسط فتعرف باسم جبال الأوراس[2] ، وبالمغرب الأدنى فهي جبال نفوسة[3] وكلها سلسلة واحدة متصلة من المغرب الأقصى الى طرابلس و« ليس جبل مثله الا القليلَ في السمو وكثرة الخصب »[4] كما يقول الادريسي .

ويضم هذا القسم الشمالي ، الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة ، خاصة

---

(1) عن جغرافية المغرب الأوسط والأدنى حيث قامت الدولة الرستمية أنظر ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 193 ـ 204 وأنظر كذلك الكعاك عثمان : موجز ، ص 170 ـ 171 ، المدني أحمد توفيق : كتاب الجزائر ، المطبعة العربية ، الجزائر ، 1350هـ ، ص 159 ومابعدها . ديوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص 245 ، الجيلالي عبد الرحمن : تاريخ الجزائر ، ج1 ، ص 34 ـ 35 ، د. سالم عبد العزيز : المغرب الكبير ، ج2 ، ص 127 ـ 131 . وانظر مقدمة الطبعة الثانية

(2) اليعقوبي : البلدان ، ص 109 .

(3) مجهول : الاستبصار في عجائب الامصار ، ص 163 .

(4) الادريسي : وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية ، ص 40 .

زراعة الحبوب والفواكه المختلفة وهي منطقة كثيرة الأمطار . ومن جهة أخرى فهي تضم المنافذ الأساسية ، للدولة ، التي تطل بها على البحر المتوسط للاتصال بالأندلس الذي تربطها علاقات اقتصادية كبيرة كما سوف نرى .

القسم الثاني : أو القسم الأوسط ، فيقع بين الأطلس التلي شمالا وسلسلة جبال الأطلس الصحراوي جنوبا ، وتقع تيهرت خلال سلسلة جبال الأطلس التلي ، وتعتبر هذه المنطقة رعوية بالدرجة الأولى ، اذ يشتغل سكانها بالرعي والتنقل وراء الكلأ ، اضافة الى كونها زراعية في بعض المناطق التي تكثر فيها الأمطار أو تحيط بها الأنهار مثل منطقة تيهرت وغيرها .

أما القسم الثالث : فهو القسم الجنوبي الواقع ، جنوب الأطلس الصحراوي ، وهو الصحراء الكبرى . وتشكل الجزء الأكبر من البلاد الرستمية خاصة في أقصى شرق الدولة . والصحراء لا يختلف مناخها عن مناخ باقي صحاري العالم وقد يتخلل هذه الصحراء الشاسعة واحات استقرت فيها القبائل البربرية ، ومن تلك الواحات واحة وارجلان وبلاد سوف وأريغ والجريد . وأهم دور لعبته الصحراء في التاريخ الاقتصادي ، هو التجارة ، وقد أطلق عليها التجارة العابرة للصحراء ، اذ كانت تنطلق من تيهرت وبعض المراكز الاقتصادية التجارية الأخرى ، نحو بلاد السودان الغربي حيث الذهب والرقيق أهم بضاعتين في تلك التجارة .

ومما يميز جغرافية الدولة الرستمية ، وجود بعض الانهار التي لاشك أن لها دورا في ازدهار الزراعة خاصة منها الانهار المحيطة بتيهرت ، ومنها وادي شلف الذي « يفيض كما يفيض نيل مصر »[5] ، وقد رآه اليعقوبي

(5) اليعقوبي : البلدان ، ص 109 .

وقدم تلك الشهادة . بل لقد جرت القوارب في قممه الأسفل ، لغزارة مياهه كما يقول صاحب الأزهار[6] . ويعتبر وادي شلف أهم نهر يتفرع منه وادي مينة الذي يمر بقبلة تيهرت[7] .

ومن الأنهار الأخرى في الدولة ، وادي عين سوفجج وينبع من الجبل المعروف بهذا الاسم ، ويأخذ اتجاها شرقيا فيلتقي بوادي الفرعة ثم بوادي الوحش ويتكون من ذلك كله واد واحد يمر جنوبي مدينة شلالة . أما من جهة الشمال فان نهر قسني يلتقي بوادي سوفجج ويتحدان . وتنتهي كل هذه الوديان والانهار في البحر بعد أن تقطع أراضي شاسعة . فلا شك أن لها الأثر الاكبر في زراعة البلاد وتكوين السهول الخصبة في المغرب الأوسط « وهي سهول أسرسو في جنوب تاهرت وسهول وادي شلف الغنية ، وسهول الساحل »[8] .

وقبل أن ننطلق في تفاصيل الأوضاع الاقتصادية في عهد الدولة الرستمية لابد من الاشارة الى نقطتين لها علاقة وثيقة بالموضوع .

1 - إن جميع الكتب تشير الى ازدهار المغرب الاقتصادي في القرون الهجرية الاولى ، وهو ازدهار عام شمل المغرب العربي بأسره بل لقد كان العالم الاسلامي آنذاك كله يمر بفترة رخاء اقتصادي .

2 - ان هذا الازدهار الاقتصادي ، نعرفه جملة ونجهله تفصيلا ، خاصة منه اقتصاد الدولة الرستمية ، الذي بخلت علينا المصادر القديمة حتى الاباضية منها بتزويدنا بالمعلومات الاقتصادية الضرورية على الأقل أما المصادر التاريخية غير الاباضية فهي لا تتعرض للدولة الرستمية أساسا الا بالقدر الذي تشكله من خطورة على هذه الدولة أو تلك ، هذا من

(6) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 57 .
(7) ابن الصغير : سيرة ، ص 40 ، البكري : المغرب ، ص 66 .
(8) سالم عبد العزيز : المغرب الكبير ، ج2 ، ص 576 .

الناحية السياسية فضلا عن الناحية الاقتصادية أو الثقافية . والمصادر الاباضية بقدر ما أغرقت في ذكر أئمتها وعلمائها ومشائخها ، بقدر ما أهملت الناحية الاقتصادية ولم تعره أي اهتمام ، اللهم الا بعض الفلتات التي يوردها صاحب السير أو الطبقات لا يقصد بها الجانب الاقتصادي مباشرة وانما جاءت في كتابه عرضا ، وكثيرا ما تكون هامة لو أن المؤلف أهتم بها والتفت اليها ومن هنا نستخلص أن كتب الاباضية لم تهتم بشكل مباشر وواضح بالجوانب الاقتصادية للدولة الرستمية وهي الكتب التي احتفظت لنا بالشطر الأعظم من تاريخ الدولة الرستمية عموما ، وبالتالي فان التاريخ الاقتصادي للدولة الرستمية سيظل ناقصا وربما غامضا في بعض جوانبه مالم تكتشف مخطوطات أو بقايا توضح معالم الاقتصاد الرستمي وتجلي الغموض عنه .

وأهم مصدر في هذا الباب هو الكتب الجغرافية ، فمن حسن الحظ أن العرب المسلمين أهتموا بهذا الجانب وألفوا فيه منذ وقت مبكر ، لهذا فان بلدان اليعقوبي ، ومسالك ابن خرداذبة . والبكري ، وصورة ابن حوقل ووصف الادريسي ، هي مصادرنا الأساسية في هذه الدراسة رغم أنها لا تعطينا كل شيء عن الأوضاع الاقتصادية للبلاد كما أنها لوحدها لا تكفي لأخذ صورة كاملة عن اقتصاد الدولة . ولكنها مع ذلك تقدم لنا معالم هامة في اقتصاد المغربين الأوسط والأدنى أو الاقتصاد الرستمي .

وهناك مصدر آخر ذو أهمية ، وهو النقود الرستمية التي عثر عليها الا أنها تحتاج هي في حد ذاتها الى دراسة أثرية ، واكتشافات لها في مناطق أخرى إن امكن ، اذ من المعلوم أن وجود نقود لدولة ما في بلد يعني وجود علاقات اقتصادية ، وربما سياسية أيضا بين الدولتين . ومثل هذه الدراسة تفتقر اليها لحد الآن النقود الرستمية[9] .

(9) الجنحاني الحبيب : تاهرت عاصمة الدولة الرستمية ، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية ، عدد 43/40 ، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم ، أفريل 1975 ، ص 38 .

لقد حاولنا في هذا الباب تبيان أهم مظاهر الاقتصاد في المغربين الأوسط والأدنى في عهد الرستميين ، وذلك بالقدر الذي جادت به تلك المصادر التي وصلتنا والتي أطلعنا عليها .

{ الفصــل الأول }

الزراعة والرعـي

أ ـ الزراعــة :

عرف المغرب العربي منذ القرن الرابع الميلادي ، فترة اضطراب طويلة اذ كثرت الفتن والازمات ، وانعدم الاستقرار ، وتدهورت بالتالي أحوال البلاد الاجتماعية والاقتصادية ، مما حدا بأحد المستشرقين وهو بيروني (Peyronnet) الى القول بأن « القرن الرابع (الميلادي) الذي سقطت فيه حكومة رومة والقرن الخامس الذي استولى فيه الوندال ، والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بافريقية . هذه القرون كانت قرون أهوال وحروب مبيدة... وقد كانت هذه القرون علة في مرض افريقية مرضا اجتماعيا واقتصاديا ذهبت الفنون الجميلة وعطلت الأراضي الفلاحية ، وتنوسيت الأساليب العلمية وتكاثرت اللصوصية حتى صار الناس يفزعون الى الغابات ويختفون بالشعاب وتعطلت التجارة وخشي الناس المجاعة »[1] . والحقيقة أن هذه الفترة المتردية من أوضاع المغرب ، استمرت مع الفتوح العربية الاسلامية لهذه البلاد ، وكانت هذه الاخيرة فريدة من نوعها ، استغرقت فترة زمنية طويلة شهدت فيها ساحات المغرب ثورات عديدة استنزفت طاقاته وموارده[2] . ولا أدل على ذلك بما فعلته الكاهنة زعيمة البربر آنذاك من حرق للغابات ، وتخريب للبلاد ظنا منها أن

(1) نقلا عن الميلي محمد المبارك : تاريخ الجزائر ، ج1 ، ص 277 .

(2) لاقى العرب المسلمون في فتح شمال افريقيا من المصاعب ما لم يلاقوه في فتح مصر أو غيرها من البلدان ، اذ لم يتوان المغاربة عن مقاتلة العرب المسلمين . أنظر ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 212 ـ 220 ، لوبون غوستاف : حضارة العرب ، تعريب عادل زعيتر ، ط3 ، دار احياء التراث العربي ، بيروت 1399هـ/1979م ، ص 312 ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ، ص 107 .

الفاتحين العرب سيزهدون بذلك في المغرب ويعودون من حيث قدموا[3] . ولم تعرف الكاهنة أن الفاتحين العرب ، انما جاؤوا لنشر عقيدة وبث فكر حضاري يحمل كل أسباب الرقي ، ولم يأتوا من أجل أرض أو مال ثم استمرت فترة الركود الاقتصادي متواصلة أثناء ثورات الاباضية والصفرية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، حيث ارهقت خزائن الولاة والخلفاء على حد سواء برواتب الجند وأعطياتهم وتنظيماتهم[4] وقلت موارد الخزينة .

هكذا نلاحظ أن المغرب لم يهدأ اطلاقا ، اذ توالت عليه الغزوات والفتوحات قرونا عديدة ، فعاش في اضطراب مستمر ومتواصل . وما أن كللت ثورات الاباضية والصفرية بتأسيس دولتيهما ، حتى هدأت الأوضاع السياسية في البلاد ، ومال الناس الى الاستقرار والطمأنينة ، وعرف المغرب نتيجة لذلك نهوضا اقتصاديا سريعا وتطورا ملموسا ، رأينا معالمه في كتب الجغرافيين الذين أطنبوا في ذكر محاسن المغرب ومزارعه الغنية وأنهاره العديدة ، وقد حظيت أقاليم الدولة الرستمية باهتمام أولئك الجغرافيين وكانوا أحسن عون لنا في هذا الباب ، بما قدموه من نصوص ناطقة لا نجدها عند غيرهم .

لقد عرفت الدولة الرستمية بجغرافيتها المتنوعة ، زراعة متطورة ومزدهرة شملت مختلف أقاليمها : ففي منطقة تيهرت المرتفعة حيث الجو البارد وكثرة الأنداء والضباب والأمطار[5] ، يذكر ابن الصغير أن تيهرت لما

(3) الرقيق : تاريخ افريقية ، ص 61 وأنظر ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 36 . يذكر ابن عذاري أن المغرب كان كله ظلا واحدا من طرابلس الى طنجة وقرى متصلة فخربت الكاهنة ذلك كله حتى عمد كثير من سكان المغرب الى الهروب الى الأندلس والجزر مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة .

(4) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج2 ، ص 21 ـ 22 ، محمود اسماعيل : المرجع السابق ، ص 202 ـ 204 ، دبوز : المرجع السابق ، ج3 ، ص 54 ـ 55 .

(5) لقد علق الكثيرون على طقس تيهرت البارد وربما ذلك لندرة مثيل له في البلاد الاسلامية وهكذا فان ـ

استقبلت الأحمال الثلاثة الأولى من المشرق في عهد الامام عبد الرحمن بن رستم ووزعت على الفقراء والكراع والسلاح ، بعثت هذه نشاطا في المدينة فشرع الناس في « احياء الموات وغرس البساتين واجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات »[6] وقد ساعدت الأنهار المحيطة بالعاصمة في بعث النشاط الزراعي والاشتغال به مما دفع الفلاحين الى احياء الموات وعدم الاكتفاء فقط بالاراضي الزراعية المهياة وشهدت بذلك منطقة العاصمة الرستمية نشاطا زراعيا مكثفا يتفق كل الجغرافيين تقريبا على تصويره ، اذ لم يجدب زرع البلد قط الا في حالات الريح أو البرد الشديدين[7] . ويذكر الاصطخري أن كورة تيهرت « خصبة واسعة البرية والزروع والمياه »[8] .

ويشير ابن حوقل الى أشجار وبساتين تيهرت ويقول بأنها تنتج ضروبا من الغلات[9] دون أن يحددها ، أما المقدسي فيقول بأن تيهرت « بلخ المغرب قد أحدق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين ونبعت

= بكر بن حماد الشاعر التيهرتي (ت 296هـ) يصور لنا برد مدينته ويقول شعرا :

ما أخشن البرد وريعانه	وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت	كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة	تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت	كفرحة الذمي بالسبت

ويذكر البكري ، أن رجلا من أهل تيهرت نظر الى توقد الشمس بالحجاز فقال : احرقي ما شئت فوالله إنك بتاهرت لذليلة . أنظر البكري : المغرب ، ص 67 .
وقيل لبعض الظرفاء من أهلها ، كم الشتاء عندكم من شهر في السنة ؟ قال ثلاثة عشر شهرا » ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 198 . ومما قاله ياقوت الحموي في هذا الخصوص « إن الشمس بها قل أن ترى ودخلها أعرابي من أهل اليمن يقال له أبو هلال ثم خرج الى أرض السودان فأتى عليه يوم له وهج وحر شديد وسموم في تلك الرمال فنظر الى الشمس منحية راكدة على قمم الرؤوس ، وقد صهرت الناس فقال مشيرا الى الشمس : أما والله لئن عززت في هذا المكان لطالما رأيتك ذليلة بتاهرت وأنشد :

ما خلق الرحمن من طرفة	أشهى من الشمس بتاهرت

أنظر الحموي : معجم البلدان ، ج2 ، ص 7 ـ 8 .

(6) ابن الصغير : سيرة ، ص 12 .
(7) اليعقوبي : البلدان ، ص 109 .
(8) الاصطخري : المسالك والممالك ، ص 34 .
(9) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص 87 ، الأدريسي : وصف افريقيا الشمالية الصحراوية ، ص 60 .

حولها الأعين »[10] . ولعل البكري هو أحسن من وصف زراعة تيهرت وأحوازها اذ يقول إن بها « جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما وسفرجلها يسمى بالفارس »[11] والحقيقة أن منطقة تيهرت لم تكن فقط مقتصرة على زراعة البساتين وما تحتويه من الأشجار المختلفة ، وانما هي منطقة زراعة الحبوب خاصة ، لكثرة مياهها وبرودة مناخها ووقوعها قرب التلول الصالحة لزراعة تلك الغلة[12] . فهذا ابن الصغير[13] يذكر أن على ضفاف نهر مينة أرحاء تيهرت العديدة . بل إن من بين أبواب تيهرت باب يعرف باسم باب المطاحن[14] ، فلا معنى لهذه المطاحن والارحاء الا وجود زراعة نشيطة للحبوب . وليس أدل على ذلك من الرواية التي يسوقها لنا الوسياني عن أبي مرداس مهاصر ، أحد مشائخ جبل نفوسة ، الذي كان قد تعود الذهاب الى تيهرت في فصل الحصاد . وكانت عادته فيها أنه « اذا حصد الناس زروعهم ولقط اللقاطون السنابل ورعوا مواشيهم ، عقبهم فيلقط نفقة سنة لان ذلك متروك[15] . فهل يمكن أن نفهم من هذا النص الا كثرة زراعة الحبوب في منطقة تيهرت الى درجة أن الحصادين واللقاطين والرعاة بمواشيهم بعد جوازهم على تلك المزارع يتركون ما يكفي نفقة انسان لمدة سنة كاملة فلا معنى لهذه الرواية الا كثرة تلك الحقول ، المزروعة بالحبوب ، خاصة منها القمح ، أساس معيشة السكان ، وكان في تيهرت أيضا ، وعلى بعد أميال منها يزرع النخيل ، اذ يذكر ابن الصغير[16] أن أحد سكان تيهرت الأغنياء ، كان يملك على مقربة من المدينة حقلا جمع فيه الأشجار والأنهار والمزارع والنخيل والقصور .

(10) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص 228 .
(11) البكري : المغرب ، ص 67 ، الاستبصار : ص 178 .
(12) الجنحاني : تاهرت ، المجلة السابقة ، ص 37 .
(13) ابن الصغير : سيرة ، ص 12 ـ 40 .
(14) البكري : المغرب ، ص 66 .
(15) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 13 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 293 .
(16) ابن الصغير : سيرة ، ص 51 .

وهكذا تبدو حاضرة الرستميين وضواحيها مزارع وحقولا لمختلف الثمار والحبوب ، وهي تجمع بين المزروعات التلية والصحراوية . ولا شك أن موقعها الجغرافي اذ تقع في منطقة مرتفعة وبين الجبال ، وعلى محاذاة الصحراء في آن واحد ، هذا التداخل في موقعها أتاح لها أن تكون أرضا زراعية خصبة ، ومنطقة مطيرة صالحة لزراعة الحبوب والبستنة ، كما أنها صالحة لزراعة النخيل شجرة الصحراء الاساسية . ولا غرابة في ذلك فان منطقة تيهرت لا تجمع هذه المتناقضات فحسب ، بل هي أيضا منطقة رعوية من الطراز الأول وهو ماسوف نراه عند تطرقنا للرعي والماشية .

أما الجانب الغربي من الدولة الرستمية وشمالها ، حيث الأراضي الخصبة والمياه المتدفقة والامطار الغزيرة ، فهي تعتبر من المناطق الأساسية في زراعة الحبوب[17] . وهي مع اتساعها تشبه منطقة تيهرت في غلاتها وبساتينها حيث نجد على وادي شلف ، الذي يفيض كما يفيض نيل مصر ، عمارات وقرى ومزارع يزرع فيها « العصفر والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب »[18] من القرى والمدن التي تشرف على هذا الوادي مدينة شلف ، وغزة وسوق ابراهيم ، وتاجنة وبنو واريفن ، ومليانة التي لها أرحية على نهرها ، وسوق كران . فكل هذه المدن والقرى كانت تحيط بها فروع وادي شلف ، الذي يسقي جنانها ومزارعها المنتجة لمختلف الثمار والاشجار والفواكه كالتين والكروم والسوان الكثيرة وفي ضواحي مدينة الخضراء « فواكه وسوان وبها السفرجل المعنق الفراسي.... ولها ناحية خصبة »[19] وهي تقع على مقربة من تنس « على نهر خرار عليه الارحاء واذا حمل

Vanacker Claudette : Géographie Economique, in Annales (E.S.C.) opcit, p. 675. (17)

(18) اليعقوبي : ص 109 .

(19) ابن حوقل : صورة ، ص 90 ، الأدريسي : وصف ، ص 58 ، وأنظر كذلك اليعقوبي : البلدان ، ص 104 .

دخل المدينة ، وحولها بساتين كثيرة »[20] وانما سميت بالخضراء لكثرة اخضرارها بكثرة بساتينها وحقولها[21] . وأما منطقة مدينتي تنس ووهران والمسافة بينهما تقدر بحوالي مائتي ميل وهما مدينتان على البحر تجري على مقربة منها الانهار وبها فواكه وخصب ومزارع وجنات وبتنس « الحنطة ممكنة جدا وسائر الحبوب موجودة.... وبها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوق الوصف في صفته وكبره وحسنه »[22] وفي مدينة يلل وأحوازها ، مزارع وقرى وعمارات وأشجار . وأما متيجة المشهورة الى يومنا هذا بخصب أراضيها ووفرة زروعها ، فهي منطقة واسعة تضم مدنا وحصونا « وهو بلد زرع وعمارة »[23] وهي « أكثر تلك النواحي كتانا ومنها يحمل »[24] تجارة الى مختلف الاسواق .

هذه هي المنطقة الغربية والشمالية من الدولة الرستمية حاولنا قدر الامكان التعرف على حقولها ومزروعاتها وهي تتميز بأنهارها وبساتينها ، وكثرة أشجارها ، ووفرة حبوبها ، الى درجة أن الدولة كثيرا ما تصدر الفائض منها الى بلاد الأندلس ، كما سوف نرى عند حديثنا عن التجارة الخارجية .

أما الجانب الشرقي من الدولة ، وهو بلاد نفوسة وما كان خارجا عن مدينة طرابلس ، فان الزراعة هناك لا تقل عما هي في غرب الدولة ، ومنازل نفوسة « في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة »[25] . والماء متوفر اذ يذكر المستشرق ديبوا (Despois) أن جبل نفوسة كان كثير

(20) البكري : المغرب ، ص 61 ، 75 .

(21) الاستبصار : ص 171 .

(22) الأدريسي : ص 57 .

(23) اليعقوبي : ص 104 ، ص 107

(24) البكري : ص 65 ، ياقوت الحموي : ج5 ، ص 53 .

(25) اليعقوبي : ص 99 .

الآبار والاحواض المائية ربما أكثر بكثير من يومنا هذا[26] . ومما يلاحظ أن كتب الاباضية التي اهتمت أكثر ما اهتمت بجبل نفوسة وقراه ومشائخه ، أنها كثيرا ما تذكر الجسور والسدود ومستنقعات المياه ، ولعل ما يخبرنا به الدرجيني عن مهدي النفوسي أحد المشائخ ، وسدود أرضه يعطينا صورة عن ذلك ، حيث يذكر أن لهذا الشيخ أرضا « لها سد فوق سد قد انهدمت سدودها وخربت جسورها.... ولا يستطيع اصلاحها العدد القليل من الناس »[27] ونجد لهذه الرواية جانباً اجتماعيا هاما شديد الارتباط بالجانب الاقتصادي ، ونقصد به مشاركة المرأة في النشاط الزراعي . اذ تذكر الرواية أن مهديا لما دعته نفسه الى اصلاح شيء من فسادها ، راح وتزوج بامرأة لتساعده عليها ، وقد رغبت هي نفسها فيه لما علمت أنها سوف تحمل التراب على رأسها لاصلاح تلك الجسور[28] . هكذا تساهم المرأة الى جانب الرجل في اقتصاد البلاد . ولا شك أن زوجة مهدي هي واحدة فقط من بين كثير من النساء الممارسات للزراعة وأنشطتها في ذلك الوقت .

واشتهرت نفوسة عند ابن حوقل ، بمدينة « شروس في وسط الجبل وفيها مياه جارية وكروم وأعناب طيبة وتين وأكثر زروعهم الشعير واياه يأكلون واذا خبز كان أطيب طعما من خبز الحنطة ولشعيرهم لذة ليس لخبز من أخباز الأرض لانه ينفرد بلذة ليست في خبز »[29] ويذكر البكرى والشماخي أن شروس ، أم قرى جبل نفوسة ، كبيرة آهلة جليلة فيها « النخيل والزيتون الكثير والفواكه »[30] . وكان زيتون تيغرمين بجبل نفوسة مشهورا بحيث كان الناس يتمنون رؤيته[31] إمّا لكثرته أو جماله أو

(26) Despois J. : Le Djebel Nafousa, Laroee, Paris 1935, p. 288.

(27) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 65 ، وأنظر كذلك ص 77 ، أبو زكرياء : سير ، ص 92 .

(28) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 65 .

(29) ابن حوقل : ص 94 ، الأدريسي : ص 76 .

(30) البكري : ص 9 ، الشماخي : سير ، ص 273 .

(31) الشماخي : سير ، ص 260 .

مذاقه . وأما اجناون التي بها عين ماء فقد قيل إنها « تدور على اثنى عشر ألف زيتونة »[32] .

والحقيقة أن القارئ لطبقات الدرجيني أو سير الشماخي[33] ، يلاحظ جليا أثناء ترجمتها لرجال نفوسة والقرى المجاورة لها ورود كلمة البساتين بكثرة حتى ليخيل للقارئ أن أغلب المترجين لهم كانوا أصحاب ضيعات وأراض ، حيث تزرع أشجار التين والزيتون والفواكه المختلفة والحبوب بأنواعها .

وهناك اشارات في كتب الاباضية تدل على اهتمام أهل الجبل بزراعة الحبوب خاصة منها الشعير ، ولا ننسى أن من أسباب انهزام أبي الخطاب أمام ابن الاشعث الخزاعي سنة 144هـ رغم كثرة عدد جيشه ، الذي قدر بتسعين ألف رجل ، انسحاب الكثيرين منهم الى حقولهم اذ المعركة المنتظرة كانت في وقت الحصاد كما تذكر ذلك المصادر الاباضية[34] . من هنا نلاحظ أن أغلب سكان جبل نفوسة على الأقل ، كانوا من المزارعين والفلاحين المرتبطين بالأرض فمنها معاشهم وأقواتهم . ومما يدل على زراعة الحبوب في هذه المنطقة بشكل واسع مارواه الشماخي عن أحد مشائخ الجبل وأتقيائهم أبي أيوب الذي بسط الله له الرزق والدنيا على حد تعبير الشماخي « وقيل اذا جمع زرعه للدرس رآه من بجربة وأطلق يده للنفقة للوارد والصادر »[35] وكانت له مطامير يساعد بقمحها أهل الفاقة ويرفع بها المجاعة[36] . وكان أبو عثمان المزاتي مثل سابقه له غرفة

(32) نفسه ، ص 189 .

(33) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 309 وما قبلها ، الشماخي : سير ، ص 265 وما قبلها .

(34) أبو زكرياء : سير ، ص 45 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 33 ، الشماخي: سير ، ص 131 .

(35) الشماخي : سير ، ص 283 .

(36) نفسه ، ص 283 ـ 284 ، ويذكر الدرجيني كرامة لأبي منصور الياس عامل الامام أبي حاتم على نفوسة مفادها أنه لم ينقطع من بيته وذريته زراعة القمح . أنظر طبقات ، ج2 ، ص 329 ـ 330 ، وأنظر كذلك : Lewicki T : Etudes Ibadites, Partie I, opcit, p.58 .

موسوقة(*) شعيرا ، تصدق بها كلها في جماعة وقعت بجبل نفوسة وكان له حقل وافر الظلال كثير الأشجار[37] .

ومما يدل على اهتمام الناس بالأرض ، وتنافسهم على زراعتها في هذه المنطقة الشرقية من الدولة الرستمية ، ما يرويه الوسياني عن أبي محمد ملي الذي « حرث أرضا فلما حصد زرعه ودرسه وجعله في التلاليس اذا برجل وقف على الشيخ وولده فقال : تعلم يارب ما أذنا لمن حرث ، ولا أعطينا ، ولا بعنا ، ولا وهبنا ، وانما هي مالنا »[38] فترك أبو محمد ذلك كله لصاحب الأرض الشرعي وانصرف[39] . ويبدو أن الشيخ ، كان يظن أن الأرض من الموات لا أهل لها ، فأراد احياءها . والرواية صريحة في اهتمام الناس بالزراعة شيوخا وأحداثا وربما ضيق المناطق الزراعية في ذلك الجبل ، أدى بأبي محمد الى حرث أرض ليست له .

وتزودنا المصادر الاباضية بشيء بسيط عن تنظيم الزراعة في جربة وتذكر أن حقول الأشجار فيها كانت محفوفة « بأعواد أثبتوها في حفر ووصلوا ما بينها بالحبال لترد عنها الوحش لئلا يفسدها »[40] . وكان أكثر تلك الأرض على هذه الصفة الى درجة أنها ردت فلولا من أتباع ولد ابن خلف المنشقين عن عامل الامام الرستمي أبي منصور إلياس ، لما أرادوا الهروب فكانت سببا في انهزامهم وتقتيلهم[41] .

(*) موسوقة من وسق وهو حمل بعير ويقال وسقت الحنطة توسيقا أي جعلتها وسقا وسقا ، وحاصل المعنى مليئة بالشعير . أنظر ابن منظور : لسان العرب المحيط ، ج3 ، ص 926 ـ 927

(37) الوسياني : سير (مخطوط) ، ورقة 116 ، الشماخي : سير ، ص 205 .

(38) الوسياني : سير (مخطوط) ، ورقة 11 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 334 .

(39) ربما المقصود المباشر من هذه الرواية هو المغزى الخلقي ، اذ لم تؤلف الطبقات الاباضية الا لهذا الغرض ، لذلك نلاحظ ترك أبي محمد للارض وغلتها تعففا واحتياطا ، والرواية من جهة أخرى تشير بوضوح الى مدى تعلق الناس بالأرض ، واحياء ميتها ، لذلك لها مغزى اقتصادي غير مقصود .

(40) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 85 .

(41) نفسه : ص 85 ـ 86 .

ويذكر الجغرافيون[42] زراعة جزيرة جربة وضواحيها ويقولون بأن فيها بساتين كثيرة ، تنتج الزيتون والنخل والكروم بكثرة ، ويؤكدون اباضية سكانها وهي الغالبة فيهم .

ولا شك أن النفوسيين ، نتيجة اهتمامهم البالغ بالأرض قد استصلحوا العديد من الأراضي ، وحولوا جبلهم الى جنات خضراء ، كما أن ضواحي طرابلس التابعة للرستميين كانت كثيرة الضياع ، « وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة كالخوخ الفرسك(*) والكمثري اللذين لا شبه لهما بمكان »[43]

ويذكر الأدريسي أن ضواحي مدينة طرابلس قبل عهده (ت 548هـ) كانت « كثيرة شجر التين والزيتون وبها فواكه جمة ونخل »[44] . هكذا يكون شرق الدولة الرستمية كغربه من حيث الزراعة وتطورها ونشاطاتها والحقيقة أن هذه الصفة كانت عامة في بلاد المغرب العربي كله .

أما جنوب البلاد الرستمية المتمثلة في الصحراء الواسعة ، فمن المعروف أن الزراعة فيها منعدمة أو تكاد ولا وجود للحياة فيها الا في بعض الواحات المتناثرة هنا وهناك ، حيث الابار الكثيرة والمياه المتدفقة . فالمقيمون بتلك الواحات يعتمدون على زراعة النخيل خاصة ، وهي الشجرة التي تقاوم مناخ الصحراء الشديد صيفا وشتاء . ولعل من المستحسن أن نعرف أن النخيل يعتبر « شجرة العراق الأدنى المطل على الخليج العربي ، وهو موطنها واقليمها المفضل »[45] ، وانتقلت من هناك الى بلاد الشام ومصر والجنوب التونسي قبل الفتح الاسلامي ثم توسعت رقعته بعد ذلك[46] .

---

(42) البكري : المغرب ، ص 19 ، الأدريسي : وصف ، ص 95 .

(*) الخوخ الفرسك : نوع من الخوخ أجود أملس أحمر جيد النوعية . أنظر ابن منظور : لسان العرب المحيط ، ج2 ، ص 1074 ، كلمة مفرسك .

(43) ابن حوقل : ص 69 ، المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص 224 .

(44) الأدريسي : وصف ، ص 90 .

(45) موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية ، ص 218 .

(46) نفسه ، ص 218

ومن الواحات التي كانت تابعة للدولة الرستمية في تلك الصحراء الكبرى وارجلان ، وبلاد الجريد وقسطيلية في الجنوب التونسي وواحات وادي ريغ وسوف وغيرها في شرق البلاد ، وهي تشكل شريطا عموديا في الصحراء الكبرى الشرقية ، على الحدود الجزائرية الليبية التونسية حاليا ، مع انقطاع فيا بينها بسيط اذ لم تكن سلسلة متواصلة .

أما وارجلان فهو « بلد خصيب كثير النخل والبساتين... وهي بلاد كثيرة الزرع والضرع... كثيرة المياه »[47] يزرعون من الحبوب الحنطة خاصة وتتخلل تلك الزروع أشجار النخيل وهي الطريقة المستعملة في أغلب الواحات وقد علم سكانها من الاباضية قساوة الطبيعة الصحراوية فحولوا تلك البقعة الى جنات وغابات متواصلة من النخيل وبنوا العديد من القرى[48] يذكر صاحب الاستبصار[49] أنها سبعة محصنة قريبة من بعضها البعض ، وقد أجرى أهلها خلالها المياه بحفر الابار العديدة رغم صعوبة ذلك وتكاليفه .

أما بلاد الجريد ، وتضم العديد من المدن والقرى مثل قسطيلية ونفطة والحامة وتوزر ونفزاوة فانها كانت ولا تزال بلاد النخيل وانما سميت بالجريد لكثرة نخيلها ، وهي كما يقول ابن حوقل « مغوثة افريقية بتمورها »[50] كما هي نظيرة البصرة في الدنيا[51] . وتتفق جميع المصادر الجغرافية على وفرة المياه بها وان كانت غير صالحة للشرب . كما أنها لا تنتج التمور فقط ، وانما هي أيضا منطقة بساتين ، يزرع فيها الشعير وقليل من

(47) الاستبصار : ص . 224 ، وأنظر الحميري عبد المنعم : الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ط 2 ، 1980 ، ص 600 .

(48) Dengel G. : L'imamat, opcit, p. 207.

(49) الاستبصار : ص 224 .

(50) ابن حوقل : ص 94 .

(51) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص 230 .

الحنطة وشيء من الزيتون والفواكه[52] . ويبدو أن غير هذه المنتجات الزراعية يجلب اليها من المدن المجاورة لها خاصة الطعام(*) ، أو الحنطة ، أساس معيشة المغاربة ، لذلك فان سعره بها غال في أغلب الأوقات مثلما يذكر ذلك ابن حوقل والادريسي[53] .

ويزودنا صاحب الاستبصار بالكيفية التي تتم بها تسميد الأرض حتى تعطي مردودا أكبر خاصة في توزر ويقول بأن أهلها كانوا يحتفظون بزبل مراحضهم يجففونه « لتدمين أرضهم لأنها في غاية الجفوف لقربها من الصحراء »[54] وهذا يدل على الاهتمام المتزايد بالأرض واستصلاحها ، ويدل من جهة أخرى على اعتماد الناس الزراعة أساس الحياة .

أما بلاد سوف وريغ[55] وواحاته فلا تذكر المصادر الموجودة بين أيدينا خاصة الجغرافية منها شيئا عنها لعدم اقتحامهم تلك القفار ، بل إن البكري يذكر أنه « لا يعرف وراء قسطيلية عمران ولا حيوان... وانما هي رمال وأرضون سواخة(*) »[56] ونجد اشارة الى بلد سوف في الاستبصار[57] اذ

(52) اليعقوبي : ص 102 ، ابن حوقل : ص 94 وأنظر كذلك المقدسي : ص 230 ، البكري ، ص 48 ، الأدريسي : ص 75 .

(*) الطعام : ربما يقصد به السميد أو الكسكسي « أساس معيشة المغاربة وعملية يدوية بسيطة يحول السميد الى ما يسمى بـ «الكسكسي» .

(53) ابن حوقل : ص 94 ، الأدريسي : ص 75 .

(54) الاستبصار : ص 156 وأنظر أيضا : الحميري : الروض المعطار ، ص 145 .

(55) ينفرد ابن سعيد المغربي (ت 685هـ) في نهاية القرن السابع الهجري ، في ظني ، بذكر بلاد ريغ ويجعلها خطأ شرق وارجلان اذ يقول « وفي شرقها (أي وارجلان) بلاد ريغ... وهي بلاد نخل ومخاضات ومياه تنتج على وجه الأرض فيصعد الماء كالسهوم الى أمد طويل ويسيح في المزارع... » أنظر كتاب الجغرافية ، تحقيق اسماعيل العربي ، ط 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1982 ، ص 126 ، أما ابن خلدون فيذكر أن بلاد ريغة ، قاعدتها تقرت وهذه المدينة الأخيرة لا تزال قائمة الى يومنا هذا في شرق صحراء الجزائر جنوب مدينة بسكرة وشمال مدينة وارجلان ، أنظر ابن خلدون العبر ، ج6 ، ص 791 .

(*) أرضون سواخة أي طينا ، من تسوخ الأقدام في الأرض اذا دخلت فيها . أنظر ابن منظور : المرجع السابق ، ج2 ، ص 233 ، كلمة «سوخ» .

(56) البكري : ص 49 .

(57) الاستبصار : ص وينقل عنه صاحب الروض المعطار نفس الملاحظة ص 333 .

يذكر أن آخر بلاد الجريد مدينة درجين وبالقرب منها بلد سوف ولا يضيف شيئا أكثر من هذا . ويلوح لنا أن الاباضية في العهد الرستمي وبعده هم الذين أحيوا تلك الأراضي الصحراوية وبعثوا فيها الحياة ومارسوا زراعة النخيل خاصة بعد ما حفروا الآبار وأجروا المياه . ونجد اشارة واضحة لهذا في سير الوسياني حيث أنه في معرض حديثه عن بلاد سوف وأريغ[58] يذكر أن الامام عبد الوهاب كتب الى نفوسة الراحلين من الجبل خارجين عنه كتابا «وكانوا ألف رجل خاف مما يمكن أن يعتريهم من التغيير والتشتيت وأقطع لهم أرضا كثيرة وقال لهم أغرسوا فيه بأمرنا وأحرثوا فيه باذننا »[59] فنزلوا بها وقطنوا فيها وهم أبرك خلق الله وأزكى وأطيب . ويتحدث الدرجيني[60] عن أريغ بما يوحى أنه بلد مكتمل العمران مثله مثل وارجلان في العهد الرستمي يقصده المشائخ منذ أواخر أيام الدولة الرستمية وهذا دليل على وجوده قبل ذلك . والكتب الاباضية حافلة بذكر بلاد سوف وأريغ[61] ، تذكر مشائخها ونشاطاتهم الدينية بما يوحي أنها كانت منطقة وموطنا للاباضية خاصة ، ومستقرا لهم أحيوها وجعلوا منها منطقة اتصال ما بين بلاد الجريد شمالا ووارجلان جنوبا وجبل نفوسة وما والاها شرقا .

هكذا يبدو لنا جليا ، أن بلاد سوف وأريغ كانت من المناطق التي أحياها الرستميون بواسطة أتباعهم من الاباضية ، فغرسوا فيها النخيل واهتموا بالتمور وأجروا المياه ، وهي الى يومنا هذا من أكبر مناطق الجزائر انتاجا للتمور وأجودها .

ومجمل القول حول مزروعات الدولة الرستمية أنها كانت متنوعة وجيدة .

---

(58) من الملاحظ أن الكتب الاباضية غالبا ما تذكر بلد ريغ هكذا أريغ . أنظر أبو زكرياء : سير ، ص 143 ، 175 وغيرها ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، 285 ، 454 وغيرها .

(59) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 47

(60) الدرجيني : ج2 ، ص 331 .

(61) لا داعي الى ذكر الصفحات فهي موزعة بشكل كبير في سير أبي زكرياء والوسياني والشماخي وطبقات الدرجيني ، فانظرها هناك .

والواقع أن القارئ لكتب الجغرافية في فترة حكم الرستميين أو بعدهم يلاحظ لأول وهلة اعجاب الجغرافيين باقليم المغرب وثرواته الزراعية ونحن وان كنا قد تحدثنا عن بعض المدن والقرى في غرب الدولة وشرقها وجنوبها فهي ولا شك نتف من كثير ، وانما اقتصرنا على الأهم مخافة التكرار ولأن المقصود هو تقديم صورة عامة عن الزراعة والأراضي الزراعية ومنتجاتها في الدولة الرستمية .

ولابد أن نشير هنا ، وقبل أن نختم هذه الصفحة الزاهرة من حياة الدولة الرستمية الزراعية ، أن مصادرنا لا تعطينا معلومات عن نظام ملكية الأرض ولا عن نوعية الممتلكات الزراعية التي عرفتها هذه الدولة[62] ولكن الذي يتبادر الى الذهن في هذا الخصوص أن الملكية الخاصة أو العائلية كانت هي السائدة اذ لا نجد اشارات الى تعاون جماعي على زراعة قطعة من الأرض ، ثم إن طبيعة جغرافية المغرب الوعرة لا تسمح بذلك التجمع ، فالأرض الصالحة للزراعة كثيرا ما تكون ضيقة محدودة ، خاصة وأننا نجدها على محاذاة الوديان والأنهار الجارية . اضافة الى هذا ، فان المصادر الاباضية لا يمكن أن تغفل جانبا اجتماعيا من الأهمية كهذا الجانب في التعاون والتآزر والتكامل لو كان موجودا .

ومما تجدر الاشارة اليه أن العبيد كانوا يتخذون في خدمة الأرض . ولم تكن استعمالاتهم مقتصرة فقط على القصور والمنازل وانما يمكن أن نتصور أن أغلبيتهم كانوا من العاملين في المزارع والبساتين والأرحاء[63] خاصة وأن الدولة الرستمية كانت من الدول الكبرى التي أهتمت بجلبهم من بلاد السودان الغربي جنبا الى جنب مع الذهب وبشكل واسع جدا وهو الأمر الذي سوف نتناوله بالتفصيل عند تطرقنا الى التجارة الخارجية .

---

(62) الجنحاني : تاهرت ، المجلة السابقة الذكر ، عدد 43/40 ، ص 36 .

(63) احسان عباس : المجتمع التاهرتي ، مجلة الأصالة ، عدد 45 ، ص 27 .

وبما يوحي باستعمال العبيد في المزارع ، بعض الاشارات التي نجدها عند ابن الصغير[64] والدرجيني[65] خاصة .

بالاضافة الى مامر بنا في ثنايا هذا الفصل من تشجيع الأئمة الرستميين للزراعة ، بشكل أو بآخر لابد من الاشارة في هذا المجال الى أن هؤلاء كانوا من ملاك الأرض . جيث أن ابن الصغير[66] يخبرنا أن ليعقوب بن أفلح أرضا زراعية جعل عليها وكيلا كان يأتيه بغلاتها ، وأغلب الظن أن أكثرية العبيد المستوردين كانوا يعملون في مزارع الحكام الرستميين .

وأقام الحكام في تيهرت خزانات للماء وأحواضا كبيرة اكتشفها الأثريون[67] وكانت محكمة التصميم والهندسة ، بحيث تحافظ على المياه في أيام الصيف البخيلة بالامطار ، أو أثناء الجفاف ، أو ربما حتى توصل المياه الى المناطق المرتفعة في أحواز تيهرت وهي موجودة بكثرة ، ولم تتوقف جهود الرستميين الزراعية هنا ، وانما أيضا شقوا القنوات وأوصلوها بالدور والبساتين وربما وضعوا أنابيب لذلك الغرض[68] حتى يتحكموا فعلا في المياه وقد استغلوا الأنهار المحيطة بتيهرت أحسن استغلال واستفادوا منها في زراعتهم . ولا شك أن ابن الصغير انما يتحدث عن هذه القنوات عندما يقول « ثم شرعوا في... اجراء الأنهر »[69] أي توجيه مياه الأنهار حسب الحاجة الى المناطق الزراعية والبيوت وبساتينها .

وبما لابد من ذكره أن أوضاع الزراعة في المغرب العربي عامة والدولة

(64) ابن الصغير : ص 14 .
(65) الدرجيني : ج1 ، ص 77 .
(66) ابن الصغير : ص 54 .
(67) Marçais et Lamare D : Tihert, opcit, p.32-33.
(68) وأنظر كذلك بورويبة رشيد : الفن الرستمي بتاهرت وسدراتة . مجلة الأصالة ، عدد 41 ، مطبعة البعث ، قسنطينة 1397هـ/1977م ص 184 .
الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 19 هامش رقم 1 ، ص 44 ـ 45 ، محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 205 ـ 206 .
(69) ابن الصغير : ص 12 ، 26 .

الرستمية خاصة كانت مستقرة الى حد كبير ، وذلك نتيجة الاستقرار السياسي العام الذي شمل المغرب آنذاك . ونظرا لانعدام الاضطرابات السياسية الخطيرة داخل الدولة الرستمية[70] ، حتى الفتن التي سبق أن أشرنا اليها في الباب الأول من هذا البحث كانت محدودة المكان والزمان والخطورة ، فلم تكن تهدد الزراعة أو تؤثر فيها بالشكل الذي يمكن أن يتصوره الذهن ، اللهم الا الفتنة الأخيرة التي اشتعلت بالتنافس على السلطة بين أفراد الأسرة الرستمية الواحدة ، فتكونت الكتل السياسية وتعددت الأغراض والاتجاهات وعم الفساد و« قطعت السبل وفرغ من أيدي الناس الحرث والنهل[*] »[71] .

ومن المحتمل جدا أن بعض القبائل البربرية البترية تحولت خلال الحكم الرستمي للبلاد الى قبائل شبه مستقرة ، مرتبطة بالأرض ، تسكن المدن أو أحوازها ، وتمارس الزراعة الى جانب الرعي ، وقد يكون النشاط الرعوي محدودا بحيث لا يؤدي الى التنقل من مكان الى آخر ، وانما هو رعي مقيد بمكان ، أو بعبارة أخرى تربية الماشية في نطاق محدود . ومما يؤيد هذا الاتجاه ازدهار المدن وأحوازها بالماشية الى جانب الزراعة . والاستقرار العام الذي ساد البلاد الرستمية وهو في حد ذاته يدعو الى الاستقرار الاجتماعي : استقرار القبائل وركونها الى التمدن خاصة وأن البربر مشهور عنهم الاعتماد على الماشية أو الثروة السهلة الانتقال والحركة اذ يأوون بها الى قمم الجبال بعيدا عن سلطة الحاكم أثناء الفتن والثورات الكبيرة وهو الأمر الذي لم يحدث على ما يبدو ، في عهد الرستميين .

وهناك اشارات ، في الكتب الاباضية خاصة ، الى بعض الجماعات[72]

(70) Dengel G. : opcit. p. 207.
(*) النهَل : ربما هي النهل وهي الابل العطاش لهنا على ما يبدو ترجمها موتلنسكي الى ما شية (Troupeaux) أو ربما المقصود منها الماء من نهل ومنهل . أنظر ابن منظور : لسان ، ج3 ، ص 732 . ابن الصغير : ص 121 .
(71) ابن الصغير : ص 55 .
(72) الشماخي : سير ، ص 205 ، 283 .

وقلة الامطار والحرب[73] ، في الطرف الشرقي من الدولة ، وهو الطرف الذي اهتمت به تلك المصادر بشكل ملحوظ أكثر من غيره . ويذكر ابن عذاري[74] ، مجاعة عامة شملت المشرق والمغرب سنة 260هـ . واذا استثنينا هذه المجاعات المتقطعة في بلاد المغرب ، وهي بدون شك محدودة ، فانه بامكاننا تصور مستوى الزراعة في الدولة الرستمية والقول بأنها كانت مزدهرة نشيطة ومتنوعة ، وكانت تلبي حاجات البلد بل كثيرا ما عرفت الحبوب طريقها الى بلاد الأندلس حيث الأمويون الذين تربطهم بالرستميين علاقات تجارية وطيدة[75] .

وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، فالمقولة الرومانية المشهورة من أن « المغرب خزينة روما من القمح (Romae Greniarum) »[76] أحييت في العهد الرستمي ليعبر قمح المغرب الفائض ، هذه المرة لا الى روما وانما الى الأندلس العربية المسلمة ، تجارة وتبادلا وعونا ، وليس كالقديم استنزافا واستغلالا وهيمنة ، ويستفيد منه سكان الأندلس المسلمون ، خاصة أثناء أزماتهم الاقتصادية .

ب ـ الرعـي .

كانت تربية الماشية في بلاد المغرب تقوم جنبا الى جنب مع الزراعة فلا

(73) أبو زكرياء : سير ، ص 85 وأنظر الدرجيني : حيث يذكر أن شيخا استسقى في سنة قحط ولستجيبت دعوته ، طبقات ، ج2 ، ص 209 ، الشماخي : سير ، ص 206 . أنظر كذلك ص 183 ـ 184 .

(74) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 116 ، يذكر عبد الرحمن الجيلالي أن مجاعة ووباء عما للمغرب والأندلس ابتداء من سنة 253 الى 265هـ ويذكر أيضا وباء أودى بالعديد من الناس سنة 285هـ تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، 227 .

(75) Provençal E. Levi : Histoire de l'Espagne Musulmane, opcit, TI, p.245.
Provençal : La vie Economique de l'Espagne Musulmane au X^e siècle – Extrait de la Revue Historique, T CLXVII, imp. gouverneur 1931, p.4.

(76) الجيلالي : المرجع السابق ، ج1 ، ص 103 ، وأنظر كذلك : Gautier E. F. : Considérations, opcit, p.55
Gsell S. et Marçais G. : Histoire de l'Algérie opcit, p. 31-40.

داعي الى القول إن المناطق الزراعية التي جئنا بذكرها قبل قليل كانت مناطق رعوية اضافة الى كونها زراعية . فالمزارع غالبا ما يعتمد على المحصول الزراعي مقرونا بالمنتوج الحيواني أو الماشية اذ يعتبر ذلك كله من الزراعة وأنشطتها ومن اهتمامات المزارع .

تشير الدراسات[77] أن الجزائر كانت في فترة من فترات تاريخها القديم مرتعا ومرعى لمختلف الحيوانات ، خاصة الغنم والحمير والخيل . والواقع أن طبيعة البلاد الغابية تشجع وتوفر الماشية وكثرتها ، ففي العهد الرستمي يتفق جميع الجغرافيين على أن البلاد كانت زراعية ، رعوية ، يؤكد ذلك اليعقوبي مرارا بترديده جملة يصف بها بعض المناطق ويقول « هو بلد زرع وضرع »[78] . ولا داعي الى اعادة أقوال الجغرافيين الذين سبق أن مررنا بهم عند حديثنا عن الزراعة ، ولكن لابد من ذكر ما قاله ابن حوقل حول الماشية في تيهرت وأحوازها حيث يؤكد قائلا : « وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية[*] ويكثر عندهم العسل والسمن »[79] ، ولا تزال هذه الصفة الرعوية قائمة في زمن الأدريسي الذي يذكر أن بتيهرت « من نتاج البراذين والخيل كل حسن . وأما البقر والغنم فكثيرة بها جدا وكذلك العسل والسمن »[80] فلا غرابة أن تتبوأ تيهرت هذا الدور في النشاط الرعوي الى جانب دورها الزراعي ، فوجودها بمحاذاة منطقة الاستبس الرعوية[81] وقريبا من الصحراء مجال القبائل البدوية المتنقلة وراء ماشيتها ، خولا لها أن تكون أرضها زراعية تتخللها مراع ، كثيرا ما يقصدها البربر الرحل في فصول معينة من السنة . فابن الصغير

(77) Gsell S. et Marçaid G, : ibid, p. 39-40

(78) اليعقوبي : البلدان ، ص 104 ـ 108 .

(79) ابن حوقل : ص 86 .

(80) الأدريسي : ص 60 ، وأنظر ابن الصغير : ص 14 ، 22 .

(81) Marçais G. et Diehl Ch. : Histoire du moyen age T. 3, opcit, p. 421.

(*) البرذون الفاره هو النشيط السيور الجاد القوي يقال للفرس جواد وللبرذون فاره أنظر ابن منظور : لسان ، ج3 ، ص 190 كلمة «فره» .

يخبرنا « أن قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهم كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع الى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الشلا(**) وغيره »[82] . ولا شك أن هذه الصفة الرعوية لتيهرت لم تكن جديدة لها ولم يستحدثها الرستميون ببناء عاصمتهم هناك وانما الجديد في الأمر أن ذلك ازداد نشاطاً بتوفر العوامل والأسباب من احياء للأراضي وازدهار عمراني وتجاري ، الامر الذي يدفع الرعاة الى ارتياد تيهرت لتبديل بضاعتهم من السمن والصوف والجلود والماشية ببضاعات أخرى لا يجدونها الا في تيهرت .

ومما يمكن ملاحظته في نصّيْ ابن حوقل والإدريسي السالفي الذكر هو توفر العسل بالعاصمة الرستمية ، وهذا يقتضي توفر أنواع من الزهور والورود مادة النحل الأولية لتكوين عسلها ، وليست تيهرت وحدها ملجا للنحل وانما تشاركها فيها مدن أخرى منها وهران التي يقول عنها الأدريسي « وأهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير »[83] .

لقد كان المغرب العربي في نظر موريس لومبارد[84] هو « بلاد الغنم » ، اذ تصدر مناطق انتاج الصوف بلا منازع ، ابتداء من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي . وتشكل الهضاب العليا والمناطق الرطبة في التل الجزائري خصوصا وشمال افريقيا واسبانيا عموما ، مراعي للأبقار والأغنام ذات الصوف الفائق الجودة . ولعل أبا الربيع المزاتي يشير الى هذه الكثرة في سيره عندما يقول « كسب المسلم الحرث والحصاد وكسب الغنم فكسب

(**) الشلا ـ لم أجدها في المعاجم ربما هي الكلأ وهو الصحيح عندي .

(82) ابن الصغير : ص 17 .

(83) الأدريسي : ص 57 .

(84) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 224 ـ 225 .

الغنم قد زال في زماننا هذا بالقحط وكثرة الغارات »[85] علما بأن المزاتي توفي سنة 471هـ ، فلا ريب أنه كان يقصد الرستميين لاغير ، اذ تزودنا المصادر الاباضية بعدة اشارات الى وفرة الأغنام في تلك الفترة ، من ذلك ما أخبرنا به الشماخي عن يبيب بن زلغين أحد ملاك الماشية فقد كان له « ثلاثون ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنا عشر ألف حمار »[86] وكان رعاة غنمه كلهم من عبيده ـ ومما يدل على وجود مثل هذه الثروة الحيوانية أو قريبا منها عند هذا الرجل قول الامام عبد الوهاب « لولا أنا ومحمد بن جرني ويبيب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين : أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالأنعام »[87] ، لقد كان ابن زلغين بماشيته اذن أحد الدعائم الأساسية في موارد بيت المال الرستمي ، ويشارك يبيبا في اكتساب الأغنام أبو منصور الياس الذي كانت غنمه كثيرة التناسل لم يتبدل ذلك منه منذ أن غادر النصرانية الى الاسلام[88] . وكان أبو منصور عاملا لتيهرت على جبل نفوسة حيث كان الرعي هو الحرفة السائدة بين سكانه[89] رغم استقرارهم في قرى وضياع ذلك الجبل ولعل ممارستهم الكبيرة للرعي هي التي أوحت لابن خلدون[90] تصنيفهم ضمن القبائل البربرية البترية (البدوية) .

إن تربية الماشية لم تكن محتكرة اذن في القبائل المتنقلة فحسب ، وانما تعدتها الى غيرها بحكم وفرتها من جهة ، وبحكم وفرة المراعي الصالحة لانتاجها في البلاد من جهة أخرى ، ولا أدل على توفر الماشية واهتمام الرستميين بها من أن بعض الأئمة أنفسهم كانوا من ملاكيها كأبي اليقظان وأبي

(85) المزاتي أبو الربيع سليمان بن يخلف : كتاب السير ، المطبعة الحجرية بتونس 1321هـ ، ص 85 ـ 86 .

(86) الشماخي : سير ص 204 .

(87) نفسه ، ص 205 ـ أطفيش احمد بن يوسف : رسالة الرد على العقبي ، ص 73 .

(88) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 330 ، وأنظر كذلك ص 297 .

(89) محمود اسماعيل : المرجع السابق ، ص 206 .

(90) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 296 .

حاتم ، وكان رعاتهم من العبيد[91] . وأما يعقوب بن أفلح فقد « كانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه في اناء جديد »[92] كما يذكر ذلك ابن الصغير .

ولما كان الجغرافيون كلهم تقريبا لم يقتحموا الصحراء وأعماقها لذلك فهم لم يزودونا بمعلومات وافية حول ماشيتها التي لا نشك في كثرتها ، الأمر الذي يدعونا الى التخمين في أن الجمل[93] كان أهم حيوان في تلك الربوع الشاسعة الى جانب الأغنام وكان الجمل هو الوسيلة الأولى في نقل الذهب ووراءه كانت تهرول قوافل الزنوج المسترق القادمة من السودان الغربي في اتجاه تيهرت وغيرها من العواصم التجارية في المغرب العربي . ولا ريب أن هذه الجمال كانت وافرة العدد ، وقد ذكر ابن حوقل أن للمغرب من الجمال في براريه وعند سكان صحاريه مالا تدانيها في الكثرة ابل العرب[94] وهي بذلك تساير ضخامة النشاط التجاري الذي ربط الدولة الرستمية بما وراء الصحراء الكبرى ، وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل في التجارة مع السودان .

ولا شك أن الرعي كان النشاط الأساسي لسكان الصحراء ، وهو موردهم الأساسي والوحيد ورأسمالهم . وكانت قطعان الغنم والجمال كثيرة ينتقل وراءها البدو صيفا نحو الشمال ويرجعون الى الصحراء في فصل الشتاء عندما تكثر الامطار والثلوج التي تؤثر سلبا في الحيوان[95] ، خاصة منها الحديثة الميلاد .

(91) ابن الصغير : ص 48 ، 52 .

(92) نفسه ، ص 54 .

(93) يذكر موريس لومبارد أن الجمل دخل شمال افريقيا من المشرق في حوالي القرن الثاني الميلادي أنظر : Maurice Lombard : Les bases monétaires... L'or musulman, in Annalés (E.S.C.) opcit p. 150

(94) ابن حوقل : ص 98 .

(95) Vanacker Claudette : Géographie, opcit, p. 647

وقبل أن نطوي صفحة هذا الجانب الهام من اقتصاد الدولة الرستمية لابد أن نشير الى أن المغرب الأوسط بأسره ، وهو مجال الرستميين ، كانت منه « تجلب الأغنام الى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها »[96] وكانت المراكب الأندلسية تختلف الى مرسى وهران[97] لنقل الفائض من الانتاج الحيواني الرستمي ، اضافة الى ما تحتاجه الدولة الأموية في الأندلس ، من حبوب ، خاصة في أزماتها الاقتصادية .

ويجمل القول إن الدولة الرستمية عرفت نشاطا واسعا في الزراعة والرعي على حد سواء ، وقد ساعدها على ذلك اتساع رقعتها الجغرافية ، فكانت المنتوجات الزراعية متنوعة ومن الجودة بحيث أشاد بها الجغرافيون ، وقد شجع الرستميون الزراعة ، كما اهتموا بالماشية ، وكانوا من ملاك الصنفين . ومما يدل على اهتمام الناس بالماشية امتلاك أفراد منهم ، المئات من رؤوس الأغنام والابل ، وكان لهذا النشاط الزراعي والرعوي أثره البارز في الصناعة الرستمية .

(96) الاستبصار : ص 179 .

(97) ابن حوقل : ص 77 ، الأدريسي : ص 57 .

﴿ الفصـــل الثـانـي ﴾

الصناعة والمهن المختلفة

لا تزودنا المصادر المتوفرة لدينا بشيء ذي أهمية عن الصناعة في الدولة الرستمية ، الا ماورد عن غير قصد من الاشارات الى الجانب الصناعي أو الحرفي لذلك فان المجال ههنا يبقى ضيقا ، ولابد من اعمال الفكر في هذه الاشارات القليلة للوصول الى بعض النتائج العامة التي قد لا تخلو من التخمين .

ولم ينج حتى ابن الصغير نفسه ، من هذا النقص وهو الذي اهتم بأمور دقيقة في تيهرت وعرف بقوة ملاحظته . ولكن الذي لا يرقى اليه الشك على كل حال ، أن تيهرت كانت تضم أنواعا من الحرف وعددا من الحرفيين ربما كان كبيرا بحيث استطاعوا أن يعينوا مع العوام أبا حاتم اماما سنة 281هـ بلا مشورة أحد . فأهل الحرف[1] هؤلاء ، الذين يذكرهم ابن الصغير ، دون أن يحدد نوعية حرفهم ، يدعونا الى القول ، بأن عاصمة الرستميين كانت لا تقل في النشاط الحرفي عن العواصم المغربية الأخرى كالقيروان مثلا أو فاس أو غيرها .

فلا يستبعد أن يكون بتيهرت أعداد من النجارين والحدادين والخياطين والطحانين والدباغين وغيرها من الحرف والصنائع المشهورة آنذاك خاصة وأن العاصمة الرستمية ، كما يذكر ابن الصغير ، قصدتها « الوفود

(1) ابن الصغير : ص 49 ، يذكر ابن الصغير كلمة أهل الحرف بأهل الحروف ويترجمها موتلنسكي (Moutylinski) الى أهل الحرف (Artisans) أنظر النص المترجم ص 114 .

والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار... ليس أحد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم ، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه... وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي... »[2] . اضافة الى هؤلاء لقد سكن تيهرت الأندلسيون والعجم[3] وغيرهم من أرباب الصناعات والحرف .

ويذكر ابن القوطية[4] ، أن أندلسيا كان في تيهرت له دكان خياطة فلا يستبعد أن يكون هذا واحدا من بين الكثيرين من الأندلسيين الذين أشتغلوا في العاصمة الرستمية ، وأستفادت الدولة من خبرتهم الصناعية .

ولعل أبرز نشاط صناعي عرفته الدولة الرستمية ، كان مرتبطا بشكل مباشر بالزراعة والماشية ، وهما جانبان ، كما رأينا ، شهدت فيهما الدولة نشاطا ملحوظا ، مما يدعونا الى القول بأن صناعة وسائل الزراعة كانت متقدمة وتتمثل هذه الصناعة أو الحرفة في صناعة المحاريث والمناجل والفؤوس وغيرها من الالات الزراعية البسيطة .

ومما تخبرنا به المراجع[5] ، وجود صناعة زراعية تتمثل في معاصر الزيتون ، اذ كانت هذه الشجرة متوفرة في بلاد المغرب ، لهذا فمن المحتمل جدا ، وجود هذه الصناعة في تيهرت ، وفي جبل نفوسة بالذات وبه مثل قرية اجناون التي تدور المياه بها على اثني عشر ألف زيتونة[6] . هذا اضافة

(2) ابن الصغير : ص 12 - 13 .

(3) يذكر ابن الصغير أن بتيهرت دربا أغلب سكانه العجم . أنظر : سيرة ، ص 38 ، ويبدو أن المقصود بالعجم عند ابن الصغير كل من هم ليسوا عربا ولا بربرا .

(4) ابن القوطية القرطبي : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، دار للجامعيين ، 1957 ، ص 109 .

(5) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 216 ، Gautier E.F. : opcit, p. 57-58

(6) الشماخي : سير ، ص 189 وأنظر البكري : المغرب ، ص 9 .

الى جزيرة جربة التي اشتهرت بمعاصرها منذ القديم[7] . ويبدو أن المشتغلين في هذه المعاصر كان معظمهم من العبيد المجلوب من السودان ، كما يبدو أنهم كانوا يشتغلون في مطاحن القمح الموزعة على الأنهار[8] العديدة بالدولة الرستمية .

ولقد رأينا أن لتيهرت ، بابا يعرف باسم باب المطاحن[9] . فكثرة هذه المطاحن تدعونا الى التساؤل عن طبيعتها وكيفية صنعها واشتغالها ؟ وأول ما يتبادر الى الذهن ، أنها كانت من الحجر[10] ، ربما بسيطة المكنكة أو الهندسة ، يقوم بصنعها متخصصون في حرفتها يعرفون دقائقها ، ولاشك أنها تعتمد الطاقة الحركية للماء في اشتغالها ، وهذا ما يفسر وجودها على الأنهار فقط . ويذكر الاستاذ الكعاك[11] ، أن هذه الأرحاء المائية من المستنبطات العربية ومن الاختراعات الاسلامية ، انتقلت من المغرب الى الأندلس ، ولم يشر الاستاذ الكعاك الى مصدر رأيه هذا .

ومن الصناعات المرتبطة بالماشية وتوفرها ، صناعة الجلود أو الدباغة وهي صناعة كان يمارسها البربر منذ عصورهم القديمة[12] . ولما كانت تيهرت إحدى معادن الدواب والماشية والبراذين الفراهية[13] ، فلا يستبعد أن تكون هذه الصناعة فيها وفي ضواحيها نشيطة جدا ، فضلا عن المناطق الأخرى

---

(7) الجربي أبوراس محمد : مؤنس الأحبة ، ص 162 .

(8) ابن الصغير : ص 12 ، 14 ، 40 ، أنظر أيضا احسان عباس : المجتمع التاهرتي ، المجلة السابقة ، ص 27 .

(9) البكري : ص 66 .

(10) يذكر ابن حوقل أن بمدينة مجانة بافريقية الأغلبية الحجارة المجلوبة للطاحن بجميع المغرب ، صورة ، ص 84 .

(11) الكعاك : موجز ، ص 177 ، ويذكر الاستاذ الشيخ أبو اليقظان رائد الصحافة الجزائرية أن الرستميين هم الذين اخترعوا تلك الرحوات قائلا شعرا :

هُمُ اخْتَرَعُوا الرَّحَوَاتِ لَهُمْ   بِحِقْبَةٍ مِينَاءٍ فَحَازُوا الظَّفَرْ

ويبدو أن أبا اليقظان بعيد عن الصواب كل البعد لأن الرحى قديمة جدا ، أنظر ديوان أبي اليقظان ، ص 71 .

(12) صفر أحمد : مدينة المغرب العربي في التاريخ ، دار النشر بوسلامة تونس ، 1959 ، ص 152 .

(13) ابن حوقل : ص 86 .

مثل بلد زويلة في شرق البلاد الذي منه « الجلود الزويلية »[14] المشهورة فالدباغة صناعة ضرورية تحويلية ، حيث أنها تعتمد لجلود الماشية ، وبطرق خاصة يعرفها أهل الحرفة ، يحول الجلد الى قطعة صالحة لصناعة مختلف الضروريات ، كالنعال مثلا أو السروج والأغطية ، وأدوات حفظ المواد السائلة كالحليب والماء والسمن ، أو حفظ التمور وغيرها . ومن الجلود تصنع الأفرشة أيضا ، فهذا ابن الصغير يخبرنا أن عبد الرحمن بن رستم كان يجلس على « حصير فوقه جلد »[15] . وبذكر الحصير يمكن أن نتصور أنها كانت تصنع في الدولة الرستمية من الحلفاء ، أو الجريد سعف النخيل ، وكلتا المادتين متوفرتين في الدولة : الأولى في منطقة الاستبس بين جبال الأطلس الشمالي والأطلس الجنوبي ، والثانية في الصحراء حيث الواحات .

أما أهم صناعة كانت بالدولة الرستمية ، فهي صناعة النسيج المعتمدة أساسا على الصوف والكتان ، وربما الحرير أيضا[16] . تعتبر الهضاب العليا في المغرب العربي ، أكبر منتج للصوف الفائق الجودة ، والوفير الناعم الأجعد[17] . من هنا يمكن أن نتصور النوعية الجيدة لصناعة النسيج في الدولة الرستمية . وكانت هذه الصناعة تنتج أنواعا من الملابس . وتخبرنا المصادر الاباضية عن الغزل في جبل نفوسة ، ولاشك أنها منتشرة في جميع ربوع الدولة عند البدو والحضر ، وكانت المرأة خاصة[18] ، هي التي تقوم بها في منزلها أو خيمتها وتوظف لها الجواري ، مثلما فعلت أم الخطاب ، التي كانت ثلاثة عشر جارية ينسجن لها[19] . وهناك اشارات متناثرة في سير

---

(14) اليعقوبي : ص 98 .

(15) ابن الصغير : ص 11 .

(16) الكعاك : موجز ، ص 178 ، سالم عبد العزيز : المغرب الكبير ج2 ، ص 577 ، محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 206 ، وأنظر كذلك Dengel G. : opcit, p. 208

(17) موريس لومبارد : الجغرافيا ، ص 224 .

(18) الوسياني : سير (مخطوط) ، ص 9 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 303 ، الشماخي : سير ، ص 241 .

(19) الشماخي : سير ، ص 247 .

الشماخي تؤكد اهتمام المرأة في الدولة الرستمية بصناعة الصوف[20] . وكان البربر منذ القديم قد برعوا في هذه الصناعة التقليدية ، التي كانت قوام لباسهم وفرشهم وأغطيتهم وخيامهم[21] . ومما يدل على توفر هذه المنسوجات في تيهرت خاصة ما أخبرنا به ابن الصغير من أن الامام كان يشتري من مال الصدقة « أكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء »[22] ويوزع كل ذلك على الفقراء والمحتاجين .

ولم تكن المنسوجات الرستمية بلون واحد ، بطبيعة الحال ، وانما كانت مختلفة الاشكال والألوان ، وكان اليهود هم الذين يتولون صناعة الأصباغ ويبدو أن هذه الحرفة قديمة لديهم . وقد وردت الاشارة الى اختصاص اليهود بصناعة الأصباغ في جبل نفوسة ، في الكتب الاباضية عندما ترجمت لأبي ذر ابان بن وسيم ، أحد عمال الدولة الرستمية بالجبل ، فقد كانت النساء يعدن وضوءهن كلما لمسن أصباغ اليهود ، لأنه نجس ، فرخص لهن قائلا « أيما امرأة مست أصباغ اليهود ، ليس عليها الا غسل يديها وكفيها »[23] ومما يؤكد شهرة النسيج الرستمي والنفوسي منه بوجه خاص ، وألوانه المختلفة ما احتفظ لنا به ابن حوقل عندما ذكر جودة ذلك قائلا : « وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة »[24] ولا تقل قسطيلية في بلاد الجريد ، أهمية عن نفوسة في صناعة الصوف ، اذ بها « جهاز الصوف في جميع جهاته من الشقة والكسى والحنبل

---

(20) نفسه ، ص 241 ، 277 .

(21) صفر أحمد : المرجع السابق ، ص 150 ، دبوز علي : المغرب الكبير ج1 ، ص 47 ـ 48 . مازالت النساء الاباضيات وغيرهن الى يومنا هذا يمارسن صناعة الغزل في منطقة ميزاب المشهورة بزرابيها (سجاد مغربي) المزركشة الجميلة التي يتنافس السياح على اقتنائها ويقام في ربيع كل سنة عيد في مدينة غرداية بمنطقة ميزاب يسمى عيد الزربية ، وهو عبارة عن معرض كبير لمختلف الزرابي والأنسجة الصوفية المختلفة .

(22) ابن الصغير : ص 15 .

(23) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 9 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 303 .

(24) ابن حوقل : صورة ، ص 69 .

الى سائر ما يعمل منه يحمل منها الى جميع الأقطار »[25] . فلم تكن هذه المدينة اذن ، تكتفي ذاتيا فحسب ، وانما تصدر الفائض من انتاجها النسيجي الصوفي الى الأقطار المجاورة لها .

ان هذا النشاط الصناعي النسيجي أو الغزلي ، لاشك أنه يعتمد على أدوات خاصة مثل المناسج والمغازل والأنوال وغيرها من آلات الغزل التي كان الحرفيون يصنعونها ، ويوفرونها لأصحابها .

ومن الصناعات المرتبطة بطبيعة البلاد ، صناعة الخشب ، اذ تتميز الدولة الرستمية بثروتها الغابية ، ولقد مر بنا أن تيهرت ، بنيت في وسط غابة كثيفة الأشجار ، الأمر الذي يدعو الى وجود صناعة الخشب أو النجارة ، فقد كان النجارون ، كما يتوقع الباحث الفرنسي دانجيل[26] ، يصنعون مختلف الآلات والأدوات المستعملة آنذاك ، مثل الصناديق الخشبية ، والأسرة ، والخزائن البسيطة والأبواب وغيرها ، كما كانوا يهذبون الخشب لاستعماله في بناء البيوت والقصور ، وكانت هذه الأخيرة كثيرة في تيهرت وضواحيها ، وقد أكثر ابن الصغير بذكرها[27] .

ولعل من الصناعات الخشبية الموجودة بالدولة الرستمية صناعة السفن أو بالأحرى بعض القوارب الصغيرة الضرورية للملاحة البحرية والنهرية . فوفرة الخشب اضافة الى الصناع الأندلسيين ، الذين كانوا يؤمون مرافيء المغرب الأوسط باستمرار ، بل لقد كانوا من مؤسسيها فعلا[28] ، يدعو الى الاعتقاد أن مرفأي تنس ووهران خاصة لاهميتها ، كان بها ترسانة لصناعة القوارب وليس بمستبعد أن تكون صناعة القوارب متوفرة في جربة لكونها

---

(25) نفسه ، ص 94 .

(26) Dengel G. : ibid, p. 208.

(27) ابن الصغير : ص 13 ، 26 ـ 27 ، 33 ، 51 .

(28) البكري : ص 61 ـ 62 ، 70 .

جزيرة في البحر المتوسط منقطعة بأميال معدودات عن ساحل مدينة قابس ، فلا بد أن يحتاج سكانها الى الانتقال الى الشاطيء الأخر لقضاء حاجاتهم .

وتبقى المصادر المتوفرة لدينا صامتة لا تذكر أي شيء عن صناعة التعدين في الدولة الرستمية ، رغم أن ستيفان قزال (Gsell S.) يؤكد بأن هذه الصناعة لم تشهد تطورها الهائل في بلاد المغرب الا في العهد الاسلامي أو العصور الوسطى ، وليس قبل ذلك اطلاقا[29] . ولكن ذلك الباحث نفسه ، يذكر أن المغرب الأوسط وهو مجال الرستميين ، كان يفتقر للمعادن في تلك الفترة بالذات[30] . لكن هذا لا يمنع أن تكون الدولة الرستمية قد استوردت المادة المعدنية الأولية مثل الذهب والفضة وغيرهما وضربتهما دراهم ودنانير للتعامل النقدي ، وحليا للزينة كما يذكر ذلك الباروني[31] ، خاصة وأن تقنيات معالجة المعادن قد عرفت تقدما في هذه الفترة ، وذلك باستعمال زئبق الأندلس ، الذي كان يصدر الى جميع الأقطار المنتجة للذهب في العالم الاسلامي ، ومنها ممالك المغرب العربي بصفة خاصة[32] .

ولا نستبعد وجود حدادين يعتمدون مادة الحديد في صناعاتهم . ومن المحتمل جدا أنهم كانوا يصنعون مختلف الأسلحة البسيطة كالسهام والسيوف والخناجر والدروع[33] وغيرها ، والآلات الحديدية الضرورية ذات الاستعمال اليومي . ولعل الباب الحديدي الذي اتخذه الامام أفلح بن عبد الوهاب[34] كان من صنع حدادي تيهرت .

(29) محمود اسماعيل : المرجع السابق ، ص 206 ، وأنظر : Laroui Abdellah : opcit, p. 114
(30) Dengel G. : opcit, p. 208
(31) الباروني : مختصر تاريخ الاباضية ، ص 42 .
(32) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 147 .
(33) يتحدث ابن الصغير عن اتخاذ الدروع في الحرب . أنظر ابن الصغير : ص 36 .
(34) ابن الصغير : ص 26 .

وتذكر المراجع الحديثة[35] ، أن بني رستم استفادوا من العناصر المتحضرة التي قصدت عاصمتهم كالعرب والعجم ، وأخذوا منهم خبرتهم فاشتهرت تيهرت بالمنسوجات الحريرية ، والقوارير الزجاجية ، والتحف المعدنية ، والعطور ، والأثاث من الخشب المنحوت والمخطوط والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف .

ولعل أبرز ما خلفته الصناعة في العهد الرستمي ، هو الأواني الفخارية أو الخزفية التي عثر عليها جورج مارسيه ودوسوس لامار[36] (Marçais G. et Lamarre D.) في خرائب تيهرت سنة 1941م ، وانتهيا في تنقيبهما الى نتيجة حاسمة ، هي أن تيهرت كانت تضم أفرانا لشيّ الفخار ، ومعامل لصناعته اذ اكتشفا قطعا متلاصقة بعضها ببعض اعتبراها من بقايا الفرن المهملة .

لقد كان للعاصمة الرستمية اذن ، أفران ومعامل لصناعة الفخار . وقد اكتشف الأثريان المذكوران أجزاء من جرة كبيرة ، وقلل وصحون وكؤوس وغطاء برادة (Gargoulette) مزين بقفل مزخرفة ، كما عثرا على مصابيح طويلة المصب ، وغيرها من الأواني الأخرى المختلفة[37] التي كان الناس بحاجة اليها . والجدير بالذكر أن هذه المكتشفات الفخارية والخزفية ، كانت قليلة الزركشة وبألوان محدودة ، كالاخضر والأصفر والخوخي أو البنّي . وتشير الباحثة الفرنسية آن ماري[38] (Anne Marrie) أن خزف تيهرت كان بسيطا بحيث لا يرقى الى جودة خزف القيروان أو

(35) الكماك : موجز ، ص 178 ، سالم عبد العزيز : المرجع السابق ج2 ، ص 577 ، الميلي : تاريخ الجزائر ، ج2 ، ص 67 ، محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 206 .
(36) Marçais G. : opcit, p. 24-57.
(37) Marçais G. : ibid, p. 56-57.
(38) Reichlon Anne-Marie : Contribution à l'étude de la vie sociale et économique de la communauté ibadite du M'Zab Algérie (la poterie comme expression technique et culturelle) Doctorat 3ème sycle en sociologie, Parie, 1980, p.29.
وأنظر كذلك رشيد بوروبية : الفن الرستمي بتاهرت وسدراتة ، مجلة الاصالة ، عدد 41 ، ص 184 ـ 187 .

فاس الغني بالألوان والزخرفة وتعزو الباحثة تلك البساطة في الخزف الرستمي الى زهد الأئمة الرستميين ، واعتبار الاباضيين البذخ حراما أو نوعا من الحرام . والحقيقة أن في هذا الحكم شيئا من المبالغة لان الامام عبد الرحمن ، اذا كان زاهدا فعلا ، فان الأئمة بعده كانوا أصحاب قصور وحاشية وأموال ، لهذا فاننا نرى أن السبب الحقيقي في بساطة هذا الخزف ، راجع بالدرجة الأولى ، الى عدم اهتمام الصناع بجمال الانتاج بقدر ماكان همهم كثرته وبيعه بأبخس الأثمان دون اضاعة للوقت في الزخرفة والتلوين ، وهو أمر يتماشى وطبيعة البربر البتر خاصة وأنهم الأكثرية في الدولة الرستمية . ولعل هذا يعود من جهة أخرى الى قلة مهارة ، أولئك الصناع وبساطتهم . ورغم هذا فقد عثر على قطع من الخزف المطلي الجميل الرائع ، بعد اكتشافات مارسيه ولامار ، تدل على أن تيهرت عرفت الأنواع المختلفة في هذه الصناعة اليدوية[39] ، ولم تعرف النوع الساذج البسيط فقط ، وهذا شيء معقول جدا اذا نظرنا الى كثرة الأغنياء والقصور في الدولة الرستمية ، الأمر الذي يتطلب حياة مترفة باذخة .

ولم تكن أفران تيهرت الفخارية هي الوحيدة في الدولة ، وانما تذكر المصادر[40] ، أن جزيرة جربة كانت هي أيضا مشهورة بهذه الصناعة منذ القديم ، لتوفر المادة الفخارية فيها . وهي أواني تستعمل بالدرجة الأولى لحفظ الطعام والتمور ، وادخار الحبوب والسوائل ، ومازالوا يمارسون هذه الصناعة الى وقتنا هذا .

ومما يراه الباروني[41] ، وله جانب من الصواب في نظرنا ، أن المياه التي كانت تدخل أكثر دور سكان تيهرت ، حسبما وصف ذلك ابن

(39) Dengel G. : opcit, p. 208 note 2. ولا يزال موضع تيهرت الرستمية يحتاج الى تنقيب شامل وجدي ، فهلا قامت الجهات المعنية بالجزائر بهذا العمل التاريخي الهام .

(40) الجربي محمد أبو راس : المرجع السابق ، ص 156 ـ 157 .

(41) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 19 هامش رقم 1 ، وأنظر ص 44 ـ 45 .

حوقل[42] ، لم تكن تجري هكذا مكشوفة في الشوارع ، وانما لا يستبعد أن يكون الرستميون وهم المتضلعون في العلوم الرياضية ، قد اخترعوا قنوات فخارية ناقلة للمياه خاصة وأن منطقة تيهرت مرتفعة نوعا ما ، وليست على مستوى واحد ، الأمر الذي يزيد في صعوبة نقل المياه بالمجاري العادية ، ولعل وجود أفران الفخار وتوفر المادة الأولية ، ساعدوا على صناعة هذه القنوات أو الأنابيب الفخارية المطلية ، وتصميم هندسة توزيع المياه على بيوت السكان في العاصمة الرستمية وكان مثل هذا التصرف في المياه موجودا لدى الجماعة الاباضية في قرى وادي ميزاب بالواحات الجزائرية ، كما أنها وجدت في زواغة المدينة النفوسية في العهد الرستمي ، وقد تركت آثارا تدل على ذلك حسبما يؤكد الباروني .

ومجمل القول ، إن الصناعة في العهد الرستمي رغم بساطتها أحيانا وبداوتها حينا[43] فانها كانت متماشية مع الزراعة والماشية مرتبطة بها في أغلب الأحيان ، تلبي حاجات السكان في كثير من جوانبها . فلم يكن الازدهار الصناعي اذن ، بأقل من الانتعاش الزراعي[44] . والحقيقة أن الصمت الذي التزمته المصادر المتوفرة لدينا كلها تقريبا ، عن هذا الجانب الحيوي في الاقتصاد ، لم يساعدنا على تلمس جميع معالم تلك الصناعة ، بل لقد أخفى علينا الكثير ، فلم نتمكن الا من اجلاء القليل وبطريقة لا تخلو من الاستنتاج والتخمين مادمنا نفتقر الى النصوص الصريحة[45] . ولعل

(42) ابن حوقل : ص 86 .

(43) يذكر الاستاذ توفيق المدني أن الصناعة الرستمية بلغت شأوا بعيدا في الاتقان . أنظر كتاب الجزائر ، ص 21 .

(44) فيلالي عبد العزيز : جوانب من العلاقات التجارية بين الرستميين والأمويين في الأندلس مجلة سرتا ، السنة الثانية ، عدد 3 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1400هـ/1980م ، ص 36 .

(45) لعل ما يذكر ابن خلدون عن المصانع التي اختطها اليسع بن أبي القاسم المدراري (174هـ ـ 208هـ) بسجلماسة ، والتي لم يحدد نوعيتها ، توجد مثيلاتها بتيهرت ، وهو أمر غير مستبعد ، بل ربما أكثر اذ ما بلغته الدولة الرستمية من حضارة أكبر بكثير مما بلغته دولة بني مدرار بسجلماسة . أنظر ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 268 .

البحوث والاكتشافات المستقبلية ستنفض الغبار عن جوانب هامة أخرى في الصناعة ، برز فيها الرستميون ، أو كانت لهم فيها مساهمتهم الفعالة .

﴿ الفصل الثالث ﴾

التجارة الداخلية

أ ـ أسواقها ، بضائعها ، نشاطها :

من البديهي القول ، إن لكل مدينة وقرية سوقا أو أسواقا ، فيه تعقد العمليات التجارية من كيل ووزن وخزن وبيع وشراء نقدا ومقايضة ، ولا يستبعد أن تكون المقايضة غالبة رغم وفرة السيولة النقدية المتقدة ، بوفرة الذهب والمعادن الأخرى في المغرب العربي ، وانما الدافع اليها ، في اعتقادنا تقدم الفترة الزمنية من جهة ، والطبيعة البدوية لسكان الدولة الرستمية من جهة أخرى .

ان دراسة سريعة لكتب الجغرافية ، وهي أهم المصادر الاقتصادية في التاريخ الاسلامي ، تعطينا فكرة شاملة عن أسواق المدن والقرى ، ولكن الغريب في الأمر ، أن اليعقوبي وهو الذي زار المنطقة في العهد الرستمي لا يذكر للمدن أسواقا فضلا عن القرى ، ولم يهتم بهذا الجانب الحيوي ، ربما لبداهة وضرورة وجود الأسواق في كل مكان . ففي تيهرت يذكر البكري عن الوراق أن بها أسواقا عامرة[1] بمختلف البضائع ـ وقد تحولت بعض الأسواق في الدولة الرستمية الى مدن بارزة ، لذلك نجدها تعرف بالأسواق كدينة سوق ابراهيم أو مدينة كرام[2] ، فلا شك أنها كانت أسواقا في بداية أمرها ، ثم تحولت شيئا فشيئا بفعل الاستقرار بها الى مدن معروفة مع الاحتفاظ بطابعها التجاري .

وكانت التجارة من أهم النشاطات الاقتصادية في الدولة الرستمية لذلك

(1) البكري : ص 68 .
(2) اليعقوبي : ص 104 ، البكري : ص 60 ـ 61 .

فلا غرابة اذا تحولت الأسواق الى مدن ، ربما كان من أنظمتها أنها تعقد بشكل مستمر ومتواصل ، بعكس الأسواق الأخرى التي تتبع النظام المؤقت أو الدوري[3] ، فتعقد في أيام معينة من الأسبوع ، أو في يوم واحد منه ، وهي الطريقة المتبعة الى يومنا هذا في المغرب العربي .

إن المعلومات القليلة التي يزودنا بها ابن الصغير في هذا الخصوص تعطينا فكرة ولو مختصرة عن التجارة الداخلية في تيهرت ، فلا شك أن العنصر الغريب في العاصمة الرستمية ، زاد النشاط التجاري الداخلي حيوية ، اذ أن الكثيرين منهم اتخذوا تيهرت مستقرا لهم ، ولم يقصدوها عابرين أو سائحين وانما « ليس أحد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لمايرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه... وامانه على نفسه وماله »[4] فانتقل اليها أهل الأموال من العراق والتجار من مصر وافريقية والمغرب ونفقت فيها السلع مع كونها كثيرة الخصب فعظمت بها الأموال كما يقول الشماخي[5] .

إن الاستقرار السياسي ، والامان على النفس والمال ، وحسن سيرة الحاكم ، في أي دولة تعتبر من أهم العوامل التي يطلبها كل تاجر يريد لتجارته الربح ، ولنفسه الاطمئنان ، وهي عوامل وفرها الرستميون لجميع من يؤم دولتهم ، فلا شك أن تيهرت هي صورة واضحة لما يمكن أن تكون عليه المدن والقرى التجارية الأخرى في البلاد ، مثل تنس ووهران ووارجلان ، ومدن جبل نفوسة ، وقراه ، خاصة منها مدينة جادو ذات الأسواق الكثيرة ، والجالية اليهودية[6] . ويبدو أن تجارة الأغنام في جادو

(3) الكماك : موجز : ص 177

(4) ابن الصغير : ص 15 ، 26 .

(5) الشماخي : سير ، ص 158 .

(6) البكري : ص 9 .

كانت نافقة ، تقصدها القرى المجاورة لها[7] . وإذا قصد تجار نفوسة العاصمة الرستمية تيهرت ، كان عليهم أن يقطعوا تسع مراحل ، وذلك مرورا بالقيروان[8] ، ومن هذه الأخيرة الى تيهرت مسيرة شهر على الابل[9] ، ومن المحتمل أن تكون التجارة بين جبل نفوسة وتيهرت كثيفة كثافة العلاقات السياسية بينهما[10] .

ومن الادلة البارزة على نشاط التجارة في الدولة الرستمية ، امتلاك شخص بمفرده لسوق . فابن وردة ، مقدم العجم ، ابتنى سوقا يعرف باسمه وكان صاحب الشرطة لا يدخله ولا يتخلله هيبة منه[11] كما أن المؤرخ ابن الصغيرنفسه ، كان من التجار يملك دكانا في الرهادنة يبيع فيه ويشتري[12] . وإن دل هذا على شيء فانما يدل على اهتمام الناس بالتجارة ، ليس العوام منهم فحسب بل حتى بعض مثقفيهم ومكفوفيهم اذ نجد أحد العميان من أهل نفوسة ، رغم آفته ، يشتغل بالتجارة[13] . ولا شك أن هذا الاهتمام راجع الى الأرباح التي تدره التجارة لوفرة البضائع وكثرة الانتاج .

ولعل من أبرز البضائع التي كانت تتبادل بين المدن وأسواقها في الدولة الرستمية ، بضائع الشمال ببضائع الجنوب والعكس صحيح . ويقوم بهذا الدور ، الرعاة والبدو من قبائل مزاتة وسدراتة وزناتة ولواتة وهوارة وغيرها من القبائل البربرية البترية التي تنتجع من أوطانها في شهور الربيع الى مدينة تيهرت وأحوازها[14] ، كما أنها ، وبدون شك تقصد أسواق المدن

(7) الشماخي : سير ، ص 334 .

(8) اليعقوبي : البلدان ، ص 99 ـ 100 .

(9) ابن خرداذبة : المسالك ، ص 88 ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص 79 .

(10) Despois J. : opcit, p. 289.

(11) ابن الصغير : ص 27 .

(12) نفسه ، ص 46 .

(13) الدرجيني : طبقات ، ج 2 ، ص 328 ، الشماخي : سير ، ص 264 .

(14) ابن الصغير : ص 17 وأنظر احسان عباس : المجتمع التاهرتي المجلة السابقة ص 25 يذكر الاصطخري أن زناتة كانت تستوطن ناحية تيهرت أنظر : المسالك والممالك ، ص 36 .

الشمالية الاخرى خاصة منها المحاذية للصحراء أو الواقعة في منطقة الاستبس ، وهي منطقة رعوية كما سبق أن رأينا . فتقع هنالك العمليات التجارة من بيع وشراء أو مقايضة .

ويستبدل البدو بضاعاتهم من الغنم والصوف والجلود والشحم والسمن والألبان المجففة والتمور المجلوبة من أسواق الواحات ، ببضائع العاصمة أو التل وتتمثل خاصة في الحبوب من قمح وشعير اضافة الى بعض المواد الضرورية ذات الاستعمال اليومي كالملح والسكر والزيت وغيرها . أو الاستعمال الموسمي كالعسل وبعض الفواكه ، أو ذات الاستعمال الضروري كالالبسة والأفرشة وبعض الأواني كما أنها تستفيد من البضائع المجلوبة من بلاد الأندلس والسودان أو مدن المغرب العربي والمشرق[15] .

ولا ريب أن هذه الحركة التجارية التي يقوم بها الرعاة في فصول معينة من السنة كانت تعود بنتائج هامة على الاقتصاد كما أن هذه القبائل كانت تبعث شيئا من الحيوية والنشاط في الأسواق حتى اذا انتهى موسم الرعي بدخول فصل الطقس البارد عادت تلك القبائل الى أوطانها[16] مثقلة ببضائع الشمال لتستعد من جديد لاعادة حركتها أو رحلتها السنوية . وتبقى المدن الشمالية تستفيد من بضائع الرعاة ربما عاما بأكمله أي الى حين عودتهم بعودة الربيع .

فاذا كانت تيهرت مقصد القبائل البدوية في فصول الربيع ، فانها بدون شك ، مقصد التجار من كل مدن المغربين الأوسط والأدنى لمركزها المتميز ولاستقطابها الحركة التجارية في البلاد ، وذلك بحكم كونها عاصمة للبلاد . فمن أسواقها يتزود بمختلف البضائع لنقلها سلعا الى أسواق المدن الأخرى .

(15) Marçais et Lamarre : Tihert, opcit, p. 30.

(16) احسان عباس : المجتمع التاهرتي المجلة السابقة ، ص 25 .

ويذكر الشيخ علي دبوز ، أن أسواق تيهرت كانت تعرف الاختصاص في البضائع ، فهناك سوق النحاس ، وسوق الأسلحة ، وسوق الصاغة ، وسوق الأقمشة وغيرها[17] ، وهذا غير مستبعد قياسا على عادة الصناع والتجار في معظم المدن العربية والاسلامية .

لقد كانت التجارة الداخلية في الدولة الرستمية نشيطة بنشاط الزراعة من جهة ، ومن جهة أخرى بنشاط التجارة الخارجية الواسعة التي سوف نراها . فما أنواع المكاييل والموازين التي كانت تستعمل في هذه التجارة ؟ وهل كان للرستميين عملتهم ؟

ب ـ المكاييل والنقود (العملة) :

لا نجد اهتماما لهذا الجانب الحيوي من الاقتصاد المغربي عامة والرستمي خاصة عند الجغرافيين مراجعنا الاساسية في الدراسة الاقتصادية لقد أهمله الجغرافيون جملة وتغافلوا عنه ، فلا نجد الا اشارات بسيطة كالتي ذكرها المقدسي عرضا أو البكري عندما يتطرق من حين لاخر الى مكاييل هذه المنطقة أو تلك ، وهي حالات نادرة جدا في كتابه كثيرا ما اعتمد فيها على معلومات محمد بن يوسف الوراق ، في كتابه المفقود ، ان لم تقل كلها .

1 ـ المكاييل :

أشار المقدسي الى مكاييل وموازين أهل المغرب ، فذكر أن أرطاله بغدادية[18] ربما يقصد من ذلك تسميتها ، لأن البكري ، عندما يتحدث عن مكاييل وأوزان تيهرت ، يذكر أن المد الذي يكتالون به القمح وغيره من الحبوب خمسة أقفزة ونصف قرطبية . أما قنطار الزيت وغيره فهو

(17) علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص 283 .

(18) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص 240 .

عندهم قنطاران غير ثلث ، بالوزن العادي ، أما رطل اللحم فهو بمثابة خمسة أرطال[19] بالمقارنة مع مكاييل قرطبة..

إن هذه المواد الضرورية ذات الاستعمال اليومي ، والتي تنتج أساسا في تيهرت وضواحيها ، يلاحظ أنها بخسة الثمن لوفرتها ، فهي لاتباع بالمكيال العادي وإنما بالزيادة أضعافا ، أما المواد الغذائية المستوردة أو المجلوبة بتعبير البكري[20] كالفلفل والبهارات والملح[21] وغيرها فانها تكتال بالمكيال العادي ، وهو قنطار عدل لا أكثر ولا أقل لأن المادة عزيزة ومطلوبة ولعلها لا تكون موجودة باستمرار في المدينة فكيلها يبقى ثابتا مثل المشرق لأنها أساسا جلبت من هناك ، خاصة منها التوابل .

ويزودنا البكري[22] أيضا بمكاييل تنس ، المدينة البحرية التي أسستها جماعة من الأندلسيين في العهد الرستمي ، واتخذوها مرفأ لانطلاق سفنهم التجارية الى بلادهم في العدوة ، فيذكر أن كيلهم كان يعرف باسم الصحفة وهي ثمانية وأربعون قادوساً ، والقادوس ثلاثة أمداد بمد النبي ﷺ . وبتعبير آخر يمكن أن نقول إن الصحفة الواحدة في مدينة تنس ، تحتوي مائة وأربعة وأربعين (144) مدّا بمد النبي ﷺ . ولما كان اللحم بالمدينة متوفرا أصبح الرطل منه بوزن سبع وستين أوقية في حين أن رطل سائر الأشياء الأخرى لا يتعدى الأثنين والعشرين أوقية .

ولا نعرف شيئا عن مكاييل شرق الدولة ، وان كنا لا نعتقد أنها تختلف كثيرا على المناطق الأخرى ، اذ المكاييل والأوزان من الأمور المتعارف عليها .

(19) البكري : المغرب ، ص 69 ، وأنظر كذلك : Canal J. : Tiaret (B.S.G.A.O.) opcit, p. 12 .
(20) البكري : ص 69 .
(21) Canal J. : ibid, p. 12
(22) البكري : ص 62 .

هناك اشارة الى مكيال أو وزن في جبل نفوسة ، ذكره الدرجيني عرضا عندما تحدث عن أبي معروف الضرير ، الذي كان له دكان اشتغل فيه بالبيع والشراء حينا من الدهر رغم آفة العمى لديه ، فهو اذا « وزن لأحد من الناس زاده من نفسه خروبة واذا أراد أن يأخذ لنفسه من أحد نقص خروبة »[23] احتياطا ومخافة اكل اموال الناس بالباطل . ان هذه «الخروبة» لا ريب أنها أدنى وزن يستعمل في تلك المنطقة ، ولا يستبعد أن يكون متداولا في باقي أجزاء البلاد .

ولعل من البديهي القول ، إن اختلاف المكاييل والموازين فيما بين المدن الرستمية ، وهواختلاف في الكم والعدد ، وليس الاسماء حسب الظاهر على الأقل ، انما راجع الى حرية التجارة ، وعدم تدخل السلطة لفرض تعامل معين مادامت كل منطقة لها نوع من الحكم الذاتي ، أو ما يشبه هذا القبيل . ثم ليس من الغريب أن تكون هذه البضاعة المتوفرة في هذا المكان تكال أو توزن باضعاف ما تكال به أو توزن في مكان آخر لا تتوفر فيه ، بل تستوردها استيرادا .

ولعل هذه الوضعية شجعت التجارة في الدولة الرستمية ، فعرفت بذلك نشاطها الاقتصادي الكبير ولم تكن المكاييل والموازين وحدها مختلفة من مدينة لأخرى في الدولة وانما نجد أيضا حتى العملة المتداولة آنذاك لم تعرف نوعا واحدا في جميع البلاد .

2 - النقود (العملة) :

قليلة هي الاشارات التي نعرفها عن العملة في الدولة الرستمية خاصة في تيهرت ، اذ لا تشير المصادر الى عملتها صراحة وانما يذكر ابن الصغير عدة

(23) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 328 ، الشماخي : سير ، ص 264 .

مرات الدينار والدرهم[*] ، مما يجعلنا نعتقد أنها العملتان الرئيسيتان في الدولة . ويقول متحدثا عن الامام يعقوب بن أفلح بأنه كان « بعيد الهمة نزيه النفس ماجس بيده دينارا ولا درهما »[24] . والحقيقة أن هاتين العملتين متداولتان في جميع أنحاء العالم الاسلامي آنذاك ، فلم يشذ الرستميون عن هذه القاعدة العامة ، فضربوا الذهب عملة وفي هذا الخصوص يقول الشاعر أبو اليقظان[25] في قصيدته « ذكرى الامامة الاباضية بالمغرب »[**] .

وَكَمْ ضَرَبُوا ذَهَبًا سِكَّةً   رَأَيْنَا لَهَا قِطْعَةً كَأَثَرْ

ويؤكد وجود العملة الرستمية الاستاذ عبد الرحمن الجيلالي[26] حيث يذكر أنهم ضربوها باسمهم ، ولكنه لا يضيف شيئا أكثر من ذلك بعكس أبي اليقظان[27] الذي أشار في هامش ديوانه الى مكان وجودها ، وقال بأنه رآها في متحف الخلدونية بتونس .

ويذكر الدكتور الحبيب الجنحاني المهتم بالقضايا الاقتصادية في بلاد المغرب ، وجود نقود رستمية عثر عليها[28] ، الا أنه لا يشير الى مكان العثور

(*) حدد عمر بن الخطاب (ض) وزن الدرهم الاسلامي وجعله 14 قيراطا أما الدينار الاسلامي فقد كان يساوي الدينار البيزنطي الا قليلا والبزنطي كان يساوي 4,25 غراما ذهبا أو بتعبير آخر الدينار الواحد يعادل عشرين درهما . أنظر موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 152 ـ 154 .

(24) ابن الصغير : ص 54 ، وأنظر ص 49 وأنظر الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 4 ، الدرجيني : ج1 ، ص 86 .

(25) أبو اليقظان ابراهيم : ديوان أبي اليقظان ، ط1 ، المطبعة العربية الجزائر ، 1350هـ ، ص 71 .

(**) نظم الشاعر ، وهو من القرارة ، احدى قرى وادي ميزاب الآهلة بالاباضية في الجزائر ، قصيدته بمناسبة رحلته في ربيع سنة 1348هـ/1929م الى تيهرت وزيارته لمعالم الامامة الرستمية هناك .

(26) الجيلالي : المرجع السابق ، ج1 ، ص 221 .

(27) أبو اليقظان ابراهيم : المرجع السابق ، ص 71 ، هامش 3 .

(28) الجنحاني الحبيب : المغرب الاسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية 3 ـ 4هـ/9 ـ 10م ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ، جوان 1977 ، ص 135 .

ولا الى تفاصيل ذلك ، بل يقول إن تلك النقود بحاجة الى اجراء دراسة عليها .

ويذكر كل من الدكتور محمود اسماعيل ، والباحث الفرنسي دانجيل أن الرستميين لم تعرف نقودهم ، ولم تكتشف ، فالأول يقول : « نفتقر الى وجود عملات رستمية كتلك التي خلفها بنو مدرار »[29] في حين أن الثاني يذكر أنه ليس هناك أي اشارة تدعو الى الاعتقاد بأن الرستميين ضربوا الذهب[30] فبالاضافة الى ما سبق أن ذكرناه عن ضرب العملة من طرف الرستميين ، هناك أدلة على وجود عملة رستمية لا يستبعد أن تكون دنانير ذهبية أو دراهم فضية فالاثريان الفرنسيان ، اللذان نقبا عن مخلفات الرستميين في منطقة عاصمتهم مارسيه ولامار[31] أكدا أن هناك مجموعة (Collection) من النقود الرستمية وجدت في موضع تيهرت ، وهي بحوزة الميسيو بيريز الابن (M. Perez fils) الذي ربما يكون هو الذي عثر عليها هناك .

ولا أستبعد أن يكون الرستميون قد ضربوا سكتهم الأولى منذ عهد الامام الأول عبد الرحمن بن رستم حيث يذكر الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب أن عبد الرحمن بن رستم سبق أن ضرب نقودا في القيروان عندما كان عاملا عليها (140هـ ـ 144هـ) من قبل الامام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني .

ويذكر أن هذه النقود محفوظة ، وهي عبارة عن فلوس من النحاس مكتوبة على وجه منها « ضرب هذا الفلس بافريقيا (كذا) » وعلى الوجه الأخر « سنة اثنين وأربعين ومائة »[32] . واستمر ضرب هذه الفلوس الى سنة

(29) محمود اسماعيل : المرجع السابق ، ص 206 ـ 207 .

(30) Dengel G. : opcit, p. 231, Note 4.

(31) Marçais G. Lamarre D. : opcit, p. 35, Note 29.

(32) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، القسم الاول ، مكتبة المنار ، تونس ، 1924 ، ص 425 ـ 426 .

144هـ أي الى قدوم القائد العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي الذي قضى على ثورة أبي الخطاب (أنظر الرسم) .

فلوس إباضية

القائم عبد الرحمن بن رستم

عدد 17

142 هـ - (759 م) (ح)



أ



ب

الوجه أ : ضرب هذا الفلس بافريقية **الوجه ب :** سنة ثنين وأربعين ومائة

العملة من النحاس قطرها : 21 ملم

المرجع : من منشورات البنك المركزي التونسي ، النقود العربية في تونس - طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس 1968 م ، ص 52 « علما بأن الصورة كبرت » .

والواقع أن المتدبر في تدفق الذهب السوداني على العاصمة الرستمية وهو ما سوف نشاهده ، يستبعد أن يكون الرستميون لم يضربوا نقودهم من الدنانير الذهبية[33] ، فضلا عن الدراهم الفضية ، مع ما كان لهم من سابقة في هذا المجال : سابقة ضرب الفلوس النحاسية بالقيروان... وليس أدل على هذا من الرخاء الاقتصادي والتجاري خاصة في تيهرت وباقي المدن الرستية .

ويذكر موريس لومبارد[34] أن ذهب السودان كان يتكدس في الحواضر الكبرى حيث كانت تضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية . وكان لتيهرت دورها البارز في تلك العمليات التجارية أيام الرستميين .

ان كل الدلائل تشير الى وجود مسبكة في تيهرت لضرب عملة اباضية وان لم نجد ذكرا صريحا لها في الكتب المتوفرة لدينا على الأقل ، بعكس مسبكة وارجلان في عهد الأدريسي الذي يخبرنا بأن اباضية تلك المدينة يضربون الذهب المجلوب من السودان باسم بلدهم[35] . فالذي يتبادر الى الذهن أن مسبكة وارجلان ، انما هي رد فعل وتعويض عن الخسارة التي مني بها الاباضية بسقوط تيهرت ، واضمحلال عملة الرستميين الاباضية بعد ردح من الزمن ، ربما بصهرها من طرف العبيديين ، الذين تغلبوا على معظم بلاد المغرب العربي ابتداء من سنة 296هـ ، واعادة ضربها عملة باسمهم والسياسة المالية للعبيديين في المغرب كانت شديدة على السكان ، دقيقة في جهازها ، بحيث لا يستبعد عنهم مثل هذا الاجراء ، لأنهم لم يغادروا المغرب العربي الا وهم مثقلون بذهبه وأمواله التي تمكنوا من جمعها

(33) Ben Romdhane Khaled : Les monnaies Almohades aspects idéologiques et économiques thèse de Doctorat 3ème cycle université de Paris, VII, 1978, p.139.

(34) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 156 .

(35) الأدريسي : ص 89 .

بمختلف الوسائل[36] ، واستطاعوا بها السيطرة على مصر وبناء عاصمتهم القاهرة . ولعل سبب الارتباك الذي نجده عند الباحثين والمؤرخين حول وجود عملة رستمية أو عدم وجودها ، راجع بالأساس الى اختفائها وانقراضها بالعملية المذكورة وبالتالي لم يبق منها الا قطع معدودات لا زالت بحاجة الى دراسة الى وقتنا هذا فلا شك أن وجودها في حوزات خاصة ، زادها غموضا واختفاء وهو ما يفسر بقاءها دون دراسة لحد الآن .

ومن المحتمل جدا أن تكون هذه العملة المضروبة بتيهرت ، هي أساس التعامل في جميع أقاليم الدولة ، وإن كان لدينا بعض المعلومات المقتضبة حول العملة المتداولة في مدينة تنس في زمان البكري[37] ، اذ يخبرنا أن العملة الجارية عند أهلها هي القيراط وربع الدرهم والصقل والحبتان ويقول بأنها مضروبة كلها ، علما بأن درهمهم يقدر بأثني عشر صقلية عددا ، ووزن قيراطهم ثلث درهم عادي بوزن قرطبة .

إن انخفاض سعر عملة تنس يدل على رخاء المدينة ، وانخفاض أسعار بضائعها خاصة للغريب من أهل الأندلس أو غيره من البلاد التي تكون عملتها مرتفعة ، فهو يجد ، بدون شك ، المدينة رخيصة . لهذا السبب على ما يبدو يذكر صاحب الاستبصار[38] رخاء أسعار مدينة تنس ويعجب بذلك مما يؤكد ماذهبنا اليه .

ومن المعلومات المتوفرة عن العملة في الدولة الرستمية ، تطالعنا كتب الاباضية بعملة تعرف عند أهل جزيرة جربة بالحندوس أو الحندس ، لأن

(36) الجنحاني : دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، كانون الثاني 1980 ، ص 68 ـ 70 .

(37) البكري : ص 62 ، اقبال موسى : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي (نشأتها وتطورها) ط1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1971 ، ص 75 .

(38) الاستبصار ، ص 133 .

هؤلاء ، كما تضيف نفس المصادر ، لم يعرفوا التعامل والتبايع بالذهب ربما لعدم انتشاره بينهم . وما زال الحندوس هو المعمول به في زمن الوسياني ، في القرن السادس الهجري ، حيث يقول بأن هذه العملة تعتبر عند الجربيين بمثابة الدراهم لا غير ، لأن الدراهم في أوزان الفضة ، وأما القيراط فهو في أوزان الذهب[39] وبالتالي فان الحندوس لا يكون الا عملة فضية إن لم تقل نحاسية لاقتراب اللفظين من بعضهما .

ان مجرد ذكر هذه المعلومات في الكتب الاباضية لا تدل الا على وفرة الذهب في غير جربة ، واتخاذه عملة الى جانب الفضة في العمليات التجارية ، وربما كانت العملة الرستمية الذهبية هي المتداولة في جبل نفوسة والمنطقة الشرقية من الدولة . وأما جربة فتضرب حندوسها .

ولعل الدراسات الأثرية سوف تزودنا بمعلومات أخرى وافية عن العملة الرستمية : نوعها ، وزنها ، تاريخها ومكان ضربها بالتفصيل .

(39) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 23 وأنظر كذلك الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 354 ـ 355 .

﴿ الفصـل الرابـع ﴾

التجارة الخارجية مع المغرب والمشرق العربيين

أ ـ المسالك التجارية بين تيهرت وغيرها من العواصم العربية في المغرب والمشرق .

إن من نافلة القول ، الاشارة الى أن الجغرافيين العرب اهتموا أول ما اهتموا بالمسالك أو الطرق الرابطة لمختلف المدن والقرى والعواصم والأقاليم في البلاد الاسلامية المترامية الأطراف . ولا أدل على ذلك من وضع بعض أولئك الجغرافيين عبارة « المسالك والممالك » عنوانا لمؤلفاتهم[1] .

والواقع أن أغلبهم كانوا يهدفون من وراء وضع كتبهم تلك الى انارة السبيل للحاج والسائح والتاجر . ومن هنا جاءت أهمية الكتب الجغرافية في دراسة المسالك ، وهي أهم وسيلة للاتصال بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .

يربط تيهرت بالقيروان ، عاصمة الأغالبة ، وأهم مركز تجاري في المغرب العربي[2] ، طريق يستغرق المسير فيه شهرا على الابل[3] ، ويذكر الاصطخري[4] ، أن المسافة بين تيهرت والقيروان تقدر بستة وثلاثين

(1) المسالك والممالك هو عنوان كتاب ابن خرداذبة المتوفي حوالي سنة 300هـ . وهو عنوان كتاب الاصطخري المتوفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وهو أيضا عنوان كتاب أبي عبيدالبكري المتوفي سنة 487هـ .

(2) Vanacker Claudette : opcit, p. 660

(3) ابن خرداذبة : المسالك ، ص 88 ، ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني : مختصر كتاب البلدان ، طبع بريل ، ليدن ، 1302هـ ، ص 79 .

(4) الاصطخري : المسالك ، ص 37 ، المرحلة هي يوم واحد .

مرحلة مرورا بمدينة سطيف التي تعتبر واسطة بين العاصمتين . ويؤكد المقدسي[5] الذي زار المنطقة ما سبقه اليه كل من ابن الفقيه وابن خرداذبة ، ويقول بأن المسافة بين العاصمتين ثلاثون مرحلة (ثلاثون يوما) : عشرون الى سطيف ومن هذه الى القيروان عشر مراحل[6] . وهنالك طريق آخر عبر الرمال والقرى يحدد المقدسي مسافته تارة بالايام واخرى بالمراحل ، وهو من تيهرت إلى قسطيلية ، إحدى مدن بلاد الجريد ، خمسة عشر يوما ومنها الى قفصة ثلاث مراحل ومن هذه الى القيروان سبع مراحل وبالتالي فان المسافة الاجمالية في هذا المسلك بين تيهرت والقيروان لا تتعدى خمسة وعشرين يوما أو مرحلة . ويذكر المقدسي[7] مسلكا ثالثا يبدو أنه اشتهر في القرن الرابع الهجري بحكم استعماله قبل ذلك ، يربط العاصمة الرستمية بالقيروان : وهو من تيهرت الى أشير الى المسيلة ثمانية أيام ، ومن هذه الى مجانة فالقيروان ستة أيام وهو أقصر طريق اذ لا تتعدى مسافته أربعة عشر يوما .

ويصف اليعقوبي[8] الذي قطع المسافة من القيروان الى تيهرت مسلكا من المسالك التي سبق أن ذكرناها ، دون أن يحدد مسافته ، ويبدو حسب وصفه أن به كثيرا من القرى والمنازل والضياع وكانت كلها عامرة .

أما الطريق التي تربط تيهرت بعاصمة الادارسة فاس فانها تقدر بخمسة وعشرين يوما الى مدينة تلمسان ومن هذه الى مدينة فاس أربعة وعشرون ليلة[9] ، وهي بالتالي حوالي خمسين يوما وهو ما أكده كل من الاصطخري

(5) المقدسي : ص 246 .

(6) يوافق البكري المقدسي في المسافة بين سطيف والقيروان ولكنه يجعل المسافة بين تيهرت والقيروان 19 مرحلة بدلا من عشرين . أنظر البكري : المغرب ، ص 76 ـ 78 .

(7) المقدسي : ص 247 .

(8) اليعقوبي : البلدان ، ص 102 ـ 104 .

(9) ابن خرداذبة : ص 88 ـ 89 ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص 80 .

والمقدسي[10] . الا أن هذا الأخير ، لا تتعدى عنده المسافة من تيهرت الى تلمسان سبعة أيام ، فهى من العاصمة الرستمية الى فكان خمس مراحل ومن هذه المدينة الى تلمسان مرحلتان[11] والطريق في غاية العمارة والزروع[12] .

وترتبط تيهرت بالعاصمة الصفرية سجلماسة ، بطريق يسلك بين القبلة والغرب نحو مدينة تعرف بأوزكا ، على بعد ثلاث مراحل من تيهرت ومن أوزكا مغربيا نحو سجلماسة سبع مراحل أو نحوها حسب الجد والتقصير في المسير فتلك اذن عشرة أيام تقريبا تسلك في قرى غير آهلة ، وبين أراض صحراوية قفراء[13] . الا أن الفرق الشاسع جدا بين ماذكره اليعقوبي ، وما أثبته الاصطخري جملة دون تفصيل،عندما قال « ومن تاهرت الى سجلماسة نحو خمسين مرحلة »[14] ، يبدو أنه يقصد هنا الطريق التي تعبر من خلال مدينة نكور ، في أقصى شمال المغرب الأقصى ، ومنها نزولا نحو سجلماسة ، وهذا هو الطريق الذي ذكره المقدسي[15] ويستغرق المسير فيه نحو خمسة وأربعين يوما مقسمة الى ثلاثين مرحلة تربط نكور بتيهرت ، ثم خمسة عشر مرحلة أخرى تربط سجلماسة بنكور . ويبدو أن التاجر التيهرتي لم يكن ليتخذ هذا المسلك الثاني لطوله الممل ، تاركا الطريق الأقرب ، خاصة اذا كان يقصد سجلماسة مباشرة دون غيرها من المدن .

إن المتدبر في هذه المسالك التي تربط العواصم المغربية ببعضها يتضح له جلياً أنها في الحقيقة مسلك واحد ينطلق من الشرق الى الغرب أو العكس مرورا بتيهرت . ومن هنا يبدو واضحا موقع تيهرت الهام باعتبارها واسطة

---

(10) الاصطخري : ص 37 ، المقدسي : 246 .

(11) للمقدسي : ص 247 .

(12) اليعقوبي : ص 107 ـ 108 ، ابن خرداذبة : ص 88 ، ابن الفقيه : المرجع السابق ، ص 80 .

(13) اليعقوبي : ص 109 .

(14) الاصطخري : ص 37 .

(15) أحسن التقاسيم ، ص 247

العقد ، تستفيد من القوافل التجارية المتوجهة من القيروان نحو فاس أو من هذه الاخيرة نحو القيروان فالمشرق العربي ، حتى ولو لم تكن تلك القوافل تقصدها بشكل مباشر ، فانه يتحتم عليها اتخاذ فترة من الراحة بتيهرت والاستقرار بها ، في منازلها العديدة ، ولا ننسى أن لها بابا يعرف بباب المنازل[16] ينزل به المسافرون من التجار والسياح على حد سواء .

أما اتصال تيهرت بالأندلس ، فيتم ذلك بركوب البحر ، وقد مر بنا أن تيهرت تنفذ الى البحر من ميناء تنس[17] ، وهو ميناء مهم جعله اليعقوبي في الأهمية بعد ميناء تونس بالمغرب الأدنى ، بل إن السفن التي تخرج من ذلك الميناء (تونس) تسير عشرة أيام مسحلة ، غير موغلة في البحر ، فاذا وصلت موضع ميناء تنس ، انطلقت منه الى الأندلس في يوم وليلة للوصول الى مدينة تدمير ، وهي أقرب المدن على الساحل الأندلسي[18] . وهكذا نلاحظ أن هذا الميناء الرئيسي في المغرب الأوسط يقوم بدورين رئيسيين في وقت واحد ، يستفيد منه كل من الرستميين والأغالبة . ولا شك أن السفن القادمة من افريقية أو المغرب الأدنى ، تتخذ منه آخر مرحلة لها بعد عشرة أيام من المسير على الساحل ، تتزود منه ، وتستعد للتوغل بعد ذلك في لجج البحر لمدة يوم وليلة . ويبدو أن هذا الدور ، قد لاحظه الاستاذ كلوديت فاناكر[19] فجعل مرسى تنس أهم وأكبر ميناء في المغرب العربي في عصر الرستميين للاتصال بالأندلس . وتبعد تيهرت عن هذا الميناء بحوالي أربعة أيام يربطها به مسلك يتخلل الحقول والأنهار[20] .

---

(16) البكري : ص 66 .

(17) تنس مدينة بناها البحريون من أهل الأندلس منهم الكركدني وأبو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم وذلك سنة 262هـ ويسكنها منهم أهل البيرة وأهل تدمير وهذه المدينة أقرب المرافيء الأندلسية الى تنس ، البكري ص 61 .

(18) اليعقوبي : ص 105 .

(19) أنظر خارطة رقم 5 Vanacker Claudette : Géographie, opcit, p. 669

(20) اليعقوبي : ص 105 .

ويذكر اليعقوبي ميناء آخر ترسو به « مراكب تاهرت يقال له مرسى فروخ »[21] ولكنه لا يحدد موضعه . ومما زاد الأمر غموضا أن هذا المرسى لا نجد له ذكرا عند الجغرافيين الآخرين ، اللهم الا اذا اعتبرنا مرسى عين فروج الذي يتحدث عنه البكري[22] أو مرسى فروج عند الادريسي[23] هو نفسه مع تغيير الاسم عبر الزمان ، وهو في الحقيقة تحريف بسيط لا يؤثر كثيرا حتى في التسمية ومما يجعلنا نعتقد أن مرسى فروج هو فروخ عند اليعقوبي ، وجوده في منطقة[24] يمكن لتيهرت أن تستفيد منه ، لقربه من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه مرسى كما يقول البكري[25] شتويٌ مأمون ، في حين أن مرسى تنس صيفي . وبهما معا يستطيع التجار في المغرب الأوسط الاتصال بنظرائهم من تجار الأندلس صيفا وشتاء .

وهناك مرسى ثالث بنى الأندلسيون[26] مدينته كما بنوا من قبل مدينة تنس ، وهو مرسى مدينة وهران . ولا شك أنه قد لعب دورا بارزا في ربط المغرب الأوسط بالأندلس ، مما دفع أولئك الأندلسيين الى تعمير المنطقة ببناء المدينة والاستقرار بها استقرارا كليا مثلها في ذلك مثل مدينة تنس ومرساها تماما . ان بناء مدينتي تنس ووهران البحريتين من طرف الأندلسيين في تلك الفترة بالذات ، لا يدل الا على النشاط الكبير الذي عرفته التجارة بين الدولة الرستمية في المغرب والدولة الأموية في الأندلس .

(21) اليعقوبي : 105 ويذكر هذا المرسى بهذا الاسم عماد الدين اسماعيل (صاحب حماة) : في كتابه تقويم البلدان ، تصحيح رينود وآخر ، طبع دار الطباعة السلطانية ، باريس ، 1840 ، ص 124 .

(22) البكري : ص 81 .

(23) الأدريسي : ص 72 .

(24) يذكر الاستاذ فيلالي عبد العزيز أن مرسى فروخ يقع في منطقة وهران ما بين مدينتي مستغانم وأرزيو ويسمى حاليا مرسى الدجاج ، أنظر مجلة سيرتا ، العدد 3 ، ص 35 ، هامش رقم 2 وأنظر كذلك : Marçais G. : La berberie, opcit, p. 57, note 70.

(25) البكري : المغرب ، ص 81 .

(26) بنى الأندلسيون مدينة وهران سنة 290هـ ومن الذين بنوها محمد بن أبي عون ، ومحمد بن عبدون وغيرهما وذلك باتفاق مع بربر المنطقة أنظر البكري ، ص 70 .

ويخبرنا ابن حوقل أن مرسى وهران في غاية السلامة والصون من كل ريح ويعتبر من أهم مراسي بلاد المغرب العربي[27] يقلع منه الى الأندلس في يوم وليلة[28] . ويقع الى الغرب من مرسى فروخ بنحو أربعين ميلا في البر كما أن هذا الأخير يبتعد عن مرسى تنس الواقع الى الشرق بأكثر من خمسة وثلاثين ميلا[29] . ويقابل تنس بعدوة الأندلس شنت بول وتدمير . أما مرسى فروخ فيقابله مرسى مدينة لورقة ، ومرفأ أشكوبرش ببر الأندلس يقابل مرسى وهران[30] .

ولا يستبعد أن يكون لجزيرة جربة دورها البحري . وان كانت معلوماتنا عن هذا الدور تكاد تكون منعدمة ، اللهم الا ما احتفظ لنا به البكري[31] عندما ذكر أن سفن جزيرة جربة تخرج الى مرسى الأندلسيين ويقول بأن في الجزيرة ذهبا كثيرا ربما استغل في عهد ما بعد الرستميين لأن المصادر لا تشير الى هذا الذهب اطلاقا . بل إن المورد الأساسي والوحيد للذهب في عهد الدولة الرستمية هو المجلوب من السودان الغربي وراء الصحراء الكبرى كما سوف نرى في الصفحات القادمة .

أما اتصال الدولة الرستمية بالمشرق العربي ، فانه يكون ابتداء من الحدود الشرقية للدولة . فالقوافل التي تأتي من بغداد أو البصرة أو غيرهما الى بلاد المغرب تمر بالانبار ، وهيت والرقة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والاسكندرية ومنها الى برقة[32] ، فحدود الدولة الرستمية . وربما تقصد القيروان عن طريق طرابلس ، وتمر عليها قبل أن تفد على أسواق تيهرت سالكة طريق

(27) ابن حوقل ، ص 77 ـ 78 .

(28) المقدسي : ص 229 .

(29) البكري : ص 81 ، الادريسي : ص 72 .

(30) البكري : ص 61 ، 81 .

(31) البكري : ص 85 .

(32) ابن خرداذبة : ص 72 ـ 85 وأنظر محمود اسماعيل : المرجع السابق ص 207 .

القيروان ـ تيهرت السالف الذكر خاصة اذا كانت لا تقصد سوقا بعينه ، وانما تستفيد من كل الأسواق التي تمر عليها في طريقها ، هدفها الربح المستمر ، فما دام هذا مغريا بقيت القافلة تنتقل من سوق لآخر .

والجدير بالذكر أن المسافة من بغداد الى القيروان تقدر بمائة وأربعين بعد ثلاثة آلاف ميل[33] . ومن القيروان عاصمة الأغالبة الى تيهرت ثلاثون يوما كما سبق أن ذكرنا .

إن الموقع المتميز لتيهرت جعلها نقطة وصل وملتقى للقوافل التجارية القادمة من مختلف الافاق ، فهي لا تقل شهرة عن المدن التجارية المغربية الكبرى ، وربما تفوقها في بعض الاحيان فموقعها المتوسط في بلاد المغرب العربي ، يسمح لها ربط القيروان بفاس ، وأن تتصل بسجلماسة في الجنوب وتقيم علاقات وطيدة سياسية وتجارية مع الأندلس ، كما أنها عرفت الاتصال المباشر ، وغير المباشر بواسطة القيروان ، بالمشرق العربي عامة .

وقد كان للرستميين دورهم البارز في انعاش التجارة والمساهمة فيها مساهمة فعالة ، اذ يخبرنا ابن الصغير عن اهتمام الأئمة بالمسالك فيقول « واستعملت السبل.... الى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة.... والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون »[34] ولم يتوقف الأمر هنا في مساهمة الرستميين في النشاط التجاري ، وانما كانت لهم قوافلهم الخاصة المتوجهة الى بلاد المشرق ، أو القادمة منها كالقافلة التي استتر فيها أبو اليقظان عندما أراد التوجه الى مكة بنية الحج[35] . أو القوافل التي قدمت من المشرق سنة 281هـ ، وكان في استقبالها ومراقبتها

(33) من بغداد الى مصر 1710 أميال . ومن الفسطاط الى القيروان 1430 ميلا . أنظر ابن خرداذبة : ص 83 ، 84 ـ 87 .

(34) ابن الصغير : سيرة ، ص 13 .

(35) ابن الصغير : ص 27 .

أبو حاتم بن أبي اليقظان ، أرسله أبوه الامام ، قبيل وفاته في هذه المهمة ، يقول ابن الصغير : « قد كان (أبو حاتم) أخرجه أبوه في جيش مع وجوه زناتة ليجوروا(*) قوافل قد أقبلت من المشرق وفيها أموال لا تحصى »[36] . الا أن ابن الصغير لم يساعدنا في تحديد المكان الذي قدمت منه ، ويكتفي بأنها قوافل وفدت من المشرق .

ويذكر الشماخي أن الامام عبد الوهاب كان « كثير المال ممن اتسعت عليه الدنيا . وسببه أنه كان في أيام أبيه... تاجرا... حاذقا بالتجارة »[37] ، لقد كان للأئمة الرستميين اذن ، دورهم البارز في انعاش إقتصاد المغرب الأوسط عامة والتجارة خاصة ، وهو ما سوف يمر علينا باستمرار في هذه الفصول .

وقبل أن نتطرق الى البضائع التي كانت متداولة في هذه التجارة الخارجية الواسعة النطاق ، لابد أن نشير الى طبيعة تلك المسالك التي سبق ذكرها . فالمقدسي يشير الى أن بلاد المغرب « بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك »[38] ولكن هذا لا أراه عاما على جميع سبل بلاد المغرب ، اذ أن منها ما يكون كثير القرى والمنازل ، عامرا ليس بخال مثل طريق القيروان ـ تيهرت ـ فاس[39] . وكانت القوافل تمشي في السهول ، وسفوح الجبال ، وعلى محاذاة الأنهار ، اضافة الى الصحاري في حالة ما اذا كانت تقصد سجلماسة . والحقيقة أن بلاد المغرب كان بلد زرع وضرع وقرى ومياه ، من المحتمل جدا أن تتخذ القوافل بعضا منها ، وفي مسافات محدودة معينة ، تتخذها نزلا أو منازل للراحة والاستعداد لطي

(*) ربما الصحيح هو يجيروا قوافل أي يؤمنوا قوافل ، لأن كلمة « يجوروا » من الجور لا تتسق مع معنى الكلام .

(36) نفسه ، ص 50 .

(37) الشماخي : سير ، ص 158 .

(38) المقدسي : ص 216 .

(39) اليعقوبي : ص 102 ـ 108 .

المراحل المتبقية ، ويرى الباحث الفرنسي دانجيل[40] . ان تلك المنازل لا يمكن أن تتعدى المسافة بين الواحدة والأخرى ثلاثين أو أربعين كيلو مترا بل ينبغي أن تكون أقل من هذا في المناطق الجبلية الوعرة . والجدير بالذكر أن تيهرت بموقعها المتوسط في بلاد المغرب ، جعلها منزلا يأوى اليها المسافرون والتجار ، لذلك خصصت بابا من أبوابها باسم باب المنازل[41] ولا شك أن ذلك كان لكثرة الذين يقصدونه أو يدخلون تيهرت منه .

ومن المعلوم أن تلك المسالك لم تكن دائما مأمونة ، اذ لا يستبعد وجود قطاع الطرق خاصة في فترة الأزمات السياسية والفتن[42] .

وقد مرّ بنا أن أبا حاتم أخرجه والده الامام مع وجوه زناتة ليجيروا قوافل محملة بأموال لا تحصى « خافوا (عليها) من قبائل زناتة »[43] فكانت الضرورة تقتضي أن يحرسها ابن الامام حتى تدخل أسوار المدينة بأمان وكذلك كان الحال أثناء فتنة التنافس على الحكم بين الامام أبي حاتم وعمه يعقوب ، الامر الذي دعا الاول عندما انتصر ، ورأى أن البلد قد فسد وفسد أهله ، الى تشريد السراق ، كما يقول ابن الصغير ، وقطاع الطرق ، وقطع شأفتهم فأمنت بذلك السبل وارتاح الناس[44] .

ويرى دانجيل ، أن المسالك التي سبق أن ذكرناها ووصفنا بعضها توافق في معظمها تلك التي كانت في العهد الروماني[45] ، الأمر الذي

(40) Dengel G. : opcit, p. 211-212

(41) البكري : ص 66 .

(42) يتحدث الدرجيني عن جماعة قطاع أغاروا على رفقة (قافلة) فاستباحوها جميعا وأخذوا منها رحلها وكان هذا في عهد أبي المنصور عامل تيهرت على جبل نفوسة في أواخر أيام حكم الرستميين واستطاع العامل أن يقبض على قطاع الطرق ويحبسهم . أنظر الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 321 ـ 322 .

(43) ابن الصغير : ص 50 .

(44) ابن الصغير : ص 57 .

(45) Dengel : Ibid, p. 212

لانشاطره فيه الرأي لسبب بسيط هو أن المدن التي تربطها تلك المسالك لم تكن موجودة في ذلك العهد وانما استحدثها المسلمون كالقيروان وسجلماسة وتيهرت وفاس وغيرها . وبالتالي فان المسالك هي الأخرى تكون في أغلبها مستحدثة . ثم إن الرومان في المغرب لم يكونوا يتحركون كثيرا ، وأغلب تحركاتهم كانت للقضاء على ثورات البربر ، لهذا فهم لم يهتموا بالمسالك ولا برسمها الا بالقدر الذي يؤمن لهم البقاء في البلاد لفترة أطول . فان كانوا قد رسموا مسالك فعلا في الشمال الافريقي ، فلا تتعدى أن تكون سبلا تربط أهم مستوطناتهم التي استحدثوها لتأمين وجودهم العسكري بالدرجة الأولى في البلاد . فالعرب المسلمون اذا كانوا قد استفادوا من المسالك التي خلفها الرومان ، فان ذلك لم يكن بالشكل الذي يتصوره دانجيل وأمثاله من المستشرقين الفرنسيين الذين يريدون أن يمنوا بالحضارة الرومانية على بلدان المغرب العربي ، وينفوا أي حضارة غيرها عرفتها البلاد ، بل إن الحقيقة والصواب ، هو أن المغرب كله لم يعرف نشاطاً تجاريا مكثفا وحركة دائمة مستمرة تستدعي استحداث السبل وتحسينها في عصر من العصور ، مثلما عرفه في العهد الاسلامي الأول وبعده .

هذه هي المسالك التي كانت تربط الدولة الرستمية بغيرها من الدول في المغرب والمشرق والأندلس ، وكانت بمثابة شرايين حية لنقل بضائع المغرب الأوسط خاصة الى مختلف الافاق ، ونقل مختلف بضائع تلك الافاق الى الدولة الرستمية ومراكزها الاقتصادية . فما مظاهر تلك التجارة ؟ وما نوع بضاعتها ؟

ب ـ الصادرات والواردات :

لا نشك في أن الحركة التجارية في الدولة الرستمية كانت كبيرة جدا وأن التبادل كان ضخما ، بحيث أن بضائع تيهرت المتنوعة تتجه نحو مختلف الآفاق . وبضائع المغرب والمشرق تفد باستمرار على أسواق البلاد .

ويشير ابن الصغير ، وهو التاجر المهتم بالحركة التجارية في بلاده الى تنوع البضائع ونشاط التجارة فيقول بأنه وفدت على البلاد « الرفاق والوفود من كل الامصار والآفاق بأنواع التجارات »[46] ، الا أنه لم يحدد أسماء تلك التجارات أو السلع ، كما أنه لم يساعدنا في معرفة مصادر تلك البضائع وتركها عامة على كل الامصار والآفاق المعروفة في زمانه طبعا ، وهي بالدرجة الأولى العالم الاسلامي المتمثل في المغرب والمشرق العربيين .

أما بضائع المغرب ، التي يتم بها التبادل التجاري بين دول المغرب العربي آنذاك ، فان عدم تمكننا من فرز بضائع هذه الدولة عن تلك في المغرب العربي ، جعلنا نحتمل ونتحفظ ، أن تكون بضائع الدولة الرستمية هي البضائع المغربية بصفة عامة مع شيء من الاختلاف . لقد مر بنا أن بلاد الدولة الرستمية اشتهرت بحبوبها وماشيتها ، اذ كثيرا ما عرفت هاتان البضاعتان طريقهما الى الأندلس خاصة ، وبعض المدن المغربية ، فالاغنام كانت تجلب منها « الى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها »[47] . كما كانت الحبوب تنفذ من مرافيء المغرب الأوسط الى المدن الأندلسية باستمرار ، الأمر الذي دفع الاستاذ بروفنصال الى القول إن « الخليفة الأموي عبد الرحمن الثاني دعم علاقات الصداقة بينه وبين أئمة تاهرت ، رغم الاختلاف المذهبي ، لضمان تموين رعاياه »[48] بالحبوب .

وكانت البضائع المغربية بصفة عامة تتمثل عند الاصطخري في « اللبود المغربية والبغال للسرج والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسفن والحرير والسمور »[49] ويضيف ابن حوقل الى بضائع الاصطخرى بضائع

(46) ابن الصغير : ص 26 .

(47) الاستبصار : ص 179 .

(48) الجنحاني الحبيب : تاهرت عاصمة الدولة الرستمية بنفس المجلة المذكورة والعدد ، ص 38 وأنظر كذلك Provençal E. Levi : Histoire de l'espagne, T. III, opcit, p. 271-272

(49) الاصطخري : ص 37 .

أخرى مثل « ... الأكسية الصوف الرفيعة والدنيئة الى جباب الصوف وما يعمل منه الانطاع والحديد والرصاص والزئبق... و....الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفره والابل والغنم.... من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص... و...الاطعمة والأغذية والاشربة واللحمان والأدهان و...جيد الفواكه والتمور والأرطاب... و...الجمال الكثيرة[50] .

ومن البضائع التي يذكرها المقدسي لافريقية « .... الفستق والزعفران واللوز والبرقوق والمزاود والانطاع والقرب »[51] .

إن هذه القوائم من البضائع المغربية ، كانت تتبادل بين العواصم في المغرب العربي ، يستورد منها تجار الدولة الرستمية ما تفتقر اليه أسواقهم ويصدرون منها ما يفيض على حاجة السكان . فكان التكامل الاقتصادي هو السائد بين دول المغرب[52] . والتجار يقومون بهذا الدور النشيط بين مدن المغرب راكبين « أحمرة مصرية وبغالا »[53] لا شك أنهم جلبوها من مصر مادامت منسوبة اليها .

ومادمت قد اقتحمت التبادل التجاري في العهد الرستمي مع المشرق انطلاقا من مصر ، نشير الى أن تجارة البلاد في عهد الرستميين مع المشرق كانت منذ البداية نشيطة ، فلا ريب أن القوافل التي بعثها اباضية البصرة الى تيهرت كساعدات منهم للامامة الرستمية[54] في مواجهة صعاب أوضاع التأسيس الأولى ، كانت حافزا للقوافل التجارية المشرقية المختلفة فيما بعد ، لذلك نجد المشارقة من بصريين وكوفيين يسكنون العاصمة الرستمية . وانتقل

(50) ابن حوقل : ص 97 ـ 98 .

(51) المقدسي : ص 239 .

(52) الجنحاني الحبيب : العلاقات السياسية والاقتصادية بين افريقية والمغرب الأوسط فيما بين القرن الثاني والخامس للهجرة . محاضرة رقم 46 من محاضرات الملتقى 12 للفكر الاسلامي بباتنة ، الجزائر ص 9 .

(53) المقدسي : ص 239 .

(54) ابن الصغير : ص 10 ـ 13 .

اليها أهل الأموال والتجار من مصر أيضا[55] . ولا يستبعد أن يكون هؤلاء المشارقة في اتصال مستمر بالمشرق ، لجلب البضائع التي يرون ازدياد الطلب عليها في الدولة ، أو إرسال قوافل محملة ببضائع البلاد الى المشرق .

ومن وسائل الاتصال بالمشرق العربي ، موسم الحج ، الذي كان المغاربة من أكثر المسلمين تدفقا على الحجاز لأداء الفريضة ، وكانوا يتحركون نحو تلك البلاد في قوافل[56] يستغرق ذهابها وايابها شهورا عديدة . وليس بخاف على أحد ، الدور التجاري الكبير الذي يلعبه موسم الحج ، فهو اضافة الى دوره الديني ، يقوم فيه الحجاج بالتبادل التجاري ، اذ يجدون هناك مختلف البضائع ، جلبتها معهم مختلف اجناس الحجاج ، كل من موطنه وكانت الاحجار الثمينة رائجة هناك[57] ، فموسم الحج يعتبر معرضا ضخما يقوم كل عام مرة ، يربط أجزاء الوطن الاسلامي ببعضه البعض .

ولا أدل على اتساع التعامل التجاري بين الدولة الرستمية والمشرق من تلك القوافل التي « أقبلت من المشرق وفيها أموال لا تحصى »[58] اقتضت الضرورة لأهميتها أن يستقبلها ابن الامام على مسيرة يومين من العاصمة ويحرسها من قطاع الطرق ، ولكن ابن الصغير الذي ذكر هذه الرواية لم يساعدنا كعادته في معرفة بضائع تلك القوافل المحملة بالأموال التي لا تحصى مما فتح لنا مجالا للتخمين اذ نعتقد أنها كانت بضائع ثمينة غالية مثل التوابل وبعض العطور والجوهرات وغيرها من المواد التي تزهو بها أسواق بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط ، وهي في الغالب بضائع كالية خفيفة الوزن غالية الثمن .

---

(55) الشماخي : سير ، ص 158 .

(56) ابن الصغير : ص 27 .

(57) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 281 .

(58) ابن الصغير : ص 50 .

ومن مظاهر التبادل التجاري بين الرستميين والمشارقة ، خاصة منهم اباضية البصرة ، ما كان بين أئمة الاباضية أنفسهم ، حيث يروي لنا ابن سلام أن الامام عبد الوهاب بعث الى الامام الربيع بن حبيب بـاثني عشر ألف درهم أو دينار اشترى بها الربيع جهازا من البصرة وبعث بها الى أخيه في تيهرت فجمع عبد الوهاب تجار العاصمة فقال لهم « اشتروا جهاز هذا المشرقي واشتروا له (به) حوائجه عندنا بالعجلة وأخرجوه عنا لكي لا يعلم منا تقصيرا في أمورنا فاشتروا منه وقضوا حوائجه في ثمانية أيام وأنصرف »[59] .

إن هذه الرواية التي تساهم بها المصادر الاباضية في كشف الغطاء عن مظاهر النشاط الاقتصادي للدولة الرستمية ، تشرح بوضوح مدى اهتمام أئمة الاباضية بالتجارة والتجار ، ومدى الارتباط المتين بالمشرق رغم بعد المسافة وصعوبة المسالك ، كما أنها تشير الى كثرة التجار بتيهرت ودورهم في الحياة الاقتصادية ، الا أن هذه الرواية كغيرها لم تحدد ماهية الجهاز أو نوعية السلعة .

ولعل أبرز بضاعة كانت الدولة الرستمية تستوردها من المشرق ، هي الكتب لكثرة قرائها وعلمائها ، فالمصادر الاباضية تروي عن الامام عبد الوهاب أنه « بعث ألف دينار الى اخوانه من أهل المشرق بالبصرة... ليشتروا له بها الكتب . فلما وصلهم الالف ، اجتمعوا واتفقوا أن يشتروا بها رقا ويدفعون من أنفسهم احبر والأقلام وعولة الكتاب فأخذوا في النسخ فنسخوا له أربعين حملا من كتب ، فبعثوا بها اليه »[60] . إن هذه الرواية رغم طابعها الفكري المتميز نلاحظ منها جانبها الاقتصادي البارز ، ومدى

---

(59) ابن سلام : شرائع الدين (مخطوط) ورقة 36 وأنظر الشماخي : سير ص 161 الباروني عبد الله : سلم العامة والمبتدئين ، ص 30 هامش رقم 2 ، يذكر هذا الاخير بدل الجهاز السلعة دون أن يحدد نوعيتها .

(60) أبو زكرياء : سير ، ص 65 وأنظر: الدرجيني : طبقات ، ج 1 ، ص 56 ـ 57 حيث يقول بأنهم اشتروا له بالالف ورقا وتطوعوا بالمداد واجرة النساخ... ولعل الورق أضبط من الرق لأن بغداد في هذه الفترة (بداية القرن الثالث الهجري) كانت تنتج كية ضخمة منه وكذلك الأندلس على أكبر تقدير .

العلاقة التجارية والفكرية القوية بالمشرق عامة وبالبصرة خاصة ، وهي علاقة بقيت دائما مستمرة نظرا لارتباط الاباضية أصلا بالبصرة ولادامتهم هذا الارتباط روحيا وفكريا ومن ثم اقتصاديا .

ومن مظاهر النشاط التجاري في الدولة الرستمية ، مشاركة مختلف الاجناس فيه حيث أن ابن خرداذبة يخبرنا عن حركة اليهود الراذانية (*) التجارية الطويلة المدى ، مع العلم أن بتيهرت درب يعرف بالرهادنة ذكره ابن الصغير[61] الذي كان له به دكان ، فالراذانية « يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف يركبون من فرنجة في البحر الغربي... ويحملون تجارتهم على الظهور »[62] فمازالوا ينتقلون بها من سوق لاخر في الشرق والغرب والشمال والجنوب حتى يرجعوا الى المغرب إذا اقتضت فائدة التجارة ذلك .

ولم يكن هؤلاء الراذانية من الاجانب المساهمين في التجارة الخارجية للدولة الرستمية وحدهم وانما هناك تجار الروس (*) الذين يخرجون من الأندلس أو بلاد الفرنجة فيعبرون الى السوس الأقصى ثم ينتقلون الى افريقية بعد أن يدخلوا تيهرت لوجودها عبر المسلك الرئيسي الرابط أقصى المغرب بأدناه ، ثم من افريقية يتوجهون نحو المشرق ابتداء من بوابة مصر فالرملة ثم دمشق ثم الكوفة فبغداد . ومن العاصمة العباسية يتوجهون الى البصرة مركز اباضية المشرق ، ومنها الى الشرق الأقصى[63] . وهكذا

(*) الراذانية هم اليهود الذين يتكلمون العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلية ولا شك أن اللفظ راذانية له علاقة بالرهادنة إن لم يكن هو نفسه لان كليهما يهود . أما الروس فجنس من الصقالبة يتخذون الخدم ترجمانا لهم . أنظر ابن خرداذبة : ص 153 ـ 154 .

(61) ابن الصغير : سير ، ص 46 .

(62) ابن خرداذبة : المسالك ، 153 ـ 154 .

(63) ابن خرداذبة : ص 154 ـ 155 .

يكررون مسلكهم وحركتهم باستمرار مثلهم في ذلك مثل سابقيهم من اليهود الراذانية جريا وراء الربح والإتجار .

إن وجود تجار أغنياء من أصل مشرقي أو يهودي أو مسيحي في تيهرت لا يدل الا على العلاقة التجارية الواسعة للمغرب الأوسط في عهد الرستميين مع المشرق من جهة ، ومع الأندلس من جهة أخرى[64] ، بل مع جزء من أوروبا المسيحية كبلاد الفرنجة التي يذكرها ابن خرداذبة في النص السالف الذكر وليس كما يعتقد الباحث دانجيل من أن العلاقات الرستمية الاوروبية باستثناء الأندلس في نظره ، منعدمة[65] ، وإن كان الذي يقوم بها غير اباضيين بعكس ما يشترطه دانجيل الذي نشاطره الرأي من جهة أخرى فيما ذهب اليه من أن التجار الاباضية لم يقتحموا ميدان أوروبا وانما تركوه لاغالبة القيروان على حد تعبيره .

لقد كانت المبادلات التجارية بين الرستميين والأمويين في الأندلس واسعة جدا لاحتياج كل دولة للأخرى ، اذ اضافة الى ما سبق أن أشرنا اليه فقد كانت الدولة الرستمية بمثابة جسر يوصل حكام قرطبة وتجارها بالمشرق لا سيما في الوقت الذي أغلقت أمامهم الطرق المؤدية الى كل من افريقية شرقا والمغرب الأقصى غربا بقيام دولة الأغالبة الموالية للعباسيين ، ودولة الأدارسة العلوية المعادية للأمويين . لهذا فقد توثقت العلاقة التجارية جنبا الى جنب مع العلاقة السياسية المتينة بين قرطبة وتيهرت ، وتمكنا من دفع العدو المشترك ومحاربته والصمود أمامه[66] . وبسبب هذا ، فقد لعبت تيهرت ومرافئها دور الوسيط (ترانزيت) بين الأندلس من جهة ، ودول المغرب العربي من جهة ثانية ، لا شك أن الرستميين استفادوا

(64) Laroui Abd. : opcit, p. 104

(65) Dengel G. : opcit, p. 213-214

(66) فيلالي عبد العزيز : مجلة سرتا ، عدد 3 ، ص 35 .

من ذلك فائدة عظمى ، الى درجة أن بابا من أبواب تيهرت كان يعرف باسم باب الأندلس ويقع على ما يبدو في الجهة الشمالية للمدينة[67] بحيث يستقبل القوافل التجارية القادمة من الأندلس ، أو المتجهة اليه .

ومن مظاهر الترابط التجاري القوي بين المغرب الأوسط والأندلس ما سبق أن رأيناه من مساهمة الأندلسيين في بناء بعض المرافيء[68] على طول ساحل المغرب الأوسط ، والاستقرار بها خدمة للتبادل بين البلدين .

ولاشك أن الرستميين كانوا يستوردون من الأندلس دون غيره من البلاد بحكم العلاقة الحسنة ، ما يحتاجون اليه لتوفره هناك[69] خاصة المواد الزراعية الصناعية ، اذ لا يستبعد أن تكون تيهرت تجلب من الأندلس قصب السكر الذي كان يزرع بكيات كبيرة ، والكتان والقطن الجيد وربما حتى الزيوت التي تملك منها الأندلس فائضا كبيرا غالبا ما تصدره الى الخارج . ولما كانت الدولة الأموية مشهورة بصناعتها النسيجية والحريرية فلا يستبعد أن يكون التجار في الدولة الرستمية يستوردون منها ما يحتاجون اليه من كل تلك البضائع ، اضافة الى مصنوعات الركن الجنوبي الشرقي من الأندلس ، أكثر الجهات تقدما في الصناعة ، واهم مدنه مدينة المرية التي تعتبر من أنشط الموانيء الأندلسية في الحركة التجارية مع العالم الاسلامي بشطرية الشرقي والغربي[70] .

---

(67) البكري : ص 66 وأنظر Marçais et Lamarre : opcit, p. 32

(68) من الواضح أن مرافيء المغرب الأوسط كان لها الدور الأكبر في التجارة مع الأندلس على الاطلاق وكانت تيهرت وقرطبة في اتصال مستمر لتبادل البضائع ، يستشف هذا من بلدان اليعقوبي الذي زار المنطقة وسلك مسالكها حيث يلاحظ أنه لما تحدث عن تيهرت قطع حديثه عن المغرب وتحدث عن مرسى فروخ التيهرتي ثم انطلق في ذكر بلاد الأندلس ولما انتهى منها ، عاد مرة ثانية الى وصف تيهرت وباقي بلاد المغرب الأقصى منه خاصة ، وهذا يدل على أن الأندلس كان أشد ارتباطا بالمغرب بواسطة مرافيء تيهرت ، هذا على الأقل في عهد الرستميين أنظر البلدان ، ص 104 - 107 .

(69) الكعاك : موجز ، ص 178 .

(70) فيلالي عبد العزيز : مجلة سرتا ، عدد 3 ، ص 38 وأنظر : Provençal E. Levi : La vie économique, opcit p. 5-13

ولما كانت الحياة الفكرية في الدولة الرستمية مزدهرة ، كما سوف نرى وكان فيها العلماء والمؤلفون والنساخ ، فالمفروض أن يكون الورق متوفرا في الدولة لغرض الكتابة ، الأمر الذي يجعلنا نحتمل أن التجار التيهرتيين وغيرهم كانوا يستوردون هذه المادة من مدينة شاطبة التي تصنع الجيد منه[71] ، ونقول هذا من باب التخمين لأن مصادرنا لا تذكر شيئا عن الورق في الدولة الرستمية ، ونستبعد بالتالي وجود صناعة له في تيهرت أو غيرها من المدن الرستمية البارزة .

وكان الناس يستخدمون العبيد الصقالبة كما يشير الى ذلك ابن الصغير[72] والشماخي[73] مما يحتمل أن يكونوا قد جلبوا من الأندلس . ويبدو أن هذا النوع من الرقيق لا يستقر في أسواق تيهرت وانما يعبر منها الى المشرق .

ان هذه القائمة الطويلة من البضائع الأندلسية المستوردة تعوضها قائمة من البضائع الرستمية ، منها الحبوب والماشية أهم مادتين تنتجها البلاد[74] اضافة الى بضاعتين لعبت بتجارتها الدولة الرستمية دورا بارزا ، هما الذهب والعبيد السودانيين . وقد استطاعت تيهرت أن تستورد بالذهب وحده كل ما هي بحاجة اليه من منتجات الشرق والغرب[75] ، لذلك اشتهرت بصفتها التجارية ، ورواج أسواقها في الآفاق .

ولقد استفاد الأندلسيون من هذه التجارة ، اضافة الى باقي الدول الاسلامية في المغرب والمشرق ، فما مسالكها الى السودان ؟ وما دور الرستميين فيها ؟ وما مظاهرها ؟

---

(71) Provençal E. Levi : Ibid, p. 15

(72) ابن الصغير : تاريخ ، ص 43 .

(73) الشماخي : سير ، ص 242 .

(74) Vanacker Claudette : opcit, p. 676

(75) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 160 .

﴿ الفصـل الخامـس ﴾

التجارة الخارجية مع السودان الغربي

أ ـ ممالك السودان :

كان العرب أول من أطلق كلمة « السودان » على الشعوب السوداء التي تسكن وراء الصحراء الكبرى . وأطلقوا على تلـــك البـلاد اسم « بـلاد السودان »[1] ، والراجح أن الكلمة مستوحاة من لون بشرة تلك الأقوام .

والسودان في الواقع تسمية عامة ، لـذلـك اصطلح على تقسيمه الى ثلاث مناطق بثلاثة أسماء :

1 ـ **السودان الشرقي :** وهو يشمل مناطق النيل وروافده ، جنوب بلاد النوبة وربما أطلق عليه في فترة متأخرة بلاد الزنج ، ولكن كلمة السودان كانت تلازمه .

2 ـ **السودان الأوسط :** ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد .

3 ـ **السودان الغربي :** ويشمل كل ماعدا ذلك غربا الى المحيط الأطلسي مثل النيجر الأوسط وفولتا العليا وغمبيا وحوض السنغال[2] .

---

(1) كل الكتب الجغرافية القديمة تستخدم هذه الكلمة ، أنظر اليعقوبي ص 111 ، الاصطخري : ص 34 وغيرها . وأنظر دائرة المعارف الاسلامية : مادة « السودان » م12 ، ص 327 ، 334 ، 347 .

(2) زبادية عبد القادر : مملكة سنغاي في عهد الأسقيين الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 ، ص 15 .

والذي يهمنا في بحثنا هذا ، هو السودان الأوسط والغربي ، اللذان يشكلان معا منطقة موازية لبلاد المغرب بأقسامه الثلاثة : الأدنى والأوسط والأقصى ، وتفصل بينهما الصحراء الكبرى .

إن اقتحام السودان بعبور الصحراء ، يرجع تاريخه الى وقت سابق لحكم الرستميين ، اذ يزودنا ابن عبد الحكم بمعلومات قيمة عن حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، أحد قواد عبيد الله بن الحبحاب (116هـ ـ 123هـ) الذي نظم غارة على السودان سنة 116هـ ، استطاع أن يظفر « بهم ظفرا لم ير مثله وأصاب ماشاء من ذهب »[3] . ويعزو البكري[4] بناء بئر على بعد مرحلة من تامدلت على الطريق المؤدية الى مدينة أودغست ، جنوب سجلماسة لعبد الرحمن بن حبيب أمير افريقية (127هـ ـ 137هـ) وقبل هذا في سنة 46هـ ، كان عقبة بن نافع الفهري قد اقتحم الصحراء ووصل الى فزان ومنها الى كوار القريبة من كانم في بلاد السودان ، ورجع منتصرا الى القيروان بعد أن غنم عددا كبيرا من العبيد السودانيين[5] ويفهم من هنا أن ذهب وعبيد السودان كان معروفا[6] قبل تأسيس الدولة الرستمية سنة 160هـ ، وان كان رواج تجارتها لم يتحقق الا بعد أن استقرت أوضاع المغرب العربي بتأسيس دوله المستقلة .

وفي عهد الرستميين كانت تقوم في بلاد السودان الغربي والأوسط أكثر من دولة : منها دولة غانة وورام في السودان الغربي ، ونخلة في السودان

---

(3) ابن عبد الحكم : المرجع السابق ، ص 94 ، وأنظر القيرواني الرقيق تاريخ افريقية والمغرب ، ص 108 .

(4) البكري : ص 156 ـ 157 .

(5) ابن عبد الحكم : المرجع السابق ، ص 51 ـ 53 ، البكري : ص 12 ـ 14 ، وأنظر بوفيل ـ أي دبليو : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، ترجمة د. زاهر رياض الطبعة الحديثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1968 ، ص 79 .

Lewicki T. : l'Etat Nord Africain... opcit, p. 535 (6)

Vanacker Claudette : Géographie opcit, p. 665-667

الأوسط ذكرها المسعودي عن الفزاري صاحب كتاب « الزيج والقصيدة في هيئة النجوم والفلك » ، وهو كتاب لم يصلنا[7] . وكان الفزاري معاصر لادريس الأول (172هـ ـ 177هـ) ملك الأدارسة مما يضفي أهمية كبرى على معلوماته حول السودان ، لمعاصرتها تاريخ الدولة الرستمية وكانت غانة امبراطورية كبيرة تتوسط دولة ورام في الغرب منها ودولة نخلة الى الشرق (أنظر الخريطة) . ويبدو أن ابن الصغير[8] عندما يتحدث عن استعمال السبل الى بلد السودان ، انما يقصد بذلك دولة غانا في السودان الغربي لأهميتها ، ثم لأنه ذكر هذا في عهد الامام الأول عبد الرحمن بن رستم مما يؤكد اهتمام الرستميين بالتجارة مع السودان منذ وقت مبكر جدا .

والحقيقة أن الممالك التي ذكرها الفزاري في نهاية القرن الثاني الهجري لم يعد ذكرها اليعقوبي في نهاية القرن الثالث الهجري ، مما يوحي بوقوع تغير في بلاد السودان . فالى جانب مملكة غانة التي ذكرها الفزاري والتي يعتبرها اليعقوبي أيضا عظيمة وبها معدن الذهب كما يقول ، يذكر مملكة أخرى باسم مملكة الكوكو ويقول عنها بأنها « أعظم ممالك السودان وأجلها قدرا وأعظمها أمرا »[9]، والحقيقة أن « كوكو » نجد ذكرها في المصادر الجغرافية المعتمدة كلها[10] بالاضافة الى المصادر الاباضية[11] التي تذكر الكلمة

(7) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسن بن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج2 ، ط4 ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت 1401هـ/1981م ، ص 222 ـ 223 . ويطلق على غانة بلاد الذهب .

(8) ابن الصغير : ص 13 .

(9) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب : تاريخ اليعقوبي ، ج1 ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1379هـ/1960م ، ص 193 ـ 194 . ويذكر ، كورنيفا (R. Cornevin) أن معلومات اليعقوبي المتوفرة من بلاد السودان رغم عدم اقتصامه لتلك البلاد تعزى الى زيارته لتيهرت اذ أن تجارها أفادوه من هذه الناحية . أنظر : Dengel G. : opcit, p. 216 note 3

(10) ابن حوقل : ص 92 ، البكري : ص 183 ، الادريسي : ص 11 ، الاستبصار : ص 225 ، ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم رحلة ابن بطوطة ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت 1384هـ/1964م ، ص 680 .

(11) الوسياني : سير (مخطوط) ، ورقة 39 ، الدرجيني : ج2 ، ص 320 ، ويذكر هذه البلاد أيضا العالم الاباضي الوارجلاني أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم (500هـ ـ 570هـ) وكان من التجار في زمانه مع بلاد السودان . أنظر كتابه : الدليل والبرهان لأهل العقول ج3 ، سبق ذكره ، ص 216 .

نقلا عن كتاب موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ترجمة : عبد الرحمن حميدة ، ص 285 «بتصرف طفيف» .



توغل تجارة الخوارج نحو الصحراء الكبرى والسودان

توغل تجارة الخوارج نحو الساحل

باسم « جوجو » ، وقد حاول المستشرق البولندي لويسكي أن يجد توافقا بين هاتين الكلمتين وكلمة جاوو (gao) وهي أقدم مركز سياسي لقبيلة سنغاي السودانية على نهر النيجر ، وتوصل في النهاية الى أنها هي لا غير[12] وكان ملك كوكو في العهد الرستمي قويا ، بحيث هيمن على جميع الممالك المجاورة لمدينته ، ويذكر اليعقوبي[13] منها ثمانية تابعة بالاسم لملك غانا من الصعب تحديد مواقعها بالضبط .

لقد كانت اذن في السودان الغربي مملكتان كبيرتان معاصرتان للرستميين هما مملكة غانا ومملكة كوكو أو جوجو . أما في السودان الأوسط فتنتصب مملكة نخلة جنوب بحيرة تشاد ، والتي لا نعرف عنها شيئا ذا أهمية كل ما نعرفه أن في شمالها تقع بلاد كانم القريبة من مدينة كوار التي تربطها ببلاد المغرب طريق شرقي يعتبر أقصر طريق الى بلاد السودان كما سوف نرى في الصفحات الآتية :

ب ـ مسالك التجارة مع السودان :

ترتبط الدولة الرستمية بالممالك السودانية المذكورة ، بواسطة مسالك أربعة . نقطة انطلاق اثنين منها العاصمة تيهرت ، أما الاثنان الآخران فينطلقان من جبل نفوسة في شرق الدولة ، الا أن المسلكين الأولين هما الأساسيان .

والحقيقة أن ماترويه المصادر الاباضية من ارادة أفلح بن عبد الوهاب قبل أن يتولى الامامة الذهاب الى السودان بقصد التجارة ومنع أبيه له[14] وقد ترتبت عنه نتيجة سلبية ، وهي أنه كان من الممكن أن نعرف احدى

(12) Lewicki T. : l'Etat Nord Africain, opcit, p. 518-524.

(13) اليعقوبي : تاريخ ، ج1 ، ص 194 .

(14) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 39 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 320 ، الشماخي : سير ، ص 222 .

تلك المسالك الأربعة معرفة تفصيلية في مراحلها ومخاطرها وعدد افرادها وظروفها اذ لا يمكن أن تغفل المصادر الاباضية جانبا على هذا القدر من الأهمية لأمير رستمي بل امام اباضي يعتبر من أبرز أئمة الدولة الرستمية .

وسنحاول مع ذلك ، بقدر المستطاع ، تتبع مسار تلك السبل ، الواحدة تلو الأخرى معتمدين خاصة على الكتب الجغرافية المتوفرة .

المسلك الأول : تيهرت ـ سجلماسة ـ أودغست ـ غانا .

ينطلق هذا المسلك من تيهرت الى سجلماسة أولى مراحله ، وقد سبق أن ذكرناه وقلنا أن المسير فيه يستغرق عشرة أيام تعتبر مدينة أوزكا[15] مرحلة متوسطة بين العاصمتين المغربيتين . وتعتبر سجلماسة نقطة انطلاق حقيقية لعدد كبير من القوافل عبر الصحراء الى بلاد السودان .لذلك يعتبرها البكري مدخلا لبلاد غانا[16] . ولأهمية الدور الذي لعبته سجلماسة في هذه التجارة ، يبدو أن عبد الرحمن بن رستم ، مراعاة لهذا الجانب ، وطد علاقته بأمراء بني مدرار الصفرية ، رغم الاختلاف المذهبي بينهما ، وقدم ابنته أروى زوجة لمدرار بن اليسع[17] ، حتى يقترب من الأسرة الحاكمة أكثر ماداموا يسيطرون على نقطة هامة في مسلك هام من مسالك التجارة مع السودان . فعلاقة المصاهرة بين الأسرتين الحاكمتين ، بامكانها أن تسهل للرستميين دخول سجلماسة احدى المداخل الضرورية في الطريق نحو غانا أو كوكو .

وعندما تغادر القافلة التجارية سجلماسة ، نحو الجنوب ، تتوغل في الصحراء مقدار خمسين يوما لتصل الى قوم يقال لهم أنبية وهم بربر من

(15) اليعقوبي : البلدان ، ص 109 ، أوزكا هي أزقي أو أزكى عند الجغرافيين الذين جاؤوا بعد اليعقوبي ، أنظر مثلا : الادريسي : وصف ، ص 37 ، وغيره .

(16) البكري : ص 149 .

(17) البكري : ص 150 ، ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 268 .

قبيلة صنهاجة الملثمين[18] يذكر الفزاري دولة عظيمة لهم تتوسط سجلماسة وغانا[19] وبعد إجتياز بلاد أنبية تصل القافلة الى بلد يقال له «غسط» وهو واد عامر فيه المنازل ، وفيه ملك... لا دين له ولا شريعة ، يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة »[20] . وغسط التي يتحدث عنها اليعقوبي في القرن الثالث الهجري انما هي أودغست عند الجغرافيين الاخرين المتأخرين عن اليعقوبي وكانت مملكة بربرية معروفة ، زعيمها رجل من صنهاجة ، يذكر البكري أنه دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان ، كلهم يؤدون اليه الجزية . وقد لعبت أودغست دور المركز التجاري الهام الذي يبعد مسيرة خمسة عشر يوما عن مدينة غانة[21] . وكان ملك أودغست يخالط ملك غانة « أيسر من على وجه الأرض... بما لديه من الأموال والمدخرة من البشر »[22] . ولا يزودنا اليعقوبي بالمسافة التي تفصل أودغست عن بلد أنبية ، الشيء الذي نجده عند ابن حوقل الذي يقدر المسافة بين سجلماسة وأودغست بمسيرة شهرين[23] وبالتالي فان ما يفصل أنبية عن أودغست لا يتجاوز عشرة أيام ، مادامت مسيرة خمسين يوما تفصل سجلماسة عن أنبية[24] ، على حد قول اليعقوبي السالف الذكر . ولما كانت أودغست من أقرب البلاد الى غانا ، ظهر في سكانها الغنى ، حتى أن ابن حوقل يذكر ، باعجاب كبير ، صكا رآه بها قيمته تقدر باثنين وأربعين ألف دينار ، وكان حقا لبعضهم على رجل من تجار أودغست ، أصله من

(18) اليعقوبي : البلدان ، ص 111 .

(19) المسعودي : ج2 ، ص 223 .

(20) اليعقوبي : البلدان ، ص 111 .

(21) البكري ، ص 159 ، 168 .

(22) ابن حوقل : ص 101 .

(23) ابن حوقل : ص 92 .

(24) يذكر البكري الطريق بين سجلماسة وأودغست ويقدره باحدى وخمسين مرحلة (يوما) الا أنه يذكر مدينة تامدلت التي تبعد عن سجلماسة مسيرة احدى عشر يوما ولا يرد لأنبية ذكرا عنده ، ويذكر ماء باسم تندفس على بعد تسعة أيام من سجلماسة ربما هي ، كما يقول ذالجيل تندوف أقصى مدينة في وسط غرب صحراء الجزائر اليوم . أنظر البكري : ص 156 ـ 159 .

سجلماسة ومن فرط اعجابه بهذا الصك الثمين ، الذي يقول بأنه لم ير ولم يسمع شبيها له بالمشرق ، حكى ما رآه لأهل العراق وفارس وخراسان فاستظرفوه[25] .

واذا كان هذا الرجل من أهل سجلماسة ، فلا يستبعد أن يكون لتيهرت من التجار نظيره ، خاصة اذا علمنا أن كثيرا من الاباضية ، كانوا يقصدونها ، اذ يذكر البكري سكان أودغست فيقول « وسكانها أهل افريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة . هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الأمصار »[26] ، علما بأن أغلب هذه القبائل كانت اباضية في العهد الرستمي كما يقول الباحث الجزائري الشيخ المهدي البوعبدلي[27] مما يوحي أن أودغست كانت مركزا تجاريا هاما يؤمه الرستميون وتجارهم من الاباضية بكثرة .

ولما كانت غانة ، هي مصدر الذهب خصها البكزي بالوصف ، فقال إنها كانت مدينتين سهليتين ، احداهما يسكنها المسلمون وهي كبيرة ، فيها اثنا عشر مسجدا ، والأخرى مدينة الملك على بعد ستة أميال من الأولى وتسمى الغابة ، وبينهما عمارات متصلة . وبعد أن وصف أهلها وبعض عاداتهم تطرق الى الملك وقصره ، وكثرة الذهب في بلاده حيث أنه « اذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك وانما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون ، والندرة تكون من أوقية الى رطل »[28]

(25) ابن حوقل : ص 99 ، Gerard D. : opcit, p. 219 .

(26) البكري : المغرب ، ص 158 .

(27) البوعبدلي المهدي : لمحات من دور الدولة الرستمية في ميادين الحضارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين ، مجلة الأصالة عدد 41 ، مطبعة البعث ، قسنطينة 1397هـ/1977م ، ص 204 . ويتحدث البكري عن تاجر باسم « أبي رستم النفوسي » من تجار أودغست : المغرب ، ص 159 .

(28) البكري : ص 174 ـ 177 . وذكر ياقوت الحموي أن غانة مدينة كبيرة جنوب بلاد المغرب يجتمع اليها التجار ومنها يدخل في المفازات الى بلاد التبر ولولاها لتعذر ذلك . الحموي : معجم البلدان ، ج4 ، ص 184 .

وإذا أرادت القوافل التوجه الى كوكو (جوجو) ، انطلاقا من غانة سارت مشرقة في طريق معمورة بالسودان . وبعد أربعة أيام من المسير ، تصل الى موقع يقال له رأس الماء ، بالقرب من تمبكتو حاليا ، ومنها بعد ستة أيام على النيل ، وهو نهر النيجر ، مدينة تيرقي التي تبدو هامة ، اذ يجتمع في سوقها تجار غانة وتادمكة . ويصل تجار تادمكة من الطريق الثاني الذي سنصف مراحله . وبعد ثلاثة أيام أخرى من المسير على نهر النيجر ، تدخل القافلة بلاد سغمارة ، وهم قبيل من البربر ، يحاذيهم من الشط الثاني مدينة كوكو[29] ، بحيث ينبغي على من يريد دخول المدينة ركوب النهر ، وهو ماقام به ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري[30] . ويبدو أن تجار المغرب الأقصى وخاصة منهم السجلماسيون هم أكثر الذين يتخذون هذا الطريق القريب منهم للوصول الى بلاد كوكو . أما التجار الرستميون ، فانهم اذا كانوا لا يستغنون عن هذا الطريق الغربي الذي جئنا بوصفه قبل قليل ، فانما ذلك ، على ما يبدو ، للوصول الى غانة الهدف الأخير ، لا الى مدينة كوكو التي لها مسلك ينطلق من العاصمة تيهرت عبر مواطن القبائل الاباضية الى مدينة وارجلان ثم السودان .

المسلك الثاني : تيهرت ـ وارجلان ـ تادمكة ـ كوكو :

ينطلق هذا المسلك مثل الأول من تيهرت الى وارجلان . والواقع أننا لا نعرف المراحل المختلفة التي تربط تيهرت بوارجلان ، لكننا لا نستبعد أن يكون هذا المسلك يمر بواحة وادي ريغ (تقرت حاليا) الآهلة بالاباضية ، والتي كثيرا ما يرد ذكرها في المصادر الاباضية ، كما سبق أن أشرنا . ولا تذكر عنها الكتب الجغرافية شيئا . ولا شك أن شهرة وادي ريغ عند الاباضية ، اكتسبها من توسطه المسافة بين العاصمة تيهرت ووراجلان . فهو

(29) البكري : ص 180 ـ 181 وأنظر : Lewicki T. : l'Etat Nord Africain, opcit, p. 530 .

(30) ابن بطوطة : رحلة ، ث 694 ـ 695 .

بذلك يعتبر مركزا من مراكز التجارة مع السودان ، ومرحلة من مراحلها الاساسية كما يعتقد المستشرق لويسكي[31] ، اذ لا يمكن أن تنطلق القوافل من العاصمة عبر الصحاري دون أن يكون لها فترة راحة قبل الوصول الى وراجلان ، لان المسلك طويل وشاق جدا . ويبدو أن الخارج من تيهرت يتوجه نحو موطن بني برزال الاباضية[32] وهو الموضع الذي بنى فيه العبيديون عاصمتهم « المسيلة » فيما بعد ، ربما لأهميته ، ودوره في تجارة الذهب والعبيد مع السودان ، خاصة اذا علمنا أن العبيديين استغلوا هذه التجارة أيما استغلال وغادروا المغرب الى مصر مثقلين بالذهب[33] .

أما المسافة التي تفصل تيهرت عن المسيلة فيقدرها ابن حوقل[34] بستة أيام ، أما الادريسي ، فيذكر أن مسيرة اثني عشر يوما تفصل مدينة المسيلة عن وارجلان[35] ، مرورا بوادي ريغ على أكبر تقدير .

واذا كان التيهرتيون يأخذون هذا المسلك القريب منهم للوصول الى وارجلان ثم كوكو ، فان تجارة المنطقة الشرقية للدولة ، اضافة الى أهل القيروان ، يلتقون في بلاد الجريد ، حيث مدينة قسطيلية بالجنوب التونسي والمسافة بين جبل نفوسة وقسطيلية ستة أيام في حين أن سبعة أيام تفصل بلاد الجريد عن القيروان[36] . ومن قسطيلية الى وارجلان مسيرة أربعة عشر يوما[37] . ونشير هنا أن خطا يربط وارجلان بسجلماسة بوابة الصحراء على المسلك الغربي ، الا أننا لا نعرف عنه سوى أن عبيد الله الشيعي قد سلكه في نهاية القرن الثالث الهجري ، عندما

(31) Lewicki T. : Ibid, p. 532, Dengel G. : opcit, p. 221

(32) اليعقوبي : البلدان ، ص 103 ، ابن خلدون : العبر ، ص 111 .

(33) الجنحاني الحبيب : دراسات مغربية ، سبق ذكره ، ص 68 .

(34) ابن حوقل : ص 86 .

(35) الادريسي : ص 90 .

(36) البكري : ص 182 ، الاستبصار : ص 224 .

(37) البكري : ص 182 ، الاستبصار : ص 224 .

توجه الى سجلماسة . والحقيقة أن هذا المسلك ذكرته المصادر الاباضية[38] عند تطرقها الى ظهور الشيعة بالمغرب العربي .

إن مدينة وارجلان المركز الرئيسي في المسلك الثاني ، للتوجه الى السودان حيث بلاد كوكو ، تعتبر كسجلماسة تماما على الطريق الغربي ، بوابة ضرورية لاقتحام الصحراء . وقد احتفظت وارجلان بهذا الدور البارز الى القرن التاسع الهجري في عهد ابن خلدون الذي يقول عنها « وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر... الى المفازة الصحراوية المفضية الى بلاد السودان ، يسلكها التجار الداخلون اليها بالبضائع »[39] ومنها يتوغل في الصحراء نحو مدينة تادمكة ومن هذه الى كوكو .

ولأهمية مركز وارجلان في التجارة العابرة للصحراء ، يصف لنا الادريسي المدينة ويقول بأن فيها « قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية اباضية »[40]

لقد كان هذا في القرن السادس الهجري ، في زمان الادريسي ولا شك أن المدينة اكتسبت هذا الدور الاقتصادي منذ العهد الرستمي ، الذي يعتبر أزهى عصور المغرب الأوسط في التجارة مع السودان . ولا يستبعد أن يكون دورها هذا هو الذي أغرى العبيديين ، فحاصروها عندما لجأ اليها آخر الأئمة الرستميين يعقوب بن أفلح ، بعد سقوط دولتهم . وقد فشل الحصار كما نعلم[41] ، وبقيت الاباضية بوارجلان ، يمارسون نشاطهم التجاري مع السودان دون انقطاع .

(38) أبو زكرياء : سير ، ص 109 الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 92 .
(39) ابن خلدون : العبر ، ج7 ، ص 107 وأنظر كذلك ابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ، ص 126 .
(40) الادريسي : وصف ، ص 89 .
(41) أبو زكرياء : سير ، ص 113 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 95 ـ 96 .

ومن مدينة وارجلان تنطلق القوافل موغلة في القفار والمفازات ، عبر الصحراء الكبرى ، تسير خمسين يوما الى مدينة تادمكة ، وموقعها اليوم كما يقول لويسكي في منطقة تعرف باسم خرائب السوق[42] . ويصف لنا البكري هذه المدينة ويقول « وتادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة ومعنى تادمكة هيأة مكة وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو وأهل تادمكة بربر مسلمون ، وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء ، وعيشهم من اللحم واللبن... ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة »[43] . وعند مغادرة تادمكة جنوبا ، وبعد مسيرة تسعة أيام ، تدخل القوافل التيهرتية وغيرها مدينة كوكو[44] ، بعد أن تكون قد مرت بوارجلان أهم مركز تجاري اباضي في الصحراء . وقد وصف ياقوت الحموي مدينة كوكو معتمدا على المهلبي الذي قال : « كوكو من الاقليم الأول... وملكهم يظاهر رعيته بالاسلام وأكثرهم يظاهر به وله مدينة على النيل (نهر النيجر) اسمها سرناة بها أسواق ومتاجر والسفر اليها من كل بلد متصل... وله في مدينته قصر... ومملكته أعمر من مملكة زغاوة... وبيوت أموال الملك واسعة وأكثرها الملح »[45] ، لأن الملح بضاعة أساسية به يجلب الذهب من السودان .

وهكذا نلاحظ ، بعد أن تتبعنا مراحل مسلكين أساسيين الى بلاد السودان ، وصفنا بعض المراكز الهامة فيهما ، أن المسلك الأول يستغرق فترة أطول ، بحيث يدوم المسير فيه خمسة وثمانين يوما ، بينما المسلك الثاني لا

(42) البكري : ص 182 ، الاستبصار : ص 224 . وأنظر كذلك : Lewicki T.: opcit, p. 533-534 وتوهم الباحث دانجيل أن المسافة بين القيروان وتادمكة خمسين يوما اذ فهم نص البكري خطأ عندما طرح من الخمسين عشرين يوما وهي للمسافة بين القيروان ووارجلان . وانتهى توهما الى أن المسافة بين وارجلان وتادمكة هي ثلاثون يوما فقط . والصواب ما ذكرناه . أنظر : Dengel G.: opcit, p. 222 .
(43) البكري : ص 181 .
(44) نفسه : ص 183 .
(45) الحموي : معجم البلدان ، ج4 ، ص 495 .

يتعدى شهرين وأسبوعا واحدا ، من المحتمل أن يكون هو المسلك الذي كان يتخذه التجار التيهرتيون بكثرة .

وتتصل المناطق الشرقية من الدولة الرستمية ببلاد السودان ، بواسطة مسلكين يربطها أولها ببلاد كوكو في السودان الغربي ، وينتهي ثانيها الى الكانم في السودان الأوسط .

المسلك الثالث : جبل نفوسة ـ غدامس ـ تادمكة ـ كوكو .

ينطلق هذا المسلك من مدينة شروس عاصمة جبل نفوسة ، في اتجاه مدينة غدامس ، ويبدو أن هذا الطريق لم يندثر ، واليه أشار الاستاذ ج. ديسبوا (Despois J.) في كتابه جبل نفوسة ، وذكر أنه يعرف الى يومنا هذا باسم « طريق السودان »[46] ، لا شك أن التسمية ترق في جذورها الى وقت أقدم بكثير ـ ومسافة سبعة أيام في الصحراء تفصل جبل نفوسة عن غدامس ، وهي مدينة لطيفة كثيرة النخل والمياه[47] ، تطرق الى ذكرها ابن خلدون وقال بأن موقعها جعلها « محطا لركاب الحاج من السودان وقفل التجار الى مصر والاسكندرية عند اراحتهم من قطع المفازة ذات الرمال المعترضة أمام طريقهم دون الأرياف والتلول ، وبابا لولوج تلك المفازة والحاج والتجر في مرجعهم »[48] وانطلاقا من غدامس مغربا يتصل هذا المسلك بالطريق الثاني الذي سبق أن ذكرناه ـ تيهرت كوكو أو جوجو في مرحلة من المراحل ما بين وارجلان وتادمكة ويواصل جنوبا في نفس المسلك وتفصل مسافة أربعين يوما مدينة غدامس عن تادمكة . ومن هذه الى كوكو بلاد السودان تسعة أيام كما نعلم . ويذكر البكري طريقا

(46) Despois J. : opcit, p. 289-290

(47) البكري : ص 182 .

(48) ابن خلدون : العبر ، ج 7 ، ص 122 .

آخر من غدامس الى تادمكة ولكنه غير واضح وغير دقيق المراحل[49] . ولا يستبعد أن يكون أهل جبل نفوسة الذين ذكرهم البكري[50] في مدينة أودغست ، قد أخذوا هذا الطريق الى كوكو ومنه الى غانة ، بعد عبور نهر النيجر ، ومنها صعدا نحو أودغست .

إن هذا الطريق الذي يستغرق المسير فيه أقل من شهرين للوصول الى بلاد السودان انطلاقا من جبل نفوسة ، حاضرة شرق الدولة الرستمية يوازيه مسلك أقصر ولكنه ينتهي الى منطقة الكانم إحدى مناطق السودان الأوسط .

المسلك الرابع : جبل نفوسة ـ زويلة ـ كوار بالكانم .

ان القوافل التجارية التي تخرج من جادو ، إحدى المدن الأساسية في جبل نفوسة ، تتجه جنوبا نحو زويلة ، أول حد بلاد السودان في ثلاثة عشر يوما[51] ، وأهلها « قوم مسلمون أباضية كلهم... يخرجون الرقيق السودان... وهم يسبونهم » أو يشترونهم من ملوك السودان من غير شيء ولا حرب كما يذكر ذلك اليعقوبي[52] . ويبدو حسب وصف البكري لهذا الطريق ، أنه شاق يمر خلال الجبال والصحاري التي قد لا يوجد فيها مياه لأيام معدودات[53] . ومن مدينة زويلة التي يقصدها مختلف التجار من أهل خراسان والبصرة والكوفة ، الى مدينة كوار مسيرة خمسة عشر يوما . وتقع كوار في اقليم كانم من بلاد السودان شمال بحيرة تشاد ، يسكنها « قوم من المسلمين من سائر الأحياء ، أكثرهم بربر يأتون بالسودان[54] . وهكذا

(49) البكري : ص 182 ـ 183 .

(50) نفسه : ص 158 .

(51) البكري : ص 10 .

(52) اليعقوبي : ص 98 .

(53) البكري : ص 10 .

(54) اليعقوبي : البلدان ، ص 98 يذكر البكري أن المسافة بين زويلة وبلد كانم تقدر بأربعين يوما ويفهم من هنا أن مسافة خمسة وعشرين يوما تفصل مدينة كوار ، عن كانم ، أنظر البكري : ص 11 .

يتضح لنا ان هذا الطريق هو أقرب المسالك الى بلاد السودان ، لا يستغرق المسير فيه أكثر من شهر واحد . ولكن يبدو أنه خاص بتجارة العبيد دون الذهب . فلا شك أنه كان المصدر الأساسي للعبيد السودانيين المجلوبين الى المناطق الشرقية من الدولة الرستمية اضافة الى القيروان ، ومن هذه المناطق يؤخذ الى مصر فالمشرق العربي كله[55] .

هذه هي اذن المسالك الأربعة ، التي تربط بلاد المغرب العربي بالسودان الغربي والأوسط ، حاولنا ، قدر المستطاع تبسيطها حتى تسهل على الفهم ، اعتمدنا في ذكرها المصادر الجغرافية المتوفرة ، وان كان جزء مهم منها ألف بعد زوال الرستميين الا أن هذا لا يؤثر كثيرا في الموضوع ، اذ المسالك ليست من الأمور التي تتغير بسرعة ، وبقي لنا أن نعرف أحوال السفر فيها ومصاعبه ثم نتطرق بعد ذلك الى البضائع المختلفة التي هي أساس هذه التجارة العابرة للصحراء .

جـ - مصاعب التجارة العابرة للصحراء وظروفها :

يذكر الاصطخري ، أن المسلك عبر الصحراء صعب ، والاستعداد له شاق جدا[56] ، فبالاضافة الى الصعوبات التي سبق أن أشرنا اليها بين ثنايا مبحث المسالك ، فان منها ما يرجع خاصة الى طبيعة الصحراء القاسية ، وقلة وفرة الماء فيها[57] ، الا أن هذه الصعوبة يمكن تجاوزها بقطع تلك القفار في فصل الشتاء أو الخريف ، وهو ما أشار اليه كل من ابن حوقل والادريسي[58] ، اذ البرودة والرطوبة من شأنها تلطيف قساوة تلك المفاوز والصحاري ، عندئذ يصبح فقدان الماء أقل خطورة ، خاصة اذا كانت

(55) الاستبصار : ص 146 .

(56) الاصطخري : ص 34 ، المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص 243 .

(57) لقد هم عقبة بن نافع الفهري وجنوده بالهلاك عطشا عندما توغلوا في الصحراء ووصلوا الى كوار لولا وجودهم لنبع ماء أغاثهم . أنظر ابن عبد الحكم : فتوح ، ص 52 - 53 ، البكري : المغرب ، ص 14 .

(58) ابن حوقل : ص 103 ، الادريسي : ص 18 .

السنة مطيرة ، الأمر الذي يبعث الكلأ ويكون المستنقعات . ولتجنب خطورة فقدان الماء ، ربما يلجأ المسافرون التجار ، الى حفر آبار لا يتعدى عمقها نصف قامة في بعض المناطق التي تكون فيها المياه الجوفية قريبة من السطح . والحقيقة أن سر هذه المعرفة ، تحتفظ بها بعض القبائل دون غيرها[59] ، كما أن لقبيلة مسوفة مثلا « المعرفة بأوضاع البر وأشكاله ، والهداية فيه والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة »[60]

وهكذا يبدو واضحا خطورة قطع الصحراء ، وبالتالي فان التجار جندوا كل شيء لضمان نجاح رحلاتهم ، وأكتسبت بعض القبائل من ذلك خبرة خاصة .

ومن الاحتياطات التي كان التجار يتخذونها لعبور الصحراء الكبرى ما يرويه لنا الادريسي عندما يقول « وصفة السير بها أنهم يوقرون أجمالهم السحر الأخير ، ويمشون الى أن تطلع الشمس ويكثر نورها في الجو ويشتد الحر على الأرض فيحطون أحمالهم ويقيدون أجمالهم... ويخيون على أنفسهم ظلالا تكنهم من حر الهجير وسموم القائلة ويقيمون كذلك الى أول وقت العصر وحين تأخذ الشمس في الميل والانحطاط في جهة المغرب يرحلون من هناك ويمشون بقية يومهم ويصلون المشي الى وقت العتمة ويعرسون أين وصلوا ويبيتون بقية ليلهم الى وقت الفجر الأخير ثم يرحلون وهكذا سفر التجار الداخلين الى بلاد السودان على هذا الترتيب لا يفارقونه »[61] .

ان هذا الوصف الدقيق الذي أفادنا به الادريسي مهم جدا في معرفة الخطوات التي كانت القوافل تتخذها ، وهو وصف يبين بشكل واضح ما

(59) الادريسي : ص 11 .

(60) ابن حوقل : ص 101 ، ويذكر ابن بطوطة أنه اكترى دليلا من مسوفة ليسافر معه الى مالي بالسودان أنظر رحلته ، ص 678 .

(61) الادريسي : ص 18 . وهناك وصف آخر قريب من هذا لمشاق عبور الصحراء ذكره ياقوت الحموي : أنظر : معجم البلدان ، ج2 ، ص 12 .

يلاقيه التاجر مع السودان من تعب ونصب في قطع الصحراء الكبرى ، وهو أمر ليس بالهين . والنص واضح في تقسيم فترات الحركة والمسير عن فترات الراحة والتوقف .

بالاضافة الى ما قيل في هذا الجانب ، فان على التاجر أن يكون حذرا من هوام الأرض ودوابه وهي كثيرة[62] . وأن يحترس من الأعداء وقطاع الطرق . ولعل أخطر عدو للقوافل المتوجهة الى السودان ، تلك الرياح العاصفة التي تشتت شمل التجار وقافلتهم ، وتنفر الجمال ، وتمحي آثار المسالك فيقع الكثيرون منهم ضحية لها ضائعين تائهين[63] . والحقيقة أن عبور تلك الصحراء شاق ومهول ، ومشاقها أكثر من أن تحصى ولعل أحسن تاجر اباضي مع السودان ، وصف متاعب ذلك السفر ومشاقه ، هو العالم الوارجلاني أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم[64] ، المتوفي سنة 570هـ وهو الذي قال شعرا :

جَزَى اللهُ وَارجِلاَن خَيْرَ مَا جَزَى   بِهِ بَلَدًا عَنْ طَالِبِ الْخَيْرِ سَائِرِ
هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيَا وَأَبْوَابُ مَكَّةَ   وَمَعْدِنُ تِبْرِ غَانَةَ وَالدَّنَانِرِ
فَمَن كَانَ يَبْغِي الحَجَّ فَلْيَأْتِ وَارجْلاَنَ   يَجِدْ سُبْلَهَا رَحْبًا وَخَفْرَةَ خَافِرِ
فَلاَ وُجودَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُه   وَلاَ مَالَ الاَّ مَا أَتَى بِالْمَتَاجِرِ
وَيَفْتَخِرَ الجُهَّالُ بِالمَالِ وَالنَّدَا   وَقَدْ سَرَقُوهَا مِنْ جَمِيعِ المَخَاطِرِ
وَلَنْ يَكْسِبَ المَالَ الحَلاَلَ سِوَى امْرِءٍ   يَجُوبُ الْهَوَامِي نَحْوَ غَانَةَ صَابِرِ
وَلَيْسَ يَهَابُ الحَرَّ وَالقَرَّ والشَّوَا   وَلاَ الشَّمسَ وَالظَّلْمَاء ذَات الدَّيَاجِرِ

(62) الادريسي : ص 18 .

(63) ابن حوقل : ص 61 .

(64) أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني : القصيدة الحجازية ، مخطوط في حوزة السيد محمد بن أيوب الحاج سعيد بغرداية . وتقع القصيدة في 375 بيتا دون فيها رحلته الى الحج وعودته سالما الى موطنه وارجلان ، الذي يراه جنة الدنيا . أما مطلع قصيدته فهو :
عذيري عذيري من ذوات المحاجر   ذوات العيون النجل بيض المحاجر
أنظر : ورقة 15 ـ 16 .

وَيَسْتَصْغِرُ الأهوَالَ مِنْ حَيْثُ أَقْبَلَتْ   وَلَو أَنَّهَا أَشْبَالَ وَخَزِ الخَنَاجِرِ

والحقيقة أن ما وصف به أبو يعقوب وارجلان ، والمسالك نحو السودان لا شك ، أنه كان قائما على أيام الرستميين ، وانما اكتسبت وارجلان دورها ذاك منذ عهد الدولة الرستمية في القرن الثالث الهجري.

ولعل ما ذكره ابن خلدون[65] ، عن عدد جمال قافلة تجارية واحدة ما بين فزان وبلاد السودان ، والذي يبلغ تعدادها اثنتي عشر ألف راحلة ليس بالأمر المستبعد[66] ، خاصة اذا علمنا أن ابن حوقل يذكر كثرة الجمال في بلاد المغرب وصحاريه ، ويقول بأنها « لا تدانيها في الكثرة ابل العرب »[67] والواقع أن تلك الكثرة تتماشى مع نشاط التجارة العابرة للصحراء ، والتي كان فيها الجمل هو السر الحقيقي في نجاحها ، وقد أدى فيها مالم تؤده السفن في التجارة البحرية . ورب تاجر لوحده يتخذ ثلاثين جملا الى بلاد السودان وبمجرد وصوله يبيعها كلها ، ولا يستبقي منها الا ثلاثة أو اثنين : واحد لمركبه وآخر يحمل عليه ماءه . ومبلغ الجمال المباعة يأخذه ذهبا على بعير ثالث[68] . واذا كان هذا التاجر قد أخذ الجمال الى السودان بضاعة ، فما هي البضائع الاخرى التي يمكن أن تصدرها الدولة الرستمية الى تلك البلاد ؟

د ـ صادرات الدولة الى بلاد السودان :

في الحقيقة لا تذكر المصادر المتوفرة بين أيدينا بضاعة رستمية بعينها وانما كل مافي الأمر ، أنها تشير الى بعض البضائع التي يحتاج اليها السودان وتلقى فيه سوقا رائجة ، من الممكن جدا أن يكون التجار الاباضيون أو

(65) ابن خلدون : العبر ، ج 7 ، ص 108 .

(66) يذكر البكري أن ألف بعير محملة تمرا تخرج يوميا تقريبا من قسطيلية ص 48 .

(67) ابن حوقل : ص 98 .

(68) Dengel G. : opcit, p. 225, note 4

الرستميون بصفة عامة يستعملونها في تجاراتهم ، ويستبدلونها ببضائع السودان. وتأتي الحبوب والتمور في مقدمة ما يمكن للتجار المغاربة نقله الى السودان ، ويخبرنا الأدريسي[69] ، أن تلك البلاد لا يوجد بها القمح كثيرا مما يحتمل أن يكون مجلوبا لها من المغرب[70] . أما التمر فان أهل وارجلان يتاجرون به مع السودان ، كما أن بلاد قسطيلية بالجنوب التونسي كان يخرج منها في أكثر الأيام ألف بعير محملة بالتمر[71] ، لا شك أن للسودان نصيبا منها ولما كان السودانيون يلبسون الجلود ، فلا يستبعد أن تكون الجلود الزويلية والغدامسية[72] من بين البضائع التي تصدرها الدولة الرستمية الى تلك المناطق ، بالاضافة الى ما تنتجه من فواكه يمكن تجفيفها كالزبيب والتين أو ما تصنعه من أواني فخارية ، خاصة وأن الاكتشافات التي أجريت على مدينة أودغست ، أثبتت وجود مثل هذه الأواني ، التي حملت اليها من بلاد المغرب[73] . وربما كان التجار الاباضيون يأخذون بعض الألبسة الصوفية الكثيرة الاستعمال في السودان ، والألبسة الكتانية والقطنية والحريرية ، كما أنهم يحملون الى بلاد السودان بعض البضائع المشرقية أو الألبسة ، مثل الأواني الزجاجية والأفاوية والعطور ، وربما آلات حديدية وتحف معدنية[74] .

والواقع أن المصادر لا تذكر شيئا مفصلا عن هذا الجانب الهام من التجارة المغربية السودانية ، ولكن الشك لا يتطرق الى كثرة وتنوع

(69) الادريسي : ص 5 ـ 6 ، 13 ، 99 .

(70) يذكر صاحب الاستبصار أن السودان يستورد السميد من فاس فلعل قمح تيهرت الوافر الذي تطحنه الارحية العديدة يأخذه التجار الى بلاد السودان وينفعهم أيضا في طريقهم معاشا لهم . أنظر الاستبصار ص 181 .

(71) البكري : المغرب ، ص 48 .

(72) اليعقوبي : البلدان ، ص 98 ، الاستبصار : ص 145 .

(73) Dengel G. : Ibid, p. 226, note 9

(74) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج2 ، ص 12 . أنظر كذلك علي دبوز : المرجع السابق ، ج3 ، ص 347 ، العدوي ابراهيم أحمد الجزائر تكوينها الاسلامي والعربي ، الطبعة الفنية الحديثة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1970 ، ص 200 .

البضائع المصدرة الى بلاد السودان ، وهو ما عبر عنه الادريسي جملة عندما قال « والخيرات مجلوبة اليهم من أطراف الأرض وأقاصيها »[75] .

ويعتبر الملح ، أهم بضاعة ، على الاطلاق ، في التجارة مع السودان وهو مادة يفتقر اليها أهل السودان كثيرا ، وكان ملح أوليل في الطريق الغربي[76] ، وملح توتك في الطريق الأوسط[77] ، يتخذ عملة ونقدا للتبادل التجاري أو المقايضة بتعبير أصح ، ولم يكن الملح بضاعة مغربية بحته ، وانما كان التجار التيهرتيون وغيرهم ، يستبدلون بعض بضائعهم بالملح في أوليل أو توتك ، ويأخذونه الى غانة أو كوكو ، حيث يكثر طلبه وبالحاح ، خاصة وأن أهل السودان كما يقول الادريسي[78] يملحون به ضروبا من السمك والحيتان التي يصطادونها من (النيل) نهر النيجر ، وهي قوام معيشتهم في السنة كلها

والجدير بالذكر ، أن البضائع التي كان التجار في المغرب يتعاملون بها مع السودان ، لم تكن ذات أهمية كبيرة في معظمها ، بالنظر الى ما يجلبونه من بضائع نفيسة كالذهب مثلا ، وتكتسب بضائع المغرب قيمتها من طول السفر ومشاقه بقطع الصحراء . وخلاصة القول أن تجار المغرب الأوسط والأدنى ، كانوا يصدرون الى السودان حاصلات بلادهم الزراعية ، ومصنوعاتهم اضافة الى ما كانت تردهم من منتوجات ومصنوعات البلاد الأخرى ، التي كانوا يتاجرون معها كالمشرق والأندلس .

هـ - واردات الدولة من بلاد السودان :

بالمقابل مع البضائع التي كان التجار من الاباضية يحملونها الى بلاد

(75) الادريسي : ص 9 .

(76) البكري : ص 171 ، عن أوليل وأهمية الملح فيها أنظر خاصة ابن حوقل : ص 92 ، الادريسي : ص 3 .

(77) البكري : ص 173 ، عن الملح وأهميته في التجارة العابرة للصحراء أنظر : بوفيل أي دبليو : الممالك الاسلامية ، سبق ذكره ، ص 112 وأنظر موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 248 ـ 249 .

(78) الادريسي : ص 6 .

السودان ، فانهم كانوا يجلبون من هناك بعض الاحجار الثمينة والشب والعنبر وريش النعام ، وغيرها[79] من البضائع التي لا يستبعد أن تكون في ركب التكرور[80] ، الذي يذكره الشماخي[81] ، والذي قدم من بلاد السودان الى شروس أم قرى جبل نفوسة . ويقول الشماخي بأن حاكم الجبل أمر باغلاق الأسواق والبروز الى الركب من أجل الانتفاع بالبيع والشراء .

هكذا يبين لنا الشماخي جانبا مهماً في تجارة جبل نفوسة مع السودان فبالاضافة الى ما توحي به هذه الرواية من تنوع بضائع ركب التكرور ، مما دعا الامر الى اغلاق الأسواق والاستفادة من تلك البضائع ، فان الرواية واضحة في اهتمام العامل ، وأهل جبل نفوسة ، بقوافل السودان واحترامهم لتجارها خاصة اذا كان من أهل تكرور السودانيين كصاحب هذا الركب ، وهو دليل على مشاركة السودانيين أنفسهم في التجارة العابرة للصحراء ولم يكن الاباضية وغيرهم من أهل المغرب لوحدهم يقومون بهذه التجارة المغربية ـ السودانية .

لم يكن التجار ، ليغامروا في الصحاري الكبرى للوصول الى السودان من أجل جلب تلك البضائع فقط ، لولا وجود مادتين نفيستين يزيد الطلب عليهما كل يوم ، ونقصد بهما الذهب والرقيق ، فكيف كانت تجارتها ؟ وكيف تجري المبادلة لجلبهما ؟ وما مدى مساهمتها في اقتصاد المغرب في عهد الدولة الرستمية .

---

(79) البكري : ص 183 ، ويذكر الادريسي أن شب كوار بالغ الجودة يتجهز منه الى سائر البلاد أنظر : الادريسي : ص 26 ، الاستبصار : ص 216 ، علي دبوز : المرجع السابق ، ج3 ، ص 347 ، عبد العزيز سالم ، ج2 ، المرجع السابق ، ص 573 ـ 577 .

(80) التكرور مملكة تقع الى الغرب من غانا ولا يعرف عنها الا القليل . وقد أطلقت هذه التسمية على كل السودان الغربي وعلى سكانها في مرحلة من المراحل ، أنظر : بوفيل أي دبليو : المرجع السابق ، ص 111 ـ 112 .

(81) الشماخي : سير ، ص 273 ـ 274 ، هذه الرواية تدل ، كما لاحظ الدكتور محمود اسماعيل ، على ترحيب أئمة بني رستم وعمالهم بتجار السودان وذلك بفتحهم لهم أسواقهم ، ومعاملتهم بالحسنى وتقديم التسهيلات التجارية لهم باعفاء بضائعهم وسلعهم من الضرائب والرسوم أنظر محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 209 .

تجارة الذهب والرقيق :

ليس هناك شك في أن التجار الذين غامروا بقطع الصحراء ، ومقارعة الموت ، كان هدفهم الثروة الطائلة التي تكتسب بسرعة . فكانت تجارة الذهب والرقيق أهم بضاعتين ، كان يخرج من أجلها التاجر الاباضي وغيره والحقيقة أن المادتين كلتيهما ثمينتين لشدة الطلب عليهما .

ولقد كانت هاتان البضاعتان ، محتكر تجارتها من طرف الخوارج الصفرية في الطريق الغربي خاصة حيث سجلماسة عاصمتهم ، والاباضية في المسالك كلها[82] . ولقد رأينا انتشار الاباضية في تلك الطرق وبعض المراكز المؤدية الى السودان . والحقيقة أن التسامح الذي أظهرته كل من الدولتين الرستمية والمدرارية ، كان سببا في انعاش تلك التجارة بشكل أو بآخر فشارك فيها الأندلسيون والمشارقة[83] ، كما ساهم فيها اليهود ، وبقيت مسالك تلك التجارة تهيمن عليها القبائل البربرية الاباضية والصفرية بشكل دائم ، وخاصة منها قبيلة زناتة[84] التي كان لها نشاط واسع في التجارة العابرة للصحراء ولم يستطع العبيديون بعد اسقاطهم للرستميين ، القضاء على هيمنتها تلك لمعظم بطونها ، وانتشارها في أغلب ربوع بلاد المغرب العربي ، خاصة المغرب الأوسط الذي هو في الأغلب ديار زناتة كما يقول ابن خلدون[85] . ولم يقو العبيديون أيضا على السيطرة على الطريق الأوسط الذي يهين عليه اباضية وارجلان[86] رغم محاولاتهم المتكررة كما سبق أن أشرنا اليه .

---

(82) Lombard Maurice : l'Or Musulman Annales (Eco-Soc-Civi) n° 2 opcit, p. 150 وأنظر كذلك موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 283 .

(83) فيلالي عبد العزيز : المجلة السابقة ، ص 36 .

(84) الجنحاني الحبيب : العلاقات السياسية والاقتصادية ، المحاضرة المذكورة ، ص 9 ، وأنظر موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 87 ، 283 ، وأنظر بوفيل أي دبليو : المرجع السابق ، ص 75 ـ 76 .

(85) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 203 .

(86) الجنحاني الحبيب : دراسات مغربية ، ص 68 .

وكان الرقيق يجلبون من الاحراش ، في أدغال افريقيا ، يجلبهم ملوك غانا وكوكو وجنودهم من القبائل البدائية ، أكلة لحوم البشر ، في بلاد لمم . يغيرون عليهم ويسبونهم بضروب من الحيل ويجلبونهم الى بلادهم فيشتريهم التجار المسلمون[87] لينقلوهم بدورهم بضاعة عبر الصحراء ، الى أسواق المغرب العربي . وكانت أعـــداد كبيرة منهم ترد بـــلاد المغرب ، كما كانت كثرتهم ظاهرة في الدولة الرستمية ، اذ كان السكان غالبا ما يتخذونهم خدما[88] فالقارىء للكتب الاباضية ، يلاحظ كثرة استعمالهم من طرف العلماء المترجم لهم في تلك المصادر ، فضلا عن الاغنياء وعامة الناس الذين لم يهتم بهم أصحاب تلك الكتب ، وكان العبيد بهذا يشكلون جزءا ظاهرا من سكان الدولة الرستمية[89] . وكانت أعداد منهم تباع في أسواق تيهرت وورجلان وجبل نفوسة ووهران وتنس أم المراكز الاقتصادية في البلاد المرتبطة بتجارة الذهب والعبيد ، ومن تلك الاسواق تخرج اما الى القيروان أو الى المشرق العربي[90] ، أو الى بلاد الأندلس ليتخذ خـدما في الدور والمزارع .

ويحتمل أن يكون التجار التيهرتيون وغيرهم ، في بلاد المغرب ، قد قاموا بدور كبير في توزيع هذه البضاعة المطلوبة ، حيث أن الاصطخري يذكر أن « الخدم السود الذين يباعون في بلدان الاسلام منهم ، وليس هم بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة ، الا أنهم جنس على حدة أشد سوادا من الجميع وأصفى »[91] .

(87) الادريسي : ص 5 ، 7 وأنظر بوفيل أي دبليو : المرجع السابق ، ص 111 .
(88) ابن الصغير : ص 48 ، 52 .
(89) لعل في اهتمام ابن الصغير بمخارج كلمة سودانية قيلت لابن عرفة سفير الامام أفلح الى ملك السودان ما يدل على انتشار العبيد السوداني في تيهرت خاصة ، وبالتالي انتشار لغتهم بحيث أصبحت معروفة والا فما تفسير ذلك الاهتمام ؟ أنظر ابن الصغير : ص 31 .
(90) ابن حوقل : ص 97 ، موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 266
(91) الاصطخري: المسالك ، ص 34 ـ 35 .

ان رواج تجارة العبيد ، قد بعث بدون شك ، نشاطا كبيرا في اقتصاد المغرب الأوسط خاصة والمغرب العربي عامة ، اذ بالاضافة الى فوائدهم التجارية كبضاعة فانهم كانوا يستعملون في بعض الصناعات[92] ويتخذ خدما عند العائلات[93] . ويقوم بالاعمال الفلاحية كالحرث والاستقاء من الآبار وفي المزارع وهي أعمال العبيد في تلك القرون .

وفي خط متواز مع تجارة العبيد ، كانت تجارة الذهب الخالص أو التبر تلقى رواجا منقطع النظير في القرن الثاني الهجري وبعده وربما كان الالحاح على الذهب أكبر ، والطلب أكثر لمنافسة الدول على اقتنائه ، والافتخار بتكديسه في الخزائن . وقد لعبت الدولة الرستمية بأسواقها الواقعة في نهايات المسالك التجارية ، كوارجلان وتيهرت وجبل نفوسة ، وبهيمنتها على المسالك كلها تقريبا وذلك بتربعها على أغلب بلاد المغرب[94] ، لعبت دور الوسيط في تلك التجارة الرابحة . فكانت العاصمة الرستمية بمثابة همزة وصل ، بين النشاط الإقتصادي في الاندلس والمغرب الأقصى ، وبين أفريقية التي تصلها بأسواق المشرق العربي ، وبين بلاد السودان حيث معدن الذهب فكيف كان يجمع هذا الذهب ؟ وكيف يتم بيعه في السودان ؟ وما مدى مساهمته في الاقتصاد الرستمي ؟

في الحقيقة ، لا نعرف الكثير عن كيفية جمع الذهب من مصادره الأصلية الا مارواه الادريسي ، ولا نراه يختلف عما كان في عهد الدولة الرستمية ومفاده أن على بعد ثمانية أيام من مدينة غانة تقع جزيرة ونقارة حيث معدن التبر المشهور بالطيب والكثرة . وكان (النيل) نهر النيجر يحيط بها من كل جهاتها ويغشاها في شهر من شهور السنة التي يفيض فيها ،

(92) الشماخي : يذكر أن امرأة نفوسية كان لها ثلاث عشرة أمة أو جارية ينسجن لها . سير ، ص 247 .
(93) يذكر صاحب الاستبصار أن نوعا من السودانيات اللائي يجلبن من أودغست ماهرات في الطبخ يحسن عمل الاطعمة ولا سيما أصناف الحلاوات . فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن . الاستبصار : ص 216 .
(94) Lombard Maurice : Ibid, p. 150

يغطيها كلها أو أكثرها وبعد مدة يأخذ في التراجع والجزر فيأتي أهل السودان للبحث طول أيام الجزر عن التبر » فيجد كل انسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر وما يخيب منهم أحداً »[95] .

ويضيف الادريسي أن أهل ونقارة هؤلاء ، أغنياء والتبر عندهم وبأيديهم كثير ، يبيعون أكثره لأهل وارجلان وأهل المغرب الأقصى .

الى جانب هذه الرواية التي تبرز مختلف الجوانب في التجارة السودانية المغربية ، كحقول الذهب وكيفية جمعه ومكان وجوده ، يذكر ياقوت الحموي[96] أن أقواماً من السودانيين العراة كانوا يختفون عند قدوم تجار الذهب في مكامن وأسراب تحت الأرض ، يرى بوفيل[97] أنها هي مناجم معدن التبر ويضيف الحموي أن طريقة بيعه في السودان كانت تتم بالمقايضة على نهر النيجر فعندما يصل التجار الى تلك المناطق ، يضربون الطبول إيذاناً بمجيئهم فيختفي العراة في مخابئهم بالارض ، ويعرض التجار بضائعهم على شكل أكوام على ضفاف نهر النيجر ، ثم يتراجعون بعيدا عن الانظار ، ليخرج الزنوج العراة فيضعون بدورهم أكواماً من الذهب الى جانب كل كومة من البضاعة فينسحبون الى مغاراتهم من جديد ، ثم يعود التجار لأخذ تلك الأكوام من الذهب ان رضوا بها . وتختتم صفقات هذا السوق البدائي بقرع الطبول مرة ثانية[98]

(95) الادريسي : وصف ، ص 8 ـ 9 ، وأنظر زبادية عبد القادر الذي أكد هنا وقال بأن النهر يمر على مكان وجود فلزات الذهب وعند جزره تظهر الفلزات لامعة في العراء بفعل تنقية النهر لها وغسلها من الاتربة العالقة بها وهكذا يسهل على الاهالي التقاطها . أنظر مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ، ص 188 .

(96) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج2 ، ص 12 ـ 13 .

(97) بوفيل أي دبليو : المرجع السابق ، ص 110 .

(98) هناك رواية لابن الفقيه عن جلب الذهب من مصادره ، مفادها أن هذا المعدن الثمين ينبت في رمل السودان نباتا كما ينبت الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس . وظاهر على الرواية صفتها الاسطورية ، أنظر مختصر كتاب البلدان ، ص 87 .

ان هذه التجارة الصامتة ، بأسلوبها البدائي تعتبر أول مراحل اقتناء الذهب من مصادره ، وهي مرحلة كان يقوم بعملياتها المذكورة السودانيون أنفسهم[99] : العراة أصحاب موطن الذهب ، والتجار من أهل غانة أو كوكو ، وبهذين المركزين من مراكز السودان ، يتصل تجار المغرب بتجار السودان ، فيقع التبادل التجاري بالبضائع التي سبق أن ذكرناها ، ويرجع التجار المغاربة الى الشمال بالذهب ، يأخذونه الى دور السك في المدن الرئيسية الواقعة في نهايات مسالك التجارة كتيهرت ، وسجلماسة ، ووارجلان في فترة من الفترات حيث يضرب دنانير ، الا أن الجزء الاكبر منه مثله مثل الرقيق ينقل بضاعة الى القيروان ، ومنها الى المشرق ، كما يجهز الى الأندلس[100] خاصة من مرافيء تنس وفروخ ووهران .

و ـ مظاهر التجارة العابرة للصحراء :

كان للرستميين دورهم البارز والرسمي في تجارة الذهب والعبيد فلقد مر بنا أن الامام أفلح قبل توليه الامامة ، طلب من أبيه عبد الوهاب التوجه الى بلاد كوكو (جوجو) ، فأبى هذا منه ذلك ، لخطإ واحد صدر منه في مسألة فقهية في البيوع عندما امتحنه[101] . ولم يتردد أفلح في طلب مثل هذا ، ولم يخف اقتحام الصحراء وبلاد أكلة لحوم البشر ، لأنه يعلم جيدا رواج تجارة الذهب مع السودان ، والربح المغري التي تدره على المساهمين فيها وعلى اقتصاد الدولة وهما جانبان تمثلا بشكل واضح في شخصية أبيه الامام عبد الوهاب الذي قال عن نفسه : « لولا أنا ومحمد بن جرني ويبيب بن زلغين ، لخرب بيت مال المسلمين : أنا بالذهب.... »[102] .

(99) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 146 .

(100) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 82 .

(101) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 39 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 320 ، الشماخي : سير : ص 222 .

(102) الشماخي : سير ، ص 205 .

لقد كان الامام عبد الوهاب اذن ، من التجار الكبار بالذهب الى درجة أنه اعتبر نفسه احدى الموارد الاساسية لبيت المال . فلا شك أن هذه التجارة التي كان يقوم بها هذا الامام حتى يكتسب تلك الثروة الذهبية التي يتحدث عنها بنفسه ، كانت رسمية ، على الأقل مع بلاد الأندلس التي كانت العلاقات جد وطيدة بين أمرائها الأمويين والأئمة الرستميين ، لذلك اكتسب ما هو جدير بأن يفتخر به .

ولا يستبعد أن تكون ثروة عبد الوهاب ، هي التي حرضت ابنه أفلح للتوجه الى بلاد كوكو ، تلك الزيارة التي لم تتحقق لأفلح ، ولكن الفكرة أو الرغبة بقيت كامنة في نفسه بحيث أن ابن الصغير[103] - يخبرنا - عن سفارة له في عهد أمامته (208 - 258هـ) الى ملك السودان ، سفارة كان على رأسها محمد بن عرفة ، الرجل الوسيم الجميل الجواد . اختاره أفلح فأوفده بهدية الى ملك السودان ، الذي أعجب بجماله وأدبه . ولا نعرف بالضبط المملكة السودانية التي توجهت اليها السفارة ، ولكن الذي يهمنا أن الأئمة أنفسهم كانوا من المشاركين في تجارة الذهب مع السودان ، ومن المهتمين بأرباحها ، فضلا عن بقية الرعايا ، أو المغامرين الذين يأتون من مختلف البقاع طمعاً في الربح السريع .

إن لهيئة الخوارج بصفة عامة والدولة الرستمية بصفة خاصة ، على نهايات المسالك العابرة للصحراء ، الأثر الفعال في اقتصاد الرستميين اذ لا يخفى ما تدره مثل هذه التجارات من أرباح على المساهمين فيها وعلى الأسواق عامة ، الامر الذي يمكن أن يرفع مستوى المعيشة الى حد أقصى الا أننا نفتقر الى معلومات حول ما اذا كانت الدولة تجبي رسوماً على هذه التجارة الرابحة ، خاصة وأن أسواقها لا تلعب الا دور الوسيط في تلك التجارة ، حيث أن الذهب والعبيد كليهما لا تستفيد منها الدولة الرستمية

(103) ابن الصغير : سيرة ، ص 31 .

وحدها ، وانما يؤخذان الى خارج حدودها ، فاذا كانت الخزينة الرستمية تستفيد من الدور الوسيط الذي تلعبه في هذه التجارة ، فهل كانت تفرض رسوما على القوافل الخارجة من حدودها ؟ وهل كانت تستفيد من التجار الذين لا يستقرون في مدنها ، على الأقل من زكواتهم التي لاشك أن تكون كبيرة بكبر حجم التجارة العابرة للصحراء ؟

لا أثر يدل على ثبوت شيء من هذا ، الا أننا لا ننفي اطلاقا مساهمة هذه التجارة في رفع المستوى الاقتصادي للدولة ، على الأقل بفعل عبور مثل تلك الأموال الذهبية الضخمة على أسواقها ، وهو ما يترك حيوية ونشاطا دائبين في تلك الأسواق . ولعل أهم فائدة جنتها الدولة الرستمية من تلك القوافل الذهبية ، ما دخل دور سكها ليحول الى عملة متداولة أو حليا يقتنى ويبدو أن استفادة الرستميين من تجارة الذهب كانت بقدر مساهمتهم فيها ، فلما كانت هذه ضخمة ، أنعكس عنها ازدهار ورخاء في الاقتصاد ، ورقي في المستوى المعيشي ، وتطور في المجتمع الذي يلوح لنا أنه انتقلت طائفة منه من طور البداوة الى طور الحضارة والاستقرار ، وذلك بالمساهمة في تلك التجارة الصحراوية . ومن مظاهر النمو الاقتصادي ، والاستفادة من ذهب السودان ، وجود الصيارفة في تيهرت ، فابن الصغير[104] يحدثنا عن تاجر ثري يدعى أبا محمد الصيرفي ، له ضلع بماله الواسع في الفتن التي نشبت في أواخر أيام الدولة الرستمية . فمهنة الصرف أو الصيرفة[105] إن دلت على شيء فانما تدل على وفرة السائل النقدي ، وتنوعه الامر الذي يتطلب صيارفة لاستبدال العملات ببعضها ، أو لتقييم أوزان بعضها الآخر ، وفرز المغشوش منها عن صحيحها ، وهذا يمثل أرقى مظاهر النشاط التجاري والتقدم الاقتصادي .

(104) ابن الصغير : ص 38 - 39 ، وأنظر الترجمة الفرنسية لموتلنسكي ص 101 .

(105) عن الصرف والصيرفي : أنظر ابن منظور : لسان العرب المحيط ، م2 ، دار لبنان العرب ، بيروت ، كلمة «صرف» .

وإذا كان الرستميون قد إستفادوا اقتصاديا واجتماعيا ، من تجارتهم مع السودان ، فانهم من جهة أخرى أفادوا العالم الاسلامي ، وساهموا في تزويده بالمعدن الثمين ، وهو بضاعة لا شك أن المراكز الاساسية بالمشرق كثيرة الالحاح في طلبه فضلا عن القيروان التي يعبر خلالها[106] . أما الأندلس الذي كان الأمويون فيه ، الى القرن الثالث يضربون غير الذهب عملة ، فانهم مع بداية القرن الرابع سكوا أول عملة ذهبية لهم ، وذلك في غمرة الاضطراب السياسي الذي كان يعيشه المغرب العربي بدخول العبيديين ، الذين حاولوا السيطرة على جميع مسالك الذهب ، واحتكار التجارة فيها ، الأمر الذي يترتب عنه ، ولا شك تذبذب وعرقلة في وصول الذهب الى المغرب فضلا عن الأندلس ولا ننسى أن العبيديين كانوا في صراع مع الأمويين وتنافس حاد معهم[107] .

إن هذه الأسباب كلها ، جعلتني أعتقد جزما ، أن ضرب أمويي الاندلس لأول عملة ذهبية لهم ، في تلك الظروف بالذات ، لم يكن ليتحقق لولا الاحتياطي الكبير الذي مولهم به الرستميون من قبل واستطاعوا توفيره فقد كانت أسواق الرستميين ومرافئهم معابر للذهب المشحون الى الأندلس ولا أستبعد أن يكون السبب في تحطيم الامام أفلح للعباسية ، المدينة التي بناها الأغالبة على مقربة من تيهرت[108] ، هو وقوعها في نهاية مسلك رئيسي لتجارة الذهب مع السودان ، وهو المسلك الأوسط ، أو المسلك الرستمي البحت إن صح التعبير ، وكان على ما يبدو هو المسلك الرئيسي الذي يربط بلاد السودان بالأندلس عبورا على تيهرت ؛ وبالتالي فان بناء مدينة مثل العباسية على مقربة من تيهرت ، من شأنها أن تعرقل حركة

---

(106) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 83 ، 155 ، 156 ، 182 ، 296 ، وأنظر الجنحاني الحبيب : التلاقات السياسية الحاضرة المذكورة ص 9 .

(107) موريس لومبارد : المرجع السابق ، ص 157 ، الجنحاني الحبيب : دراسات مغربية ، ص 68 ، 89 - 90 .

(108) البلاذري : فتوح البلدان ، ص 236 ، ابن خلدون : العبر ، ج4 ، ص 429 .

سيلان الذهب في ذلك المسلك بالذات ، فضلا عن وجودها في أراض رستمية ، وعلى مقربة من العاصمة[109] . ولهذا السبب ، حسبما يظهر ، أخبر أفلح حكام الأندلس بفعله ، وللسبب نفسه ولأهمية الحدث عندهم ودوره في اقتصادهم ، بعثوا اليه بهدية ثمينة تقدر بمائة ألف درهم[110] .

لقد كان الرستميون ، اذن ، أهم ممول للأندلس بمعدن الذهب وذلك جنبا الى جنب مع القمح والماشية والرقيق ، وقد لعبت مرافىء المغرب الأوسط في هذه التجارة دورا بارزا ، اذ كان معدن الذهب بمثابة عملة رستمية أساسية ، بما كانت تجلب البضائع التي هي في حاجة اليها وخاصة منها البضائع الأندلسية التي يتراءى لنا أنها مهمة جدا وضخمة ، وذلك بحكم العلاقة الوطيدة[111] التي كانت تربط الاسرتين الحاكمتين في المغرب والأندلس .

لقد استمرت تجارة المغرب مع السودان قرونا متواصلة[112] ، الا أن سقوط الرستميين على يد العبيديين سنة 296 هـ ، حدّ من نشاط التجار الاباضية ، وأصبحوا لا يهتمون الا على المسلك الأوسط ، الذي جعلوا مدينتهم وارجلان حدا نهائيا له ، يضربون الذهب به ، باسم بلدهم وارجلان ، وقد لاحظ ذلك الادريسي[113] .

ويبدو أن نشاط تجارة المغرب الأوسط مع السودان ، لم يتوقف بانتهاء حكم الرستميين ، ولكن قبل ذلك باعوام ، خاصة في السنوات الأخيرة من حكمهم ، تلك السنين التي كثرت فيها الفتن ، فأصبحت السبل غير آمنة

---

(109) الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 186 .

(110) البلاذري : فتوح ، ص 236 ، ابن خلدون : العبر ، ج4 ، ص 429 .

(111) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 166 - 167 ؛ فيلالي عبد العزيز العلاقات السياسية ، ص 96 - 109 وأنظر Dengel Cl. opcit, p. 280-283 .

(112) بوفيل أي دبليو : المرجع السابق ، ص 174 .

(113) الادريسي : ص 9 ، 102 .

وكثرت اللصوص وقطاع الطرق ، كما يخبرنا بذلك ابن الصغير المعاصر للأحداث[114] ، وهي عوامل من شأنها أن تؤثر سلبا في نشاط التجارة الرستمية - السودانية ، ثم إن الحكام في هذه الفترة لم يشاركوا في تلك التجارة مثلما كانوا سابقا في عهد الامامين عبد الوهاب وأفلح ، لذلك نجد تركة الامام أبي اليقظان بن أفلح عندما عدت لا تتعدى سبعة عشر دينارا عينا ، وهو الذي زوده الخليفة العباسي بالأموال ، قبل مغادرته بغداد ، كما أن زهد يعقوب بن أفلح ، جعله لا يجس بيده دينارا ولا درهما[115] ، فهل هذا الا انصراف عن الحياة التجارية ، الى حياة الزهد ، وعزوف عن التجارة التي كان أبوهما وجدهما من أبرز المساهمين فيها ، كما لا يستبعد أن تكون الفتن هي التي شغلتهما عن النشاط التجاري ، ولعلها شغلت أوردت العديد من التجار الراغبين في المساهمة في ذلك النشاط الحيوي من الاقتصاد الرستمي ولعل هذا الاضطراب السياسي الذي استمر الى أواخر أيام الحكم الرستمي أدى الى اضطراب تدفق الذهب على العاصمة تيهرت ، وبالتالي تقلصت الفوائد التي كانت الدولة تجنيها من تلك التجارة ، فلم تقو على مواجهة الفتن لقلة وفرة المال . وهذه النتيجة نفسها ، أدت الى تقلص جلب البضائع التي تحتاجها . وبذلك ضعف الكيان ، وتمادى العدو ، والثائر ، والمتمرد في عصيانهم . فاجتمعت بذلك العوامل كلها للتمهيد لسقوط الرستميين في يد العبيديين دون مقاومة تذكر . تاركين نشاط التجارة العابرة للصحراء وفوائدها الجمة لهم ، ليستغلوها بمختلف الوسائل وأوسعها اطلاقا[116] .

(114) ابن الصغير : ص 57 ، وأنظر الدرجيني الذي يتحدث عن قطاع طريق تعرضوا لقافلة في عهد العامل الرستمي الأخير على جبل نفوسة أبي منصور الياس ، طبقات : ج2 ، ص 321 - 322 .

(115) ابن الصغير : ص 30 ، 40 ، 49 ، 54 .

(116) الجنحاني : دراسات مغربية ، ص 45 - 67 .

﴿ الفصل السادس ﴾

المؤسسة المالية : بيوت الأموال ودار الزكاة

كان في الدولة الرستمية ، كغيرها من الدول العربية الاسلامية آنذاك ، بيوت أموال محلية عديدة ، وبيت مال مركزي مقره العاصمة تيهرت ويقوم عمال الدولة بجمع الزكاة وصرفها في وجوهها كل في مقر ولايته[1] . ويشير ابن الصغير ، الى تعدد بيوت الأموال في عهد الامام الأول عبد الرحمن بن رستم فيقول « وبيوت أمواله ممتلاة »[2] .

إن المعلومات التي نعرفها عن بيوت الأموال المحلية في مختلف المدن والولايات قليلة ، كما أننا لا نعرف كيفية جمع الأموال ، ولا كميتها . وتشير بعض المصادر الى هروب السكان من دفع الزكاة ، وهو ما يفهم مما كان يفعله أبو يونس وسيم عامل الامام عبد الوهاب على قنطرارة ، اذ كان يصعد الى « أشرف موضع حيث يسمعه الأقصى والأدنى فينادي بأعلى صوته لافرار من الصدقة والفار من الصدقة يؤذي ويكرر ذلك »[3] .

(1) أعزام ابراهيم : غصن البان في تاريخ وارجلان (مخطوط) ورقة 30 . علي يحي معمر : الاباضية بالجزائر ، ص 211 - 212 .
كان نظام تعدد بيوت الأموال سائدا في صدر الاسلام حيث أن للزكاة ديوانا خاصا بها في مركز الخلافة يتبعه فروع في سائر الولايات والبلدان . أنظر صبحي الصالح : النظم الاسلامية نشأتها وتطورتها ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1385هـ/1965م ، ص 359 .

(2) ابن الصغير : ص 15 ، وأنظر كذلك الشماخي : سير ، ص 192 ، 221 .

(3) الشماخي : سير ، ص 195 ، وتذكر المصادر الاباضية أن حفيداً للامام عبد الوهاب قصد النكار جابيا فقالوا له ابن المهدور دمه حيث أن أباه كان قد وجد مقتولا دون أن يعرف القاتل اثر فتنة النكار ويبدو أن هؤلاء أبوا من دفع ما عليهم من حقوق لذلك حاربهم الامام عبد الوهاب . وان كانت تلك المصادر تعزو سبب القتال الى معرفة أن القاتل من النكار وذلك من كلمة « يابن المهدور دمه » وهو الأمر الذي لم يتقبله الشماخي . أنظر : =

ومادامت معلوماتنا حول هذه البيوت قليلة جدا ، فلا نرى أنها تكون مختلفة عن بيت مال العاصمة التي لنا عنها بعض المعلومات ، احتفظ لنا بها ابن الصغير في كتابه القيم .

لم يكن في تيهرت بيت للمال[4] فحسب ، وانما كان الى جانبها دار يعرف بدار الزكاة[5] . وقد حاول الاستاذ الكماك تفسير وجود هاتين المؤسستين الماليتين ، ودور كل منهما فأتى بمبهم عندما قال « وغاية العلم أنه كان يوجد ديوان يعرف ببيت المال لقبض الأموال الداخلة ودار الزكاة لدخول المال وخروجه »[6] ، والحقيقة أن ابن الصغير لم يذكر دار الزكاة الا مرة واحدة يمكن أن يتبادر الى الذهن لأول وهلة أنها تسمية ثانية لبيت المال لاغير ، الا ان المتدبر في نص آخر لابن الصغير نفسه ، يلاحظ وجود فرق بين الأموال التي تجمع من الزكاة ، والأموال التي تجبى من غيرها : فرق يتجلى في توزيعها وأماكن انفاقها ولأهمية النص ننقله كاملا :

يقول ابن الصغير : « وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في أوان الطعام فيقبضون أعشارهم في هلال كل (....)[*] من أهل الشاة والبعير يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون فاذا حضر جميع ذلك صرف (عبد الرحمن بن رستم) الطعام الى الفقراء وبيعت الشات (كذا) والبعير فاذا صارت أموالا دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم ثم نظر في باقي سائر المال فاذا عرف مبلغه أمر باحصاء من في البلد وفيما حول البلد ثم أمر باحصاء الفقراء والمساكين فاذا علم عددهم أمر

= أبو زكرياء : سير ، ص 64 ، الدرجيني : طبقات ، ج1ص 56 ، الشماخي : سير ، ص 153 . أنظر كذلك الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 114 ، يذكر أن حفيد الامام أخذ الحقوق الشرعية ولم يمنعها ولكن النكار قالوا له : يابن المهدور دمه فحاربهم الامام اذ علم أن القاتل منهم لاغير .

(4) ابن الصغير : ص 18 ، 19 ، 41 ، 48 ، 49 ، 56 ، 75 .

(5) نفسه ، ص 43 .

(6) الكماك : موجز ، ص 184 .

(*) بياض في الأصل .

باحصاء ما في الأهراء من الطعام ثم أمر بجميع ما بقي من مال الصدقة فاشترى منه أكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع في كل أهل بيت بقدر ذلك ويأثر بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه ، ثم ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الأرضين وما أشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم ثم إن فضل فضل صرفه في مصالح المسلمين »[7] .

لقد كان هذا في عهد عبد الرحمن بن رستم ، ولا شك أن هاتين المؤسستين استمرتا مع الدولة الرستمية الى آخر عهدها . وتشير المصادر[8] الى أن رجال نفوسة كانوا هم الذين يتولون مسؤولية بيت المال في تيهرت ، ولما كان النص مهما في ذكر موارد دار الزكاة وبيت المال ونفقات كل منهما ، فبالامكان أن نشرح ذلك بشيء من التفصيل :

أ ـ دار الزكاة موارده ونفقاته :

لا يتغذى دار الزكاة الا من مورد واحد هو الزكاة لذلك ، على ما يبدو ، ينسب اليها . وليست لدينا معلومات عن كمية الزكاة وأرقامها ، الا أنه بالامكان أن نقدرها جملة ونقول بأنها كانت كبيرة كبر الدار نفسها التي وصفها لنا ابن الصغير ، عندما تعرض لذكر قصة القاضي الذي خرج ليلا باحثا عن ابن لأبي اليقظان ، أتى بمنكر قيل إنه اختفى بدار الزكاة ؛ وهكذا يفتش القاضي الدار كلها وتبدو لنا متكونة من أكثر من طابقين ، وعدة غرف[9] ولا شك أن ازدهار الزراعة والتجارة ، وتداول الذهب المجلوب من السودان ، ورخاء البلد عامة ، من الأمور التي تجعل كمية الزكاة

(7) ابن الصغير : ص 15 ـ 16 .

(8) ابن الصغير : ص 27 ، وأنظر كذلك الشماخي : سير ، ص 192 ، 221 ، ويذكر ابن الصغير أن صاحب بيت المال في عهد الامام أبي حاتم يدعي عبد الرحمن بن صواب النفوسي ، أنظر ص 56 ، وأنظر كذلك الشماخي : سير ، ص 263 .

(9) ابن الصغير : ص 43 .

كبيرة . ولا أدل على ذلك مما ذكرناه عدة مرات في هذا الباب من قول الامام عبد الوهاب « لولا أنا ومحمد بن جرني ويبيب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين : أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالأنعام »[10] . وهذه المقولة واضحة في أهمية الزكاة كمورد وحيد لتلك الدار ، وان كان نص الشماخي وهو متأخر جدا عن الفترة التي يؤرخ لها ، يوظف لفظة بيت المال بدلا من دار الزكاة ولا نشك أن عبد الوهاب ، انما ذكر ما ذكر لعظم ثروته الذهبية ، وعظم ثروة ابن جرني وابن زلغين حتى وكأن دار الزكاة لا يمولها الا هؤلاء الثلاثة .

ومما يدل على كثرة ما يدخل دار الزكاة ، فبالاضافة الى ما كان يدفعه التجار والفلاحون وأصحاب الماشية ، فان النساء كن أيضا من المساهمات في تلك الدار بما فرض الله عليهن من زكاة حليهن[11] وهو مذهب اذباضية .

ونظرا لتوفر الذهب بالقدر الذي سبق أن شرحناه . فمن الممكن أن نتصور كثرة زكاة الحلي ، ومدى مساهمتها في تغذية الدار ، فضلا عن الثروة الذهبية النقدية السائلة . وكان اباضية سجلماسة ، كما يقول ابن الصغير يبعثون بزكاة أموالهم الى تيهرت لينتفع بها اخوانهم هناك[12] ، وهي بذلك تشكل موردا آخر لدار الزكاة خارجا عن حدود الدولة الرستمية .

أما نفقات هذه الدار ، فقد كان النص صريحا في تفصيلها ، وهي تنطبق تماما مع ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالي : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »[13] .

---

(10) الشماخي : سير ، ص 204 ، يذكر الشيخ اطفيش أن ابن زلغين كان يملك مائة ألف من الابل والغنم واثنا عشر ألف حمار ، وأما ابن جرني فكانت زكاته في السنة آلاف حمل من البر والشعير . أنظر الرد على العقبي : ص 68 ـ 73 ، وأنظر عن كثرة الغنم ، وكسب الناس لها المزاتي : سير ، ص 85 ـ 86 .

(11) الشماخي : سير ، ص 239

(12) ابن الصغير : ص 46 .

(13) سورة التوبة : آية 6 .

وهكذا نلاحظ أن أموال الزكاة انما تصرف أو تنفق في وجوهها المحددة في النص القرآني . ولهذا السبب ما ذكر من وجود دارين ، دار للزكاة ، ودار لبيت المال ، موارده من الأموال الأخرى .

واذا أردنا أن نعدد الوجوه التي تصرف فيها الزكاة ، معتمدين على نص ابن الصغير ، وجدناها تتلخص في الفقراء والمساكين والعمال . ولما كان الوجهان الأولان معروفين ، بقي أن نشرح الوجه الثالث وهو العمال والقصد به هو الجباة وهو ما يوافق الآية الكريمة « والعاملين عليها » وهكذا فان الأموال العينية تحول الى نقد ، خاصة منها الشياه والبعير . أما الطعام والقصد به على ما يبدو ، القمح أو السميد[14] فيوزع عينا على الفقراء لاحتياجهم اليه ، ثم تصرف أجور الجباة . وبعد ذلك تجمع الزكاة كلها ، ويحصى الفقراء والمساكين في مدينة تيهرت وما حولها فتوزع عليهم أكسية وجبابا من الصوف وفراء وزيتا . ويبدو أن هذه العمليات تتم في بداية فصل الخريف ، لذلك تعطى للفقراء حقوقهم أكسية شتوية من الصوف لاستقبال فصول البرد والمطر .

واذا كان ابن الصغير ، يشير الى أن عبد الرحمن كان يؤثر بأكثر أموال الزكاة أهل الفاقة من مذهبه ، فلا شك أن ذلك راجع الى أن أغلب السكان من الاباضية من جهة ، ومن جهة أخرى لان دافعي الزكاة يكون أغلبهم من الاباضية ، وبالتالي فان زكواتهم تعود الى أهل مذهبهم ، كما أن زكاة غير الاباضية ترد الى فقراء غير الاباضية . أما أن يمنعوها كلها فهذا مالم تشر اليه المصادر ، بل تثبت العكس تماما[15] .

---

(14) ربما يقصد هنا بالطعام السميد أو الكسكسي ، وهي الأكلة الأكثر انتشارا في بلاد المغرب الى يومنا هذا .

(15) عن حق غير الاباضية في الزكاة في الدولة الاباضية : الدليل والبرهان لأهل العقول لأبي يعقوب يوسف الوارجلاني ، ج 3 ، ص 53 ـ 54 . الجيطالي اسماعيل : قواعد الاسلام ، تحقيق عبد الرحمن بكلي ، المكتبة العربية ، الجزائر ، 1976 ، ج 1 ، ص 104 .

لقد كانت الزكاة ، اذن ، تجبى في أوقات الحصاد بدون ظلم أحد وكانت توزع في وجوهها المشروعة ، كما سبق أن رأينا ، فكيف كانت بيت المال ومم تتغذى ؟ وفيم تنفق أمواله ؟

ب - بيت المال موارده ونفقاته :

كان بيت المال يتغذى من الأموال التي تجبى جزية[16] ، أو خراجا للأرضين[17] ، وهو ما ذكر ابن الصغير صراحة في نصه الذي نقلناه عنه ، يضاف اليها بعض الضرائب والرسوم التي ، ولا شك كانت تؤخذ من أرباب التجارات والحرف والقوافل التجارية وغيرها[18] . وهو ما أشار اليه ابن الصغير اشارة دون تصريح ، بعد أن ذكر مال الجزية وخراج الأرضين بقوله « ومما أشبه ذلك »[19] .

والحقيقة أننا لا نعرف شيئا عن كمية أموال هذه الأنواع من الجبايات ولم يزودنا اليعقوبي الذي زار المنطقة بأرقام ما كان يدخل بيت مال الرستميين وهو الأمر الذي التزم به ، وكان دأبه في بلاد المشرق ، وأكتفى في

---

(16) لا نعرف شيئا عن عدد الذميين في تيهرت فضلا عن المدن الأخرى ويبدو أنهم كانوا عديدين بحيث أن للنصارى كنيستهم . ولا شك أن اليهود كانوا هم أيضا بعدد وافر بحكم الازدهار التجاري الذي عرفته الدولة . وكان لهم درب يعرف بالرهادنة : أنظر ابن الصغير : ص 36 ، 46 ، 55 ، 57 .

(17) لا نعرف شيئا عن الأراضي الخراجية في المغرب العربي ، فكل الجغرافيين الذين ألفوا حول المغرب لم يهتموا بهذا الجانب علما بأن المغرب فتح أكثره عنوة . الا أن ابن عبد الحكم يذكر أن حسان بن النعمان ، أحد ولاة بني أمية على المغرب (73هـ - 78هـ) بعد أن استقامت له الأمور في المغرب وضع الخراج على عجم افريقيا وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر.. أنظر فتوح افريقية والأندلس ، ص 64 - 65 . وهذا النص يشير بوضوح الى أن أراضي البربر الذين أسلموا لم يعتبرها حسان خراجية ، والمعلوم أن معظم البربر دخلوا في الدين الاسلامي ، وبالتالي فان معظم الأراضي ببلاد المغرب لا تعتبر خراجية . ولعل هذا الوضع استمر كذلك في عهد الدولة الرستمية . أنظر كذلك محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ، ص 114 .

(18) لا يستبعد الاستاذ دانجيل أن تكون رسوم تؤخذ على العمليات التجارية ، خاصة منها التجارة البعيدة . أنظر : Dengel G. : Ibid, p. 121 .

(19) ابن الصغير : ص 15 وهنا ينفي ما ذهب اليه كل من الاستاذ أحمد توفيق المدني والشيخ علي يحيى معمر من أن الرستميين كانوا لا يجبون غير الزكاة . أنظر : المدني : كتاب الجزائر ، ص 21 ، معمر علي يحيى : الاباضية بالجزائر ، ص 29 ، 53 ، 211 .

بلاد المغرب بذكر الخارطة السياسية والجغرافية[20] . ويخبرنا اليعقوبي من جهة أخرى أن أهل جبل نفوسة : « لا يؤدون خراجا الى سلطان ، ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت »[21] . فلعل أموال الخراج والجزية وغيرهما لا تبقى بهذا في مواطنها التي جبيت منها ، وانما تنقل الى تيهرت لبيت مال المسلمين حيث أنها تعتبر أهم ممول لدفع أجور الموظفين في الدولة من حشم وقضاة وشرطة وقائمين بأمور الدولة عامة ، اضافة الى أجرة الامام نفسه[22] . تدفع هذه الأموال على ما يبدو مرة واحدة في السنة بما يكفي تلك السنة كلها .

ويبدو أن الأموال التي تجبى من الخراج والجزية وغيرها من الضرائب والرسوم ، من الكثرة بحيث لا تكفي أجور الموظفين حسب ، وانما ربما بقي منها شيء يصرف في مصالح المسلمين العامة كبناء المساجد والطرقات والأسواق . ويقدر الدكتور احسان عباس أن تكون تلك الأموال ، التي يراها كبيرة جدا بحكم الثراء الذي بلغته الدولة الرستمية ، تصرف في انشاء (مستشفيات) وبيوت للضيافة والانفاق على طلبة العلم ، ويقدر هذا تقديرا لأن المصادر القليلة سكتت عن تلك الجوانب ، في حين أنها كانت صريحة في التحدث عن استغلال تلك الثروات الطائلة في الصراع بين فئات المجتمع[23] ، وهي الفتن التي تميزت بها السنوات الأخيرة من حكم الرستميين .

ولقد كان بامكان الحكام أن يعوضوا تلك الخسائر بالأموال التي يغنموها في تلك الفتن ، ولكنهم تنزهوا عنها جميعا ، كما تورعوا عن أخذ المغانم التي نثرها ابن طولون سنة 267هـ ، عندما انهزم أمام النفوسيين ورجع عن

---

(20) أنظر : Marçais G. : La Berberie au IXe Siècle, opcit, p.41 .

(21) اليعقوبي : البلدان ، ص 99 .

(22) ابن الصغير : ص 16 ، 25 .

(23) احسان عباس : المجتمع التاهرتي ، المجلة المذكورة ، ص 31 .

هدفه في غزو افريقية[24] . لقد كانوا يرون تحريم غنيمة المسلمين . فلم يكن الرستميون من المهتمين اذن بملأ الخزائن ، وجباية أنواع متعددة من الضرائب ، وانما اكتفوا بالحقوق الشرعية دون غيرها مع بعض الرسوم الواجبه والتزموا بصرفها في وجوهها الشرعية أيضا ، دون أن يأخذوا منها شيئا ليس من حقهم . ومثال ذلك ما يرويه لنا ابن الصغير عن خادم الامام أبي اليقظان الذي استسهل أخذ علف فرس الامام من بيت المال ، وذلك لما وجد دكان العلف مغلقا ، فزجره الامام عندما عرف ذلك ، وأقسم في ليلته تلك ألا ينام حتى يرد العلف الى بيت مال المسلمين ، ولم يهدأ حتى تيقن من رجوع الأموال الى مواضعها[25] . فلم يكن الأئمة الرستميون ممن يؤثرون أنفسهم بالأموال ، أو يطلقون لأنفسهم الحرية في التصرف فيها ، بل لقد كان الامام يعقوب بن أفلح من الزهد بحيث ماجس بيده دينارا ولا درهما . وكان الأئمة يراقبهم المشائخ من الاباضية الذين يعرفون بالشراة[26] . لا يخافون في ذكر مساوئ الامام وهفواته ، لومة لائم ، بل لعل الأئمة كانوا هم الذين يراقبون أنفسهم مخافة سخط الشراة .

واذا كان الرستميون قد انتعشوا بالأموال التي بعثها اباضية المشرق[27] في السنوات الأولى من حكمهم ، ودعمت بيت مالهم ، كمورد مؤقت غير مستمر ، فانهم لم يجدوا هذه المساعدة في السنوات الأخيرة من حكمهم ، عندما كثرت الفتن والمنازعات ، التي لاشك أنها أرهقت بيت المال ودار الزكاة على حد سواء ، وهو ما عبر عنه ابن الصغير بقوله : « وذهبت الأموال »[28] ،

(24) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج1 ، ص 119 .

(25) ابن الصغير : ص 48 ـ 49 .

(26) نفسه ، ص 23 ، 54 .

(27) ابن الصغير : ص 11 ـ 12 ، وتذكر المصادر الاباضية أحد مشائخها النفوسيين ويدعى أبا مرداس كان اذا أراد الزيارة للأئمة بتيهرت أخذ أموالا من أهل جبل نفوسة فيرفعها الى الخاصة لنفع بيت مال المسلمين . ويعتبر هنا أحد الموارد غير المستقرة أو الدائمة لبيت المال في تيهرت . أنظر : الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 12 ـ 13 ، الشماخي : سير ، ص 177 .

(28) ابن الصغير : ص 40 .

وذلك بفعل ما يمكن أن تنتهي اليه تلك المنازعات والفتن من عرقلة للتجارة ، وتحطيم للزراعة ، وهو الأمر الذي يؤثر سلبا على موارد كل من بيوت الأموال ودار الزكاة .

هذه هي أهم النفقات التي كانت تنفق من بيت المال ، وربما يضاف اليها نفقات الجيش وتجهيزه في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن خاصة اذ كان حكمه شبه عسكري ، وكان قد « اجتمع له من الجيوش والحفدة مالم يجتمع لأحد قبله »[29] .

وقد مرّ بنا أن الأموال المشرقية قسمت ثلاثا : كان ثلثان منها في التجهيز العسكري ، مما يوحي أن عبد الرحمن بن رستم ، كان قد ترك عدة حربية لابأس بها ، استطاع ابنه من بعده أن يوظف لها الجيوش ، ويملأ المغرب بأسره من مدينة طرابلس الى تلمسان ، فلا شك أن هذه العمليات العسكرية تتطلب أموالا طائلة ، الا أن هذه الوضعية الحربية للدولة لم تستمر طويلا ، اذ تلاشت بوفاة الامام عبد الوهاب ، لذلك فان نفقات بيت المال في هذا المجال كانت محدودة بحياة ذلك الامام .

ومجمل القول ، إن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته الدولة الرستمية كان من شأنه أن يغذي كلا من دار الزكاة وبيوت الأموال في الدولة . ولم تكن النفقات كبيرة أو بحجم الموارد لذلك فان جزءا منها يصرف في الصالح العام وهذا ما يفسر الرخاء الذي شهدته الدولة ، والازدهار الذي واكبها خلال كل مراحل حكمها . وكانت كل من دار الزكاة وبيوت الأموال ، مواردها ونفقاتها مصبوغة بصبغة دينية بحتة .

(29) ابن الصغير : سيرة ، ص 17 ، وأنظر كذلك احسان عباس : المجتمع التاهرتي ، المجلة المذكورة ، ص 24 .

﴿ الفصل السابع ﴾

الحسبة ومستوى المعيشة في الدولة

أ ـ الحسبة :

الحسبة كما يعرفها ابن خلدون هي وظيفة دينية ، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يوظف لها القائم بأمور المسلمين من يراه أهلا لها ، فيحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين من الإكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، وردع من يقوم بالغش والتدليس في المعايش وفي المكاييل والموازين وغيرها[1] .

ان الحسبة بهذا التعريف الجامع ، رقابة هدفها الصالح العام وتوفير سبل الراحة والاطمئنان للرعية ، وتأمينها من أي خطر قد يهدد حياتها أو يؤذيها في مالها .

لقد عرفت الدولة الرستمية هذا النظام الرقابي ، لكننا لا نعرف بالضبط متى ظهر فيها . ويبدو أنه كان موجودا منذ وقت مبكر لعهد الامام أبي اليقظان بن أفلح (261 ـ 281هـ) الذي جعله الكعاك[2] مؤسس نظام الحسبة في الدولة الرستمية ، وسايره على ذلك الاستاذ لقبال

(1) ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ط2 ، بيروت 1961 ، ص 198 . 199 عن الحسبة أنظر : الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط 1 ، مصطفى البابي الحلبي ; مصر 1380هـ/1960م ، ص 240 وما بعدها .

(2) الكعاك ، موجز ، ص 182 .

موسى[3] . ومما يدل على وجود هذا النظام في تيهرت منذ وقت مبكر لعهد الامام أبي اليقظان ، ما ذكره ابن الصغير عن الامام أبي بكر بن أفلح (258 ـ 261هـ) الذي صرف النظر في مدينة تيهرت وأحوازها الى أخيه أبي اليقظان ، وذلك بعد عودته من بغداد ، ووجود أخيه أبي بكر اماما[4] . ومن هنا يتضح لنا أن الحسبة معروفة عند الأئمة السابقين لأبي بكر ، وكان يتولى القيام بها الامام نفسه تماما مثلما كان يفعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ض) في صدر الاسلام[5] .

وقام أبو اليقظان بهذه المهمة أحسن قيام فكان يركب دابته ويطوف في المدينة حتى أقصاها ، ويحكم في الأمر الضروري دون أن تأخذه في الله لومة لائم . وكانت له جولتان ، واحدة اثناء النهار ، والاخرى في الليل ويتصل بأخيه الامام مرتين في اليوم والليلة ليطلعه على أحداث المدينة ان حدث حادث ، أو يخبره ان المدينة أصبحت هادئة وأمست هادئة . فكان بهذا أبو اليقظان كما يقول ابن الصغير ، قد أظهر القيام لأخيه « والحسبة بين يديه »[6] . وبهذا يكون أبو اليقظان أول محتسب تذكره المصادر باسمه في الدولة الرستمية ، ليس من الأئمة كما كان سابقا ، اذ تولى هذه المهمة في عهد أخيه ، ويبدو أن العادة جرت بعد ذلك على أن يتولى الحسبة غير الامام وهو ما برز بشكل واضح في عهد الامام أبي اليقظان .

لقد ظهرت معالم نظام الحسبة جلية في عهد الامام المذكور ، ويتحدث

(3) موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي (نشأتها وتطورها) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط1 ، 1971 ، ص 16 .

(4) ابن الصغير : ص 32 .

(5) أنظر عن الحسبة في عهد عمر بن الخطاب ، حسن ابراهيم حسن علي ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ط2 ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، 1959 ، ص 270 ، صبحي الصالح ، المرجع السابق ، ص 329 .

(6) ابن الصغير : ص 32 ـ 33 يذكر الدكتور موسى لقبال أن الحسبة في الدولة الرستمية لم تكن معروفة بهذا الاسم وانما كانت تعرف باسم صاحبها الذي أطلق عليه « المشرف على السوق » ويعزو هذه الكلمة لابن الصغير ويقول بأنها كثيرا ما ترد في تاريخه . والحقيقة أننا لم نجد لها ذكرا بعكس كلمتي الحسبة والاحتساب اللتين وردتا في هذا المضمون . أنظر موسى لقبال : المرجع السابق ، ص 33 .

عنه ابن الصغير فيقول بأنه أمر « قوما من نفوسة يمشون في الاسواق ، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قالوا فان رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه وان رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها وان رأوا قذرا في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه »[7].

ولا شك ، أن فساد البلد بفتنة ابن عرفة ، التي سبقت حكم أبي اليقظان مباشرة ، هو الذي أوحى للامام بتعيين جماعة وليس شخصا واحدا للحسبة . وهذا يدل على تفاقم الفساد واستشرائه ، كما يدل من جهة أخرى على كبر المدينة وكثرة أسواقها بحيث لا يكفي محتسب واحد فقط لمراقبتها ومراقبة الشوارع والقيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة في تلك الظروف .

ان نفخ الشاة الهزيلة حتى تبدو سمينة ، يعتبر من الغش الذي يعاقب عليه مقترفه . ولا يشير ابن الصغير الى نوعية العقاب أهو جسماني أم مالي ولعله يغرم أو تصادر الشاة التي نفخها ، كما أن النظافة في تيهرت مشروطة فلا بد لكل صاحب دكان أو منزل أن يحافظ على نظافة ماحوله .

ولا يخبرنا النص في ما اذا كان المحتسب من مهامه مراقبة التجار في معاملاتهم التجارية من كيل ووزن وعملة ، الا أن المتبادر الى الذهن أنه مادامت مهنته هي المشي في الأسواق وتغيير المنكر ، فلا يستبعد أن يكون كل ما يجري في السوق داخل في مهمة المحتسب .

وكان النفوسيون هم الذين يتولون هذه الخطة ، يرشحهم لها الامام كما أنهم كانوا يتولون بيوت الأموال ، وبطانة الامام وحاشيته ، وعقد تقديم

(7) ابن الصغير : ص 41 ـ 42 .

القضاة[8] ، فكان لهم بذلك كله دور بارز في الحياة اليومية والاقتصادية بتيهرت .

ولا نملك معلومات عن الحسبة في المدن الأخرى غير العاصمة ، اللهم الا ما ذكره الشماخي[9] عن نفوسي يدعى أبا يوسف وجدليش بن في ، الذي كان أمر سوق مدينة جادو في جبل نفوسة اليه فكان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأذن لمن يشاء بالبيع في السوق ، ويمنع عنه من في ماله شبهة ، ولا شك أن مثل هذا موجود في جميع مدن الدولة الرستمية وأسواقها وقد لاحظ الدكتور لقبال موسى[10] أن مجتمعا محافظا مثل مجتمع الاباضية آنذاك لابد أن يحرص أفراده على قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة العادات السيئة ، وبالتالي مراقبة الأسواق والمعاملات التجارية القائمة فيها .

ب ـ مستوى المعيشة :

إن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته الدولة الرستمية خلال تاريخها الطويل ، رغم بعض الفتن التي هزت بعض المناطق منها ، كمنطقة العاصمة تيهرت ، في فترات معينة محدودة بسبب اختلافات فقهية ، أو تنافس اجتماعي سياسي ، كان لذلك الازدهار أبرز الأثر وأوضحه على المجتمع الرستمي كافة والتيهرتي خاصة . وكان للمال الدور الأساسي في تكوين شخصية الدولة الرستمية ورسم تاريخها كما تقول الدكتورة وداد القاضي[11] .

فلا شك أن النشاط الزراعي والتجاري ، ووفرة أسباب الحضارة والرقي

(8) ابن الصغير : ص 27 ، الشماخي : سير ، ص 192 ، 221 .
(9) الشماخي : ص 333 ـ 334 .
(10) لقبال موسى : المرجع السابق ، ص 16 .
(11) وداد القاضي : ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ، مجلة الاصالة عدد 45 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1395هـ/1975م ، ص 50 .

من شأنها أن ترفع مستوى المعيشة في الدولة ، الأمر الذي تترتب عنه تحولات جذرية في المجتمع ونسيجه ، كظهور الطبقية من أغنياء وفقراء وعبيد ، وتحول أعداد من البدو الى المدن . وسكنام بها ودخولهم شريحة الحضريين .

ففي عهد الامام الأول عبد الرحمن بن رستم ، تطورت تيهرت واتسعت اتساعا فجائيا نكاد لا نصدقه ، اذ استغرق ثلاث سنوات فقط ، وهي الفترة التي تفصل ما بين المساعدة المشرقية الأولى ، التي انتعش بها الفقير وحسنت أحوال الناس في البلاد فشرعوا في العمارة والبناء وغرس البساتين[12] ، وبين المساعدة الثانية التي رفضها المجتمع لبلوغه مستوى معيشيا مقبولا يشهد عليه ما وجدته رسل المشرق من تطورات وتغييرات لم يشاهدوها في زيارتهم الأولى ، اذ « نظروا الى قصور قد بنيت ، والى بساتين قد غرست والى ارحاء قد نصبت ، والى خيول قد ركبت ، والى حفدة قد اتخذت السور[*] ، والعبيد والخدام قد كثرت »[13] .

واذا كانت الرسل قد وجدت في الزيارة الأولى عبد الرحمن بن رستم يطين بنفسه شقوقا في جدار بيته المتواضع ، الذي لا يضم شيئا سوى وسادة ينام عليها ، وسيفا ورمحا وحصيرا فوقه جلد ، فانهم في زيارتهم الثانية قصدوه الى قصر له وهم مرتابون من سيرته شاكون في صلاحه ، لما هالهم من حضارة البلد وعمرانه ، الامر الذي ظنوا فيه فساد النفوس والاخلاق . ثم إن الغرباء من أهل المشرق والمغرب لا يقصد الواحد منهم

(12) يذكر ابن الصغير : جنانا في تيهرت يعرف بجنان الأمير يقضي فيه الامام وغيره بعض أوقاتهم للنزهة . ويبدو أن جمال تيهرت وكثرة بساتينها وجناتها هي التي أوحت للمقدسي بأن يصفها بالطيبة النزهة . أنظر سيرة ابن الصغير ، ص 34 ـ 35 ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص 215 .

(*) لعل المقصود باتخاذ السور هو اتخاذ الابنية اذ السور هي كل منزلة من البناء ، أنظر لسان العرب ، م2 ، ص 237 مادة «سور» .

(13) ابن الصغير : ص 14 .

العاصمة الرستمية الا ابتنى فيها واستوطنها كما يقول ابن الصغير[14] ، أو يستطيبها وينتعش فيها كما يقول المقدسي[15] . وذلك لما يجد فيها من رخاء وأمن ورقي وحسن سياسة .

وكانت سياسة عبد الرحمن سياسة داخلية ترمي الى الرقي الاقتصادي والاجتماعي ، واقامة دعائم دولة قوية ثابتة[16] . وقد نجح في ذلك الى أقصى حد حتى أن ابنه عبد الوهاب عندما تولى الحكم بعده وجد الدولة على أقوى ما تكون الدول في سياستها الداخلية ، فحول نظره الى السياسة الخارجية من مركز القوة ، يريد التوسع وتوفير الأمن لجميع رعاياه من الاباضية في المغرب العربي . ومما يدل على رخاء البلد في عهده ، وسعة الرزق الذي شمل جميع البلاد ، أنه لما انتقل الى جبل نفوسة يريد الحج استقر في دار أحد النفوسيين فوجدها ، كما تقول المصادر الاباضية ، دار ذي نعمة وبسطة وسعة رزق ، فخلع صاحبها على الامام والوفد المرافق له ثيابا جديدة ، وفرش لهم فرشا وثيرة ، وأحضر لهم أطعمة حفيلة ، وأظهر لهم من صنوف البر ما استحسنه الامام غاية الاستحسان[17] .

ان هذه الرواية التي تصور لنا المستوى المعيشي الذي بلغه أهل جبل نفوسة ، وهم المشهود لهم بالزهد في الدنيا ، والتخلي عن نعيمها لا تدل الا على وجود مثل ذلك في جميع البلاد ، حتى وان كانت مصادرنا لا تزودنا بشيء في هذا الخصوص عن باقي المدن الرستمية .

ولعل أزهى عصور الدولة الرستمية ، وأوفرها أسبابا للرقي والحضارة هو عصر الامام الثالث أفلح بن عبد الوهاب ، الذي ورث دولة ، اهتم بسياستها الداخلية جده عبد الرحمن ، وبسياستها الخارجية أبوه عبد

(14) ابن الصغير : ص 11 ـ 15 ، الشماخي : سير ، ص 140 .

(15) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص 228 .

(16) الكعاك : موجز ، ص 189 .

(17) أبو زكرياء : سير ، ص 73 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 64 .

الوهـاب ، فـلا غرابـة ، اذن ، أن تـزهـو أيـامـه ، وتكثر النعم وتعم جميع طبقات الشعب وشرائحه وتبلغ الدولة ذروة ازدهارها انطلاقا من عاصمتها تيهرت ففي مدة حكم أفلـح الطـويلـة التي امتـدت خمسين عـامـا ، حسب رواية ابن الصغير ، انتقلت الدولة الرستمية الى دور التضخم العمراني في كل النواحي فهي مركـز زراعي هـام ، وملتقى تجـاري ذو شـأن ، وذات وزن سياسي في تصـاعـد مستمر[18] . انعكس عن هـذا كلـه تطـور في الحيـاة الاجتماعية ، حيث كثرت الأمـوال بـأيـدي النـاس ، فتنـافسـوا في البنيـان وأجراء الأنهـار في البسـاتين فبنت نفوسـة بتيهرت قصـورهـا ، وبنى الجنـد القـادمـون من افريقيـة المـدينـة العـامرة تيهرت ، كما بنى العجم الـدور والضيـاع[19] . وكان الثراء في هـذه الفئـة الأخيرة أوضـح منـه عنـد غيره ، لذلك تميزوا ببناء القصور ، فابتنى أبان وحموية قصرين معروفين لها واتخـذا أعدادا من العبيـد والخدم ، كما كان لمقدم العجم ويـدعى ابن وردة ، سوق يعرف باسمه ، كان صاحب شرطة أفلح لا يدخله هيبة منه[20] .

والحقيقة ان هذا الثراء كان عاما ، شمل جميع القبائل حتى البدوية منها المنتشرة حـول مـدينـة تيهرت اذ « اكتسبت الأمـوال واتخـذت العبيـد والخيول...(و) نالها من الكبر ما نال أهل المدينة »[21] الى درجـة أن الامـام أفلـح نفسـه خـاف من اجتماع الايـدي عليـه بعـد اجتماع الثروة عنـد تلك القبائل .

ومن مظـاهر الرخـاء الاجتماعي والاقتصـادي في عهـد أفلـح وارتفـاع مستوى المعيشة في الدولة ، أن الامام أحدث نظاما لاطعـام الفقراء في أيـام

(18) احسـان عباس : المجتمع التاهرتي ، نفس المجلة المذكورة ، ص 24 .

(19) ابن الصغير : ص 26 ـ 27 .

(20) نفسـه : ص 27 ، احسـان عباس ، المجلة السـابقة ، ص 30 .

(21) نفسـه : ص 27 .

معلومات كانت تعرف بأيام الجفان ، فبنى جفانا وأطعم فيها[22] . فلا شـك أن لهـذا النـوع من الاطعـام أكبر الأثر على المجتمع خـاصـة الفقراء منـه والمحتاجين . والواقع أن الفقر ، كما يقول الدكتور احسان عباس[23] ، بمعنـاه العام ، لم يكن داء يهدد المجتمع الرستمي في يوم من الأيـام ، أو يتعـذر فيـه عـلاجـه لأن الحكام الرستميين منـذ الامـام الأول ، كانـوا يسلكـون سيـاسـة اسلامية راشدة كفيلة بأن تنعش جميع فئات المجتمع . وقـد سـار على منوالـه جميع الأئمة لتمسكهم بطرق الشريعـة تطبيقـا دقيقـا ولسيرهم الفـاضلـة في خاص حياتهم ، ثم لوجود الشراة الـذين لم ينفكوا قـائمين بـالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مراحل الحكم الرستمي .

لقـد عرف المجتمـع الرستمي كل أسبـاب الازدهـار ، وهي نتيجـة حتميـة لازدهار الزراعة والصناعة والتجارة . ولا أدل على ذلك من مسايرة الامـام أفلح نفسـه لذلك الـذوق العـام الموجود بـالمجتمع ، حيث ابتنى لنفسـه قصورا واتخذ حجابا وحشما واحتاط لنفسه باتخاذه بابا من حـديـد[24] . ولم يتوقف ههنا وهو الامام القدوة لجماعة الاباضية ، وانما راح يقلـد الملوك في سيرهم ، حتى أصبح ذلك مطمعنا فيه بيـد أحـد تلامـذتـه الـذين أخـذوا عنـه الفقـه والعلوم ، وهو نفاث بن نصر النفوسي الذي قـال لقومـه فيـه بـأنـه « أضـاع أمـور المسلمين ويـزيـد في الحلقـة اذا مشى ويلبس الطرطـور ، ويخرج الى الصيد ، ويصلي بالأشبور[*] »[25] .

(22) ابن الصغير : ص 26 ، بعد أن يتحدث ابن الصغير عن بناء الجفان وأيام الجفان يضيف قـائلا « وقـد تقـدم ذكرها » وهو في الحقيقة لم يذكرها قبل ذلك فلعل كتابه غير كامل أو توهم أنه قد ذكرها سابقا وقد فـاتتنـا بهـذا معلومات لا شك أنها تكون قيمة عن أيـام الجفـان ومعنى بني الجفـان بـدلا من صنع الجفـان ان كانت خشبيـة أو خزفية ولكن الراجح أنها من الفخار الا أنها من الكبر بحيث بنيت بنـاء مستقرة في مكانها لا تتحرك . والجفن كما يقول ابن منظور هو أعظم ما يكون من القصاع ، أنظر لسـان العرب ، ج1 ، ص 474 .

(23) احسـان عباس : المجتمع التاهرتي ، نفس المجلة ، ص 28 ـ 29 .

(24) ابن الصغير : سيرة ، ص 26 .

(*) الطرطور والأشبور كلمتـان لم أتمكن من معرفـة معنيهما بـالضبـط ، وظـاهر من النص أنها نوع من اللبـاس الفاخر ، ولم يذكرهما صاحب لسـان العرب .

(25) أبو زكرياء : سير ، ص 92 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 78 .

والواقع أن نفاث بطعنه في الامام أفلح ، لم يكن يساير مراحل تطور المجتمع الذي يعيش فيه ، ولم يستطع أن يهضم ما يراه من تغييرات جذرية وسريعة في بلده ، وانقلاب حقيقي غيّر المجتمع الذي كان يعيش فقيرا بدويا الى مجتمع ثري تمكنت فيه الحضارة ، فلا بد للامام أن يظهر أمام رعيته بالمظهر الذي يتماشى وذوق تلك الرعية ، وكان الذوق العام السائد في المجتمع الرستمي ، آنذاك كما يصوره لنا ابن الصغير وهو أحد الأفراد فيه قائلا لقد «عمرت مع أفلح الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات » حتى أطغت أهل الحواجر(*) والبوادي »[26] .

لقد كان لخوف أفلح من توفر الأموال في أيدي القبائل البدوية اذن وجه من الصواب ، إذ أصبحت كما توقع فعلا تتكبر وتريد منافسته في ملكه وازالته منه . والواقع أن ابن الصغير يشير هنا الى أمر خطير وهو بداية تفاقم الرخاء الاقتصادي وتحوله الى ضده . فاذا كان الفقر لم يهدد المجتمع الرستمي في يوم من الأيام ، كما قلناه سابقا ، فان الثراء ووفرة الأموال ، بالعكس من ذلك ، كانا أهم سلاح بيد أعداء الرستميين الذين أرادوا أن يبيتوا خبر الاباضية ويطفوهم خاصة بعاصمتهم تيهرت حيث التجارة الرائجة والأموال النافقة .

أما في جبل نفوسة حيث المشائخ والشراة من الاباضية فانه هو الآخر قد أصابته النعم في ظل الرستميين ، واشتغل سكانه بالدنيا التي أقبلت عليهم رغم تحفظهم الشديد ، ويصور لنا أحد المشائخ في ذلك الجبل مجتمعه بأسف شديد ويقول « قد أدركنا الناس الذين همُ الناس محادثتهم ذكر الله تعالى وزيارتهم في الله تعالى ، ومعانقتهم في الله تعالى ومحبتهم في الله تعالى ،

(*) أهل الحواجر ربما أهل الحجر وهم سكان البادية في مواضع الاحجار والرمال . أنظر ابن منظور : لسان ، م1 ، مادة حجره ص 571 .

(26) ابن الصغير : سيرة ، ص 26 ـ 27 .

وبقينا حتى أدركنا ناسا محادثتهم ذكر الدنيا وزيارتهم لتقاضي الحوائج ومعانقتهم نطاح »[27] .

لقد غزت الحضارة الجبل ، فاهتم الناس بالتجارة والاكتساب ، وهو التيار السائد في العهد الرستمي ، وأراد المشائخ الوقوف أمامه لكنهم لم يستطيعوا لان أسبابه موجودة ، وكل العوامل تؤدي اليه . فاذا كان الشيخ النفوسي في القرن الثالث الهجري يستغيث من اقتحام الحضارة والرخاء ديار نفوسة ، ويرى في ذلك ابتعادا عن الدين أو تقصيرا فيه ، فان الشيخ أبا يعقوب يوسف الوارجلاني في القرن السادس الهجري ـ نستأنس بكلامه في هذا المقام ـ يفتخر بما وصله بلده وارجلان ، بتداول الذهب فيه وعبور القوافل عبر أراضيه ، وينظر بعين الرضى الى الرخاء الاقتصادي والاجتماعي فيقول في قصيدته الحجازية[28] :

حَلَلْنَا بِوَادِ الْخَيْرِ وَاللَّحْمِ وَالقِرَى ... بهَاتاً وَهَاتاً فِي الصَّحَارِي الْمَنَاكِرِ
جَزَى اللهُ عَنَّا وَارَجْلاَنَ خَيْرَمَا جَزَى ... بِهِ بَلَدًا عَنْ طَالِبِ الْخَيْرِ سَائِرِ
هُوَ الجَنَّةُ الدُّنْيَا وَأَبوابُ مَكَّة ... وَأَبوابُ تِبرِ غَانَةَ والدَّنَانِرِ

إن هذه الجنة التي يتحدث عنها الوارجلاني ، والتي عاشها المجتمع في وارجلان في القرن السادس الهجري ، ليست وليدة ذلك القرن ، وانما هي بدون شك تعود في جذورها الى العهد الرستمي . وقد لاحظ الادريسي غنى سكان وارجلان ، في القرن الخامس الهجري ، فقال عن البلد « هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء »[29] .

(27) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 305 ، الشماخي : سير ، ص 215 .

(28) الوارجلاني أبو يعقوب يوسف : القصيدة الحجازية (مخطوط) ورقة 14 ـ 15 وأنظر كذلك عمرو خليفة النامي : ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري ، مجلة الاصالة ، عدد 42 ـ 43 مطبعة البعث قسنطينة ، 1397هـ/1977م ، ص 31 .

(29) الادريسي : وصف ، ص 89 .

وإذا كانت وارجلان ، انما ورثت هذا الازدهار منذ العهد الرستمي فكانت بذلك المستوى المعاشي الذي يوجب الافتخار بسبب التجارة مع السودان ، فلا شك أن مدنا مثل تنس ووهران وغيرها قد عرفت مجتمعاتها حياة الرخاء بفعل التجارة البحرية مع الأندلس ، أو بسبب وفرة الماشية والمنتوج الزراعي ، وقد بلغت الدولة فيها نشاطا واسعا .

لقد كان للازدهار الاقتصادي ، وتوفر الأموال بيد الناس ، نتيجتان إحداهما ايجابية ، والأخرى سلبية : أما النتيجة الأولى فارتفاع مستوى المعيشة بسبب السياسة الحكيمة التي اتبعها الأئمة الأوائل من الحكام الرستميين فعمت الحضارة والرقي الاجتماعي جميع شرائح السكان في الدولة واتسعت اسباب الاكتساب والارتزاق بفعل المركز الجغرافي المتوسط الذي تحتله الدولة الرستمية في المغرب العربي ووجودها كنقطة اتصال أساسية بين المغرب الأقصى من جهة والمغرب الأدنى المتصل بالمشرق من جهة أخرى وبين بلاد الأندلس من جهة وبلاد السودان من جهة ثانية ، هذا مع ازدهار الزراعة وتنوعها والتمكن في العديد من الصناعات التي سبق أن ذكرناها .

لقد انعكس عن هذا الثراء والحضارة الراقية التي غمرت المجتمع الرستمي نتيجة سلبية على المجتمع نفسه أولا ، وعلى الوجود الرستمي ثانيا اذ استغل البعض ذلك الثراء لخدمة مصالحهم الضيقة ، وضرب السلطة التي بسياستها اللينة ، وسوقها المفتوحة ، تمكنوا من اكتناز تلك الأموال ، فكانت أيام الأئمة الأواخر أيام نزاع مستمر بين السلطة الحاكمة وبين الأغنياء الذين تفاقم غناهم وتجاوز قدرة الحاكم السياسية . وربما لضعف شخصية هذا الأخير أي الحاكم ، جانب من المسؤولية في ذلك الصراع الذي استمر في نخر جسم الدولة الرستمية شيئا فشيئا . ولما تمكنت الحضارة من المجتمع ، مع غياب الرقابة بفعل الفتن والمنازعات الأخيرة ، التي شهدتها البلاد ، فسد أهل تيهرت ،

فانغمسوا في حياة اللهو والمجون[30] . واستباحوا المحرمات فاتخذوا المسكر أسواقا والغلمان أخدانا[31] . وكما تطرق الفساد الى أهل العاصمة فكذلك أصاب أهل شروس ، أم قرى جبل نفوسة ، الذين تعاطوا شرب الخمر[32] . وكلما قويت السلطة الحاكمة واسترجعت قواها ، ضربت بيد قوية على الفساد ، كذلك كان الحال بالنسبة لعهد الامام أبي اليقظان وأبي حاتم . ولكن سرعان ما تعود الامور الى رداءتها لتفاقم جرثومة الفساد وتمكنها من جسم الدولة والمجتمع .

والحقيقة أن المستوى المعاشي الراقي الذي بلغته الدولة الرستمية في عهد فيض حضارتها ، وفي الوقت الذي لم يكد فيه مجتمعها يخرج من بداوته بفعل السرعة التي استغرقته عملية التغيير والحضارة ، قد حكم على المجتمع بالشتات وعلى العمران بالخراب ، فأهدرت الأموال بالباطل وقضى على حضارة قامت مزدهرة في المغرب الأوسط والأدنى مدة قرن وأكثر من ثلث قرن فكان رخاء البلاد وهناؤه أم عاملين جلبا للدولة كما يقول الاستاذ ج. كنال (Canal J.)[33] الحسود الذين أرادوها بسوء ، انطلاقا من عاصمتها تيهرت ودرعها الواقي جبل نفوسة .

ولعل ابن حوقل هو أحسن من وصف العاصمة الرستمية وحياة سكانها الفقيرة بعد زوال الحكم الرستمي عنها باكثر من نصف قرن ، مع الاشارة الى ما كانت عليه من رخاء ، اذ يقول « وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتلى والموت »[34] .

(30) ابن تاوت محمد : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، المجلة المذكورة ص 122 .
(31) ابن الصغير : ص 56 .
(32) الشماخي : سير ، ص 273 .
(33) Canal J. : Tiaret, opcit, p. 12
(34) ابن حوقل : صورة ، ص 96 .

. وإذا كانت المصادر لا تشير الى مدى مساهمة الثروة والازدهار الاقتصادي في الحياة الفكرية فلعل كثرة المساجد بتيهرت[35] وانفاق الأغنياء على طلبة العلم ومدرسيهم[36] ، وجلب الكتب من المشرق ، خاصة من البصرة التي تعتبر المركز الام للاباضية[37] ، تشكل أهم المعالم في مساهمة الرخاء الاقتصادي في الحياة الفكرية واحيائها . ولعل دار الضيافة التي استقبل فيها علماء نفوسة في عهد الامام عبد الوهاب ، وأجريت لهم فيها نفقاتهم[38] ، كانت مقر الشعراء والأدباء وأصحاب أخبار الماضين الذين عني بهم الامام أبو بكر بن أفلح وهو الوحيد ، من بين الأئمة الرستميين الذين تذكرهم المصادر كلها ، له شغف وحب بالاداب والاشعار والتواريخ . وكان على ما يبدو ، يقدم الهدايا لهؤلاء ، ويجود عليهم وهو ما يمكن أن نستشفه من كلام ابن الصغير ، الذي احتفظ لنا وحده بتلك الشهادة ، عندما يقول « فلما ولي أبو بكر لم تكن فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه ولكن كان سمحا جوادا لين العريكة يسامح أهل المروءات ويشايعهم على مروآتهم ويحب الاداب والاشعار وأخبار الماضين »[39] . فلا شك أن المصادر الاباضية التي التزمت الصمت ازاء هذا الامام ، ولم تدرجه في سلك مشائخها كان بسبب عدم شدته في الدين كسابقيه ، وميله الى علوم لم تهتم بها كثيرا لأنها ألفت لغرض ذكر مناقب الأئمة والمشائخ والفقهاء .

هذا حظ الثقافة من الرخاء الاقتصادي ، الظاهر منه على الأقل ولعل جوانب أخرى ستكشف لنا في الباب الثالث من هذا البحث .

---

(35) ابن الصغير : ص 57 .

(36) المزاتي أبو الربيع : سير ، ص 86 ـ 87 .

(37) أبو زكرياء : سير ، ص 65 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 56 ـ 57 .

(38) أبو زكرياء : سير ، ص 69 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 59 .

(39) ابن الصغير : سير ، ص 31 .

الباب الثالث

الحياة الفكرية

﴿ تمهيد ﴾

يعتبر القرنان الثاني والثالث للهجرة ، انطلاقة حقيقية في ميادين الفكر والثقافة والعلوم المختلفة بالبلاد العربية الاسلامية ، مشرقها ومغربها[1] اذ في هذين القرنين ، برز العلماء في العلوم النقلية من تفسير وحديث وفقه وعلوم عقلية بدأت تتطور وتنمو كلما تقدمت الأيام ، وأخذت الحياة الفكرية في البلاد العربية الاسلامية تتبلور ، لتأخذ شكلها التام ، في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولما كانت الدولة الرستمية قد نشأت ، من حيث الزمان في تلك القرون الأولى من تاريخ العرب والمسلمين الفكري[2] ومن حيث المكان في المغرب العربي ، اذ هي من الدول الأولى التي انفصلت عن المشرق في ذلك التاريخ المبكر ، انفصالا سياسيا ، فان كل ما قدمه أبناء المغربين الأوسط والأدنى تحت ظل هذه الدولة في الميدان الفكري ، يعتبر جديدا في المغرب العربي .

لقد كان للرستميين دور بارز في الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط خاصة ولا نبالغ اذا قلنا بالمغرب العربي . فلقد حملت هذه الدولة ، كما يقول الأستاذ ابن تاويت الطانجي ، « مشعلا عظيما للحضارة والعلم في الشمال الافريقي فكانت تلي القيروان في ذلك »[3] . وما كان لفاس ، عاصمة

(1) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج2 ، ط5 ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، 1956م ، ص 8 ، 11 ، وما بعدها وأنظر كذلك : Bekri Chikh: Kharijisme berbere, opcit, o. 82

(2) الميلي : تاريخ الجزائر ، ج2 ، ص 67 .

(3) ابن تاويت الطانجي : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات ، مدريد ، م5 ، ع1 ـ 2 ، ص 126 .

الأدارسة أن تبلغ مبلغ تيهرت الرستمية في الحياة الفكرية ، الدينية منها خاصة ، بل لقد كانت تيهرت في رأي الاستاذ بكري[4] ، من الناحية الثقافية ، بارزة جنبا الى جنب مع القيروان وقرطبة ، أكبر عاصمتين مغربيتين في تلك الفترة ، تحاكيها وتنافسها .

والحقيقة أن الرستميين ، بحكم ثقافتهم الواسعة ، شجعوا الحركة الفكرية ، فنشطت تيهرت في هذا الميدان ، كما نشطت في الميادين الأخرى وطار صيتها في الآفاق مباشرة بعد تعميرها حتى دعيت « عراق المغرب وبلخ المغرب ، الحاقا بها في المعارف والعمران والحضارة »[5] ، واذا كانت تيهرت ، قد برزت كمركز ثقافي مشهور في المغرب العربي ، خلال القرن الثالث الهجري[6] ، فان ذلك راجع الى كونها عاصمة دولة مستقلة ، عرفت نشاطا باهرا في مختلف الميادين ، اضافة الى بعض المراكز الثقافية التابعة لها ، وكان أبرزها جبل نفوسة وقراه ، ويعتبر كهف العلماء ومقصدهم ويشكل جزءاً كبيراً من التاريخ الثقافي في المغرب . ولا أراه يحوز على هذه المرتبة العليا ، الا لأن علماءه احتفظوا بتاريخهم ، وكان في بعض الأحيان على حساب العاصمة تيهرت نفسها ، فضلا عن المراكز الأخرى كوارجلان وبلاد الجريد وبلاد سوف وأريغ ، وفي فترة متأخرة مدينتي تنس ووهران وغيرهما .

ولعل من أبرز الحياة الثقافية في الدولة الرستمية ، ما قامت به هذه الدولة من تعميق لجذور الاسلام في نفوس المغاربة ، يتجلى ذلك ، كما

(4) Bekri Chikh : Ibid, p. 95 .

(5) الميلي : المرجع السابق ، ج2 ، ص 76 ، الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج1 ، ص 231 .

(6) الجنحاني : تاهرت ، المجلة التونسية ، عدد 40 ـ 43 ، ص 40 أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج1 ، مطبعة خلف ، القاهرة ، 1377هـ/1958م ، ص 294 ، 296 . محمود اسماعيل : الخوارج ص 222 ـ 223 . وأنظر الفردبل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي 1969 ، ص 149 .

سوف نرى ، في اهتمام الناس بهذا الدين دراسة وعبادة وسلوكا . فاذا كان المؤرخون يتفقون على أن المغرب العربي ، تعرب بفعل هجرات قبائل بني هلال وبني سليم وغيرهما ، أو كاد في القرن الخامس الهجري[7] ، فان كثيرا من المغاربة دخل الاسلام أفواجا ، على مذهب الخوارج الاباضية والصفرية اذ رأوا فيهما الاسلام الحقيقي كما يقول شيخ بكري[8] . فليس من المبالغة اذن ان نقول مع ألفرد بل إن دعاة الخوارج « كانوا خير رسل للاسلام في بلاد المغرب منذ بداية القرن الثاني للهجرة »[9] . وكان للاباضية الدور البارز في ذلك ، بعكس دورهم الذي لا يكاد يظهر في المشرق العربي . فمن خلال الدولة الرستمية ، تركت الاباضية النفوذ الأكثر بقاء ودواما تضاهي في ذلك ما تركته الصفرية .

ولقد آثرنا تفصيل الكلام حول اسلام البربر في هذا التمهيد لانه يشكل فعلا تمهيدا للحياة الفكرية في الدولة الرستمية ، التي نشطت فيها العلوم الدينية وازدهرت أكثر من اية علوم أخرى .

فما مظاهر الحياة الفكرية في هذه الدولة ؟ وما مدى تأثيرها وتأثرها ؟ ومن أبرز العلماء فيها ؟ هذه الأسئلة وغيرها من التساؤلات الأخرى ، سوف نتطرق اليها في فصول الباب ومباحثه .

(7) الكعاك : موجز ، ص 287 ـ 288 ، الميلي : تاريخ الجزائر ، ج2 ، ص 218 ، الجيلالي : تاريخ ، ج1 ، ص 386 ، بونار رابح : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971م ، ص 200 ـ 283 ، الفريد بل : المرجع السابق ، ص 214 ـ 215 .

(8) Bekri Chikh : Ibid, p. 106 .

(9) الفريد بل : المرجع السابق ، ص 147 .

أَبَا حَاتِمٍ مَا كَانَ مَا كَانَ بَغْضَةً   وَلَكِنْ أَتَتْ بَعْـدَ الأُمُـورِ أُمُـورُ
فَـأَكْرَهَنِي قَـوْمٌ خَشِيتُ عِقَـابَهُمْ   فَـدَارَيْتُهُم وَالـدَّائِرَاتُ تَـدُورُ
وَأَكْرَمُ عَفْـوٍ يُـؤْثِرُ النَّـاسُ أَمْرَهُ   إِذَا مَـا عَفَـا الإِنْسَـانُ وَهُوَ قَـدِيرُ

واشتهر بكر بشعر الزهد والتصوف ، حتى ليشبهه البعض بأبي العتاهية[278] ، اعتقاداً منهم بأنه تأثر به أثناء رحلته الى المشرق[279] . وفي هذا الغرض من الشعر يقول بكر بن حماد[280] :

زُرْنَـا مَنَـازِلَ قَـوْمٍ لاَ يَـزُورُونَـا   إِنَّـا لِفِي غفلـةٍ عَمَّا يُقَـاسُونَـا
لَوْ يَنْطِقُونَ لَقَالُوا : الزَّادَ وَيْحَكُمْ   جَدَّ الرَّحِيلُ فَمَا يَرْجُو الْمُلاَقُونَا ؟
الْمَوْتُ أَصْبَحَ بِالدُّنْيَا يُخَرِّبُهَا   وَفِعْلُنَـا فِعْلُ قَـوْمٍ لاَ يَمُـوتُـونَـا
فَالآنَ فَابْكُوا ، فَقَدْ حَقَّ الْبُكَاءُ لَكُمْ   فَـالحَـامِلُونَ لِعَرْشِ اللهِ بَـاكُـونَـا

وله في أخرى[281] :

قِفْ بِالْقُبُورِ فَنَادِ الْهَامِدِينَ بِهَا   مِنْ أَعْظُمٍ بَلِيَتْ فِيهَـا وَأَجْسَـادِ
قَـوْمٌ تَقَطَّعَتِ الأَسْبَـابُ بَيْنَهُمُ   مِنَ الوِصَالِ وَصَارُوا تَحْتَ أَطْوَادِ
رَاحُوا جَمِيعاً عَلَى الأَقْدَامِ وَابْتَكَرُوا   فَلَنْ يَرُوحُوا وَلَنْ يَغْدُو لَهُمْ غَادِي
وَاللهِ وَاللهِ لَـوْ رُدُّوا وَلَـوْ نَطَقُـوا   إِذاً لَقَالُوا : التُّقَى مِنْ أَفْضَلِ الزَّادِ

وبعد أبيات يقول :

أَيْنَ الْبَقَـاءُ وَهَـذَا المَـوْتُ يَطْلُبُنَـا   هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا بَكْرَ بْنَ حَمَّادِ
بَيْنَـا تَرَى الْمَرْءَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعَبٍ   حَتَّى تَرَاهُ عَلَى نَعْشٍ وَأَعْـوَادِ

---

(278) هو أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم المعروف بأبي العتاهية ، نشأ بالكوفة وسكن بغداد واشتهر كشاعر في فلسفة الزهد ، توفي سنة 211هـ ، أنظر ابن خلكان : وفيات ، ج1 ، ص 219 وما بعدها .

(279) محمد شاوش : الدر الوقاد ، ص 56 ـ 57 ، الكعاك : موجز ، ص 213 ـ 214 ، رابح بونار : المغرب العربي ، ص 133 .

(280) الدباغ : معالم الايمان ، ج2 ، ص 283 ، وأنظر محمد شاوش : الدر الوقاد ، ص 90 .

(281) الدباغ : معالم الايمان ، ج2 ، ص 283 ، وأنظر شاوش : الدر الوقاد ، ص 80 ـ 82 .

ثم يقول :

فِي كُلِّ يَـوْمٍ نَرَى نَعْشـاً نُشَيِّعُـهُ   فَرَائِحٌ فَـارَقَ الأَحْبَـابَ أَوْ غَـادِي
الْمَـوْتُ يَهْـدِمُ مَـا تَبْنِيـهِ مِنْ فَرَحٍ   فَمَا انْتِظَـارُكَ يَـا بَكْرَ بنَ حَمَّادِ ؟

وكان الشاعر بكر كثير العلاقة بالملوك والأمراء ، يمدحهم ويهجوهم حتى كان ينال منهم ما يرجوه ، وقد تجرأ وهجا الخليفة العباسي المعتصم (218 ـ 227هـ) رغم أن هذا وصله بصلات جزيلة[282] ، كما وصله الأمراء الأغالبة[283] ، والأدارسة على حدّ سواء[284] .

ولعل أحسن ما يمكن اثباته من شعر بكر بن حماد قصيدته الهجائية التي رد بها على عمران بن حطان[285] ، وعارض بها قصيدته التي يهجو فيها الامام علي بن أبي طالب (ض) ويمدح قاتله عبد الرحمن بن ملجم[286] .

يقول بكر بن حماد[287] :

قُـلْ لابْنِ مُلْجِمٍ وَالأَقْـدَارُ غَـالِبَـةٌ   هَدَمْتَ وَيْلَـكَ لِلإِسْلاَمِ أَرْكَـانَـا
قَتَلْتَ أَفْضَـلَ مَن يَمْشِي عَلَى قَـدَمٍ   وَأَوَّلَ النَّـاسِ إِسْلامـاً وَإِيمَـانَـا
وَأَعْلَمَ ، النَّـاسِ بِـالقُرآنِ ثُمَّ بِمَـا   سَنَّ الرَّسُولُ لَنَـا شَرعـاً وَتِبيَـانَـا
صِهْرَ النَّبِيِّ وَمَـوْلاَهُ وَنَـاصِرَهُ   أَضْحَتْ مَنَـاقِبُـهُ نُـوراً وَبُرهَـانَـا

---

(282) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 154 ، شاوش الدر الوقاد ، ص 46 ، 67 ـ 69 .

(283) ابن الآبار : الحلة ، ج1 ، ص 174 .

(284) ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 236 ـ 237 ، شاوش : الدر الوقاد ، ص 51 .

(285) عمران بن حطان : تابعي مشهور وأحد رؤوس الخوارج ، أدرك صدرا من الصحابة وروى عنهم وهو شاعر فصيح من شعراء الشراة ودعاتهم أنظر ترجمته في الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 226 ـ 236 ، والأصفهاني : الأغاني ، ج18 ، ص 50 ـ 61 ، البغدادي : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ج2 ، ط1 ، بولاق ، بلا تاريخ ، ص 436 .

(286) عن قصيدة عمران بن حطان في هجاء الامام علي (ض) ومدح ابن ملجم أنظر المصادر السابقة ما عدا الدرجيني وفي نفس الصفحات يقول في بيت :

أمسى عشية غشاه بضربته ☆ مما جناه من الآثام عريانا

(287) السبكي : تاج الدين ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج1 ، ص 288 ـ 289 ، البغدادي : خزانة ، ج2 ، ص 436 ، شاوش محمد : الدر الوقاد ، ص 62 ـ 64 .

وَكَـانَ مِنْـهُ عَلَى رَغْمَ الحَسُودِ لَـهُ   مَكَانَ هَـارُونَ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَا
وَكَانَ فِي الْحَرْبِ سَيفاً صَارِماً ذكَراً   لَيْثـاً إذَا لَقَى الأَقْرَانَ اقْرَانَـا
ذَكَرْتُ قَـاتِلَـهُ وَالـدَّمـعُ مُنْحَـدِرٌ   فَقُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّ النَّاسِ سُبْحَانَا
إِنِّي لأَحْسَبُـهُ مَـا كَـانَ مِنْ بَشَرٍ   يَخْشَى الْمعَادَ وَلَكِنْ كَانَ شَيْطَانَا
أَشْقَى مُرَادٍ إِذَا عُـدَّتْ قَبَـائِلُهَـا   وَأَخْسَرُ النَّـاسِ عِنْـدَ اللهِ مِيزَانَـا

ثم يضيف :

فَـلاَ عَفَى اللهُ عَنْـهُ مَـا تَحَمَّلَـهُ   وَلاَ سَقَى قَبْرَ عِمْرَانَ بْنِ حَطَّـانَ
بقَـولِـهِ فِي شَقِيٍّ ظَـلَّ مُجْتَرِمـاً   وَنَـالَ مَـانَـالَـهُ ظُلْماً وَعُـدْوَانَـا
يَـاضَرْبَـةً مِن كَمِّي مَـا أرادَ بهَـا   إلاَّ لِيبْلُـغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْـوَانَـا
بَـلْ ضَرْبَـةً مِنْ غَـوِّي أَوردَتْـهُ لَظَى   مُخَلَّـدًا قَـدْ أَتَى الرَّحمَنَ غَضْبَـانَـا
كَـأَنَّـهُ لَمْ يُرِدْ قَصْـداً بِضَرْبَتِـهِ   إلاَّ لِيَصْلَى عَـذَابَ الخُلْـدِ نِيرَانَـا

ويكفي تعليق السبكي على هذه القصيدة قوله «... لقد أحسن وأجاد بكر بن حماد التاهرتي في معارضته»[288] .

ومما يدل على اهتمام التيهرتيين بالأدب ، والشعر خاصة ، وله علاقة الاستمرارية بما كان سائدا في تيهرت في القرن الثالث الهجري مارواه ابن خلكان عن شاعر تيهرتي ، لم يذكر اسمه ، قال بأنه قصد ابن نباتة الشاعر[289] في المشرق ليسأله عن هذا البيت :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ   تَنَوَّعَتِ الأَسْبَابُ وَالدَّاءُ وَاحِدُ

وقد تعجب ابن نباتة نفسه من وصول شعره الى المغرب العربي[290]

(288) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج1 ، ص 288، البغدادي : خزانة الأدب ، ج2 ، ص 437 .
(289) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباتة كان شاعرا مجيدا من شعراء سيف الدولة الحمداني ، توفي ببغداد سنة 405هـ .
(290) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 193 .

وهو تعجب ضمني من هذا الشاعر التيهرتي المغربي الذي اهتم بالبيت الشعري ورحل يسأل عن صاحبه رغم بعد المسافة .

د ـ التاريخ :

لعل استعمال لفظة «التاريخ» للتحدث عن العلماء الذين اهتموا بالأخبار ، يروونها أو يدونونها ، في هذه الفترة فيه شيء من المبالغة ، اذ اللفظة مازالت لم تعرف مدلولها المتعارف عليه اليوم . ويمكننا أن نلاحظ هذا في الكتب التي ألفت في هذه الفترة ، فكل عناوينها تقريبا لا تحمل لفظة «تاريخ» اذ اللفظة لها معنى آخر ، وانما ألف الأقدمون في هذه الفترة ، في السير والمغازي والطبقات . وكل ذلك من صنف الأخبار .

ولهذا السبب يذكر ابن الصغير اهتمام الامام أبي بكر بالتاريخ وحبه له فيقول كان « يحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين »[291] ، ولا يعدو أن يكون حب هذا الامام لأخبار الماضين ، انعكاس لما هو عام في الرعية ولم يخبرنا ابن الصغير عن الأخباريين الذين كان أبو بكر يستمع الى اخبارهم التي ، ولاشك ، كانت تتناول أخبار اباضية المشرق ، والسلف من أئمة الدولة الرستمية ، فضلا عن تاريخ صدر الاسلام وما حدثت فيه من أحداث .

إن هذه الموضوعات التي كانت تتناولها الشفاه ، نجد لها اشارات في كتاب لواب بن سلام بن عمرو « شرائع الدين »[292] . وقد كان لواب يسكن توزر قبل سنة 240هـ بقليل[293] . ولعله كتب تأليفه ذلك ، بعد

(291) ابن الصغير : ص 31 .
(292) لا يزال الكتاب مخطوطا ، استنسخه الشيخ الناصر مرموري من النسخة اليتيمة الموجودة بجربة في مكتبة الشيخ سالم بن يعقوب .
(293) لواب شرائع (مخطوط) ، ورقة 44 .

سنة 270هـ اذ يحدثنا عن نفسه في تلك السنة[294] ، كما أنه يذكر أنه التقى بسليمان بن زرقون وهو من الطبقة السابعة[295] . ويعتبر كتاب شرائع الدين ، وليس بمستبعد أن يكون عنوانه قد وضع فيما بعد ، أقدم سيرة في شمال افريقيا ، كما يقول لويسكي الذي لا يذكر هذا الكتاب الا تحت عنوان « السيرة »[296] وقد اعتمده الشماخي في صفحات عدة[297] . ولم يذكر عنوانه « شرائع الدين » مما يحتمل أن يكون ما أطلقه عليه لويسكي صحيحا .

وقد تناول ابن سلام في كتابه عدة مواضيع ، رغم صغر حجمه ، فروى نبذا من تاريخ أبي بكر وعمر (ض) وما حدث في عهدهما ، ولم يتطرق الى الخليفتين الصهرين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب (ض) الا بايجاز وتحدث عن معركة صفين ، وذكر فضائل عدة صحابة كأبي عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر وغيرهم[298] . وتناول الحديث عن ولاية بني أمية وثورة عبد الله بن يحي الكندي طالب الحق وثورة أبي حمزة الشاري بالحجاز واختصر كل ذلك ، كما اختصر أحداث ثورتي أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني وأبي حاتم الملزوزي بالمغرب العربي[299] .

واحتفظ لنا لواب برسالة للامام عبد الواهاب الى أهل طرابلس ورسالة

(294) نفسه ، ورقة 46 .

(295) نفسه ، ورقة 46 وأنظر عن سليمان بن زرقون ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 349 .

(296) Lewicki T : Kitab As-siya, p. 73 .

(297) أنظر الشماخي : سير ، ص 133 ، 135 ، 141 ، 142 ، 161 ـ 162 ، 262 ، وأنظر المهدي البوعبدلي : لمحات من دور الدولة الرستمية ، مجلة الأصالة ، عدد 41 ، ص 201 ، ويذكر الشماخي : أن لواب بن سلام أوتي الحكمة صغيرا فدام على منهاجها الى أن صار كبيرا . وكان يؤذن وهو صغير . وهذا كل ما نعرفه عن لواب ، أنظر الشماخي ، ص 244 ـ 245 .

(298) لواب : شرائع (مخطوط) ورقة 9 ـ 15 ، 31 ـ 33 .

(299) نفسه ، ورقة 30 ـ 48 .

أخرى من عالم مشرقي الى أهل المغرب تناول فيها صاحبها الحديث عن فتنة خلف بن السمح . في عهد الامامين عبد الوهاب وابنه أفلح[300] .

الى جانب هذا تحدث كثيرا عن فقهاء المذهب الاباضي ووجودهم بالبلدان وقد ألف كتابه لهذا الغرض حيث يقول « وانما دعانا الى أن وضعنا كتابنا هذا جمعنا فيه من دواوين العلم والأثار تسمية قاداتنا وفقهائنا »[301] ، والكتاب مهم في معرفة نظرة الاباضية الى الصحابة وأخبار الأولين ، وكثيرا ما ذكر لواب مصادره الشفوية من علماء المغرب ، واعتمد على كتب مشرقية لم يذكر عناوينها وأشار الى هذا مرة واحدة عند حديثه عن ثورة أبي حمزة الشاري وقال بأنه أختصر الحديث عنها من نسخة[302] ، لم يذكر عنوانها أو صاحبها ، كما اعتمد على مصادر شفوية .

أما أهم كتاب في التاريخ لهذه الدولة ، فهو كتاب ابن الصغير المالكي الذي لا نعرف عنه شيئا سوى أنه من سكان تيهرت ، عاصمة الأئمة الرستميين الأخيرين ابتداء من أبي اليقظان بن أفلح الذي يقول عنه « وقد لحقت أنا بعض أيامه وامارته وحضرت مجلسه »[303] . ويعتبر كتاب ابن الصغير المرجع الأول ، وربما الوحيد لتاريخ الأسرة الرستمية . ويتهم الميلي[304] لغته بأنها قريبة من العامية ، فهي ان كانت في بعض الألفاظ كذلك فالكتاب ككل لا يمكن وصف أسلوبه بالعامية في نظري ، وفي هذا يقول الدكتور محمود اسماعيل إن « أسلوبه ومنهجه كما يتضح في تاريخه

(300) نفسه ، ورقة 26 ـ 29 ، 49 ـ 51 .

(301) نفسه ، ورقة 48 .

(302) لواب : شرائع (مخطوط) ، ورقة 38 .

(303) ابن الصغير : ص 44 .

(304) الميلي : تاريخ الجزائر ، ج2 ، ص 69 وأنظر كذلك : رابح بونار : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص 92 .

للدولة الرستمية تنم عن طول باع في ميدان التاريخ »[305] .

ومثل الكتاب السابق لا نعرف بدقة ، العنوان الحقيقي لكتاب ابن الصغير ، وان كان أول نشر له من طرف الأستاذ موتيلنسكي يحمل هذه العبارة « ذكر بعض الأخبار في الأئمة الرستميين منقول من ابن الصغير »[306] ، لهذا يعرف هذا الكتاب بعدة عناوين « كأخبار الأئمة » ، تاريخ ابن الصغير ، «سير» ابن الصغير . وقد استعملت هذه التعابير كلها في الكتابات الحديثة .

ويبدو أن ابن الصغير ألف كتابه حوالي سنة 290هـ حسبما يرى ذلك مترجم الكتاب موتيلنسكي[307] ، ويؤكده كل من ليفسكي[308] ووداد القاضي[309] اذ تنتهي أحداث الكتاب في حكم أبي حاتم الذي امتد الى سنة 294هـ ، ولم يشر اطلاقا الى اليقظان بن أبي اليقظان ، ولعل كتابه الذي بين أيدينا ناقص[310] ، وهو ما يمكن فهمه من شبه عنوانه أو افتتاحيته التي سبق أن ذكرناها فذكر بعض الأخبار المنقولة من ابن الصغير لا تعني الا انتقاء أخبار دون أخرى وهو ، على ما يبدو ، واضح من الجملة .

والحقيقة أن ابن الصغير جمع أخبار الأئمة الواحد تلو الآخر بالترتيب

(305) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 9 .

(306) ابن الصغير : ص 9 .

(307) Moutylinski A de C : Chronique d'Ibn Seghir p.4

(308) Lewicki T : l'Etat Nord Africain, p. 515.

(309) وداد القاضي : ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ، الأصالة عدد 45 ، ص 40 .

(310) تشير الدكتورة وداد القاضي الى أن كتاب ابن الصغير وصلنا ناقصا اذ يسكت فجأة في امامة أبي حاتم يوسف دون أن يشير الى نهاية الرستميين ، وتعلل هذا بقولها أن ابن الصغير لما تحدث عن فرس يعقوب بن أفلح الأشقر قال « لم يكن بالمغرب مثله قبله ولا بعده به يضرب المثل الى اليوم » ابن الصغير : ص 54 ، وتقول الدكتورة علما بأن الامام يعقوب تولى الامامة مباشرة قبل أبي حاتم فقوله « الى اليوم » يعني بعد مدة ليست بالقصيرة.. أنظر مجلة الأصالة ، عدد 45 ، ص 40 .

وأطنب في الحديث عن بعض الفتن ، كفتنة ابن عرفة أو المنافسة التي جرت بين الامامين أبي حاتم ويعقوب على السلطة[311] ، حتى ليخيل للقارئ أن ابن الصغير انما ألف تأليفه لذكر الفتن والثوارت التي مرت بها تيهرت ، ابتداء من الامام الثاني عبد الوهاب الى نهاية الدولة الرستمية .

وقد كان ابن الصغير ممن تنطبق عليهم صفات المؤرخ التي عددها ابن خلدون في مقدمته كما حدد مغالط المؤرخين ومزالقهم وأوهامهم[312] . اذ نجد ابن الصغير في بداية تصنيفه يذكر صفات المؤرخ النزيه ، ويلتزم بذلك المنهج في كل كتابه فهو يقول : « وكانت له (لعبد الرحمن بن رستم) قصص حكوها لا يمكن ذكرها الا على وجه (كذا) وان أتم الصدق فيها ولا احرفها على معانيها ولا أزيد فيها ولا أنقص منها اذ النقص في الخبر والزيادة ليس.... من شيم ذوي المروءات ولا من اخلاق ذوي الديانات وان كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ولمذاهبهم مستقلين . فنحن وان ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعدلهم فيها ولوه فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم »[313] لقد كان ابن الصغير يكتب بأمانة تامة يحركه على ذلك عامل اخلاقي بحت[314] .

واعتمد ابن الصغير في كتابة تأريخه على مصدرين : الرواية الشفوية وهي تسيطر على الجزء الأكبر من كتابه ، والمشاهدة التي لا تبدأ قبل فترة أبي اليقظان (261هـ - 281هـ) الذي عاصر ابن الصغير ايامه الأخيرة كما سبق أن رأينا . وفي الرواية الشفوية يذكر ابن الصغير احد رواته وهو أحمد بن بشير[315] الذي يبدو أنه ابن لاحد المقربين من الامام أبي

(311) ابن الصغير : ص 31 وما بعدها ، 53 وما بعدها .

(312) ابن خلدون : المقدمة ، ص 12 وما بعدها .

(313) ابن الصغير : ص 10 .

(314) وداد القاضي : ابن الصغير ، مجلة الأصالة ، عدد 45 ، ص 43 .

(315) ابن الصغير : ص 48 ، وأنظر قبلها ص 45 .

اليقظان ، مما يضفي أهمية على اخباره ومما يجعل مصادره قريبة من الأحداث التي يؤرخ لها .

إن الأمانة العلمية التي التزم بها ابن الصغير لم تمنعه ، كما تقول وداد القاضي من ممارسة حسه النقدي للروايات بصفته مؤرخا . وهذا ما يمكن ملاحظته في الروايات التي رواها ، وتدور حول موضوع خطير في ذاته ، خطير في نتائجه وجدته ، اذ يشعر ابن الصغير بالتحرج الشديد «وقد ظهر ذلك منه مرتين : الأولى عندما جاء في الرواية أن أفلح بن عبد الوهاب عمد الى سياسة فرق تسد... والمرة الثانية في قصة تأليب وجوه الرستميين لأبي بكر بن أفلح ضد ابن عرفة... فالرواية هنا ذهبت الى أن أبا اليقظان بالذات هو الذي قام بتحريض أبي بكر على ابن عرفة وباقتراح قتله.... »[316] .

ويكاد يخلو كتاب ابن الصغير من ذكر التورايخ ، أو ذكر أخبار الدولة الرستمية خارج تيهرت ، وكانه خصصه لتاريخ تيهرت لا غير . واذا أردنا تقييم المؤلف على ضوء كتابه ، وقيمته التاريخية ، فاننا نكرر ما قالته الدكتورة وداد من أن « القراءة الدقيقة لتاريخ ابن الصغير تدل على أن ابن الصغير لم يكن مجرد راوية للتاريخ وانما كان مؤرخا حقا »[317] .

وقبل ختام هذا المبحث ، لابد من الاشارة الى أن الجغرافية ، لم تحظ في هذه الدولة بذكر ، وربما هي صفة عامة في بلاد المغرب . وهذا لا يمنع أن يكون بعض الناس اهتموا بالمسالك والممالك ومعرفتها ، على الأقل شفاها ، يؤيد هذا اتساع تجارة هذه الدولة شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا

(316) وداد القاضي : ابن الصغير ، الأصالة ، عدد 45 ، ص 44 وأنظر كذلك علي يحي معمر : الاباضية بالجزائر ، ص 95 ، وقد لاحظ نفس الملاحظات .

(317) وداد القاضي : ابن الصغير ، 49 . وأنظر كذلك الدكتور محمود اسماعيل حيث يقول إن ابن الصغير كان مؤرخا دقيقا نابها . ويرجح أن يكون صنف تواليف أخرى لم تصلنا ، أنظر : الخوارج في المغرب الاسلامي ص 9 .

وكثرة حجاجها لبيت الله الحرام[318] ، الأمر الذي يتطلب معرفة جغرافية بالمواقع والبلدان ، والمدن والمراحل ، والأسواق والآبار وغير ذلك من متطلبات السفر والترحال والتي تدخل في اهتمامات الجغرافيين والرحالة .

ثالثا ـ العلوم التطبيقية :

ونقصد بها الطب والحساب والفلك اذ نجد لها اشارات في كتب الاباضية ، وقد اختص بها جميعا ، الأئمة من الأسرة الرستمية أو بعض أفرادها فقط ، دون غيرهم .

أ ـ الطب :

عندما تعرض ابن أبي أصيبعة[319] الى طبقات الأطباء الذين ظهروا ببلاد المغرب أو أقاموا بها ، لم يذكر من المغرب الأدنى والأوسط والأقصى الا عددا قليلا جدا ، يعدون على الاصابع الواحدة ، بينما كان حديثه كله على أطباء الأندلس ، وكأن المغرب لم يعرف علماء في هذا الاختصاص .

ومما يلاحظ على كتاب ابن أبي أصيبعة ، كثرة الاطباء من اليهود والنصارى ، الأمر الذي دعانا الى الاعتقاد في وجود أطباء بتيهرت من أبناء هاتين الديانتين ، وقد كان لليهود درب بتيهرت يعرف بالرهادنة[320] كما يوجد بها كنيسة واحدة على الأقل للنصارى[321] . واحتمل الأستاذ دبوز وجود أطباء في تيهرت لأنه ، كما يقول ، على الطب تقوم الصحة ، فلا يمكن للدولة الرستمية الطموح أن تغفله[322] ، أو تغفل الكيمياء لتركيب العقاقير والأدوية والأصباغ[323] .

(318) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 7 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 325 ، الشماخي : ص 228 .

(319) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الاطباء ، ج3 ، ص 56 ـ 134 .

(320) ابن الصغير : ص 46 ، 57 .

(321) نفسه ، ص 36 ، 55 .

(322) دبوز علي : تاريخ الكبير ، ج2 ، ص 372 .

(323) كان اليهود هم الذين يصنعون الأصباغ بجبل نفوسة ، أنظر : الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 303 .

ولعل من الرستميين من أتقن الطب ، مادامت بيتهم بيت العلوم[324] اذ نجد واحداً منهم ، ممن اتخذ الأندلس دار مقام له ، مشهورا بعلوم عديدة منها الطب . وهو من أحفاد عبد الرحمن بن رستم ، واسمه محمد بن سعيد ، لا تذكر المصادر الاباضية عنه شيئا ، وكل معلوماتنا عنه من المصادر غير الاباضية[325] ، ولا نعرف دوره في تيهرت بقدر ما نعرف عنه في الأندلس وفي بلاط الأمويين بالذات .

ب ـ الحساب والفلك أو التنجيم :

كان الرستميون من الذين برزوا في الحساب ، اذ يروي أبو زكرياء عن الامام أفلح أنه « ... بلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما »[326] .

وحساب الغبار نسبة الى الأرقام الغبارية « وسميت بالغبارية ، لأن أهل الهند كانوا يأخذون غباراً لطيفا ويبسطونه على لوح من خشب أو غيره ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون اليها في عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم التجارية »[327] والأرقام الغبارية هي الأرقام المستعملة اليوم بالمغرب العربي مثل (1 ، 2...9) انتقلت الى الأندلس ، ومنه دخلت الى أوروبا ، فعرفت فيما بعد بالأرقام العربية[328] .

ولعل لنشاط التجارة في الدولة الرستمية ، وكثافة علاقاتها التجارية مع الأندلس خاصة ، دورا في انتشار هذه الأرقام ووصولها الى أوروبا فيما

---

(324) أبو زكرياء : سير ، ص 65 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 65 ، وأنظر كذلك سالم عبد العزيز : المغرب الكبير ، ج2 ، ص 575 .

(325) ابن الأبار : الحلة ، ج2 ، ص 373 ، يذكر ابن الأبار أن محمد بن سعيد هذا كان أديباً ، حكيما ، لاعبا بالشطرنج . ولا يذكر بأنه طبيب ولعل الحكمة في ذلك الزمان مقرونة بعلم الطب لذلك قرأها الاستاذ بروفنصال وترجمها الى طبيب ، أنظر : Provençal Levi: Histoire de l'Espagne, opcit, p.246, note 1

(326) أبو زكرياء : سير ، ص 89 .

(327) حكمت نجيب عبد الرحمن : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب وزارة التعلم العالي والبحث العلمي ، جامعة الموصل ، ص 85 ، هامش رقم 2 .

(328) نفسه : ص 85 .

بعد ، مادامت هذه الأرقام قد انتشرت منذ عصر المأمون (198 ـ 218هـ) كما يؤكد ذلك المرحوم حكمت نجيب[329] ، وعصر المأمون يعتبر بالنسبة للدولة الرستمية أزهى عصورها الاقتصادية والثقافية ، اذ فيه تولى الامام أفلح منصبه وهو الذي بلغ في حساب الغبار المبلغ العظيم .

وليس بمستبعد أن يكون أفلح أو غيره قد ألف في هذا العلم أو غيره اذ يذكر أبو زكرياء ، أن أبا عبد الله الشيعي لما أحرق مكتبة المعصومة انتقى منها كتب الملك والحساب[330] . فلعلها من تصنيف أفلح أو غيره ممن أهتم بهذا العلم .

ويرتبط بالحساب علم الفلك أو التنجيم ، اذ كان هواية البيت الرستمي كما أراد أن يعبر عنه الاستاذ شيخ بكري[331] . وقد قال أحد أفراد تلك الأسرة « معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعرف منزلة القمر »[332] . وقد سبق أن ذكرنا قصة الامام أفلح مع أخته لما تذاكرا ليلا وحسبا ما سيذبح أولا في السوق نهار ليلتهم تلك ، فأصابا كلاهما ، الا أن أخت أفلح كانت أدق منه في بعض التفاصيل ، فبزته بذلك[333] .

ويذكر الدكتور ابراهيم أحمد العدوي أن اهتمام الرستميين بالعلوم الفلكية انما كان الداعي اليها هو اتساع نطاق التجارة[334] . ويبدو أن هذا العلم الذي يربط بين الحساب والتنجيم والفلك في آن واحد ، علم يتوارثه أفراد الأسرة الرستمية ، ابتداء من رستم أبي عبد الرحمن الذي كان يعلم مسبقا أن سلالته ستلي أرض المغرب[335] الى آخر امام وهو يعقوب بن أفلح الذي

---

(329) نفسه : ص 84 .

(330) أبو زكرياء : سير ، ص 113 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 293 .

(331) Bekri Chikh : Kharijisme, p. 68

(332) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 56 .

(333) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 56 .

(334) ابراهيم أحمد العدوي : بلاد الجزائر ، ص 298 .

(335) أبو زكرياء : سير ، ص 35 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 19 .

نظر في النجوم وعلم أن الاباضية أو أسرته انقضت أيـامها وزال ملكها ولا يعود اليها الى يوم القيامة[336] .

إن هذا الاهتمام بالنجوم ومواقعها ، وحسـاب الأمور قبل وقوعها ليس من الكهانة وانما هو علم ، كما يقول الأستاذ دبوز « يقوم على قواعد علمية دقيقـة ، وعلى براعـة في الحسـاب وعلم الفلـك لا يستطيعـه الا العلماء الأعلام »[337] .

هذه أهم العلوم الوضعية التي تحدث عنها المؤرخون ، حاولنا ايجازها بقدر المستطاع ، وبقدر المادة المتوفرة حولها لدينا .

(336) أبو زكرياء : سير ، ص 124 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 105

(337) دبوز علي : تاريخ ، ج3 ، ص 380 ، ولعل النبي ابراهيم ، عليه السلام ، ممن وهب هذا العلم وكان قومه كذلك لهم خبرة في النظر الى النجوم وفي الآية 88 من سورة الصافات قوله تعالى « فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم » أنظر الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج23 ، ط2 ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1373هـ/1954م ، ص 70 ـ 71 .

﴿ الفصـل الرابـع ﴾

المرأة ودورها في الحياة الفكرية

كان للمرأة في المجتمع الرستمي ، دور بارز في الحياة الفكرية[1] اذ وجدناها عالمة ، وشاعرة ، ومستفسرة عن مسائل دينها لا تريد أن تجهلها . وكانت المرأة الاباضية بالخصوص ، باعتبار أن تلك الفترة كانت فترة سلطان المذهب الاباضي ، كثيرة الاعتناء بالشعائر الدينية وشرائعه ، ويبدو لنا أن المرأة كانت الوعاء الحقيقي للاباضية ، حملت هذا المذهب بامانة ، تدافع عنه ، وتنشئ الاجيال عليه .

اذكر هذا كمقدمة لدور المرأة الاباضية في التاريخ ، وهو دور على ما نراه كبير جداً ، ورثته منذ القرون الأولى للاسلام في المغرب العربي .

لقد سبق أن ذكرنا عن الأسرة الرستمية ودورها في الحياة الفكرية ، ما فيه الكفاية ، الا أننا نعود هنا الى المرأة في تلك الأسرة ، بحيث نجد أحد أفرادها يقول « معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر »[2] فهذا العلم الفلكي الممزوج بالتنجيم ، يبرز فيه الرستميون رجالهم ونساؤهم وكان هوايتهم المفضلة على ما يبدو .

والدارس لكتب سير الاباضية ، يلاحظ أسماء عديدة لنساء برزن في الفقه والعلم واسداء النصائح للرجال . ويذكر الوسياني أن « العلم فشا في الجبل وشاع حتى أن خدمهم وإماءهم اذا خرجن الى الاستقاء لا يرجعن

(1) Bekri Chikh: Kharijisme, p.90 – Marçais George et Ch. Di.: Histoire du Moyen Age opcit, T3, p.420 – Anne Marie: Contribution, opcit, p.26

(2) الشماخي : سير ، ص 193 .

حتى يذكرن بينهم مسائل كتاب ماطوس وفيه ثلاثمائة مسألة ومواعظ كتاب الاخوان »[3] إن انتشار العلم في أوساط الخدم والإماء ، لا يدل إلا على تعمقه في الطبقة الأعلى من الأحرار مادام للخدم نصيب من العلم ، ينافسون به أصحابهم ولقد كان الاهتمام بالعلم وكسبه سببا في عتق أمة سودانية تدعى غزالة « ...كان دأبها أن تخدم مولاها بالنهار فاذا نام ونام عياله انصرفت فتحضر مجلس الذكر عند أبي محمد عبد الله بن الخير... فاذا انقضى المجلس رجعت فتأتي مصلّى لها في كهف معلوم فتصلي... فاذا كان آخر الليل أتت أهلها فأيقظتهم للصلاة ففطن لها سيدها فأعتقها وتمادت على فعلها »[4] ذاك . ولم تكن غزالة تحضر مجالس الذكر والعلم وحدها ، بل كانت النساء يحضرن مجالس المشائخ الكثيرة ليلا ، ومعهن أولادهن . وكانت المسافة للوصول الى أحد تلك المجالس كبيرة ورغم ذلك لم تثبط عزيمتهن المسافة[5] .

ولعل من الغريب أن نعرف أن المرأة في هذه الدولة كانت تفتح بيتها للعلماء ، يعقدون فيها لمجالسهم العلمية كفعل بهلولة احدى نساء نفوسة مع أبي ذر أبان بن وسيم الويغوي ، الذي كانت له حلقة درس في منزلها ويبدو أن هذا قد دام واتصل حتى رغب أبو ذر في الزواج ببهلولة الموصوفة بالصلاح والتفقه في الدين . وسألها يوما وقد تزوجها ، عن النساء اللائي يغشين مجلسه للعلم والافادة ، ولما أخبرته أمرها بالزيادة في الزيت والفتيلة[6]

إن مجرد فتح البيت للشيخ يلقي فيه دروسه ، يعبر عن المستوى الرفيع

(3) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 18 ، ماطوس عالم اباضي توفي في موقعة مانو سنة 283هـ . أنظر الشماخي : سير ، ص 268 ، ولا نعرف عن كتاب الاخوان شيئا .

(4) الشماخي : سير ، ص 218 .

(5) الشماخي : سير ، ص 217 ، 247 .

(6) الشماخي : سير ، ص 217 .

الذي بلغه الاهتمام بالعلم في الدولة الرستمية ، ليس من طرف الحاكم أو الرجل حسب وإنما الى جانبهما المرأة التي اهتمت دوما بمعرفة فقه مذهبها ومعرفة دينها بصفة عامة . وهناك اشارات في النصوص التي نقلناها كلها الى عقد حلقات الدروس للنساء ليلا ، لا نعرف السبب في ذلك ولعله يرجع الى انشغال المرأة نهارا ببيتها وتدبيره .

وكانت المرأة في المغرب ، لا تستحي في دينها أن تسأل أباها العالم عن مسائل خاصة[7] ، يعتبر جهلها منقصة في الدين . وقال أحد المشائخ لابنته « أزوجك لمن له عليك سبعون حقا ، فقالت أردها الى ثلاث ان دعا أجبت وان أمر امتثلت وان نهى تركت »[8] وهذا يدل على ذكاء حاد وتفهم دقيق للفقه الاسلامي ودور المرأة وحق الزوج عليها .

ومثل هذا الذكاء نجده عند عجوز نفوسية « مشهورة بالعلم والدين والصلاح »[9] استشارها أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني في تحمل ما قلده الامام عبد الوهاب من تولية أمور الجبل ، وهو عن هذه المسؤولية راغب حاول مرارا الاعتذار للامام ولم يفلح ، ولما رأى تشبث الامام برأيه وأبى الا توليته ، وخاف من المسؤولية خاصة وان فتنة خلف بن السمح قد أطبقت الافاق وتمادى في العصيان ، راح واستشار هذا العجوز ، التي لا تذكر المصادر اسمها ، في تحمل التعيين أو الفرار فقالت له « هل تعلم في بلادك من أهل زمانك أقوم منك بما كلفت به وأحق بتقليد ما تقلدت ؟ قال : أما في أمور الرجال فلا ، قالت فادخل اذا فيما قلدك الامام ، والا فاني أخشى أن تهشم عظامك في نار جهنم ، فقد قامت عليك الحجة »[10]

(7) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 15 .

(8) الشماخي : سير ، ص 232 .

(9) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 71 .

(10) الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 71 ، وأنظر كذلك : أبو زكرياء : سير ، ص 82 .

وأخذ أبو عبيدة بنصيحتها وتقلد أمور المسلمين بجبل نفوسة وكانت نهاية خلف وتمرده ، على يده وقد رأينا ذلك .

ولعل أخت عمروس ، قاضي جبل نفوسة في أواخر أيام الدولة الرستمية تعتبر المثال فيما للمرأة من دور ثقافي ، تحت ظل الرستميين ، اذ كانت المساعد الاساسي لاخيها في انتساخ مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخراساني فكانت هي تملي عليه ، وكلما جلسا في موضع لازماه ، حتى تدركهما الشمس فينتقلا الى الظل ، وهكذا حتى أتيا على نسخ الكتاب كله وهو يقع في اثنى عشر جزءا[11] . وكانت أخت عمروس كما يصفها أبو زكرياء[12] ، عالمة فقيهة أفتت لنساء وقعن في أسْرِ الأغالبة في وقعة مانو بما يحفظ لهن شرفهن ودينهن وكانت هي احدى الأسيرات .

ومما يدل على قوة الحفظ وسرعته أن أم يحيى ، احدى نساء المغرب حفظت بمجرد السماع الأول ثمانين بيتا من قصيدة سمعتها أثناء طريقها الى الحج من رجال كان ينشدها[13] . وكانت نساء نفوسة يكثرن من الحج حتى قيل إن ركبا واحدا وضعت فيه ثلاثمائة امرأة مولودا ذكرا فضلا عن النساء اللائي لم يلدن أو وضعن اناثا[14] .

وهذه هي مكانة المرأة العلمية في الدولة ، وصفت بالعالمة والفقيهة والورعة والناصحة وتفوقت على الرجل في بعض الأحيان . والحقيقة أن المطلع على سير الاباضية يمكنه أن يكتشف أكثر من هذا في دور المرأة ولقد مرّ معنا منهن شاعرات يجدن نظمه بالبربرية .

ورغم كل ما قلناه في هذا المبحث فاننا ، وان كنا نقر للمرأة في الدولة

---

(11) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 4 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 323 .
(12) أبو زكرياء : سير ، ص 104 .
(13) الشماخي : سير ، ص 233 .
(14) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 6 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 325 .

الرستمية ، بالتفقه في الدين ، فلا نظن أنها بلغت الذروة في ذلك اللهم الا قلائل منهن ، ولا نرى أن القراءة والكتابة انتشرتا في أوساطهن ، بل إن الشماخي يذكر أن امرأة عرضت « قراءتها على عالم فقال لها لا صلاة لك من اللحن ثم عرضتها على آخر فلقنها ولم تطق تقويم لسانها فرخص لها »[15] وهذه الرواية على مايبدو تتفق مع ما ذكره اليعقوبي في بلدانه عن أهل جبل نفوسة وربما يقصد بذلك نساءهم خاصة عندما قال « وهم قوم عجم الألسن »[16] .

---

(15) الشماخي : سير ، ص 241 .
(16) اليعقوبي : البلدان ، ص 99 .

﴿ الفصـل الخامـس ﴾

العـلاقـات الثقافية

ليس يخاف أن العلاقات الثقافيـة بين الـدول ، من العوامل التي تغـذي الحياة الفكرية ، وتبعث فيهـا النشـاط والتنوع وهي من الأمور التي تلجـأ اليها الدولة بقصد منها ، أو تحدث بعوامل أخرى لادخل للدولة فيهـا اذ لا يمكن لأي دولـة ، مهما كانت ، الاستقلال بفكر معين لـديهـا دون أن تتـأثر بالفكر الخارجي المحيط بها أو تؤثر فيـه . فعملية التـأثير والتـأثر بـارزة ، وأبرز مـاتكـون في الـدول العربيـة الاسـلامية مشرقهـا ومغربهـا . فـا هي العلاقات الثقافية التي ربطت الدولة الرستمية بغيرها من الدول ؟ وما مدى مسـاهمتها في الحياة الفكرية تأثيرا وتأثرا ؟

أ ـ العلاقات الثقافية مع بلدان المغرب العربي والأندلس :

لعل مركز تيهرت المتوسط في بلاد المغرب ، لـه أكثر من دور في ربـط عـواصم المغرب العربي ببعضهـا ، تمـامـا مثلـا ربطهـا في التجـارة[1] . ومن المعلوم أن الثقافة كثيرا مـا كانت بضـائع في رحـال التجـار . وكثيرا مـاكان العالم ينتقل مع قوافل التجارة ، أو يمتهن التجارة الى جانب مـا يحملـه من علم ، لهـذا فلا نستبعـد أن تكـون الحركـة التجـاريـة النشطـة التي عرفتهـا تيهرت خاصة والدولة الرستمية عامة ، قد واكبتهـا حركـة فكريـة ، بنفس مستوى النشـاط والحيويـة التي عرفتهـا التجـارة . ولعـل وجـود القيروانيين بتيهرت بمسجدهم الخاص بهم ورحبتهم[2] ، قـد سـاهموا في الحيـاة الفكريـة

(1) أنظر دور تيهرت الاقتصادي وربطها لدول المغرب بما في ذلك الأندلس في الباب الثاني من هذه الرسالة .
(2) ابن الصغير : ص 13 ، يقال القيروانيون كما يقال القرويون أو أهل القيروان .

للدولة ، ودخلوا في مناظرات مع علماء الاباضيـة والكوفـة والبصرة ، اذ لا يستبعـد أن يكـونـوا مـالكي المـذهب ، لأن القيروان آنـذاك كانت عـاصمـة الفقه المالكي .

واذا كان الاباضية قد طردوا مرارا من القيروان ، قبل تأسيس الامـامـة الرستميـة بتيهرت[3] . فـان اعـدادا كبيرة منهم ، رغم ذلـك ، كانت تـسكن العاصمة الأغلبيـة خـاصـة من أهل نفوسـة لاقتراب جبلهم من القيروان ، اذ يروى لواب بن سلام وجود أكثر من خمسمائة رجل نفوسي من بينهم العلمـاء والفقهـاء كأبي عمرو حفصـون النفـوسي الفقيـه العـالم النـاقـد ، وفضـل بن عبد الله الذي كانت له حلقاته العلميـة في منزل أبي الأزهر يحضرهـا رجـال من هوارة وزناتة ، وكانوا في سبع منازل ولهم مساجد عديدة[4] .

ومما يدل على علاقة تيهرت بـالقيروان ، شخصيـة يوسف الفتـاح الـذي تعلم بتيهرت ، وانتقـل الى القيروان ليعلم اباضيتهـا مـا كان قـد أخـذه في العـاصمـة الرستميـة . فكان ، كما يقول ابن سـلام[5] ، معلم خمسمائـة رجـل في حوزة واحدة وقد توفي سنة 260هـ .

والى جـانب هـؤلاء الـذين يسكنـون القيروان وأحـوازهـا ، ولهم فيهـا منازلهم ومسـاجدهم وحلقات علمهم ، يتحدث ابن سلام عن رجل يدعى أبـا حبيب ، عـالم وفقيـه ابـاضي من العرب ، كان منزلـه بقفصـة شرقي القيروان[6] . وقـد ذكر ابن سـلام أسماء عـديـدة ، لعلمـاء اباضيـة في مـدن الدولة الأغلبية ، وخاصـة بعـاصمتهـا . ولعل تلـك الكثرة كانت لغرض تعلم العربيـة وآدابهـا في ربوع العرب ، بـالقيروان ، اذ كانت هـذه المـدينـة ، كما

(3) أبو زكرياء : سير ، ص 46 ، 52 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 35 ، 39 ـ 40 .
(4) لواب بن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 48 ، الشماخي : سير ، ص 261 .
(5) لواب بن سلام : نفس المرجع ورقة 48 ، الشماخي : نفس المرجع ص 261 .
(6) لواب بن سلام : نفس المرجع ورقة 48 .

يقول لوفيسكي[7] ، مثابة للاباضيين الواردين من مختلف بقاع المغرب لتعلم العربية وآدابها . وهو مالم يستبعده الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب[8] ، بل يرى أنه من الممكن أن يكون بعض رعايا الدولة الرستمية قد التحقوا ببيت الحكمة ، أول جامعة افريقية للعلوم ، وهذا لقربها من جهة ، ولكونها مركز المالكية وجامعة فقههم ، من جهة أخرى ، وبالتالي فلا يستبعد أن يكون مالكيو تيهرت يقصدون القيروان أو بيت الحكمة للتفقه في الدين وتعلم العربية .

ولا نعرف عن العلاقة الرستمية الإدريسية في المجال الثقافي ، الا ما كان من الشاعر التيهرتي بكر بن حماد الذي مدح بعض الحكام الأدارسة ولعله انتقل الى هناك لهذا الغرض[9]

أما المدراريون أصحاب سجلماسة ، فقد ذكرنا وجود العديد من الاباضية في العاصمة الصفرية[10] . ولعل المنافسة التي جرت بين ولدي مدرار بن اليسع قبيل سنة 253هـ على الحكم ، وكان احدهما ابنا لأروى بنت عبد الرحمن ، قيل إنه يعرف باسم جده من أمه ، بينما الثاني من زوجة ثانية لمدرار تدعى تقي ، كان سببها اعتناق ابن الرستمية للاباضية ، الأمر الذي لا نستبعده عن أبيه الذي كان صاغية وميالا الى ابن أروى على حساب ابن التقي ، علما بأن جدّهما اليسع بن أبي القاسم ، الذي أصهر

(7) الجيلالي محمد أبو راس : مؤنس الأحبة ، مقدمة المحقق ، ص 56 ـ 57 .

(8) ورقات ، ص 192 ـ 193 .

(9) البكري : المغرب ، ص 143 ، وأنظر كذلك ابن عذاري حيث يذكر قطعة من قصيدة لبكر بن حماد مدح فيها أحد الامراء الادارسة وقال فيها :

إني لمشتاق إليك وإننا ... نمشو القفار إذا سئمنا بقوادم
فابعث إليّ بمركب أنمو به ... على أكون عليك أول قادم
واعلم بأنك لن تنال محبة ... إلا ببعض ملابس ودراهم

فبعث اليه بحلة سنية وصلة جزيلة . وكان له فيه أمداح كثيرة . البيان المغرب ، ج1 ، ص 236 ، وأنظر القصيدة أيضا في الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 70 ، شاوش محمد رمضان : الدر الوقاد ، ص 51 .

(10) ابن الصغير : ص 46 .

لعبد الرحمن بن رستم بابنه مدرار ، كان كما يقول ابن خلدون[11] اباضيا صفريا . وهذا يدل على تأثير الاباضية في الدولة المدرارية ، ويشكل جزءا من العلاقة الثقافية بين البلدين اتسمت دائما بالتأثير .

واذا كانت كثرة الاباضية بسجلماسة ظاهرة ، وأغلبهم من العامة ، فان السير الاباضية تشير الى وجود علماء لها في هذه المدينة كابن الجمع الذي كان غزير العلم ، استوطن سجلماسة ودرس بها ، وكان أبرز تلاميذه بها أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي[12] ، تعلم بها ، مع أبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الثورة العنيفة على العبيديين[13] . وكان أبو الربيع قد بلغ على يد أستاذه ابن الجمع ، من العلوم مالم يبلغه كثير ممن في عصره ، ونال اعجاب شيخه ، الى درجة أنه لما مات أوصى له بجميع كتبه[14] . واستمرت سجلماسة في اتصال بأبي الربيع بعد مغادرته لها ، اذ من أبرز مظاهر العلاقة الثقافية معها ، ماكان من استفتاء أهلها أبا الربيع في مسألة كادوا يقتتلون من أجلها فلما أفتى لهم رجعوا الى صوابهم واصطلحوا[15] .

أما العلاقة الثقافية مع الأندلس ، فلا نشك في أن العديد من الأندلسيين كانوا في تيهرت ، استفادت الدولة من خبرتهم . وأما العلماء الأندلسيون الذين يريدون الخروج الى القيروان أو المشرق ، فلا شك أن مرافىء المغرب الأوسط ، فضلا عن العاصمة تيهرت كانت معابر لهم .

(11) ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 268 ـ 269 ، يذكر الفردبل أن للمذهب الشيعي في سجلماسة كان غير واضح المعالم تماما . أنظر الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ، ص 170 ، وهذا يدل على قوة الاباضية .

(12) من الطبقة السابعة (300 ـ 350هـ) أنظر ترجمته في أبو زكرياء : ص 128 ـ 131 ، الدرجيني : طبقات ج2 ، ص 349 ـ 351 ، الشماخي : سير ، ص 279 وما بعدها .

(13) عن ثورة أبي يزيد النكاري صاحب الحمار . أنظر أبو زكرياء : سير ، ص 116 وما بعدها ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 96 ـ 104 ، ابن الأثير الكامل : ج8 ، ص 422 ، سليمان داود بن يوسف : ثورة أبي زيد ، ص 23 ـ 29 .

(14) أبو زكرياء : سير ، ص 128 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 110 ، الشماخي : سير ، ص 279 ـ 280 .

(15) أبو زكرياء : سير ، ص 128 ـ 129 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 110 ـ 111 ، الشماخي : سير ، ص 280 .

ولقد رأينا عددا من علماء المغرب الأوسط ، قصدوا الأندلس من أجل العلم ، وتصدوا للفقه والفتيا هناك ، كأبي اسحاق ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي الذي كان يفتي بجامع الزهراء[16] . وعبد الرحمن بن بكر بن حماد التاهرتي الذي حدّث بقرطبة عن أبيه ، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه بكر توفي بقرطبة وقيل في الطريق بين القيروان وتيهرت سنة 295هـ[17] .

ومن العلماء التيهرتيين الذين قصدوا الأندلس للتعلم والتعلم قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التيمي التيهرتي وابنه أبي الفضل أحمد المعروف بالبزاز ، دخلا الأندلس سنة 317هـ وكان البزاز صغير السن وتعلم بقرطبة في حين أن أباه كان من جلساء بكر بن حماد وممن أخذ عنه . أقاما بعاصمة الأندلس ، وبها توفي البزاز سنة 396هـ[18] .

واذا كان هؤلاء كلهم من المالكية . فلا نعرف من الاباضية اسم رجل عالم رحل الى الأندلس ، وانما كان هؤلاء يولون وجوههم شطر البصرة والمشرق بصفة عامة ، وان كنا لا نستبعد وجود الاباضية بالأندلس في عهد الرستميين ، خاصة وأن ابن حزم يخبرنا ، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، عن وجود جماعة منهم بقرطبة ، يبدو أنهم من عامة الناس سألهم ابن حزم[19] عن امامهم فلم يجيبوا .

ولعل في وجود أندلسيين اباضية بتيهرت ، ما يدعم ماذهبنا اليه اذ أن من بين النفر السبعة الذين عينهم عبد الرحمن بن رستم قبيل وفاته يبرز

(16) رغم أنه توفي سنة 387هـ فوجوده بالأندلس في هذه الفترة لا يدل على أنه كان هو الأول . أنظر الضبي : بغية ، 204 .

(17) ابن الفرضي : تاريخ علماء ، ص 268 ، الدباغ : معالم الايمان ، ج2 ، 282 ، نويهض عادل : معجم أعلام الجزائر ، ص 84 .

(18) الحميدي : جذوة ، ص 132 ـ 133 ، 313 ، الضبي : بغية ، ص 168 ، 436 ، ابن بشكوال : الصلة ، ج1 ، ص 88 .

(19) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج4 ، ص 189 ـ 191 . وانظر مقدمة الطبعة الثانية

أندلسيان اثنان يعرف أحدهما بمسعود الأندلسي ، وكان رجلا فاضلا فقيها ورعا . وأما الثاني فهو عمران بن مروان[20] . ولا شك أنها بلغا في العلم الغاية ، اذ أن مجرد ترشيحها للامامة يدل على ذلك . والرواية في حد ذاتها تدل على عمق العلاقة الثقافية الموجودة بين تيهرت والأندلس ، وتروي المصادر[21] الاباضية أن عملية انتخاب الامام بعد عبد الرحمن بن رستم كانت في صالح مسعود الأندلسي لميل العامة إليه ، لولا أن هذا زهد فيها وأختفى ليتركها لعبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي تولاها سنة 171هـ . وتسكت تلك المصادر كلها عن دور مسعود بعد خروجه من مخبئه لمبايعة الامام الجديد ، وكان ينبغي أن تفرد له ترجمة في تلك الكتب ، خاصة وأنه تفوق على الامام عبد الوهاب أو استوى معه في العلم بحيث مالت الرعية اليه .

وهكذا كان العلماء نقطة وصل بين دول المغرب العربي ورحلاتهم المختلفة ، تعتبر أهم مظاهر أو معالم العلاقات الثقافية بين تلك الدول استفادت منهم تيهرت ، كما كان لعلمائها دور لا ينكر في القيروان ، وفي سجلماسة خاصة .

ب ـ العلاقات الثقافية مع بلاد السودان :

لم تكن العلاقة التجارية الواسعة التي ربطت السودان الغربي بمراكز اقتصادية في الدولة الرستمية ، لتمر دون أن تخلف آثاراً ثقافية ، يمكن التعليق عليها بأنها كانت عميقة ومهمة ، عمق وأهمية تلك التجارة التي كانت الوسيلة في وصول الاباضية الى تلك البلاد النائية[22] .

تتحدث المصادر الاباضية عن عدد من علمائها الذين قطنوا ببلاد السودان أو دخلوها فاستفادت منهم ، فالدرجيني يخبرنا عن شيخ يدعى

(20) أبو زكرياء : سير ، ص 54 ـ 55 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 46 ، الشماخي : سير ، ص 145 .

(21) أبو زكرياء : سير ، ص 56 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 46 ، الشماخي : سير ، ص 145 .

(22) راجع الباب الثاني من هذا البحث فصل التجارة مع السودان .

عبد الحميد الفزاني ، كان عالما كبيرا قطن بلاد السودان[23] . أما الشماخي الذي يسوق لنا رواية أكثر أهمية في هذا الموضوع ، فيحدثنا عن أبي يحي ابن أبي القاسم الفرسطائي ، من يتامى معركة مانو ، حيث أن أباه قتل فيها سنة 283هـ . وكانت لأبي يحي رحلة الى بلاد السودان ، التقى فيها بأحد ملوكها ، وكان نحيل الجسم ضعيف القوى ، مريضا ، فدعاه الى الدخول في الاسلام ، وبعد أخذ ورد بينهما يصوره أبو يحي نفسه فيقول : « فمازلت أذكّره نعم الله وآلائه حتى أسلم وحسن اسلامه »[24] واستعاد قوته . ويحتمل أن تكون رعيته قد أسلمت باسلامه مادام « الناس على دين ملوكهم » .

ولم تنقطع علاقة الاباضية بالسودان ، حتى بعد سقوط دولتهم بتيهرت اذ في سنة 575هـ ، استطاع علي بن يخلف ، أحد مشائخ نفوسة الذين سافروا الى غانة ، أن يستدرج ملك مالي في الدخول في الاسلام هو ورعيته وذلك لما جدبت مملكته وتفاقمت أوضاعها[25] ، فأغاثهم علي بن يخلف بصلاة الاستسقاء ، فسقطت الامطار وجرت الأنهار ، فآمن الملك ورعيته .

إن هذه الروايات المختلفة ، لا تدل الا على وجود علاقات ثقافية عميقة بين الدولة الرستمية وبلاد السودان . فما وجود الشيخ عبد الحميد الفزاني ، أو العالم الكبير الذي بعثه عمروس بن فتح ، قاضي نفوسة ، الى السودان[26] ، ما وجود هاذين العالمين ببلاد السودان ، الا دليل على دخول بعض ممالك

(23) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 327 ، يضع الدرجيني هذا العالم في الطبقة السادسة (250 ـ 300هـ) .
(24) الشماخي : سير ، ص 311 ـ 313 .
(25) الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 517 ـ 518 ، الشماخي : سير ، ص 457 ـ 458 ، أطفيش : ازهاق ، ص 67 .
(26) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 223 ، يشير الى أنه أخذ معلومته هذه من الوسياني أبي الربيع بسيرته المخطوطة الموجودة بدار الكتب المصرية ، وهي على مايبدو تختلف عن النسخة التي اعتمدنا عليها والموجودة بميزاب . وانظر مقدمة الطبعة الثانية

السودان في الاسلام ، وبالتالي احتاجت الى من يفقهها في دينها ، ويسلك بها المراحل الأولى في هذا السبيل .

لقد كان للتجار الاباضية من رعايا الدولة الرستمية فضل السبق في نشر الاسلام في جزء من تلك البلاد النائية ووضعوا بذلك البذور الأولى لحركة انتشار هذا الدين في بلاد السودان[27] . ويبدو أن هذا الدور لأولائك التجار ، في ذلك الزمان ، مازال بحاجة الى دراسة[28] ، أعمق ، تكشف عن أسراره وأبعاده المختلفة .

وتشير بعض الكتب الى وجود قرى عديدة تعتنق الاباضية في السودان في القرن الماضي[29] . وليس هذا بمستبعد مادام ابن بطوطة[30] ، ينقل لنا مشاهدته في نهاية القرن السابع الهجري ، ويذكر أن في قرية زاغرى جماعة من الاباضية يسمون صغنغو . وبقي الوجود الاباضي مستمرا ببلاد السودان حتى أثبته الاستاذ شاخت (Schach J.) الذي لاحظ في مساجد بعض تلك الأقوام وجود هندسات مشابهة تماما لما عند اباضية وادي ميزاب أو وارجلان كالمحراب المستطيل الشكل والمئذنة ذات الشكل المستطيل المخروطي اضافة الى ظاهرة فريدة عند الاباضية ، وجدها ماثلة في بعض مساجد السودان ، ذلك هو عدم وجود المنبر في المسجد ، وتفسير ذلك أن الاباضية

(27) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 223 ، عوض خليفات : نشأة ، ص 110 ، وأنظر : Lewicki T: Etudes Ibadites, p.71, Masqueray: Chronique d'Abou Zakaria, p.275-277, note2, Anne Marie: Contribution, opcit, p.76 Schacht J: sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le sahara, travaux de l'Institut des recherches sahariennes (I.R.S.). Tome XI, 1er semestre, imp. E. imbert, Alger, 1954, p.11, 21, 27.
(28) رغم وجود أطروحة دكتوراة في انتشار الاسلام بالسودان الغربي فان باحثها لم يشر الى هذا الدور اطلاقا ، ولم يطلع على المصادر الاباضية . أنظر دريد عبد القادر نوري : انتشار الاسلام في السودان الغربي من القرن 5 ـ 11هـ/ 11 ـ 16م ، رسالة دكتوراة جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1401هـ/1981م . وقد سلك نفس المسلك الذي أتبعته الدراسات التي سبقته .
(29) أطفيش : ازهاق الباطل ، ص 67 ـ 68 .
(30) ابن بطوطة : رحلة ، ص 680 .

منذ سقوط تيهرت وزوال امامتهم بها اعتبروا صلاة الجمعة مرفوعة عنهم لعدم توفر شرط مهم لقيامها وهو ما يعرف عندهم بالامام العادل[31] .

ان انتقال مثل هذه المعتقدات والاعتقادات ، عبر الصحراء ، الى بلاد السودان ، وعبر السنين والقرون ، لا تدل الا على عمق ما تركه التجار الاباضية في تلك البلاد ، ابتداء من عهدهم الأول ، أيام الدولة الرستمية .

ومن الآثار الثقافية التي تركتها العلاقة بالسودان ، تعريب جزء من تلك المناطق ولو بشكل محدود ، وتكونت بفعل الاحتكاك الدائم والمستمر لغات مزيجة كلغة الآزر وهي لغة وكالات تجارة الذهب والرقيق في نطاق الساحل السوداني ، وقد استعارت قوامها من العربية ومن البربرية ومن اللغات الافريقية[32] .

ويجمل القول إن العلاقة الثقافية بالسودان كانت أكبر من أن تشملها هذه السطور ، اذ كان للتجار من رعايا الدولة الرستمية وغيرها ، الدور الريادي في اخراج قبائل تلك البلاد من بدائيتها ، وتكوين سكانها وشحذ أخلاقهم ومداركهم عبر السنين والحقب[33] .

جـ ـ العلاقات الثقافية مع المشرق العربي :

لعل الحج يعتبر أهم وسيلة ربطت المغرب بالمشرق ، ولا يزال . وقد تجاوب المغاربة مع هذا الركن من الدين ، وتحمسوا له ، فكانت أمنية الواجد منهم منذ أن حسن اسلامهم ، أن يقوم بهذه الرحلة الدينية العلمية ، ولا يزال هذا الشعور فيهم قائما .

(31) Schacht J : Sur la Diffusion, opcit, p.11-19 نلاحظ هنا أن أغلبية الاباضية اليوم يصلون الجمعة وتوجد للنابر في مساجدهم كثيرها من المساجد المالكية بالجزائر .

(32) موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية ، ص 134 .

(33) لوبون : حضارة العرب ، ص 666 .

ان ما ترويه المصادر الاباضية[34] عن أهل جبل نفوسة الذين كانوا ، في عهد الدولة الرستمية ، أكثر الناس حجا ، بحيث أنهم كانوا يحجون بنسائهم وذراريهم حتى قيل إنه ولد لهم في ركب واحد ثلاثمائة مولود ذكر ، فضلا عن المواليد من الاناث أو النساء اللائي لم يلدن ، أو عدد الرجال المرافقين لهذه النسوة ، لا تدل هذه الرواية أن صحت[35] ، الا على اهتمام الناس بالحج ، ولا أرى أن أهل نفوسة ينفردون بذلك وحدهم ، بل إن قوافل الحج كانت تخرج أيضا من تيهرت ، وفي احداهن اختفى أبو اليقظان وسافر الى مكة[36] ولا أدل على مكانة الحج عند المغاربة في ذلك الزمان ، من همّ الامام عبد الوهاب لأداء فريضته ، وقد خرج فعلا من تيهرت ، فلم يمنعه من ذلك الا علماء نفوسة ، خوفا على امامهم من عيون بني العباس ، ثم إن عبد الوهاب لم يقتنع فأرسل الى العلماء الأعلام بالمشرق يستفتيهم ، ولم يطمئن حتى أرسل من ينوب عنه في أدائها[37] .

فلا شك أن هذا الاهتمام وهذه الاعداد الكبيرة من الحجاج المغاربة كانت تستفيد من الحج ، بالاتصال بمشائخ الشرق وعلمائه ، فيتزودون من منابع المعرفة والعلوم ، ويستفيدون من دروس الوعظ والارشاد التي لا تعرف التوقف في ذلك الموسم ، ومثال ذلك ماكان من عمروس بن فتح وأصحابه الذين دخلوا على محمد بن محبوب ، أحد علماء المشرق ، في مجلسه فأدناهم اليه تعظيما لهم ، ولما تبوأوا للمذاكرة ، سأله عمروس عن مسألة فقال ابن محبوب ان كان أبو حفص عمروس في شيء من هذا البلد فهذا السؤال منه ، فقالوا له هو السائل ، فزاد في دنوه فجعل عمروس يسأله في مسائل

(34) الوسياني سير (مخطوط) ورقة 6 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 325 ، الشماخي : سير ، ص 228 .

(35) يشير ابن الصغير الى حج النفوسيين نسائهم خاصة ويذكر أن الواحدة منهم لا تحج الا بعد أن تستأذن الامام أبا اليقظان بأن تبعث ابنها الى تيهرت . وهذا يدل على اهتمام النفوسيين بالحج فعلا وهو مصداق للرواية الاباضية . أنظر تاريخ ابن الصغير ، ص 46 ـ 47 .

(36) ابن الصغير : ص 27 .

(37) أبو زكرياء : سير ، ص 76 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 66 ، الشماخي : سير ، ص 158 .

الدماء حتى قال له ابن محبوب هذا من مكنون العلم لا يعلن به في قوم من العوام ».فقال عمروس لأصحابه احفظوا السؤال أحفظ لكم الجواب . فلما قدموا نفوسة قال عمروس هلموا ما تكفلتم (به) قالوا لم يبق معنا إلا قولك احفظوا السؤال أحفظ لكم الجواب فقام بها جيما سؤالا وجوابا »[38] .

وهكذا تبين هذه الرواية جوانب هامة من العلاقة الفكرية التي كانت تربط المغرب بالمشرق ، وتشير بوضوح الى المسائل الفقهية التي كانت متداولة في مجالس العلماء . كما أنها صريحة في تبيان أن الحجاج كانوا من العامة بحيث لم يستطيعوا حفظ الأسئلة التي طرحها عمروس في ذلك المجلس وقد كلفوا بذلك .

وكان لابن محبوب هذا أو أبيه ، خيام بمنى تعرف باسم مضارب محبوب ، فيها مورد حجاج عمان وجماعتهم . وكان المغاربة يقصدونهم[39] للتعرف عليهم واستزادة العلم منهم . وقد استغل الاباضية من أهل المشرق خاصة موسم الحج لبث دعوتهم بين الحجاج القادمين من مختلف البقاع فأقاموا تلك الخيام التي تعتبر بمثابة مدارس متنقلة لنشر المذهب[40] لاشك أن المغاربة كانوا يستفيدون منها ويتزودون بالعلم والمعرفة ، لذلك كانوا يحجون بتلك الاعداد الكبيرة ، وربما كرر أحدهم الحج مرارا حبا في التفقه في الدين مثلما كان صاحب لأبي حماد النفوسي ، لا يذكر لواب[41] اسمه ، حج ثلاث مرات ، كانت الثالثة من مصر ، اذ لم يعد الى أهله ، وبقي في مصر سنته تلك .

ولقد كان للدولة الرستمية عدة اتصالات بمصر وعلمائها ، اذ كثيرا ما

(38) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 5 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 324 ، الشماخي : سير ، ص 227 .
(39) لواب بن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 35 .
(40) عوض خليفات : نشأة ، ص 110 .
(41) لواب بن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 35 ـ 36 .

بعث اباضية المغرب الى اخوانهم بمصر يستفتونهم في النوازل ، كفعل الامام عبد الوهاب في مسألة ابن فندين وأتباعه الذين عرفوا فيما بعد بالنكار ، ليستفتي الامام عالم مصر آنذاك شعيب بن المعروف . فأبى هذا الا القدوم الى تيهرت وكان له فيها دور مع ابن فندين وثورته ضد الامام عبد الوهاب[42] . وقد استفتى هذا الامام أيضا ابن عباد المصري لما هم بالخروج الى الحج ، وكان ابن عباد من علماء الاباضية بمصر وفقهائها[43] .

ولا شك أن العلاقة بمصر كانت واسعة ، لقربها من جهة ، ولكونها في الطريق الى الحج أو بلاد المشرق عامة من جهة أخرى .

ولقد رأينا علماء التقوا باخوانهم في مصر كصاحب « شرائع الدين » لواب وأبيه سلام بن عمرو ، اذ التقى لواب بمحمد بن عبد الملك الحجازي بمصر قبل سنة 250هـ ، ولم يفته أن يسجل عنوان هذا العالم الاباضي في كتابه[44] كدليل لمن يريد زيارته من المغاربة في منزله بمصر .

ويبدو أن الذين زاروا بغداد ، أو البصرة بعد حلة العلم منها الى المغرب ، قليلون اذ لا تذكر المصادر التي بين أيدينا ، الا بكر بن حماد الشاعر والمحدث التيهرتي ، الذي رحل الى المشرق سنة 217هـ ، ودخل البصرة وبغداد وكانت له فيهما اتصالات بعلماء وقته ، بل لقد مدح المعتصم الخليفة العباسي ، ووصله هذا بصلات جزيلة[45] .

ومن الذين لهم رحلة الى المشرق عبد العزيز بن الأوز ، الفقيه البارع سفيه اللسان ، تتبرأ الاباضية ، رغم كونه اباضيا ، من حضور مجالسه ، أو

(42) أبو زكرياء : سير ، ص 58 ـ 63 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 50 ، الشماخي : سير ، ص 147 .
(43) لواب بن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 36 ، أبو زكرياء : سير ، ص 76 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 66 ، الشماخي : سير ، ص 159 .
(44) لواب بن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 39 .
(45) الدباغ : معالم الايمان ، ج2 ، ص 281 ـ 282 ، ابن عذاري : البيان ، ج1 ، ص 153 ـ 154 ، وأنظر كذلك : شاوش : الدر الوقاد ، ص 45 ـ 48 .

دخوله في حلقاتهم[46] الا ان ابن الصغير الذي ساق لنا هذا الخبر ، لم يحدد المدينة المشرقية التي زارها ابن الأوز ، ونعتقد أنها هي البصرة وبغداد ولا يقصد هنا ابن الصغير رحلة الى الحج ، وانما رحلة من أجل طلب العلم كما يفهم من سياق كلامه .

وكانت لزيارة نفاث بن نصر النفوسي الى بغداد ، آثار ثقافية بارزة وكان نفاث عالما كبيرا ، أخذ العلم بتيهرت عن الامام أفلح بن عبد الوهاب ولم ترقه سيرة شيخه وامام مذهبه والدولة التي ينتمي اليها ، فراح ينتقده ، وينفث عنه أخبارا ترى المصادر الاباضية أنها باطلة ، لذلك أطلق عليه الامام أفلح اسم نفاث وانما إسمه الحقيقي فرج . فبرز وسما بأفكاره التي خالف فيها الامام ، ولما هدده أفلح ، شد الرحال نحو المشرق حيث ورد بغداد ، فكانت له فيها مع الخليفة ، الذي لا تذكر المصادر اسمه تجاذب كلام[47] ، واستطاع أن يحل لغزا له ، فشل علماء بغداد ، كما تذكر المصادر الاباضية[48] ، عن حله وبزهم بذلك فنال الجائزة التي طلبها ، وكانت عبارة عن استنساخ ديوان جابر بن زيد الأزدي ، امام المذهب ، والقدوم به الى المغرب .

وفي خلال هذه الفترة التي قضاها نفاث ببغداد ، وربما بعده بقليل دخل الامام أبو اليقظان بن أفلح بغداد ، قبل توليه المنصب ، دخلها مرغما سجينا ، وقضى في حبس بني العباس سنوات معدودات اتفق أن كان سجنه

---

(46) ابن الصغير : ص 47 ـ 48 . لعل ابن الأوز هذا الذي تتبرأ منه الاباضية من النكار وليس من الوهبية ولم يشر ابن الصغير الى ذلك وهو الذي نقل الصفة المذكورة .

(47) لما سأله الخليفة العباسي عن بلده ونسبه ومولده قال له نفاث : أنا رجل من البربر . والبربر لا أدب عندهم فان رأى أمير المؤمنين الصفح عن العبد إن أساء والتجاوز عنه إن بدا منه الجفاء فعل ؟ فقال له الخليفة : قل ما بدا لك فأخذ يسأله ونفاث يجيب وذلك بحضور الفقهاء والأكابر من أهل بغداد الذين لم يقووا على أسئلة الخليفة .

(48) أبو زكرياء : سير ، ص 94 ـ 95 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 80 ـ 81 ، الشماخي : سير ، ص 214 .

مع أخ للخليفة[49] ، لعله هو المعتمد الخليفة العباسي الذي كان بالسجن لما قتل الخليفة المهتدي سنة 256هـ .

والذي يهمنا من هذه الرحلة ، التي أجبر عليها أبو اليقظان ، ولم تكن طواعية منه ، أنها تبين العلاقة بين بغداد وتيهرت ، اذ أكرم أيما إكرام وعامله الخليفة الذي سجن معه معاملة طيبة ، ولا شك أن أبا اليقظان قد أظهر من الأدب والعلم ما جعله محل احترام الخليفة العباسي[50] ، وقد اشتهر الخلفاء العباسيون بحبهم للعلم والعلماء ورعايتهم لها . ومما لا ريب فيه أن الامام أبا اليقظان قد تعلم هناك ببغداد فنونا من السياسة ونظم الادارة والحكم ، وأحب أن تستفيد الامامة بتيهرت بتلك التجارب[51] ، لهذا على ما يبدو أسند له أخوه أبو بكر من مهام الدولة ما قام به أحسن قيام ، وكانت له في إنهاء الفتنة التي هزت تيهرت أبيض الأيادي ، وعمر في الامامة أربعين عاما كانت لا تشبه الا بأيام الامام الأول عبد الرحمن بن رستم[52] .

أما العلماء الذين زاروا الدولة الرستمية من أهل المشرق ، فيذكر أن وفدا منهم قدم زائرا زمان الامام عبد الوهاب ، فقصد تيهرت ، ومرّ بجبل نفوسة حيث سئل عما لاحظه بالمغرب ، فاختار بعض العلماء ومنهم الامام

---

(49) ابن الصغير : ص 28 ـ 30 ، وأنظر الدرجيني : طبقات ، ص 83 ، الشماخي : يترك بياضا عندما وصل الى هذه الحادثة ، ص 220 .

(50) يذكر الاستاذ عبد الوهاب بن منصور ، في مقال له بمجلة البصائر العدد 179/178 والذي تحت عنوان ، السفارات الملكية والعلائق بين الشرق والغرب ، أن معاملة بني العباس لأبي اليقظان تعتبر بحق غريبة ، اذ ما عرف عن العباسيين الا الحذر الشديد من الامراء المغاربة والكيد لهم والايقاع بهم ، ويقول ، وليس بغائب عن الأذهان موقف هارون الرشيد من الادارسة بالمغرب الأقصى اذ قتل المولى ادريس بن عبد الله بسم دسه في قارورة طيب سنة 177هـ . أنظر البصائر الصادرة بالجزائر 1371هـ/1952م ، ص 6 . وهذا الرأي يدعم ما ذهبنا اليه من أن أبا اليقظان ، وهو المعروف بعلمه الغزير ، قد أظهر من ذلك للعباسيين ما أنساهم حذرهم وكيدهم للامراء المغاربة .

(51) معمر علي يحي : الاباضية بالجزائر ، ص 76 ، ابن الصغير : ص 32 ، وما بعدها .

(52) أبو زكرياء : سير ، ص 98 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 83 ، الشماخي : سير ، ص 221 ـ 222 .

نفسه اعجابا بهم ويعلمهم[53] ، الا أن المصادر التي أوردت هذه الرواية لم تذكر بالضبط من أين قدم الوفد ، فلعله من البصرة ، لأن هذه المدينة في عهد عبد الوهاب ، مازالت تؤدي دورها في الدعوة ومراقبة أتباعها بمختلف بقاع وجودهم[54] .

وزار جبل نفوسة وتيهرت ، أيضا العالم الخرساني أبو غانم بشر بن غانم وكان لانتساخ مدونته من طرف عمروس النفوسي الفائدة الكبيرة ، وقد ترك نسخة من مدونته في مكتبة المعصومة ، أهداها على ما يبدو ، للأئمة بتيهرت[55] .

ولعل لزيارة اليعقوبي ، المؤرخ والجغرافي العربي ، أكثر من أثر ثقافي في العلاقة بين الدولة الرستمية وبلاد المشرق ، اذ زار تيهرت وغيرها من أقاليم الدولة ، ونقل لنا مشاهدته التاريخية والجغرافية ، وكانت المعلومات التي احتفظ لنا بها في كتابه ، « التاريخ » و« البلدان » ، لا يمكن الاستغناء عنها[56] ، ولا نعرف بالضبط متى زار اليعقوبي تيهرت ، الا أننا لا نشك في أن ذلك في أواخر الدولة الرستمية ، أيام الامام أبي حاتم بن أبي اليقظان محمد بن أفلح (281 ـ 294هـ) وعامله على نفوسة الياس اذ يذكرهما ذكر من يعرفهما أو عاصرهما[57] .

ولعل الكثيرين من المشارقة الاباضية التجأوا الى تيهرت بعد تأسيسها هروبا من بطش العباسيين وقبضتهم ، فنشطت بذلك حركة الهجرة الى العاصمة الرستمية ، رغبة في العيش في كنف الدولة وامامة الظهور[58] ، أو

(53) أبو زكرياء : سير ، ص 83 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 293 ـ 294 ، الشماخي : سير ، ص 165 :

(54) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 152 .

(55) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 4 ، الدرجيني : طبقات ، ج2 ، ص 323 ، الشماخي : سير ، ص 228 .

(56) عوض خليفات : نشأة ، ص 13 ـ 14 .

(57) اليعقوبي : البلدان ، ص 99 ـ 104 .

(58) ابن تاويت : دولة الرستميين ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية ع1 ـ 2 ، ص 109 ، محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 151 .

حبا في ملء المناصب الشاغرة ، وبالتالي كان هؤلاء المشارقة ، رواد الحضارة العربية المشرقية ، وسيلة لنقل معرفة المشرق الى المغرب[59] .

ومن أبرز مظاهر العلاقة الثقافية بين الدولة الرستمية وبلاد المشرق تلك الكتب والرسائل التي كانت تتبادل بين الطرفين ، فلم تنقطع الصلة بين خوارج المشرق والمغرب ، بل استمرت بشكل دائم[60] فكانوا كلما نزلت بهم نازلة لم يترددوا في ارسال الكتب الى علماء المشرق يستفتونهم فيها[61] ، تماما مثلما كان يفعل علماء القيروان في استفتائهم للامام مالك بن أنس بالمدينة أو أبي يوسف القاضي ببغداد[62] . وكانوا يلتزمون فتواهم ، أما تصانيف المشرق ، فقد مر بنا عدة مرات ذكر تلك الاحمال التي طلبها الامام عبد الوهاب من اخوانه بالبصرة ، من الكتب ، وجاءته ، فاجتهد في قراءاتها ليلا ونهارا .

ومن الكتب العديدة التي وصلت الى بلاد المغرب ، كتب محبوب بن الرحيل وابنه ، في الفقه والكلام والعقائد والاخبار ، وكان كتاب ابن محبوب يعرف عند نفوسة بسيرة ابن محبوب الى أهل المغرب ، قيل إنه يقع

(59) موريس لومبارد : الجغرافيا التاريخية ، ترجمة حيدة ، ص 77 ، 99 ـ 100 ، شاوش : الدر الوقاد ، ص 33 .

(60) محمود اسماعيل : الخوارج ، ص 219 ، رغم أن الدكتور محمود يؤكد هنا في الصفحة المذكورة فانه في صفحة 152 ، يذكر أن المصادر خلو من أية اشارة الى استرار العلاقة بين تيهرت والمشرق بعد امامة عبد الوهاب ويعزو هذا حسب تخمينه ، الى رفض وانكار امامة خلفائه لانها تحولت الى ملك وراثي وضاعت هيبتها . وطبعا لا نوافقه في هذا الرأي لأن هناك رسائل من أهل المشرق الى تيهرت في عهد أفلح تقر بامامة هذا الأخير مثل رسالة أبي عيسى ابراهيم بن اسماعيل الذي يقول فيها « ثم كان بعد عبد الوهاب ابنه أفلح حفظه الله » أنظر لواب (مخطوط) ورقة 51 ، ومثل زيارة أبي غانم بشر بن غانم الى نفوسة وتيهرت في القرن الثالث في أيام عمروس بن فتح وهو من علماء الطبقة السادسة (250 ـ 300هـ) وقد سبق أن أشرنا الى هذا . وأنظر أيضا: Bekri Chikh: Kharijisme, p.82

(61) لواب بن سلام : شرائع (مخطوط) ورقة 36 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 66 ، الشماخي : سير ، ص 146 ـ 147 ، 181 ، الباروني : الأزهار ، ج2 ، ص 157 ـ 160 ، عوض خليفات : نشأة ، ص 25 ، مهدي هامش طالب : الحركة الاباضية . رسالة ماجستير ص 90 ـ 91 .

(62) أنظر الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية ، ص 229 ـ 230 .

في سبعين جزءا ، لم يصل الى بلاد المغرب منه الا الجزء السادس فقط[63] ومما يدل على كثرة كتب أهل المشرق بالدولة الرستمية قول الامام أفلح يحث رعيته : « عليكم بدراسة كتب أهل الدعوة ولا سيما كتاب أبي سفيان... »[64] .

ولا أدل على علاقة المغرب العربي بالمشرق من ذلك الرباط الذي لا ينفصم ، ولا يزال مستمرا ، ويتجلى بوضوح في تقليد المغرب للمشرق ، فأيما مشكلة أو مسألة فكرية نوقشت هناك ، الا ونجد أصداءها في المغرب ، ولقد شاهد المشرق خلال القرن الثالث الهجري تطورا كبيرا في الفكر العربي الاسلامي ، حاول المغرب بما أوتي من قدرة مسايرة ذلك الفكر ، والوصول الى مستواه ضمن حدوده الجغرافية والزمانية ، ولعل في مناظرات المعتزلة لاباضية المغرب[65] ، أكبر دليل وأوضحه على العلاقة وأوجه الشبه بين المشرق والمغرب العربيين ، وفي حديثنا عن المناظرات الفقهية والكلامية ما أوضح جوانب أخرى من هذه العلاقة وأوجه الشبه[66] .

٩ لقد كان لاتصال المغرب بالمشرق ، بمختلف أشكاله ، الدور البارز في تغذية الفكر العربي الاسلامي بالمغرب ، كما كانت العلاقة الثقافية التي ربطت تيهرت ، وغيرها من أقاليم الدولة الرستمية ، بالعواصم المغربية كالقيروان وفاس وسجلماسة والأندلس ، وبلاد السودان من أهم مظاهر الثراء الفكري لهذه الدولة ، وهي تعبّر فعلا عن حياة فكرية غنية ومتنوعة ، طالما عمل الحكام الرستميون على دفعها وتنشيطها تماشيا مع حبهم للعلم ورعايتهم للعلماء .

---

(63) الوسياني : سير (مخطوط) ورقة 25 ، البرادي : الجواهر ، ص 218 .

(64) البرادي : ملحق بكتاب الموجز لأبي عمار عبد الكافي ، تحقيق عمار طالبي ، ج2 ، ص 284 ، ومما تجدر الاشارة اليه أن كتاب أبي سفيان كثيرا ما كان يعتمده كتاب السير والطبقات الاباضية كالوسياني والدرجيني والشماخي .

(65) ابن الصغير : ص 44 ، أبو زكرياء : سير ، ص 67 ، الدرجيني : طبقات ، ج1 ، ص 57 وما بعدها .

(66) أنظر مبحث المناظرات ضمن العلوم العقلية في الفصل الثالث من الباب الثالث .

﴿ الخاتمة ﴾

شهد المغرب العربي في النصف الأول من القرن الثاني الهجري عدة ثورات ، عرفت عند المؤرخين بثورات الخوارج ، أو ثورات البربر الذين اعتنقوا المذهبين الاباضي والصفري ، وقاموا بحركتهم ضدّ تعسف بعض الولاة الأمويين .

وكان أتباع المذهب الاباضي خاصة يتمركزون في المغربين الأدنى والأوسط ، الأمر الذي ساعدهم على بناء مدينة تيهرت ، في المغرب الأوسط بعد ما فشلوا في عدة محاولات للسيطرة على القيروان . وببناء تيهرت التي اتخذوها معسكراً لهم ، تحدد الموقع الجغرافي المتميز لتمركز الاباضية . فأنس هؤلاء من أنفسهم قوة ، فبايعوا عبد الرحمن بن رستم أول إمام للدولة الرستمية سنة 160هـ/777م .

- لقد تولى حكم هذه الدولة التي استمرت أكثر من قرن وثلث قرن ثمانية أئمة ، تميز الأولون منهم بالقوة والمنعة والحنكة السياسية ، كالامام المؤسس عبد الرحمن بن رستم (160هـ - 171هـ) الذي وضع أركان الدولة ، ونظم ادارتها ، وتوفي بعد أن تركها قوية لابنه عبد الوهاب (171هـ - 208هـ) الذي بلغت الدولة الرستمية في عهده أقصى حدودها واتساعها / حتى وكأن فترة حكمه تبدو لنا فترة عسكرية ، استطاع فيها عبد الوهاب ، وهو الذي أكثرت المصادر الاباضية من ذكره أكثر من أي امام آخر أن يؤمن ما تحت يده من البلاد ويخيف الجيران ويحملهم على احترامه ، ويحطم الفتن التي أثيرت في حكمه تحطيما كليا .

وورث أفلح بن عبد الوهاب (208هـ ـ 258هـ) من أبيه هذه الدولة ، قوية عزيزة ، ساسها بسياسة أبيه ، وقد امتاز عهده خاصة بالنمو الاقتصادي ، والرخاء المعيشي . وهو مابدا جليا في حياة السكان الذين كثرت الأموال في أيديهم ، وعمت هذه الحضارة جميع شرائح المجتمع ، ومست البدو أيضا ، فتطلعوا بذلك الى المكابرة والمنافسة .

وبعد عهد أفلح المزدهر ، وتداعي الناس الى الراحة والحضارة خلفه ابنه أبو بكر (258هـ ـ 261هـ) الذي لم يورث قوة جده ، ولم يحظ بنصيب من حسن سياسة أبيه ، فتداعت عليه القبائل ، وكثرت حوله الشكوك فدخلت الدولة الرستمية ، في عهده ، منعطفا خطيرا بقي نقطة بداية النهاية اذ استمر الضعف يتفاقم كلما تقدمت الأيام ، وتداولت . ومن حين لآخر تعرف الدولة الرستمية صحوة جديدة تبعث في كيانها حياة عهد الامام الأول عبد الرحمن بن رستم ، كذلك كان عهد الامام الرابع أبي اليقظان بن أفلح (261هـ ـ 281هـ) الذي أنقذ الدولة من الانهيار ، وساسها بسياسة حكيمة تتماشى مع الظرف الحساس جدا ، واستمر عليها ابنه أبو حاتم (281هـ – 294هـ) حتى قتلته أسرته ، وأغتصب الحكم منه اغتصابا وهو أول امام يموت قتلا في هذه الدولة . وتلك نتيجة من نتائج نظام الحكم الوراثي في كثير من الدول .

وعموما ، لقد كان عهد الأئمة أبي بكر ، وأبي اليقظان ، وأبي حاتم يتميز بالنشاط الفكري خاصة . والحقيقة أن هذا النشاط كان يساير الدولة الرستمية منذ البداية ، تماما مثلما كان النشاط الاقتصادي ، وذلك لطبيعة المذهب الذي يعتنقه أغلب السكان في الدولة ، وشغف البربر ، وهم السواد الأعظم ، في الاستزادة من معرفة الدين الاسلامي ، والتعمق فيه ، ومعرفة اللغة العربية ومحاولة التحدث بها .

أما عن الأوضاع الاقتصادية ، فقد عرف المغربان الأدنى والأوسط في

عهد الرستميين ازدهارا واسعا . والحقيقة أن العوامل المساعدة كانت متوفرة ، كالحكومة القوية ، وسيادة القانون والعدالة ، وتوفر الأمن في الداخل اضافة الى العلاقات الحسنة مع الجيران الأقربين ، والمناطق البعيدة ، كل هذا أدى الى تحقيق ذلك الازدهار والرخاء ، وهما ميزتان اختص بها العالم الاسلامي آنذاك من أقصاه الى أقصاه .

فكانت الزراعة تجد أراضي خصبة ، وأنهاراً عديدة ، وعوامل طبيعية مواتية ، نشطت بها أيما نشاط ، وكانت بذلك السلع الرستمية من قمح وماشية وغيرها ، تصدر الى مختلف الآفاق شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، وتستورد الدولة ما هي بحاجة اليه من بضائع المشرق والمغرب والأندلس والسودان الغربي .

ولعبت بضاعتان اثنتان دورا بارزا في التجارة الخارجية ، نقصد بها الذهب والرقيق ، المجلوبين من السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى . فكانت مسالك أربع تربط مراكز اقتصادية رستمية بالسودان . وقد نشطت تلك التجارة بشكل ملحوظ ، وبعثت الرخاء في البلد ، حتى صار الناس يبنون القصور ويمتلكون الثروات . وكثيرا ما عبرت تلك البضاعتين الأسواق الرستمية الى الأندلس أو المشرق العربي .

واذا كانت الزراعة والتجارة في الدولة الرستمية ، بهذا المستوى المرتفع فان الصناعة ، على ما يبدو ، لم تلق رواجا يناسب مستوى التجارة أو يساير نشاط الزراعة ، ولعل الأصوب ههنا أن نقول إن المصادر التي بين أيدينا لم تشر الى صناعة رستمية بعينها ، كان صناع المغرب الأوسط مثلا يجيدون صنعها أو يشتهرون بها . وهذا لم يمنعنا من افتراض وجود بعض الصناعات الضرورية .

أما الناحية الفكرية ، فقد بلغت الدولة الرستمية فيها شأواً عظيما مع الأخذ بعين الاعتبار عوامل الزمان والمكان وطبيعة السكان ، وبالقياس الى

حالة البلاد قبل هذه الفترة التي نبحث فيها . وتتمثل الحياة الفكرية في هذه الدولة في تلك المناظرات التي كانت تعقد في بعض المناطق أو المساجد . كان مدار الحديث فيها ، على ما يبدو ، حول الخلافة أو الامامة وشروطها والفقه وعلم الكلام... وقد رأينا نبذا من تلك المناظرات التي تبدو عميقة ، تدل على مدى ما بلغه المغاربة في فهمهم للاسلام . ويلوح لنا أن تلك المناظرات كانت منذ البداية الأولى للرستميين ، وذلك بعامل تعدد المذاهب الاسلامية في المغرب ، وسياسة الحكام في التسامح المذهبي ، ولا غرابة في ذلك ، فان الأئمة الرستميين كانوا من العلماء الاعلام ، برزت أسرتهم في مختلف فنون المعرفة ، لذلك نجد همهم ، اقناع مخالفيهم في المذهب بالحجة ، ونادرا ما يلجأون الى العنف ، ولا يكون ذلك الا اضطرارا بعد أن يبدأهم عدوهم به .

ومن مظاهر الحياة الفكرية في هذه الدولة ، وجود تلك المؤلفات للأئمة الرستميين ، فكانوا خير ممثل لدولتهم ، وللثقافة في المغربين الأدنى والأوسط ، كما كانوا المشجعين الحقيقيين للمعرفة والتعليم . ومن هنا وجدنا أعدادا كبيرة من العلماء والفقهاء خاصة ، عجت بهم بطون كتب سير الاباضية ولعل أمثال أولائك في المذاهب الأخرى موجودون ، الا أن الكتب التي وصلتنا لا تشير صراحة الى هذا الجانب ، اللهم الا بعض الاشارات المقتضبة المبعثرة هنا وهناك .

وهكذا كانت تيهرت في المغرب الأوسط ، كالقيروان في افريقية أو قرطبة في الأندلس . ففي الوقت الذي كانت فيه القيروان عاصمة المذهب الحنفي ثم المالكي ، كانت فيه تيهرت عاصمة المذهب الاباضي ، ومروجة فقهه ، وقبلة الاباضية في المغرب ، بل حتى اباضية المشرق في فترة من الفترات .

والحقيقة أن اختلاف المذاهب في الاسلام ، لم تكن له الا سلبياته

السياسية ، بل ان ايجابياته أعظم ، اذ أثرى الفكر العربي الاسلامي ، وشحذ الهمم ، واشغل العقول ، فسوّدت الأوراق ، وألفت الكتب ، ووقع التنافس وكان نتاج ذلك كله هذه المكتبة العربية الاسلامية الضخمة المتنوعة ، التي نحن نفتخر بها اليوم ، ونباهي بها الأمم .

فالاباضية كغيرها من المذاهب فرع من فروع الفكر العربي الاسلامي ورافد من روافده الزاخرة المعطاء . فاذا ذهبت مكتبة المعصومة بتيهرت بالأمس وقودا للنيران ، فان المكتبة الاباضية[1] ، اليوم كغيرها من المكتبات بحاجة الى دراسة وتحقيق ونشر ، لتعم الفائدة ، وتتقرب الأراء ، وتتوحد الأمة العربية الاسلامية فتعود كما بدأت أولا .

واذا كانت العلوم النقلية من أبرز ما اهتم به الرستميون ، فان للعلوم العقلية من جهة أخرى حظا لابأس به في الحركة الفكرية بالدولة ، اذ وجدنا علماء في اللغة والنحو والاداب والتاريخ وغيرها من المعارف .

وقد برز جبل نفوسة في العلوم النقلية ، بكثرة فقهائه حتى أصبحت بيوته لا تحتاج الى من يفتيها في دينها لانتشار العلم بينها عامة . ولعل من المفيد أن نشير هنا ، الى أن أغلب من ذكر من العلماء في الدولة الرستمية من نفوسة فلا غرابة في ذلك ، مادام أغلب مؤلفي سير الاباضية من نفوسة أو المناطق القريبة منها . وهذا يدعونا بالمقابل الى القول إن مثل أولئك العلماء النفوسيين ، من المحتمل جدا وجود أمثالهم في مناطق أخرى من الدولة الرستمية كوارجلان مثلا وبلاد الجريد ، وجربة ، وتنس ووهران وغيرها .

---

(1) أنظر مثلا الاستطلاعين القيمين اللذين اطلعتنا بها مجلة العربي في عدديها 286 ، 293 وهما على التوالي : مصطفى نبيل : عالم ميزاب المسحور ، سبق ذكره ، ص 115 وما بعدها ، فهمي هويدى : ذكر ما جرى للعلم النبي باض في مكة ونهض الى عمان ، افريل 1983م ، ص 124 وما بعدها . وأنظر كذلك : د. فخار ابراهيم : دور الرستميين الأصالة ، عدد 43/42 ، ص 37 :

وكان للمرأة في المغربين الأدنى والأوسط ، الدور الفعال في الاقتصاد والثقافة . ولقد رأيناها مزارعة وصاحبة منسج ، ورأيناها عالمة تنافس أخاها في العلم أو تساعده عليه . ولا أدل على النشاط الفكري في الدولة الرستمية من كون الاماء أنفسهن لهن نصيبا من العلم لا بأس به . وكما كان للمرأة دورها الايجابي ، فقد كان لها أيضا دورها السلبي ، خاصة في المجال السياسي وذلك باستدراج أبي عبد الله الشيعي الى تيهرت سنة 296هـ/909م ، والقضاء على الرستميين ، وذلك ما فعلته دوسرا بنت الامام أبي حاتم ، انتقاما من عمّها اليقظان لأبيها أبي حاتم بن أبي اليقظان .

واذا كان الأسلام ، قد كمل انتشاره في المغرب العربي بواسطة الدعاة من الاباضية والصفرية ، انتشر على ذينك المذهبين ، في مرحلة من مراحل وجود الرستميين وقبلهم ، وتخطى الصحراء الكبرى ليصل الى بلاد السودان بواسطة التجار من الاباضية خاصة ، فان اللغة العربية من جهة أخرى ، قد وجدت طريقها الى البربر في هذه الفترة ، وتكلمها العديد منهم ، وكتب بها العلماء مؤلفاتهم ، كما كانت اللغة الرسمية في البلاط الرستمي ، بها كان يكتب الأئمة رسائلهم المختلفة الى رعاياهم .

ولعل أهم تطور عرفته اللغة العربية في هذه الفترة ، كتابة البربرية بالحروف العربية ، وهي مرحلة مهمة جدا في تحول المغاربة شيئا فشيئا الى العربية لغة وحروفا ، وهي مرحلة ضرورية ولاشك في ذلك التحول والانتقال .

وهكذا منذ هذا العهد ، بدأت البربرية تترك مكانها للعربية لتعيش معها عيشة العامية اليوم مع الفصحى ، فبدأت اللغة العربية تفتح البلاد وتفرض نفسها على الألسن من خلال القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ وشعائر الدين الاسلامي الحنيف وشرائعه .

ولا شك أن العلاقات الثقافية التي ربطت المغربين الأوسط والأدنى

بالمشرق عامة والبصرة خاصة ، وبالأندلس وأرض السودان الغربي ، قد غذت الفكر ،وساهمت في عمليتي التأثير والتأثر .

وتكاد تسكت مصادرنا عن عهد الامام الأخير ، اليقظان بن أبي اليقظان (294هـ - 296هـ) ، الذي لا يذكر عنه شيء ، وانما يصور ملكا مخذولا قاطعه أهله ، وبقي ينتظر أبا عبد الله الشيعي الذي بدأ يظهر على مسرح السياسة المغربية ، وبدأت دعوة العبيديين ، تتفاقم ، وتشكل خطرا على دول المغرب العربي القائمة آنذاك ، ثم فجأة يجتاح تيهرت ليضع حدا لتاريخها وحضارتها الرستمية ، ويورثها ليتخذها منطلقا في هجومه على سجلماسة ، حيث سيده عبيد الله المهدي مسجون هناك . وهكذا تطوى صفحة من تاريخ الجزائر الوسيط ، وتاريخ المغرب العربي عامة .

ومنذ سقوط الرستميين ، وهروب البعض منهم الى وارجلان ، وربما الى بعض المناطق الاباضية الأخرى آنذاك بعيدا عن تيهرت ، دخل الاباضية منعطفا خطيرا من تاريخ حياتهم . دخلوا في الكتمان والتقية ، بعد الظهور وأزهى العصور في المغرب العربي ، وانتبذوا لهم مكانا في مواطن جبلية أو صحراوية صعبة ، وأسسوا نظما اجتماعية وتربوية دقيقة ، حافظت على بقائهم الى يومنا هذا ، بل استمروا في الدعوة الى مذهبهم ، فاعتنقه أهل وادي ميزاب بصحراء الجزائر ، في القرن الخامس الهجري ، واستمر عليه أهل نفوسة بليبيا ، وأهل جزيرة جربة بتونس ، وأهل وارجلان بالجزائر ، ولا يزال الكل يحمل آمال الدولة الرستمية ، وينظر الى عصورها باعجاب ، يحمل ذكرياتها ويحتفظ بالسماح المذهبي ، والمسالمة الرستمية ، والتشدد الاباضي في الدين والعمل به ، ويتعلقون بالعربية كما كان أجدادهم ، ويقدسونها ويحتفظون بالمجلدات الاباضية في الفقه وأصوله ، والسير والطبقات وغيرها . إنهم بعبارة أخرى ، وعاء حضارة الرستميين الزاهرة ، ونتيجة من نتائجها ..

وكان للمرأة في المغربين الأدنى والأوسط ، الدور الفعال في الاقتصاد والثقافة . ولقد رأيناها مزارعة وصاحبة منسج ، ورأيناها عالمة تنافس أخاها في العلم أو تساعده عليه . ولا أدل على النشاط الفكري في الدولة الرستمية من كون الاماء أنفسهن لهن نصيبا من العلم لا بأس به . وكما كان للمرأة دورها الايجابي ، فقد كان لها أيضا دورها السلبي ، خاصة في المجال السياسي وذلك باستدراج أبي عبد الله الشيعي الى تيهرت سنة 296هـ/909م ، والقضاء على الرستميين ، وذلك ما فعلته دوسرا بنت الامام أبي حاتم ، انتقاما من عمّها اليقظان لأبيها أبي حاتم بن أبي اليقظان .

واذا كان الأسلام ، قد كمل انتشاره في المغرب العربي بواسطة الدعاة من الاباضية والصفرية ، انتشر على ذينك المذهبين ، في مرحلة من مراحل وجود الرستميين وقبلهم ، وتخطى الصحراء الكبرى ليصل الى بلاد السودان بواسطة التجار من الاباضية خاصة ، فان اللغة العربية من جهة أخرى ، قد وجدت طريقها الى البربر في هذه الفترة ، وتكلمها العديد منهم ، وكتب بها العلماء مؤلفاتهم ، كما كانت اللغة الرسمية في البلاط الرستمي ، بها كان يكتب الأئمة رسائلهم المختلفة الى رعاياهم .

ولعل أهم تطور عرفته اللغة العربية في هذه الفترة ، كتابة البربرية بالحروف العربية ، وهي مرحلة مهمة جدا في تحول المغاربة شيئا فشيئا الى العربية لغة وحروفا ، وهي مرحلة ضرورية ولاشك في ذلك التحول والانتقال .

وهكذا منذ هذا العهد ، بدأت البربرية تترك مكانها للعربية لتعيش معها عيشة العامية اليوم مع الفصحى ، فبدأت اللغة العربية تفتح البلاد وتفرض نفسها على الألسن من خلال القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ وشعائر الدين الاسلامي الحنيف وشرائعه .

ولا شك أن العلاقات الثقافية التي ربطت المغربين الأوسط والأدنى

بالمشرق عامة والبصرة خاصة ، وبالأندلس وأرض السودان الغربي ، قد غذت الفكر ، وساهمت في عمليتي التأثير والتأثر .

وتكاد تسكت مصادرنا عن عهد الامام الأخير ، اليقظان بن أبي اليقظان (294هـ - 296هـ) ، الذي لا يذكر عنه شيء ، وانما يصور ملكا مخذولا قاطعه أهله ، وبقي ينتظر أبا عبد الله الشيعي الذي بدأ يظهر على مسرح السياسة المغربية ، وبدأت دعوة العبيديين ، تتفاقم ، وتشكل خطرا على دول المغرب العربي القائمة آنذاك ، ثم فجأة يجتاح تيهرت ليضع حدا لتاريخها وحضارتها الرستمية ، ويورثها ليتخذها منطلقا في هجومه على سجلماسة ، حيث سيده عبيد الله المهدي مسجون هناك . وهكذا تطوى صفحة من تاريخ الجزائر الوسيط ، وتاريخ المغرب العربي عامة .

ومنذ سقوط الرستميين ، وهروب البعض منهم الى وارجلان ، وربما الى بعض المناطق الاباضية الأخرى آنذاك بعيدا عن تيهرت ، دخل الاباضية منعطفا خطيرا من تاريخ حياتهم . دخلوا في الكتمان والتقية ، بعد الظهور وأزهى العصور في المغرب العربي ، وانتبذوا لهم مكانا في مواطن جبلية أو صحراوية صعبة ، وأسسوا نظما اجتماعية وتربوية دقيقة ، حافظت على بقائهم الى يومنا هذا ، بل استمروا في الدعوة الى مذهبهم ، فاعتنقه أهل وادي ميزاب بصحراء الجزائر ، في القرن الخامس الهجري ، واستمر عليه أهل نفوسة بليبيا ، وأهل جزيرة جربة بتونس ، وأهل وارجلان بالجزائر ، ولا يزال الكل يحمل آمال الدولة الرستمية ، وينظر الى عصورها باعجاب ، يحمل ذكرياتها ويحتفظ بالسماح المذهبي ، والمسالمة الرستمية ، والتشدد الاباضي في الدين والعمل به ، ويتعلقون بالعربية كما كان أجدادهم ، ويقدسونها ويحتفظون بالمجلدات الاباضية في الفقه وأصوله ، والسير والطبقات وغيرها . إنهم بعبارة أخرى ، وعاء حضارة الرستميين الزاهرة ، ونتيجة من نتائجها ..

(ت 658هـ) : كتاب الحلة السيراء ، ط1 ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1963 .

- ابن أبي أصيبعة موفق الدين (ت 668هـ) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مطبعة الاقبال . دار الفكر ، بيروت ، 1377هـ/1957م .

- ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (حي في أواخر القرن 11) ، المؤنس في أخبار افريقية وتونس ط3 ، تحقيق محمد شمام ـ المكتبة العتيقة ، تونس ، 1387هـ/1967م .

- ابن الأثير عزالدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم (ت 630هـ) : الكامل في التاريخ ، دار صادر وبيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1385هـ/1965م .

- اللباب في تهذيب الأنساب ـ مكتبة القدسي ـ القاهرة ، 1357هـ .

- ابن بسام أبو الحسن علي الشنتريني (ت 542هـ) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، 1399هـ/1979م .

- ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 780هـ) : كتاب الصلة ـ مراجعة عزت العطار الحسيني ، مكتبة المثنى ، بغداد 1374هـ/1955 .

- ابن بطوطة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم (ت 703هـ) : رحلة ابن بطوطة ، دار صادر وبيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1384هـ/1964م .

- ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكي (ت 874هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك القاهرة . مطابع كوستاتسوماس ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ، 1963 .

- ابن تيمية أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ) : رفع الملام ء الأئمة الاعلام ، ط5 ، مؤسسة مكة للطباعة والأعلام ، مكة ، 96

- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، مطبعة المدني ، مكتبة دار العروبة القاهرة ، 1382هـ/1962م .

- ابن الجزرى شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت 833هـ) : غاية النهاية في طبقات القراء ، ط1 ، تحقيق برجستراسر ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1351هـ/1932م .

- ابن جميع أبو حفص عمر : مقدمة التوحيد ـ شرح : الشماخي أبو العباس والتلاتي أبو سليمان ، الجزائر ، ط2 ، 1392هـ/1973م .

- ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ) : تهذيب التهذيب ، ط1 ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الهند ، الدكن ، 1325هـ .

- ابن حزم أبو محمد علي بن سعيد (ت 456هـ) : ـ جمهرة أنساب العرب ـ تحقيق . ليفي بروفنصال ، دار المعارف مصر ، القاهرة ، 1948م .

- كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ، بغداد ، المطبعة الأدبية القاهرة ، 1377هـ .

- ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم مطبعة جول كربونال ، الجزائر ، 1346هـ .

- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي (ت 368هـ) : صورة الأرض ، ط2 ، مطبعة بريل ، ليدن ، 1938م .

- ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت في حدود 300هـ) : المسالك والممالك ، بريل ، ليدن ، 1889م .
- ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد (ت 776هـ) : أعمال الاعلام (تاريخ المغرب العربي العصر الوسيط) تحقيق أحمد مختار العبادي ، محمد ابراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1964م .
- ابن خلدون عبد الرحمن (808هـ) : - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، 1968م .
- المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، ط2 ، بيروت ، 1961م .
- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ) : وفيات الأعيان وأنباء الزمان - تحقيق احسان عباس دار الثقافة ، بيروت ، 1971م .
- ابن رستة أبو علي أحمد بن عمر (ت بعد 290هـ) : كتاب الأعلاق النفسية - مطبعة بريل ، ليدن ، 1891م .
- ابن سعد محمد كاتب الواقدي (ت 230هـ) : كتاب الطبقات الكبير تحقيق أدوارد سخو - مطبعة بريل ، ليدن ، 1905 ، 1918م .
- ابن سعيد علي بن موسى (ت 685هـ) : - المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف مصر ، 1953م .
- كتاب الجغرافيا ، ط2 ، تحقيق اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982م .
- ابن الصغير (حي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري) : أخبار الأئمة الرستميين - باريس 1908 (أنظر المراجع الأجنبية Moutylinski) .

- ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ) : فتوح افريقية والأندلس . تحقيق عبد الله أنيس الطباع مكتبة دار الكتاب للبناني للطباعة والنشر ، بيروت 1964 .
- ابن عبد ربه أبو عمر أحمد (ت 327هـ) : العقد الفريد ، ط3 ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1384هـ/1965م .
- ابن عذاري المراكشي أبو عبد الله محمد (ت في القرن السابع الهجري نهايته) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج ، س ، كولان وا. ليفي بروفنصال - دار الثقافة ، بيروت 1948 ، طبع في نيتيرلندس .
- ابن الفرضي أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف (ت 403هـ) : تاريخ علماء الأندلس ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، 1966م .
- ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني : مختصر كتاب البلدان ، طبع بريل ، ليدن ، 1302هـ .
- ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ) : الامامة والسياسة وهو المعروف بتاريخ الخلفاء ، ط2 ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، 1377هـ/1957م .
- ابن القوطية أبو بكر محمد القرطبي (ت 367هـ) : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين بيروت ، 1957م .
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الانصاري (ت 711هـ) : لسان العرب المحيط ، اعداد يوسف الخياط - نديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، بيروت ، 1970م .

- أبو زكرياء يحي بن أبي بكر (ت 471هـ) : كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق اسماعيل العربي ، اصدارات المكتبة الوطنية الجزائر ، 1399هـ/1979م .
- أبو زكرياء يحي بن أبي الخير الجناوني : كتاب الوضع ، تعليق أبو اسحاق ابراهيم أطفيش ، ط1 ، مطبعة الفجالة الجديدة (بلا مكان وتاريخ الطبع) .
- أبو عمار عبد الكافي الاباضي (ت قبل سنة 570هـ) : كتاب الموجز (آراء الخوارج الكلامية) تحقيق عمار طالبي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1398هـ/1978م .
- أبو غانم الخراساني (حي في نهاية القرن الثالث الهجري) : المدونة الكبرى ، ترتيب وتحقيق وشرح أطفيش محمد بن يوسف ، دار اليقظة العربية ، سوريا ولبنان ، 1394هـ/1974م .
- أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت 732هـ) : تقويم البلدان - تصحيح رينودو وآخرين - طبع دار الطباعة السلطانية باريس 1840م .
- أبو مهدي عيسى بن اسماعيل (ت 613هـ) : جواب أبي مهدي عيسى ، طبع بالمطبعة العلمية الحجرية بتونس ، 1321هـ ضمن مجموعة كتب « الرد على العقبي » .
- الادريسي الشريف (ت 548هـ) : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - تحقيق هنري بيريس ، الجزائر ، 1957م .
- الاصطخري ابن اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت في النصف الأول من القرن 4) : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال ، دار القلم ، القاهرة 1381هـ/1961م .

- الأصفهاني أبو الفرج (ت 356هـ) : كتاب الأغاني ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، 1959 .
- البرادي أبو القاسم محمد بن ابراهيم (القرن الثامن الهجري) : الجواهر المنتقاة في اتمام ما أخل به كتاب الطبقات ، طبع حجرية قسنطينة 1302هـ .
- البغدادي عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ) : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ط1 ، المطبعة الأميرية بولاق ، (بلا تاريخ الطبع) .
- البغدادي عبد القادر بن طاهر (ت 429هـ) : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، ط3 ، دار الآفاق الجديدة بيروت ،1978م .
- البكري أبو عبيد الله (ت 487هـ) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، جزء من كتاب المسالك والممالك ، مكتبة المثنى بغداد ، مطبعة الحكومة ، الجزائر ، 1857 .
- البلاذري أبو الحسن أحمد بن يحي (ت 279هـ) : فتوح البلدان تعليق رضوان محمد رضوان ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1959 .
- الجربي محمد أبو راس (ت 1222هـ) : مؤنس الأحبة في أخبار جربة ، تحقيق محمد المرزوقي ، المطبعة الرسمية ، تونس 1960م .
- الجيطالي أبو طاهر اسماعيل بن موسى (ت 750هـ) : قواعد الاسلام ، ط1 ، تحقيق بكلي عبد الرحمن بن عمر ، المطبعة العربية غرداية ، الجزائر ، 1976م .
- الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح (ت 488هـ) : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، ط1 ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1372هـ/1953م .

- الحميري محمد بن عبد المنعم (ت 727هـ) : كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط2 ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، 1980م .

- الدباغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الانصاري (ت 696هـ) : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، ط2 ، أكمله وعلق عليه أبو الفضل القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت 839هـ) تحقيق محمد الأحدي أبو النور وآخرين ، مطبعة السنة المحمدية مكتبة الخانجي ، مصر ، 1968م .

- الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد (ت حوالي 670هـ) : كتاب طبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق ابراهيم طلاي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1394هـ/1974م .

- الربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي الأزدي البصري (ق 2هـ) : الجامع الصحيح ، ترتيب الشيخ أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني تحقيق وتصحيح الشيخ نورالدين السالمي ، ط2 ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1349هـ .

- الرقيق القيرواني (ق 5هـ) : تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، مطبعة الوسط ، تونس ، 1387هـ/1967م ،

- الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن (ت 379هـ) : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط1 ، طبعة أمين الخانجي الكتبي ، مصر ، 1373هـ/1954م .

- السبكي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت 771هـ) : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، عبد الفتاح محمد الحلو ، ط1 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1383هـ/1964م .

- السمعاني أبو سعد عبد الكريم بن محمد (ت 562هـ) : الأنساب ، تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، ط1 ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الدكن ، الهند ، 1383هـ/1963م .

- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ) :

- تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين الحميد ، ط2 ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1378هـ/1959م .

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ط1 ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ، 1384هـ/1965م .

- الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 928هـ) : كتاب السير طبع حجري ، قسنطينة ، الجزائر ، 1301هـ .

- الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ) : الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1400هـ/1980م (أعيد طبعه بالأوفست) .

- الضبي أحمد بن يحي بن أحمد (ت 599هـ) : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبع روخس مجريط ، 1884 .

- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ) : تاريخ الرسل والملوك تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ، 1960م .

- تفسير الطبري : تحقيق محمود محمد شاكر ، أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، 1960م .

- القابسي أبو الحسن علي (ت 403هـ) : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ، ط2 ، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1955 .

- القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري (ث 671هـ) : الجامع لاحكام القرآن - أعادت طبعه بالأوفست دار احياء التراث العربي ، بيروت ، 1372هـ/1952م .

- القزويني زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1380هـ/1960م .

- القفطي جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت 646هـ) : انباه الرواة على انباه النحاة ، ط1 ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1371هـ/1952م .

- القلهاتي أبو عبد الله محمد بن سعيد الأزدي (حي في أوائل القرن 4هـ) : الكشف والبيان - تحقيق سيدة اسماعيل كاشف ، مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، 1400هـ/1980م .

- القيرواني أبو العرب بن أحمد بن تميم (ت 333هـ) : طبقات علماء افريقية وتونس - تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي ، الدار التونسية للنشر ، 1968 .

- المالكي أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله (ت 453هـ) : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية ، ط1 ، تحقيق حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1951م .

- الماوردي أبو الحسن بن محمد بن حبيب (ت 450هـ) : الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط1 ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، 1380هـ/1960م .

- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد (ت 285هـ) : الكامل في اللغة (باب الخوارج) ط2 ، دار الحكة ، دمشق ، 1972م .

- مجهول (القرن 6هـ) : الاستبصار في عجائب الامصار ، تعليق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، 1958 .

- المراكشي عبد الواحد (ت 647هـ) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العرياني ، ط1 ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، 1368هـ/1949م .

- المزاتي أبو الربيع سليمان بن يخلف (ت 471هـ) : كتاب السير ، طبعة حجرية ، تونس ، 1321هـ .

- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسن (ت 346هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط3 ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، 1401هـ/1981م .

- المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البنا (ت 388هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط2 ، مطبعة بريل ، ليدن ، 1906م .

- المقري أحمد بن محمد (ت 1041هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1388هـ/1968م .

- المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ) : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1367هـ/1948م .

- النديم أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق (ت 380هـ) : كتاب الفهرست ، تحقيق رضا - تجدد ، بلامكان الطبع ، 1391هـ/1971م .

- الوارجلاني أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم (ت 570هـ) : الدليل لأهل العقول ، المطبعة البارونية بطالون مصر ، الحجرية ، 1306هـ ،

- ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله (ت 626هـ) :
- المشترك وضعا والفترق صقعا ، ليدن ، 1846م .
- معجم الأدباء ، دار المأمون ، القاهرة ، 1355هـ/1936م .
- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، 1397هـ/1977م .
- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 284هـ) :
- البلدان ، ط3 ، النجف ، 1377هـ/1957م
- تاريخ اليعقوبي ، دار صادر للطباعة والنشر بيروت ، 1379هـ/1960م .

ثالثا - المراجع الحديثة :

- أبو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى :
- ديوان أبي اليقظان ، ط1 ، المطبعة العربية الجزائر ، 1350هـ .
- سليمان الباروني باشا في أطوار حياته ، المطبعة العربية الجزائر ، 1376هـ/1956م .
- احسان عباس : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن 9 الهجري ، ط1 ، دار صادر وليبيا للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1387هـ/1967م .
- أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ط5 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1956 .
- ظهر الاسلام ، مطبعة خلف ، القاهرة ، 1377هـ/1958م .
- أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي ، ط1 ، دار الكتب ، بيروت ، 1391هـ/1971م
- أطفيش أحمد بن يوسف (قطب الأئمة) (ت 1332هـ/1913هـ)

- رسالة ان لم تعرف الاباضية يا عقبي يا جزائري ، تصحيح قاسم بن سعيد الشماخي العامري وآخر ، بلا مكان الطبع 1328هـ .
- الإمْكَانُ فيما جاز أن يكون أو كان ، طبعة حجرية ، 1304هـ .
- ازالة الاعتراض عن محقي آل اباض ، طبعة حجرية ، 1231هـ .
- رسالة موسعة في تاريخ وادي ميزاب ، طبعة حجرية ، 1351هـ .
- الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد ، طبعة حجرية ، بلا تاريخ .
- الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل وادي ميزاب ، طبعة حجرية ، 1326هـ .
- ازهاق الباطل بالعلم الهاطل ، طبعة حجرية ، 1318هـ .
- أعوشت بكير سعيد : دراسات اسلامية في الاصول الاباضية ، دار البعث ط1 ، قسنطينة ، الجزائر ، 1402هـ/1982م .
- ألفريد بل : الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي (من الفتح العربي حتى اليوم) ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي ، 1969م .
- باجية صالح : الاباضية بالجريد في العصور الاسلامية الأولى ، دار بوسلامة ، تونس ، 1972م .
- الباروني أبو الربيع سليمان : مختصر تاريخ الاباضية ، ط2 ، تونس ، 1938م .
- الباروني سليمان بن عبد الله النفوسي : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ، مطبعة الأزهار البارونية مصر ، (بلا تاريخ) .
- الباروني عبد الله بن يحيى النفوسي : رسالة سلم العامة والمبتدئين الى معرفة أئمة الدين ، مطبعة النجاح ، مصر ، 1324هـ .
- بن يوسف سليمان بن داود : ثورة أبي يزيد جهاد لاعلاء كلمة الله ،

دار البعث ، قسنطينة ، ط 1 ، 1402هـ/1981م .

- بوعزيز يحي : الموجز في تاريخ الجزائر ، ط 1 ، دار الطليعة للطباعة ولنشر ، الجزائر ، 1965 .

- بوفيل أي دبليو : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، ترجمة زاهر رياض ، المطبعة الحديثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1968م .

- بونار رابح : المغرب العربي تايخه وثقافته ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981م .

- الجعبيري فرحات : نظام العزابة عند الاباضية الوهبية في جربة ، المطبعة العصرية ، تونس ، 1975م .

- الجنحاني الحبيب : دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 1980م .

- المغرب الاسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية (3 ـ 4هـ/9 ـ 10م) الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1977م .

- الجيلالي عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام ، مكتبة الشركة الجزائرية ، الجزائر ، ط2 ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1384هـ/1965م .

- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، ط2 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1958م .

- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط6 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1961م .

- النظم الاسلامية ، ط2 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1959م .

- حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية مكتبة المنار ، تونس ، 1964م .

- حكمت نجيب عبد الرحمن : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة الموصل ، 1397هـ/1977م .

- خليفات عوض : نشأة الحركة الاباضية ، جامعة الأردن ، عمان 1978م .

- النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتمان ، عمان ، الأردن ، 1982م .

- دائرة المعارف الاسلامية : انتشارات جهان - تهران - بوذر جمهري المواد : تاهرت - رستم (بنو رستم) - بربر - الزاب - السودان .

- دبوز محمد علي : تاريخ المغرب الكبير ، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ، 1383هـ/1963م .

- الدورى تقي الدين عارف : صقلية علاقاتها بدول البحر المتوسط الاسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي ، دار الرشيد ، بغداد ، 1980م .

- الراوي عبد الستار عز الدين : ثورة العقل دراسة فلسفية في فكر معتزلة بغداد ، دار الرشيد ، بغداد ، 1982م .

- رفعت فوزي عبد المطلب : الخلافة والخوارج في المغرب العربي (الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغالبة) ط1 ، بلا مكان الطبع 1393هـ/1973م .

- زامباور (المستشرق) : معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ترجمة زكي محمد حسن بك وآخرون ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ، 1370هـ/1951م .

- الزاوي طاهر أحمد : أعلام ليبيا ، ط1 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر ، 1381هـ/1961م .

- زبادية عبد القادر : مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971م .

- الزرو خليل داود : الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة ، ط1 ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، 1971م .

- زغلول عبد الحميد سعد : تاريخ المغرب العربي ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب ، دار المعارف ، مصر 1384هـ/1964م .

- السمائلي سالم بن حمود بن شامس السيابي : ازالة الوعثاء عن اتباع أبي الشعثاء . تحقيق سيدة اسماعيل كاشف - منشورات وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، 1979م .

- السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، العصر الاسلامي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981م .

- شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية - تونس الجزائر - المغرب الأقصى ترجمة محمد مزالي ، البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، 1398هـ/1978م .

- شاوش محمد بن رمضان : الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي طبع المطبعة العلوية ، مستغانم ، الجزائر ، 1385هـ/1966م .

- صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، نشأتها وتطورها ، ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1385هـ/1965م .

- صفر أحمد : مدنية المغرب العربي في التاريخ ، دار النشر بوسلامة ، تونس ، 1959م .

- طه حسين : الفتنة الكبرى ، دار المعارف ، القاهرة ، 1956م .

- العدوي ابراهيم أحمد : بلاد الجزائر ، تكوينها الاسلامي والعربي ، المطبعة الفنية الحديثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1970 .

- عويس عبد الحليم : دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ، ط1 ، دار الشروق ، بيروت ، 1400هـ/1980م .

- فيلالي عبد العزيز : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر . 1982م .

- الكعاك عثمان : البربر ، سلسلة كتاب البعث ، الكتاب الخامس ، ط1 ، بلا مكان الطبع ، 1956م

- موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري الى الاحتلال الفرنسي ، مطبعة العرب ، تونس ، 1344هـ/1925م

- محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب ، المطبعة الكمالية مصر ، 1958م .

- لقبال موسى : المغرب الاسلامي منذ بناء معسكر القرن حتي انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم) ط1 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1969م .

- الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي (نشأتها وتطورها) ط1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 .

- لوبون غوستاف : حضارة العرب ، تعريب عادل زعيتر ، ط3 ، دار احياء التراث العربي ، بيروت 1399هـ/1979م .

- لومبارد موريس : الجغرافيا التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ، ترجمة عبد الرحمن حميدة . دار الفكر دمشق 1399هـ/1979م .
- مؤنس حسين : فجر الأندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الأموية (711 ـ 756م) ، ط1 ، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ، 1959م .
- الجدوب عبد العزيز : الصراع المذهبي بافريقية الى قيام الدولة الزيرية تقديم علي الشامي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1390هـ/1975م .
- محمود اسماعيل : الخوارج في المغرب الاسلامي ، دار العودة ، بيروت ، 1976م .
- المدني أحمد توفيق : هذه هي الجزائر ، مكتبة النهضة المصرية ، 1956م
- كتاب الجزائر ، ط2 ، نشر دار الكتاب ، الجزائر ، دار المعارف مصر ، 1382هـ/1963م أو المطبعة العربية ، الجزائر ، 1350هـ .
- المصيربي عبد الله سالم بن حمد : العقود الفضية في أصول الاباضية لبنان ، (بلا تاريخ الطبع) .
- معمر علي يحي : الاباضية في موكب التاريخ ، الحلقة 1 ، نشأة المذهب الاباضي ، ط1 ، مطابع دار الكتاب العربي ، مكتبة وهبة القاهرة ، 1384هـ/1964م .
- الاباضية في موكب التاريخ ، الحلقة 2 ، الاباضية في ليبيا ، ط1 ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1384هـ/1964م .
- الاباضية في موكب التاريخ ، الحلقة 3 ، الاباضية في تونس ، ط1 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1385هـ/1966م .

- الاباضية في موكب التاريخ ، الحلقة 4 ، الاباضية في الجزائر ، مطبعة الدعوة الاسلامية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1399هـ/1979م .
- الاباضية بين الفرق الاسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، ط1 ، مطابع سجل العرب ، مكتبة وهبة ، 1396هـ/1976م .
- الميلي مبارك بن محمد : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ، 1350هـ .
- الميلي محمد وشريط عبد الله : الجزائر في مرآة التاريخ ، مكتبة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1965م .
- نويهض عادل : معجم اعلام الجزائر ، (من صدر الاسلام حتى منتصف القرن العشرين) ، ط1 ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، 1971م .
- هاشم مهدي طالب : الحركة الاباضية في المشرق العربي ، نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث الهجري . رسالة ماجستير في التاريخ ، جامعة بغداد ، 1977م .

رابعا ـ الدوريات العربية :

• مجلة الأصالة ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر .
- احسان عباس : المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين ، عدد 45 ، السنة الخامسة ، جمادى الأول 1397هـ/ ماي 1977م .
- بلغراد محمد : الحركة الاباضية في تاهرت وسدراتة وغرداية ، عدد 41 ، السنة السادسة ، محرم 1397هـ/ جانفي 1977م .
- بن يوسف سليمان داود : مجهودات الدولة الرستمية في نشر الحضارة

الاسلامية وتركيزها ، عدد 49 ـ 50 ، السنة السادسة رمضان شوال 1397هـ/ سبتمبر أكتوبر 1977م .

- البوعبدلي المهدي : لمحات من دور الدولة الرستمية في ميادين الحضارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين ، عدد 41 ، السنة السادسة ، محرم 1397هـ/ جانفي 1977م .

- سلفادور غومث نوغاليس : الرستميون قنطرة صلة بين الجزائر والأندلس من خلال الاباضية ، عدد 46 ـ 47 ، السنة السادسة ، جمادى الثانية ، رجب 1397هـ/1977م .

- عمرو خليفة النامي : ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري ، عدد 42 ـ 43 ، السنة السادسة ، صفر ، ربيع الأول 1397هـ/ فيفري ، مارس 1977م .

- فخار ابراهيم : دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب ، عدد 42 ـ 43 ، السنة السادسة ، 1397هـ فيفري ، مارس 1977م .

- وداد القاضي : ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ، عدد 45 ، السنة الخامسة ، جمادى الأولى 1397هـ ماي 1977م ، (طبع على الغلاف خطأ سنة 1975م) .

• مجلة التاريخ : المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر .
- عبد الحميد حاجيات : مبدأ الشورى في نظام الحكم بالمغرب العربي خلال العصر الوسيط ، عدد 12 ، 1982م .

• المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية ، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم تونس .
- الجنحاني الحبيب : تاهرت عاصمة الدولة الرستمية

(161هـ ـ 296هـ/ 777م ـ 909م) عدد 40 ـ 43 ، أفريل 1975م .

• مجلة سرتا : معهد العلوم الاجتماعية ، بجامعة قسنطينة ، الجزائر ، مطبعة البعث قسنطينة .
- فيلالي عبد العزيز : جوانب من العلاقات التجارية بين الرستميين والأمويين في الأندلس ، عدد 3 ، السنة الثانية ، رجب 1400هـ/ ماي 1980م .

• صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، مطبعة معهد الدراسات نفسه مدريد .
- أحمد مختار العبادي : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، م5 ، عدد 1 ـ 2 ، 1377هـ/1957م .
- محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، م5 ، عدد 1 ـ 2 ، 1377هـ/1957م .

• مجلة العربي الكويتية : الكويت
- مصطفى نبيل : عالم مزاب المسحور رحلة الى الصحراء الجزائرية عدد 286 ، ذو القعدة سبتمبر 1982م .
- فهمي هويدي : ذكر ما جرى للعلم الذي باض في مكة ونهض الى عمان ، عدد 293 ، افريل 1983م .

• مجلة المؤرخ العربي : الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب . بغداد العراق .
- فاروق عمر فوزي : ملامح من تاريخ حركة الخوارج الاباضية كما تكشفها مخطوطة الأزكوي . العدد الثاني ، 1975م .
- القابسي نجاح : المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الاسلامي ، عدد 19 ، السنة 1981م .

• مجلة المورد : دار الحرية للطباعة ، بغداد ، العراق .
- فاروق عمر فوزي : بيليوغرافيا في تاريخ عمان ، عدد 4 ، المجلد الثالث ، 1394هـ/1974م .

- المحاضرات :

- الثميني محمد : « مفهوم الشورى والديمقراطية في التاريخ العربي لدى الرستميين والجماعات المحلية بوادي ميزاب بالجنوب الجزائري » محاضرة ألقيت في المؤتمر البرلماني العربي الثاني - الجزائر 8 - 12 آذار (مارس) 1981م .

- الجنحاني الحبيب : « العلاقات السياسية والاقتصادية في افريقية والمغرب الأوسط فيما بين القرن الثاني والخامس للهجرة (8 - 11) للميلاد » محاضرة ألقيت في الملتقى الثاني عشر للفكر الاسلامي المنعقد بباتنة الجمهورية الجزائرية ، المحاضرة تحت رقم 46 سنة 1978 .

- دجال صالح بكير : معتمد الاباضية في الحديث مسند الربيع بن حبيب محاضرة الملتقى السادس عشر للفكر الاسلامي - تلمسان ، الجزائر 1402هـ/1982م .

- شريفي بلحاج : « التفسير ومناهجه عند علماء الاباضية » محاضرة ألقيت في الملتقى الخامس عشر للفكر الاسلامي المنعقد بالجزائر العاصمة سنة 1401هـ/1981م .

- المدني أحمد توفيق : « مدخل لدراسة الدولة الرستمية واسهامها في التطور الفكري والحضاري » محاضرة ألقيت في الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي المنعقد بوارجلان - الجمهورية الجزائرية سنة 1977م .

خامسا - المراجع الأجنبية :

- Basset Henri: Essai sur la Littérature des Berbères, Imp. Jules Carbonel, Paris, 1920.

- Basset René: Fastes Chronologiques de la Ville d'Oran, Imp. Paul Perrier, Ed. E. Leroux, Paris, 1882.

- Ben Romdhane Khaled: Les Monnaies Almohades, Aspects Idéologiques et Economiques, Thèse de Doctorat 3e Cycle, Université de Paris, 1978.

- Cherbonneau M.: Documents Inédits sur Obeid Allah, Fondateur de la Dydnastie Fatimide, traduit de la Chronique d'Ibn Hammad, Imp. Impériale, 1955.

- Cuperly Pierre: Professions de Foi Ibadite: Contribution à l'Etude de l'Ibadisme de sa Théologie, Université de Paris IV Sorbonne, Thèse de Doctorat d'Etat, Paris 1982.

- Dengel Gérard: l'Lmamat Ibadite de Tahert (761-909), Thèse de Doctorat 3e Cycle, Strasbourg, Université des Sciences Humaines, 1977.

- Despois Jean: Le Djebel Nefousa (Tripolitaine), Etude Géographique, Edit. Larose, Paris, 1935.

- Encyclopédie de l'Islam (E-I) Nouvelle Edition-Leiden E.J. Brill 1971. Matières: Halka, fikh etc.

- Laroui Abdullah: L'Historie du Maghreb (un essai de synthèse), Imp. Corbière, Petite Collection n° 134, Paris, 1975.

- Lewicki Tadeusz: Etudes Ibadites Nord Africaine, Partie I, Tasmiya Suyuh Gabal Nafusa. Wa-Qurahum, Contenue dans le "Siyar Al-Masaih" (VIe-XIIe. S), Warszawa, 1955.

- Une Chronique Ibadite "Kitab As-Sijar", Extrait de la Revue des Etudes Islamiques (E.I). Cahier L, Librairie Orientale, Paris, 1934.

- Mélanges Berbères Ibadites, Extrait de la Revue (E.I), Cahier III, Librairie Orientale, Paris, 1936.

- Marçais Georges: Manuel d'Art Musulman "L'Architecture", Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile du IXe au XIIe S., 1ere Edition, Auguste Picard, Paris, 1926.

- La Berbérie au IXe siècle d'après El-Yaquoubi, Extrait de la Revue Africaine (R.A) n° 386-387, 1er et 2e trimestre, Alger, 1941.

- La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen-Age, Imp. Typo-Litho, Edition Montaigne, Alger, 1946.
- Marçais G. et S., Gsell et G. Yves: Histoire d'Algérie, Ancienne Librairie Furne, Paris, 1927.
- Marçais G. et Charles Diehl: Histoire du Moyen-Age, Les Presses Universitaires de France, Paris, 1936.
- Masqueray Emile (Traduction): Chronique d'Abou Zakaria, Imp. de l'Association Ouvrière, Alger, 1878.
- Provençal Ellevi: La Vie Economique de l'Espagne Musulmane au Xe S., (Extrait de la Revue Historique), Tome CLXVII, Année, Imp. Daupeley, Paris, 1931.
  - Histoire de l'Espagne Musulmane, Imp. Durand-Leiden, T. I, 1950, Tome III, 1967.
- Reichelein Anne-Marie Abderrahim: Contribution à l'Etude de la Vie Sociale et Economique de la Communauté Ibadite du Mzab – Algérie – La Poterie Comme Expression Technique et Culturelle, Thèse de Doctorat 3e Cycle en Sociologie, Paris, 1980.

سادسا ـ الدوريات الأجنبية :

- André Nègre: La Fin de l'Etat Rustamide, Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb, Faculté des Lettres d'Alger, Imp. IPN, Alger, Juillet 1969.
- Basset René: Les Sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique (J.A), 9e Série, Tome XIII, Imp. Nationale, Paris, Janvier-Février 1899.
- Bekri Chikh: Le Kharijisme Berbère, Quelques Aspects du Royaume Rustumide, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales (A.I.E.O), Université d'Alger, Tome XV, Alger, 1957.
- Bouruiba Rachid: Tiaret Tagdempt de l'Emir Abdelkader, Majallat El-Tarikh, Centre National d'Etudes historiques, N° 4, Alger, Avril 1977.
- Canal J.: Tiaret (Monographie Ancienne et Moderne), Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran (S.G.A.O), Tome XX, Oran, 1900.
- Gautier E.F.: Considérations sur l'Histoire du Maghreb, Revue Africaine (R.A), 1er et 2e Trimestre, Alger, 1927.

- Hamadi Sammoud: Un Exégete Oriental en ifriquiya, Yahya Ibn Sallam, Revue IBLA, n° 126, Tunis, 1970.
- Lewicki Tadeusz: L'Etat Nord Africain de Tahert et ses Relations avec le Soudan Occidental à la Fin du VIIIe au IXe S., Cahiers d'Etudes Africaines (C.E.A), Vol. II, (8), Paris, 1962.
- Lombard Maurice: Les Bases Monétaires d'une Suprématie Economique, L'Or Musulman du VIIe au XIe S., Annales Economies Sociétés – Civilisations (A.S.E.C), 2e Année, n° 2, Paris-Avril-Juin, 1947.
- Marçais G. et Lamarre D.: Tihert – Tagdemt, Revue Africaine (R.A.), Tome XC, 9e Année, Alger, 1946.
- Moutylinski A. de C.: L'Aquida des Abadhites, Recueil de Mémoires et de Textes Publiés en l'Honneur du XIVe Congrès International des Orientalistes, Imp. Orientale, Alger, 1905.
  - Chronique d'Ibn Saghir (Traduction), Actes du 14e Congrès International des Orientalistes, Alger, 1905, 3e Partie, Paris, 1908.
- Schacht J.: Sur la Diffusion des Formes d'Architecture Religieuse Musulmane à Travers le Sahara, Travaux de l'Institut de Recherches Saharienne (T.I.R.S.), Tome XI, 1er Semestre, Alger, 1954.
- Vanacker Claudette: Géographie Economique de l'Afrique du Nord Selon les Auteurs Arabes, du IXe Siècle au Milieu du XIIe Siècle, in Annales Economies, Sociétés, Civilisations (A.E.S.C), 28e Année, N° 3, Mai-Juin, 1973, Imp. Armand Colin, Paris, 1973.

☆ **ملاحظة عامة حول المصادر والمراجع المعتمدة :**

توجد عدة مصادر ومراجع اعتمد عليها الباحث ولم يذكرها ضمن هذه القائمة ، واكتفى بذكرها في الهوامش لاغير...

وانظر مقدمة الطبعة الثانية

EXTRAIT*

Le califat omeyade finit en 132H/750G, et fut succédé par les Abbassides. Durant cette période qui commença avec le début du 2e siècle de l'hégire, le mouvement Kharedjite en Orient fit preuve d'une grande activité et fut porté à l'ouest par deux de ses sectes : l'"Ibadisme" et la "Souffriya".

Les peuples du Maghrib montrèrent un grand intérêt pour les deux sectes. Ils trouvèrent en eux une issue contre l'oppression de certains gouvernants. Ils commencèrent plusieurs révoltes depuis 122H, qui aboutirent à la naissance de deux états indépendants au Maghrib.

Ce document de recherche concerne l'étude de l'un de ces deux états : l'Etat Rostomide qui fut fondé en 160H/777G et se limite aux aspects politique, économique et culturel. Par conséquent, cette étude comporte trois parties et une introduction se rapportant à la situation au Maghrib antérieure à 160H/777 Grégorien.

La première partie concerne l'aspect politique et comporte quatre chapitres.

Le premier décrit le dogme Ibadite, sa naissance et ses croyances.

Le deuxième un essai pour déterminer une date approximative de la fondation de TIHERT : capitale des Rostomides.

Une approche de la personnalité de Abderrahmane Ibn Rostom fondateur de l'Etat, et de son origine persanne.

Le troisième concerne la situation politique générale de l'Etat Rostomide jusqu'à sa fin en 296H/909G sous les coups de Abou Abdallah Echii le Fatimide.

La seconde partie étudie la situation économique en 7 chapitres.

Le premier sur l'agriculture et l'élevage.

Le deuxième sur l'industrie et les différents métiers.

* ترجمه من الانجليزية إلى الفرنسية ، حمدي أبو اليقظان يحي

Le troisième détaille le commerce intérieur : marchandises, marchés, instruments de mesure et étudie la possibilité de l'existence d'une monnaie rostomide en or.

Le quatrième traite du commerce extérieur avec l'Orient et l'Occident arabes ainsi que les routes commerciales, l'import et l'export.

Le cinquième concerne spécialement le commerce avec le Soudan de l'Ouest (Afrique Noire) et étudie ses routes, l'import, l'export, ses difficultés et ses caractéristiques. Ce commerce était fructueux à cause de l'or et de la traite des esclaves dont la demande était importante.

Le sixième étudie les "Bouyout El Amwal" et Dar Ezzakat (le Trésor), ainsi que leurs revenus et leurs dépenses, mais les dates font défaut.

Le septième étudie "Al Hisba" et le niveau de vie.

La troisième partie étudie la vie culturelle en cinq chapitres.

Le premier démontre le rôle efficace ou (effectif) des gouvernants dans la vie culturelle.

Le deuxième concerne les institutions pédagogiques, leurs niveaux et leurs qualifications.

Le troisième étudie les sciences et les éminents savants, ce qui distingue l'histoire culturelle Rostomide telle que la jurisprudence, la logique des autres rites. Sont aussi traitées, aussi bien les langues Arabe et Berbère que les efforts déployés par les Rostomides pour arabiser les Berbères.

Le quatrième étudie le rôle de la femme dans la vie culturelle. Tandis que le cinquième et dernier chapitre concerne les relations culturelles avec les Etats du Maghreb et de l'Andalousie d'une part et, avec les Etats de l'Afrique Noire et de l'Orient arabe, d'autre part.

Enfin, l'étude se termine par un récapitulatif sur les plus importants faits de la civilisation Rostomide dans le Proche et Moyen Maghrib durant les second et troisième siècles de l'hégire.

Ibrahim

فهـرس الأعـلام

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ـ ن ـ

فهرس البلدان والأماكن

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

ن

هـ

و

ي

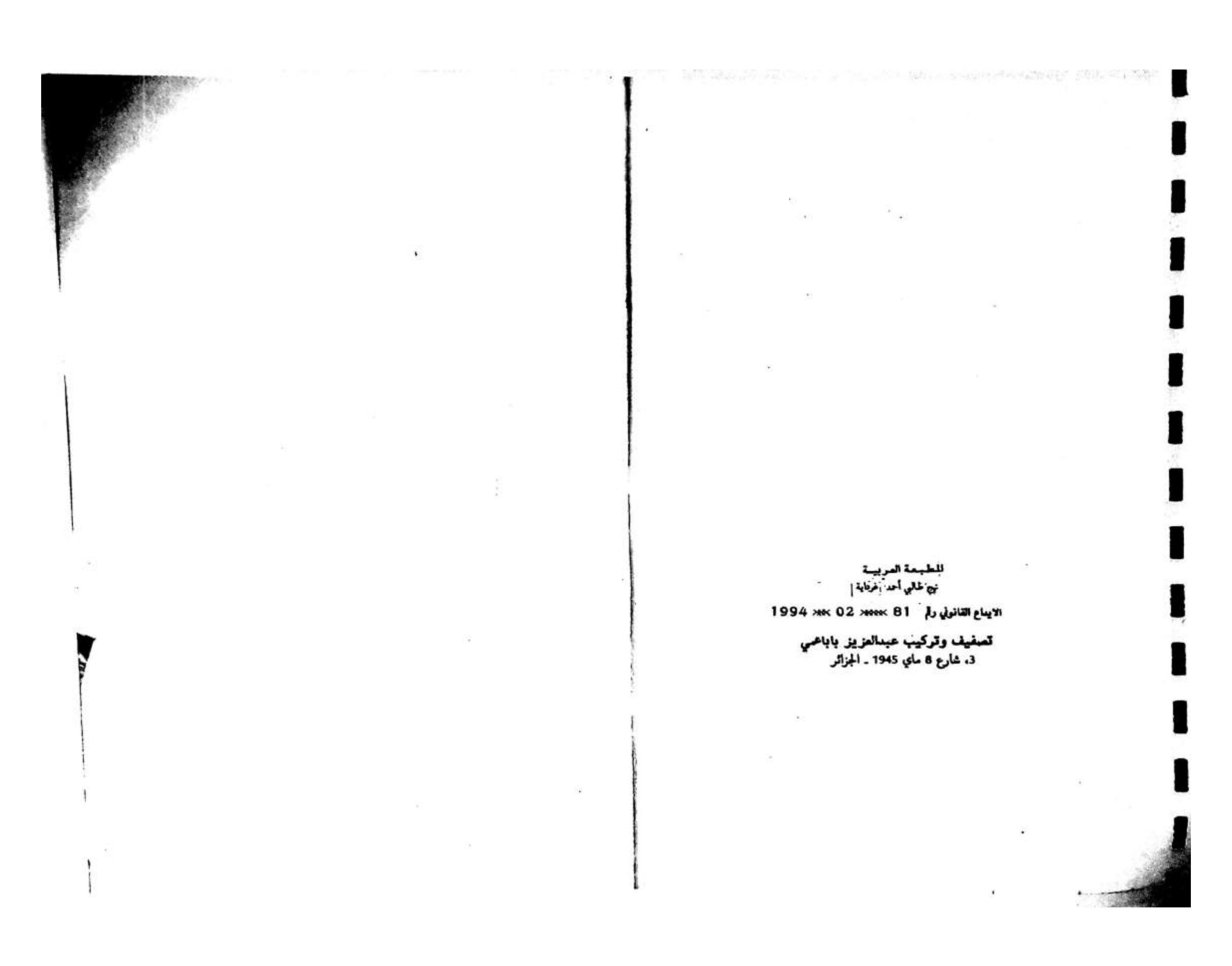
فهرس القبائل

فهرس المذاهب والأديان

أ

﴿ المحتويات ﴾

الباب الثالث :



للطبعة العربية

نهج خالي أحمد بوزريعة |

الايداع القانوني رقم 81 ××××× 02 ××× 1994

تصفيف وتركيب عبدالعزيز باباعمي

3، شارع 8 ماي 1945 ـ الجزائر